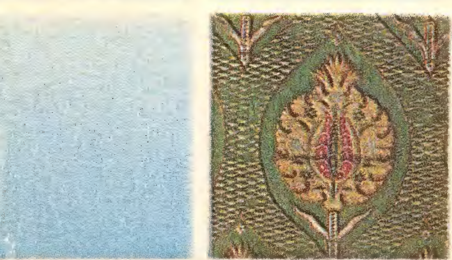
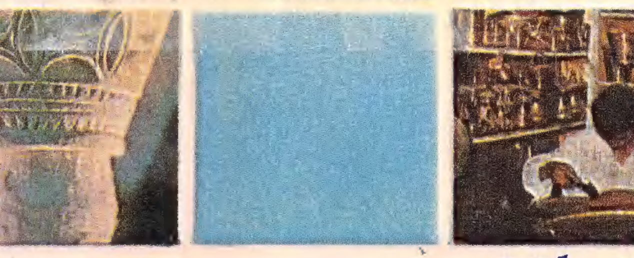
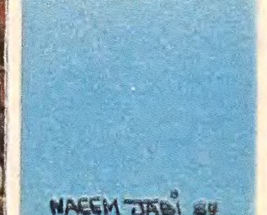
محمد سعيد القاسمي   جمال الدين القاسمي

خليل العظم

قاموس الصناعات الشامية

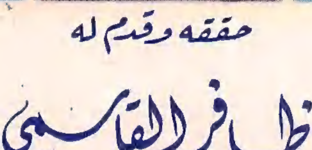







حققه وقدم له

ظافر القاسمي



كان ظافر القاسمي «١٩١٤ــ١٩٨٤م»، وهو محام مرموق ونقيب سابق، ابن سلسلة من العلماء، أغنوا المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات. وكان أكثر شغفاً بالأدب واللغة والتاريخ من أن تستنفذه حرفة المحاماة، فتقاعد وانصرف إلى العلم والتدريس في الجامعات، والمناظرة في المجالس الثقافية التلفزيونية، وأخرج كتباً كثيرة قيمة من تأليفه.

وقاموس الصناعات الشامية الذي وضعه كلّ من محمد سعيد القاسمي، وجمال الدين القاسمي، وخليل العظم، ونشره وحققه الحفيد ظافر القاسمي. ينقذ من النسيان ويصف ٤٣٧ حرفة عرفها الدمشقيون، في تسجيل دقيق وأمين تحيط به هالة من الصور الإنسانية، ترينا المجتمع الشامي في كل مزاياه ودقائقه وغمماته.

وقد وصف المستشرق لويس ماسينيون هذا الكتاب قائلاً: «إنه توق إلى الكمال في أدق التفاصيل. والاستيحاء من ألوانها القزحية، وانعكاسها في الزخارف العربية، هو السمة النفسية الخاصة لدى العامل في المنظمات الحرفية التي قوامها إتقان العمل والصدق والكسب الحلال».

كتاب يقرأ وتعاد قراءته، ويقتنى ويحفظ بعناية.

نجاة قصاب حسن





دمشق ــ أوتوستراد المزة

هاتف ٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١

تلكس ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

ريع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

قاموس
الصناعات الشاميّة

الطبعة الأولى
١٩٨٨

محمد سعيد القاسمي   جمال الدين القاسمي

خليل العظم



حققه وقدم له

ظافر القاسمي

حققه وقدم له

ظافر القاسمي

محمد سعيد القاسمي

قاموس
الصّناعات الشّاميّة

الجزء الأول

اتوجه بالشكر العميق الى الاستاذ لويس ماسنيون الذي كان له فضل الايحاء بطبع هذا الكتاب ونشره ، وكتب مقدمته .

واشكر معهد الدراسات العملية العليا في باريس الذي تولى نشر الكتاب .

واشكر الاستاذ الصديق جاك برك ، استاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس الذي شارك في جميع مراحل اخراج الكتاب ، مشاركة صادقة .

واشكر سماحة الأستاذين محمد بهجة البيطار ومحمد ناصر الألباني اللذين توليا تخريج احاديث الكتاب .

واشكر الاستاذ الصديق فيفمي الاتاسي الذي ساهم المساهمة الكبرى في نقل مقدمة الكتاب الى اللغة الفرنسية .

واشكر الاساتذة الاصدقاء انطون شلهوب ومصطفى البارودي ونجاة قصاب حسن وكامل عزيز الذين آزروني مؤازرة صادقة .

واشكر الانسة م. ن. دوفو التي وضعت فهارس الكتاب الفرنسية .

ظ . ق .

قاموس الصناعات الشامية

للاستاذ لويس ماسنيون

امام ناظري نسخة من «قاموس الصناعات الشامية» مؤرخة في التاسع والعشرين من ذي القعدة من عام ١٣٤٧ – ١٠/٥/١٩٢٨ ولقد حصلت عليها بفضل صداقتي لاسرة دمشقية نبيلة جدها هو مؤلف هذا « القاموس » .

ولقد اتيح لي ان اتفحص هذا المؤلف قبل احد عشر عاماً ، في المكتبة البديعة التي يضمها بيت تلك الاسرة وقد استعنت به في اعداد القسم المختص بدمشق من بحثي الواسع عن تنظيم العمل والعمال في المدن السورية في الوقت الذي بدات فيه النقابات تحل محل «المنظمات الحرفية» Corporations منطلقة في نزوع الشعب الى الاستقلال .

ويوم ينشر هذا القاموس الاجتماعي ، فلسوف يهدي الباحثين الى تنظيم مجموعات مصورة عن ادوات الحرفيين التقليدية ، ويوجه العمل على تاسيس متحف تاريخي للاساليب الفنية ، ثم لايكون هذا شانه فحسب بل انه يوحي بدراسات في علم النفس الاجتماعي ، وبتنظيم جداول للاحصاء المهني ، وبوضع مصورات طبوغرافية عن التوزيع التاريخي للمنظمات الحرفية .

وبفضل قاموس القاسمي ، استطعت من بين اكداس الوثائق التي جمعتها في سبيل التحقيق الذي قمت به بين ١٩٢٧ و١٩٢٩ ، ان استخلص مذكرة عن « تنظيم العمل في دمشق » وكان ذلك نموذجاً من التحقيق الاجتماعي التخطيطي Sociographie يقتصر على نوعين من الابحاث سبقت الاشارة اليهما :

اولهما جدول احصائي للحرف المنظمة وعدد عمالها واسماء شيوخها عام ١٩٢٧

والثاني اسس طبوغرافية عن مواقع الدكاكين والاسواق (وهي دراسة شرع بها ج . سوفاجه وتابعها ن . ايليسيف) .

وكانت قائمة القاسمي (وقد تضمنت ٤٣٧ حرفة) هي المعتمد في النشرة المقارنة التي قدمتها في سجل « النشرات الدولية في علم الاجتماع » سنة ١٩٥٣ (ص ٣٣—٥٢)، وقد ضمنتها كذلك قائمة الأوقاف التي وضعها السيد احمد القاسمي (١١٤) وقوائم مديرية الزراعة والمصالح الاقتصادية (٤٩) وغرفة التجارة (٤٢) وادارة التمتع (٢٠٧) حتى انتهيت الى القائمة التي وضعها الاستاذ جميل صليبا عن « المنظمات الحرفية المستقلة فعلا » وهي خمس وثلاثون منظمة تحولت ست عشرة منظمة منها الى نقابات .

ولقد قمت بدراسة مقارنة للحواضر الاسلامية تتبعتها متنقلا منذ اكثر من اربعين عاماً بين فاس والقاهرة وبغداد واستانبول واصفهان ودلهي ودمشق ، واذا أصالة دمشق المتميزة تثب أمام عينيّ ، ففي دمشق نما خيال الصناع المبدع وتنوع أكثر ما يكون النمو والتنوع وبأكثر ما يمكن من التلون والدقة .

ولقد اشار غاندي في عام ١٩٤٧ الى ما اكتسبته مدن الهند ، ودلهي خاصة ، من الرهافة الفنية ، والى ان الفضل في ذلك انما كان على وجه التحديد لما بلغته الصناعة الاسلامية من اتقان .

ان هذا التوق الى الكمال في ادق التفاصيل ، وفي الاشكال التي لاتجسم الا بقدر ، دونما سعي الى محاكاة الحياة ، ولكن في الاستيحاء من انعكاسها والوانها القزحية ، في الزخارف العربية (الإرابيسك) وفي الخط النسخي ، وذلك من خصائص الفن الاسلامي ، انما يبدو في دمشق بوجه خاص . وهو ايضاً سمة النفسية الخاصة للعامل في المنظمات الحرفية في الاسلام ، وهي ان قوام العمل الاتقان والصدق ، لانه يخضع الى ميثاق بين رفاق ، هو دستورهم ، والى اسعار عادلة تجعل اللقمة التي يكسبها الرجل لقمة حلالاً .

واذ تفحصت احد عشر صنفاً من الحرف الدمشقية التي بلغت ٤٣٧ حرفة كما عددها القاسمي فقد جعلت حرفة الماء في المقدمة . ولم يكن ذلك لأن « من الماء كل شيء حي » (القرآن) فحسب ، بل لأن ماء بردى هو قوام الحياة الاجتماعية في دمشق ، وطوائفه التي يشرف عليها الفرضي والشاوي ويصلح ما تعطل منها القساطلي ، وهي تستتبع ثماني حرف اخرى يعرض القاسمي في قاموسه آلاتها وطرق عملها .

ان ماء بردى ينحدر من الربوة منذ الازل ، وعندها ينقسم قنوات ثمانياً . والمثل الدمشقي(١) يذكرنا بالربوة بقوله : اصعد الى الربوة يا من تريد

---

(١) لم نهتد الى نص هذا المثل . ولسنا ندري مصدر الاستاذ ماسنيون الذي اخذه عنه .

الاستمتاع بالشام ، اصعد هضاب قاسيون وانظر كيف تتفرع قنوات بردى حتى تنتهي الى الغوطة ، اذا ما شئت أن تدرك كيف يتجمع الصناع حوله .

وفي هذا تغنى « جلال الدين الرومي » ذات يوم[1] :

اذا عصفت بك الآلام فاصعد لتبلغهـا وفي الأضلاع شوق
فترمق عنـد ربوتها دمشقاً هنالك تفتن الـرائي دمشق

ذلك بأن « الرومي » يقول مع « شمس تبريز » نحن لدمشق عشاق ، وبها مفتونون متيمون .

وكذلك كان القاسمي من عشاق المدينة التي رات عيناه فيهـا النور ، والحياة المتواضعة التي تحياها جمهرة صناعها بين قاسيون والغوطة .

لويس ماسنيون

---

(1) البيتان من صياغة الدكتور مصطفى البارودي .

محمد سعيد القاسمي

ولد محمد سعيد بن قاسم القاسمي الشهير بالحلاق في أوائل محرم الحرام ١٢٥٩ ــ أوائل شباط ١٨٤٣ .

كان ابوه فقيه الشام وصالحها في عصره . نشأ في حجره ، واخذ عنه العلوم الشرعية والفنون العربية ، وحضر عليه دروسه كلها .

شرع في حفظ القرآن الكريم ، وعمره دون سبع سنين ، وحفظ قرابة نصفه . وكان والده يقرأ الدرس العام بين العشائين في جامع السنانية ، فكان ولده معيداً له ، الى أن توفي عام ١٢٨٤ . ثم تولى بعد أبيه قراءة الدرس العام الى آخر حياته . وتولى خطبة الجمعة في جامع حسان قرابة عشرين عاماً .

قرأ على اعلام عصره ، وقد ذكر ولده جمال الدين من أساتذته المشايخ : محمد الطنطاوي ، وسليم العطار ، ومحمد المنير ، وعمر العطار ، وسعيد الأزهري النابلسي البصير وغيرهم .

عرف عنه انه كان عصبي المزاج ، خفيف الظل ، كثير المرح ، حلو الصوت ، له معرفة بالموسيقى وانغامها ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، كثير الانزواء عن اكابر زمانه ، لايلبي دعواتهم ، ولا يغشى مجالسهم الا في الندرة النادرة .

اشتغل مطلع حياته بالتجارة ، فكان له دكان في « العصرونية » ظاهر الجامع الأموي ، تباع فيها الأدوات المنزلية ، ثم تركها وانصرف الى العلم ، يقرأ ويقرىء ويكتب ، وينسخ الكتب النافعة بخطه الجميل . وكانت ادوات كتابته ومطالعته جنب فراشه .

زار بيت المقدس وحج الى بيت الله الحرام عام ١٣٠١

اشار ولده جمال الدين في ترجمته التي قدم بها ديوان شعره الى عقيدته فقال :



محمد سعيد القاسمي



جامع السنانية

وهو الجامع الذي كانت الامامة والتدريس فيه لمحمد سعيد القاسمي
ومن بعده لولده جمال الدين

« مال اخيراً لمذهب السلف الصالح ، وترك التعصب في المسائل الخلافية ، واخذ بما صح ، ودعا للحق ، مع اعتدال في المشرب » .

وفي هذه الاشارة الرقيقه بقوله « اخيرا » دليل على تأثير الولد على والده ، في الاتجاه الفكري السليم الذي سعى اليه جمال الدين حياته كلها .

كان فقيهاً غلب عليه الادب ، ومزاج الادباء ، فجانب خشونة المشايخ ؛ وتنكب طريقهم في الدعوة ، فلم يتشبث بما اعتاص من اساليبهم ؛ وما جف من طرائقهم ، فكانت مجالسه منوعة الاحاديث ، كما كانت دروسه كثيرة الاستطراد . ذكر ولده جمال الدين انه قرا « الجامع الصغير في درسه العام خلال ستة عشر عاماً ، في وقت كانت قراءة الكتاب لا تستغرق مع اكابر العلماء اكثر من عامين » ، وذلك « لما تتجاذب اليه أطراف الاحاديث الشريفة من الاحكام الشرعية والآداب واللطائف والمناسبات » . وقد اعانه على ذلك ذوقه الادبي ، وحسن ادائه .

لم يخل شعره ، كما لم تخل مجالسه من شيء من المجون والهزل والفكاهة ، اكد هذا ولده بقوله : « ومع هذا فتواضعه في نفسه ، واطراحه مع اصحابه ، ومجونه معهم ، امر يقضي منه العجب » . وقال بصدد شعره : « اجاد جده ، واحكم هزله . . . اكثر من ابتكار النوادر ، وتلطف في المجون بكل معنى نادر » .

اما شعره ، فقد قاله في عصر الانحطاط ، في وقت كانت فيه دواوين الفحول مطوية ، لم يعرفها الا القلة من الادباء . ومع هذا ففيه دليل على الفطرة الصحيحة ، والسليقة الشعرية الرقيقة . ولو قدر له أن يطلع على ما نشرت المطبعة في هذا الزمان من دواوين ائمة الشعراء ، لأفاد كثيراً من المعاني والالفاظ والاساليب . وبالرغم عن هذا فانه لم يقتصر على الفنون التي درج شعراء زمانه على قول الشعر فيها ، وانما تعداها الى غيرها ، مما يدل على فكره المولد الذي لم يجمد على التقليد .

فلقد قال الشعر في المديح والتهاني والتاريخ والفخر والعتاب والاخوانيات . كما قاله في وصف الشتاء ، وفي اخلاق المداهنين ، وفي العلم والجهل ، وفي الحج والزيارة ، وفي اغنياء السوء البخلاء . وله قصيدة في مدح التمثيل المسرحي ومبدعه ابي خليل القباني ، وفي تجديده للموسيقى العربية ، ورفع لوائها .

ولقد سمعت من عمي قاسم القاسمي انه نظم لأبي خليل القباني قصيدة مدحه فيها ، وضمن كل بيت منها اسم نغم من الانغام الشرقية كلها ، فلحنها ابو خليل ، وفقاً لاسم النغم ، وغناها ، فكانت آية الآيات في عصرها ، ولكني لم اعثر عليها في الديوان .

وقد ترك خمسة مؤلفات :

١ ـ هذا الكتاب . وقد افضنا في الكلام عليه في البحث الخاص من المقدمة .

٢ ـ ديوان شعره ، وقد سماه ولده جمال الدين : « الطالع السعيد في ديوان الوالد محمد سعيد » .

٣ ـ « الثغر الباسم بترجمة العلامة الشيخ قاسم » . قال في مقدمته :

« حثني على ذلك ولدي محمد جمال الدين ابو الفرج ، فاجبته لما طلب واراد » .

٤ ـ « سفينة الفرج فيما هب ودب ودرج » ، وهو مجموع على نحو الكشكول .

٥ ـ « تنقيح حوادث دمشق اليومية » نشرته كليه الآداب في جامعة عين شمس عام ١٩٥٩ بتحقيق الاستاذ الدكتور احمد عزة عبد الكريم .

وخلف أربعة اولاد وبنتاً . فأما البنت فقد تزوجها صهره خليل العظم الذي شارك في وضع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

واما اولاده فهم : جمال الدين ، ومحمد عيد ، وقاسم ، والدكتور صلاح الدين . وقد نشرت آثار الأخير منهم الذي لم يعش الا تسعة وعشرين عاماً وبضعة اشهر في كتاب قدم له وحققه الاستاذ محب الدين الخطيب عام ١٩٥٩

توفي صباح الجمعة ٢٣ شوال ١٣١٧ ـ ٢٣ شباط ١٩٠٠ ، وقد عطل علماء دمشق دروسهم العامة في الجامع الأموي ثلاث ليال حداداً عليه .

ظافر القاسمي

الصيـــاعة

الصناعة قديمة في العالم قدم الانسان . لايعرف لها ابتداء ، مثلهـا في ذلك مثل كثير مـن الشؤون التي نشأت مـع الغريزة ، ثم تطورت بالعقل والارادة . ولعل أول صناعة مارسها الانسان ، على ما جـاء في الكتب المقدسة ، ما فعله آدم وحواء ، يوم أخذا يخصفان عليهما مـن أوراق الجنة ، اذا ذهبنا مذهب من رأى أن تدارك الانسان للباس يستر عورته انما هو نوع من الصناعة . فالغريزة ــ قبل العقل والارادة ــ هي التي أوحت للانسان بأن يعمل ، ولعلها في هذا التعليل ، أقوى وأثبت من آثار الانسان الاخرى ، كما أقر ذلك علماء النفس الحديث .

كذلك أقر علماء « الانسان الابتدائي » أن الانسان الأول انما سعى الى رزقه ومسـكنه ولباسه وسلاحـه بدافع الغريزة . فبحث عن الصيد يأكل لحمه ، وعن الكهف يأوي اليه، وعن جلود الحيوانات يكتسي بها ، وعن الحجـارة يقتنيها ليدافع بها عـن نفسه ضد وحوش البر ، وضد جيرانه من البشر . وذلك دون سبق تعليم من أحد . وهـذه صناعات أوحت بها الضرورة والحاجة ، ولم يكتسبها الانسان بالتلقين .

وقد ذهب السيد الجرجاني في كتابه « التعريفات » هذا المذهب ، فأقر أن « الصناعـة ملكة نفسانية » ، ولا يعني هـذا التعبير الواضح الا أنها أثر من آثار الغريزة .

ومن العلماء من ذهب الى أن منشأ الصناعة يعود الى شرارة الذكاء الاولى التي انقدحت من فكر الانسان . فقالوا [١] :

٧٥ « الصناعة قديمة قدم الانسان . ان تاريخها يرجع الى شرارة الذكاء

(١) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى ، مادة Industrie ــ جزء ٢٠ ــ ص٧٥٩ .

الاولى التي انقدحت مــن فكره ، حيث فكر في الاستفادة من الحاجـات المحيطة به لاستعماله ، بأن اخضعها الى تحويل ما ، او فكر في اجتنائها » .

« فالصناعة نشات منذ شعور الانسان بلزوم استخدام المواد بقوة عقله وذراعيه (١) » .

لا بل ذهبت دائرة المعــارف الفرنسية الكبرى الى أبعد من هــذا ، فرأى الاستاذ « شارنه » M. Charnay الذي وضع بحث Industrie الى أن الحيوان قد شارك الانسان في الصناعة ، وأنها ليست حصرا على الانسان فقال (٢) :

« ويمكن ان يقال ايضا ان الصناعة ليست ملكا حصريا للانسان » :

« ان بعض الحيوانات ، في سبيل الدفاع عن نفسها ، او في سبيــل البحث عن قوتها ، دلت على صفات من الاتقان والثبات ، وبرهنت على تقدم في المدنية . ان النمل والنحل وضعت عمليا مبدأ توزيع العمل ، الذي ما زالت تجهــله حتى اليــوم بعض الجماعات . ان « القندس » Castor تبني عـلى ضفاف الانهار بيوتا أمتن من اكواخ الطين التي يبنيها السكان الأصليون في افريقيا واوقيانوسيا . ان هذه الأعمال أعمال صناعية بالبداهة ، لاننا نجد فيها ما نجد عند الانسان من التصميم والتنفيذ » .

تعاريف :

قالوا في تعريفهـــا :

« الصناعة حرفة الصانع . وعمله الصنعة (٣) » .

« والصناعة في عرف العامة هي العلم الحاصل بمزاولة العمل ، كالخياطة والحياكة ونحوهما ، مما يتوقف على المزاولة والممارسة . وعند الخاصة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . ويكون المقصود منه ذلك العمل ، سواء حصل بمزاولة العمل كالخياطة ونحوها أو لا ، كعلم الفقه والمنطق والنحو والحكمة العملية ، مما لا يحتاج في تحصيله الى مزاولة الاعمال . وقيل : كل عــلم مارسه الانسان حتى صار كالحرفة له يسمى صناعة . وقيل : الصناعــة اسم للعلم الحاصل من التمرن على العمل ، او هو ملكة يقتدر بها على استعمال موضوعات ما ، لنحو غرض مــن الاغراض ، صادرا عــن البصيرة بحسب الامكان . .

---

(١) دائرة معارف البستاني ، مادة « صناعة » .

(٢) جزء ٢٠ — ص ٧٥٩ .

(٣) القاموس المحيط .

« والصناعة هي كل ما اشتغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه. فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان ينحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينهما . فقال : الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لاتحتاج اليهما . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صَنَاع اليدين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة(١) » .

« والصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية . وقيل : هي العلم المتعلق بكيفية العمل(٢) » .

« كل علم مارسه الرجل ، سواء اكان استدلاليا او غيره ، حتى صار كالحرفة له ، فانه يسمى صناعة . وقيل : كل عمل لايسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب اليه . وقيل : الصُنعة ــ بالفتح ــ العمل . والصناعة قد تطلق على ملكة يقدر بها على استعمال المصنوعات على وجه البصيرة لتحصيل غرض من الأغراض » .

« والصَناعة ــ بالفتح ــ تستعمل في المحسوسات . وبالكسر في المعاني . وقيل : بالكسر حرفة الصانع . وقبل : هي اخص من الحرفة ، لانها تحتاج في حصولها الى المزاولة(٣) » .

وللافرنج في ذلك أقوال :

« فان كلمة Industrie في الافرنجية التي يراد بها الآن الصناعة ، لم يكن يراد بها في الأصل الروماني الا العمل على الاطلاق ، واشغال قوى الانسان بالحذق والنشاط . ولا يزال الانكليز يستعملونها بهذا المعنى . اما الفرنساويون فيقولون في تعريفها : انها استعمال القوى العقلية والجسدية ، لاستخدام المادة لمنفعة الانسان . ومنهم من توسع فيها فاطلقها على الفنون والعلوم(٤) » .

وفي دائرة المعارف الفرنسية الكبرى (٥) :

« لكلمة (صناعة) معان متعددة . وهي في معناها الواسع مرادفة الى : العلم بالعمل Savoir faire ، روح الاختراع ، الاتقان ، والمهارة في عمل

(١) عيسى اسكندر المعلوف : صناعات دمشق القديمة ــ محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ــ الجزء الاول ــ ص٢٨١ ، ويلاحظ انه قد اقتبس عن البستاني الفاظه دون الاشارة اليه.

(٢) تعريفات الجرجاني ص ٥٨ ــ المطبعة الخيرية ــ ١٣٠٦

(٣) كليات أبي البقاء ، ص ٢٢٠ ــ المطبعة الاميرية ــ ١٢٨١

(٤) دائرة معارف البستاني .

(٥) مادة Industrie ــ الجزء ٢٠ ــ صفحة ٧٥٨

شيء معين . والرجل الصانع Industrieux ، هو رجل ذكي ، وقادر وماهر في تحصيله معاشه من الظروف Habile à tirer partie des circonstances او انه خبير فقط في ممارسة مهنته ، او فنه ، او حرفته . وان هذه الكلمة تعني اخيرا جميع الفعاليات البشرية التي غايتها الحصول على المنفعة ، من جميع العمليات التي تتصل في انتاج الثروة » .

وفي دائرة المعارف البريطانية ما يشبه هذا التعريف (١) .

وقال علماء الأخلاق والاجتماع : الصناعة هي كل عمل شريف يؤدي فيه الفرد خدمة للمجتمع . وانما عنوا بالشريف كل ما لم تحظره الآداب والأخلاق العامة ، والنظام العام ، ولم يقصدوا به ما كان مهينا في نظر فئة من الناس .

تطور الصناعة

يدل التتبع التاريخي على أن الصناعة بدأت فردية ، قبل أن يعرف الناس نظام الاجتماع ، وبعد أن عرفوه الى مدى لايمكن تحديده على الضبط . فيوم كان الانسان يعيش وحده ، كان يتدارك جميع حاجاته بنفسه ، دون معونة أو تعاون . وبقي الانسان على هذه الحال بشكل نسبي ، حتى بعد أن عرفت المجتمعات البشرية على سطح الأرض .

ولقد ثبت بالأدلة التي قدمها لنا علماء الآثار أنه :

« لدى الجماعات الابتدائية تتجمع كل الاعمال في نفس الأيدي . فالانسان فيها مزارع وصانع وتاجر . انه يقلم الخشب ليصنع منه السهام ، ويهيء الجلود ليغطي نفسه بها ، ويستخدم ريش الطيور والألوان ليزين جسمه ووجهه . انه يذهب الى الصيد والقنص ، ويحارب جيرانه(٢) » .

ثم لا يلبث الانسان أن يحس بالحاجة الى الاستقرار ، لما يرى فيه من الراحة التي يميل اليها بطبعه ، ولما يسعى اليه من الطمأنينة التي كانت سبب تقدمه ورقيه ، فتهديه غريزته ومشاهدته الى امكان استنباط خيرات الأرض ، ثم يرى امكان الاستعانة ببعض الحيوانات الأليفة ، فينتفع من صوفها ولبنها ، كما ينتبه الى كنز الأرض ومعادنها .

---

(١) مادة Hand Craft

(٢) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى - جزء ٢٠ - ص٧٦٢

« ثم يصبح حضريا ، انه يفلح حقلا ، فيستخرج منه قوته ، ويربي القطعان التي تزوده بصوف ثيابه . انه يصنع ادواته بنفسه ، وترتقي ادواته شيئا فشيئا ، فيكشف النحاس والحديد ، والمعادن الثمينة . ان هذه الاعمال جميعا صناعات [1] » .

« كلما ابتعدنا في الصعود الى تاريخ البشرية نرى الانسان يجهد في الاستفادة من الاشياء التي تزوده بها الطبيعة لاستعماله الشخصي . كان يصنع سلاحه من الحجارة ليدافع بها عن نفسه ، كما كان يصنع ملابسه من جلود الحيوانات ليغطي نفسه بها ، وكان يصنع من غصون الأشجار كوخه ليلجأ اليه في الليل . وبعدئذ تعلم استخدام المعادن من النحاس والحديد . وفي كل اكتشاف كان يحسّن ادواته ، وكان يصبح اكثر مهارة وقوة في صراعه مع العوامل الطبيعية [2] » .

لقد بقي الطابع الفردي مميزا للصناعة في العصور السحيقة ، بالرغم عن ميل الانسان للاستقرار وسعيه اليه .

ولقد نشأ التعاون ، أول ما نشأ ، في البيت الواحد ، وفي كنف الأسرة الواحدة ، حيث كان التعاون طبيعيا دفعت اليه عواطف الزوجية والأبوة والبنوة كما دعا اليه الاضطرار . وأخذت الأسرة الواحدة في الاهتمام بحاجاتها من قبل أفرادها .

« ولهذا كان كل بيت معملا صناعيا تنسج فيه الملابس ، وتستخدم فيه آلات البناء البسيط وتعمل فيه آلات الطبخ والصيد والقنص [2] » .

ولعل ما نراه اليوم في بعض قرى الشراكس التابعة للقنيطرة ، من تضامن الزوج والمرأة والأولاد على العمل ، وحرصهم على الاستغناء عن غيرهم ، وقيام الرجل بالفلاحة والنجارة والبناء أحيانا ، وعمل المرأة في نسج ثياب زوجها وأطفالها ، هو أثر من آثار طبيعة المجتمع الأول ، وهو البيت ، الذي قامت على أساسه المجتمعات الكبرى .

وحينما أخذت الأسرة الواحدة بالتفرق ، وعرف الناس معنى العمومة والخؤولة ، والقرابة بصورة عامة ، ونشأت الجماعات ، وأخذ العمران

---

(١) دائرة معارف البستاني ـ مادة : صناعة

(٢) المصدر السابق .

يبسط جناحيه على الأرض ، ازداد شعور الحاجة الى التعاون ، وأخذت الاشغال في الانقسام .

« ونشأت الحرف ، وكثر التبادل بالمعمولات ، واشتغل اصناف من الناس بحرف مختلفة ، علمتها كل فرقة منهم لابنائها ، فكان من ذلك تفرق المحترفين الى طوائف ، إضحت الصناعة فيها وراثية ، بحيث بقي ابن الحداد حدادا ، وابن النجار نجارا ، وهلمجرا . .(١) » .

« ويغلب على الظن ان هذا الاختصاص هو الذي ادى الى احتكار بعض الصناعات في بعض البلدان ؛ فقد عرف في تاريخ الصناعات ان بعض الأسر كانت لاتعلم صناعتها الا لابنائها ، وتحجبها عن سواها وحدث ان انقرضت بعض هذه الأسر ، فانقرضت معها أسرار صناعتها ، وزالت من الوجود .

« ولما قامت المجتمعات المنظمة ، وانتشرت المدنية في أكثر اقطار الارض؛ وازدادت علاقات الناس توثقا وتشابكا ، وترقت الصنائع بالاختراع والتحسين؛ زال هذا الحصر في القرون الأخيرة وتعددت انواع الصنائع الى ما لا نهاية له(١) » .

الصناعة ومبدأ توزيع الاعمال

ان الصناعة بمعناها الصحيح ، لم تعرف الا في الوقت الذي عرف فيه الانسان مبدأ توزيع الأعمال . ومن البدهي أن كل صناعة لابد لها من أعمال مختلفة متعددة ، كما أن كل صناعة يقتضي لها أنواع من الأعمال تختلف عن الصناعات الاخرى . وعلى هذا فان مفهوم الصناعة الحديث — يدوية أو آلية — انما نشأ يوم أخذ كل انسان ينصرف الى عمل أصلي لا يتعداه، واذا كانت له مشاركة في أعمال أخرى، فلا تعدو هذه المشاركة الالمام دون الاتقان .

« وليس في التاريخ صراحة في تعيين الزمن الذي نشا فيه توزيع الحرف . ويظهر ان التفريق بينها كان معروفا منذ بنيت بابل ، وشيد هيكل سليمان ، حيث كان البناؤون بنائين والنقاشون نقاشين ، وقس عليه . وقد حذا اليونان والرومان حذو الامم السالفة بهذا التقسيم حتى قيل ان « سولون » أعظم مشترعي اليونان ، و « توما » أعظم مشترعي الرومان ، هما اللذان وضعا لأمتيهما دستوراً لأصناف المحترفين(١) » .

---

(١) المصدر السابق

« ولم توجد الصناعة بالمعنى الصحيح ، الا حينما ظهر الاختصاص . اي : حينما اختص الانسان بعمل معين ، بدلا من ان يمارس على التتابع جميع الصناعات الضرورية . ان الصناعة وليدة تقسيم العمل . وان الشعوب العريقة في التقدم ، والعريقة في الصناعة هي الشعوب التي قسمت فيها الاعمال بشكل كامل . ولا بد لهذا من شعب كثير العدد نسبيا ، حتى يتمكن كل انسان من الاختصاص في عمل من الأعمال [1] » .

وقد أشار الى هذا المعنى أبو البقاء في كلياته حين قال [2] :

« قيل : كل عمل لا يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب اليه» .

أخذت الصناعة هذا المفهوم الحديث ، بعد أن مصرت الأمصار . وبعد أن عرف الناس الحياة الاجتماعية المنظمة ، القائمة على أن الجماعة كلٌ ، يتمم بعضه بعضا ، ويعمل الافراد فيه بروح التضامن . وهم يعلمون أن لاغنى لفريق عن فريق . وأن بقاء المجموع رهن بتعاون المجموع .

ان الصناعة الحديثة مدينة في تقدمها ورقيها الى مبدأ توزيع الاعمال، فهو الذي أدى الى الابتكار والابداع ، فقد كان من مقتضياته حصر الجهد العقلي في أمر معين وهذا ينتج بالبداهة الاتقان والاحكام .

رقي الصناعة وانحطاطها

مرت الصناعة في العهود القديمة بادوار متعددة ، أدت الى رقيها أو انحطاطها كما أن الظروف السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها كانت من أكبر عوامل الرقي والانحطاط .

ولقد عرف التاريخ عهدا كانت فيه الصناعة مهنة مزدراة ، كان ذلك على الغالب ، لدى الجماعات الابتدائية الفطرية ، التي لاتقيم وزنا للحياة الحضرية . ولعل من أوضح الأمثلة على هذا ما عرف عن عرب الجزيرة في العصر الجاهلي ، قبل الاسلام ، فلقد كانوا قوما يكرهون الصناعة ، ويحتقرون أربابها . وقد كان أهل اليمن أسبق من عرب الجزيرة الى الحضارة ، والى اكتساب وسائل المدنية والأخذ بأسباب الرقي والتقدم .

(١) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى .

(٢) ص ٢٢٠

فقد عرفوا الحياة الحضرية بأوسع معانيها ، كما تدل على ذلك آثارهم الباقية حتى اليوم ، ومنها السدود الجبارة الناطقة عن جهدهم في العمران، كما عرفوا قبل الاسلام صناعة النسيج ، وأفانين من اللهو . وكان هذا كله لايروق لعرب الجاهلية ، ولايرونه شيئا يوجب تعلق الانسان به ، بالقياس الى ما كانوا فيه من الغزو والفروسية والشعر والفخر وما الى ذلك مما هو منسجم مع طبيعة الحياة البدوية . ولهذا قالوا عن أهل اليمن قولتهم الشهيرة :

« مافيهم الا ناسج برد ، أو راكب عرد ، اولاعب قرد(١) » .

ولقد أكد هذا الرأي المرحوم أحمد أمين حيث قال :

« فأما البدو، فكانوا ولا يزالون يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة(٢)» .

ولقد استمر هذا المفهوم الى ما بعد الاسلام، بالرغم عما حمل الاسلام الى الأمم التي دخلت فيه من عناصر الحياة الحضرية وعوامل الرقي .

فقد قيل ان قوما من اليمن فخروا على مضر ، في مجلس الخليفة ، وكان خالد بن صفوان حاضرا ، فأمره أن يجيبهم قال :

« وما أقول يا امير المؤمنين لقوم ، هم بين حائك برد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد ، ملكتهم امرأة ، وغرقتهم فارة ؟! (٣) » .

وذكر المأمون أصحاب الصناعات فقال :

« السوقة سفل ، والصناع انذال ، والتجار بخلاء ، والكتاب ملوك على الناس(٤) » .

ولم تشذ أكثر الأمم الاخرى عن هذه المفاهيم ، فقد كان اشرافها يترفعون عن العمل ، وينعمون بالعيش المترف الرغيد. بينما كانت الطبقات الاخرى — من غير الاشراف — هي التي تعمل في جميع الصناعات .

---

(١) حفظت هذه الجملة بهذا النص عن استاذي العلامة المغفور له الشيخ عبد القادر المبارك خلال أحد دروسه في تجهيز دمشق، مكتب عنبر ، عام ١٩٢٨ ، ووردت في العقد الفريد بنص آخر أوردناه بعد قليل .

(٢) فجر الاسلام ص٩ — الطبعة السابعة .

(٣) العقد الفريد ج٤ ص٤٦ طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

(٤) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ ص١٢٦ — مطبعة السعادة — ١٩١٢

يدل على هذا ما جاء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى [1] :

« ان تاريخ الصناع قد مر في المراحل التي مر بها تاريخ العمال ؛ فقد كانوا موضع احتقار في العالم ، وسحقتهم مظالم الاقطاع » .

الا أن هـذه الحال لم تستمر الا للقرن الثالث عشر الميلادي — في فرنسا خاصة — فنهض الصناع من رقدتهـم ، ولموا شملهم ، واحكموا أمرهم ، وألفوا لهم منظمات ، أخـافت الدولة في كثير مـن الظروف والاحيان ، مما حملها على حل هذه المنظمات ، تفاديا لاخطارها ، وتقليصا لنفوذها . ففي دائرة المعارف نفسها [2] :

« ان الصناع نهضوا حوالي القرن الثالث عشـر . ويمكن ان نرى في كتاب (الصناعات) الذي وضعه ايتين بوالو Etinne Boileau ، كم كان نفوذ المنظمة التي ألفوها قويا : لقد كانوا يؤلفون مع المدربين عندهم دولة داخل الدولة . . . . . » .

والظاهر ان بعض الامم قد نظر الى الصناعة نظرة أخرى ، اما لانها قد ضربت بسهم أوفر في المدنية ، أو لأن طبيعة حاجاتها كانت تقتضي أن ينظر الى الصناعة النظرة التي تستحقها من التقدير والاحترام . فقد أشار البستاني في دائرة المعارف الى هذا ، دون أن يبين المصدر الذي نقـل عنه قال :

« وقد كانت الصناعة في الامم الغابرة على درجات متفاوتة من الاحترام والامتهان . والظاهر انه كان لها شان يذكر في ليـديا ، وسائر بلاد آسيا الصغرى . وفيها ضربت — على ما يقال — النقود الاولى . ومن المشهور ان بابل اشتهرت بطنافسها ، وصور بأرجوانها واصبغتها ، واثينا بنسج الملابس ، وزخرفة الرياش . ولكنه ليس في التاريخ ما يشير اشارة صريحة الى منزلة المحترفين بهذه الصنائع . ويؤخذ من كتابات هوميروس ان السيد والعبد كانا يشتغلان معا في الصناعة المنزلية [2] . . . » .

ويغلب على ظني انه بالرغم عن هذا السند التاريخي الهام — كتابات هوميروس — أن عمل السيد والعبد ، لم يكن على قدم المساواة ، وانما كانت الاعمال المرهقة على عاتق العبد ، وكان عمل السيد منحصـرا في

---

(۱) سادة Artisan

(۲) دائرة معارف البستاني .

الاشراف والتوجيـــه . واذا وقعت المشاركة ، فان مشاركة السيد كانت في الحدود الهينة اللينة ، التي لاتنضح عرقا ، ولا تورث تعبا ولا قلقا . هذا اذا صحت رواية هوميروس . والادلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

كانت الحروب تؤدي الى تقهقر الصناعات ، لأنها كانت تودي بكثير من ذوي المواهب والخبرة والاتقان . وقـــد مرَّ على البشرية فترة كانت الحروب فيها تحصد الناس حصدا ، فلا تبقي ولا تذر ، تحرق المـــدن ، وتخرب المزارع ، وتقتل الرجـــال ، وتسبي النساء والاطفـــال ، وتترك ما وراءها خرابا يبابا .

« الجهل والحرب متلازمان . ان احدهما يولد من الآخر ، ويستمران . ان التاريخ العام يعلمنا ان أكثر الشعوب تعلقا بالسلام هي الشعوب الاكثر تقدما في الذكاء ، وان فترات الهدوء ترافقها دوما نهضة صناعية (١) » .

ولقد كان نظـــام الرقيق من جـــلة العوامل الكبرى التي أدت الى تقهقر الصناعة .

« لما توالت الحروب والغزوات ، وكثرت الأرقاء ، وكان الانسان ميالا بالطبع من جهة الى الراحة ، ومن جهة اخرى الى الرفعة والمنفعة ، اخـــذ الأسياد يلقون عبء مشقة الاحتراف على عاتق الأرقـــاء ، وينصرفون الى التفنن بأساليب الحرب والكفاح ، فانحط شأن الصنائـــع بانحطاط شأن المشتغلين بها ؛ وانحطت الصناعة نفسها ايضا ، لأن الرقيق الذي لا أمل له بجر مغنم أو كسب فخر من صنع يديه ، لا يستخدم قوى عقله لاتقان مهنته .

« ويؤخذ من تاريخ رومية أنه مضت عليها مئات من السنين ، لم يشتغل فيها بصناعتها الا الأرقاء . ولهذا قل اتقان المصنوعات في آخر عهد مـــن الجمهورية ، وأوائل الامبراطورية فكان ارباب الترف واليسار يضطرون الى اتخاذ مصنوعات البلاد الشرقية في منازلهم (٢) ...» .

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى — جزء ٢٠ ص ٧٦٢

لقد كانت هذه النظرية حقيقة علمية تاريخية ثابتة لدى جميع المحققين والمفكرين ولا أدل على ذلك من ان دائرة المعارف الفرنسية الكبرى تقرها في طبعتها لعام ١٨٩٢ . اي حتى نهاية القرن التاسع عشر ، لا بل بقيت هذه النظرية قائمة حتى اوائـــل القرن العشرين فلما شبت الحرب العالمية الاولى وتبين ان للعلماء دورا كبيرا في الخدمات التي يؤدونها الى الدول المتحاربة وأكدت ذلك الحرب العالميـــة الثانيـــة انقلبت هذه النظرية رأسا على عقب ، واصبح العـــلم والحرب متلازمين .

(٢) دائرة معارف البستاني .

على أن الحرب لم تكن في التاريخ شرا محضا ، وانما حملت بين الكوارث والآلام ، والدماء والدموع ، في بعض الأحيان ، بعض الخير ، قل أو كثر . ولا جرم في أن تمازج الأمم قد أدى الى تمازج الثقافات ، والى انتقال كثير من العلوم والفنون والصناعات وغيرها من بلد الى آخر ، ومن أمة الى أخرى[1] . كما أدى هذا التمازج الى ابتكار في الانتاج ، وتحسين للنسل ، وارتقاء في كثير من مناحي الحياة .

ويبدو أن انتقال الرقيق ، الذي كان نتيجة من نتائج الحروب ، قد أدى الى انتقال كثير من الصناعات المجهولة لدى الجيوش الغازية . كما أن الفاتحين قد استطاعوا أن يكتسبوا من الأمم المغلوبة كثيرا مما عندها ، بتعلمها ، أو بنقل أربابها ، أو بغير ذلك من الوسائل الاخرى . كان هذا واضحا في تاريخ الفتوحات الاسلامية ، كما كان واضحا في تاريخ الحروب الأخرى .

يقول ولهوسن : Wellhausen

« ان اكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي ، وكان هؤلاء الموالي يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان اكثرهم فرساً في جنسهم وفي لغتهم ، جاؤوا الكوفة اسرى حرب[2] ... » .

وقال عامر بن عبد القيس عن الموالي :

« يكسحون حراقنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحوكون ثيابنا[2] » .

ان الحروب الصليبية قد أدت كثيرا من الفوائد الى المدنية الأوربية الحديثة . ولا نستقصي هنا ما قاله المؤرخون في هذا المعنى ، وانما نكتفي بأن ننقل ما ورد في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى حول هذا الموضوع الخطير[3] :

« ان الحروب الصليبية ادت الى تلاقي الشرق والغرب . نحن عيال على المدنية العربية بعدد عديد من رقينا ، ولا سيما صهر الحديد ، والمبادىء

---

(1) راجع الفصل الممتع الذي عقده احمد امين في كتابه فجر الاسلام — ج1 — ص84 : الفتح الاسلامي وعملية المزج بين الامم .

(2) المصدر السابق ص 92

(3) ج 20 — ص 762

الأوليـة للكيمياء ، والترقيم . ان مراكز صناعيـة كبرى قـد انشئت ، واختراعات قد تضاعفت . أن صناعات الغالات ، والابنوس ، جددت طرائقها في خدمة الأبنية الدينية . ان جميع الصناعات اليدوية قد أحرزت تقدما عظيما ... » .

وأضافت دائرة معارف العلوم الاجتماعية البريطانية الى هـذا أن الحروب الصليبية كان لها الفضل في نقل صناعة نسيج الحرير الى أوربا[1] :

وهكذا نرى أن الحروب قد أدت الى ارتقاء الصناعات وانحطاطها ، في وقت معا ، وذلك حتى أوائل القرن العشرين . أما الحربان الأخيرتان فانهما وان كانتا قد أودتا بكثير من رجـال العلم والفكر والصناعة ، الا أنهما قد أدتا الى ارتقاء عظيم في جميع مرافق الحياة . ولا يدري الا الله ماذا يمكن أن يكون مصير الحروب القادمة ، هذا اذا وقعت !!

وقد ذهب محمد سعيد القاسمي الى أن للدولة وقوتهـا شأنا في الصنائع وكمالها قال :

« ان البنائين يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال ، باعتبار الدولة وقوتها . فالصنائع وكمالها انما هو بكمال الحضارة ، وكثرتها بكثرة الطالب لها . فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في أول امرها تفتقر في امر البناء الى غير قطرها ؛ كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينـة والقدس ؛ ومسجده بالشام ، فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء ، فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد [2] » .

الصناعة خلال العصور

وضع المؤرخون أدوارا للبشرية ، صنفوا على ترتيبها مراحل المدنية التي مر بها الانسان . فقالوا : عصر ما قبل التاريخ ، العصر الحجري .. الخ .

وتدل العاديات والآثار المحفوظة حتى اليوم أن الانسان قـد عرف منذ العصر الأول ، وهو العصر الحجري ، الصناعة الدقيقة ، التي لا تختلف في كثير من مظاهرها وحقائقها عن الصناعة الحديثة ؛ سواء أكان ذلك من حيث الأدوات ، أم من حيث الأهداف التي كانت تتعرض لاستخدامها .

(1) ج ٧ — ص ٦٨٤ مادة Industrial Art

(2) ج ١ ص ٥٤ من هذا الكتاب .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

مؤلفات الرحالة اليها ، منذ أقـدم العصور ، والآثـار المحفوظة . قال البستاني (١) :

« اما البلاد الشرقية كالصين ، فلا يعـلم شيء واضح عن تاريخ سـير الصناعة فيها . ولكنه ثابت كل الثبوت ، ان صناعتها قديمة العهد . وقد كانت جارية منذ القـدم على سنن اضمن لارباب الصنائـع ، فكانوا اكثر اختراعا وتفننا في مصنوعاتهم من امم المغرب . وحسـبك دليلا مخترعاتهم الكثيرة ، واستئثارهـم بها ازمانا كالبارود وصناعة الخزف . وقيل ايضا : صناعة الطباعة ».

أما العصور الحديثة فقد تعددت فيها الصناعات وتنوعت على شكل لم يعد « يسعه عقل عاقـل » على حد تعبير محمد سعيد القاسمي ، في كتابه الذي بين يديك (٢) .

الصناعة والحرية

بدأ الانسان حيـاته حرا ، يصنع ما يشاء ، كيف يشاء ، ولما انتظمت حياة المجتمع وفرضت القيود على الأفراد ، لكثير من الاسباب الداخلية والخارجية ، والوضعية والذاتية ، وغيرها ، حدت حريته ، وأخـذ يعمل ضمن المقتضيات التي ألزمته بها الهيأة الاجتماعية ، بصرف النظر عن خيرها وشرها .

ولا شك في أن الانسان الأول بدأ صناعاته الاولى دون أن يعارضه أحد ممن حوله . ثم لما تكاثر الناس واجتمعوا ، ونظموا عيشهم فيما بينهم ، أخذت القيود في الظهور ، ولم يعد الناس أحرارا فيما يصنعون ويحترفون .

فلقد أدت المنافسة بادىء ذي بدء الى أن يقتل القـوي الضعيف ، والى أن يقضي المتقن على المهمل .

كما أدى نظام الطبقات الى فرض أعمال معينة على فئات من الناس ، لا يجوز لهم أن ينصرفوا الى غـيرها ، ولو كانوا أكثر ميلا لها ، أو أكثر حذقا بها .

---

(١) دائرة المعارف . مادة صناعة .

(٢) ج ١ - ٨٨

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون - على ما يظهر - يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لا يمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

الكتاب ؟ قال الاستاذ برك ــ والكتاب بين يديه يقلب صفحاته ــ :

ــ بلى يا سيدي ! وهل تقدمه الى القراء ؟ أجاب ماسنيون :

ــ يسرني ذلك كثيرا .

ثم التفت الي ماسنيون ، وقال : هل تأذن بذلك ؟ قلت :

ــ اني لأرحب بهذا كل الترحيب .

فقال للاستاذ برك :

ــ اتخذوا الترتيب اللازم للبدء في العمل .

استأذنني الاستاذ « فرنائد برودیل Fernand Braudel » رئيس القسم السادس في المدرسة العملية للدراسات العليا بطبع الكتاب، بكتاب مؤرخ في ١٩٥٨/٦/٢٤ وجهه الي ، فلم أتردد باجابته موافقا وشاكرا .

وبعد أن تراسلنا بشأن جميع الترتيبات التي يقتضيها طبع الكتاب ونشره ، وردني كتاب من وزير الثقافة والارشاد القومي مؤرخ في ١٩٥٩/٨/٦ يطلب الي فيه بحث موضوع الكتاب والتعاون على نشره. فأسفت لتأخر هذا الطلب، لسبق ارتباطي بطبعه مع المدرسة المشار اليها.

وخلال شهر شباط ١٩٥٩ قدم الاستاذ ماسنيون الى دمشق ، وقد زرته قبيل سفره ، واستغرقت زيارتي قرابة ساعة ، وقد سألني عما اذا كنت أنوي أن أضع للكتاب ملحقا مصورا لبعض الصناعات الباقية ، وأخذ يشرح لي فوائد هذا العمل ، وأنه من أسباب خلود الكتاب ، وحسّن لي النهوض به ، والانكباب عليه . فقنعت منه بصواب الرأي ، وكلفت صديقي الاستاذ روبين ملكي المحامي بأخذ الصور الملونة لما يمكن تصويره ، وهو جاد في عمله ، ونأمل بعد انتهائه من هذا العمل المتواصل الشاق أن يمثل الملحق المصور بأبهى حلة .

• • •

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون – على ما يظهر – يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

بوليصة شحن

في اليوم ...... ١٧٩٨ في اسكندرون

بسم الله ، وعلى نية الوصول بالسلام ، حمل اندريا فرندي في هذا المرفأ ، مرفأ الاسكندرون ، لامر السيد يوسف غنطوس كبه ، من التابعة العثمانية في حلب ، ولحساب وامر السادة انطون غنطوس كبه واولاده ، من التابعة العثمانية ، المقيمين في ليفورتو ، على المركب « لاكيكيا » المسمى ب « الدجنتي » ، وقبطانه « ميخائيل دي نيكولامارتومنيتش راكسو » ، وذلك لكي يشحن ويسلم في طريق سفره هذا في ليفورتو للسادة المذكورين انطون غنطوس كبه واولاده من التابعية العثمانية الاموال المذكورة والمحددة ادناه ، هي ناشفة وكاملة وبحالة جيدة وحاملة الماركة الموضوعة ادناه . وفي هذه الصورة يعد القبطان المذكور حين وصوله بالسلامة ان يسلم البضاعة المذكورة . وعن الناولون (اجرة الشحن) يؤدي اليه اثني بتزا عن كل طرد حاوي رفيع واربع بتزا ونصف مع ٨ — ١٠٠٠ من كل غالون سالم وزنه (٦٠ رطل) ، واربع بتزا مع ٨ — ١٠٠٠ عن كل قنطار نحاس وزنه (١٠٠ رطل) تدفع دفعة واحدة .

وبيانا لذلك توقع هذه البوليصة (وثيقة الشحن) مع الاخرى من قبل القبطان المذكور ، وبما انه لايعرف الكتابة ، وكل شخصا ثالثا بالتوقيع عنه . ونسأل الله ان يرافق هذه البضاعة لايصالها سالمة آمين .

التوقيع

البيـــان

بـالة	٣٣	اقول ثلاث وثلاثون بالة غزل ومنسوجات في حالة جيدة جدا
بـالة	٣	اقول ثلاث بالات حرير في حالة جيدة جدا
غالونات	١١	اقول احدى عشرة غالون وزنها قائمة ٧١٢ رطل
قطعة	٢٧٧	اقول مئتان وسبع وسبعون قطعة نحاس وزنها ٩٤٧ رطل وثلثي رطل
علبـة	٧	اقول سبع علب ماكولات وديك هنـدي مذبوح ومطبـوخ بدون اجرة

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لا يرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

كذلك عرفت هذه البلاد الصناعات الزراعية منذ أقدم العصور أيضا . ومن أهمها استخراج زيت الزيتون ، الذي عرف في سهل البلاد وجبلها وساحلها ، لأن شجر الزيتون يمكن أن يعيش وينجح في جميع المناطق سقيا وبعلا .

« ومما يؤكد لنا ان شجرة الزيتون كانت منتشرة في انحاء البلاد السورية ، ما يشاهد في هذه البلاد من بقايا معاصر الزيت ، ومن بقايا احجار الطواحين التي كانت تستخدم في الصناعة الزيتية ، والتي يرجع تاريخها الى عهد الفينيقيين . فهذه كلها ادلة بديهية على أن الأقوام الذين قطنوا في سورية قبل الميلاد بقرون كانوا يعلمون صناعة استخراج الزيت[1] » .

* * *

تضمن الجزء الأول من الكتاب مدخلا اعتبر فيه المؤلف أن نظام العالم متوقف على الصناعة ، وقد جاء مسجعا على طريقة المؤلفين في ذلك العصر ، ومقدمة في معنى الرزق والكسب ، اقتبسها عن ابن خلدون ، تضمنت النظريات الاقتصادية لهذا الفيلسوف الاجتماعي العظيم .

ثم أعقب المقدمة بثلاثة فصول :

١ ـ بحث في الأول منها « فضل الكسب والحث عليه » من الكتاب والسنة والآثار .

٢ ـ وذكر في الثاني « بعض آداب الكسب والمعاملة » : مقتبس من الأحكام الشرعية ، مؤيدة بالأدلة العقلية والتاريخية والأخلاقية .

٣ ـ وأشار في الثالث الى أمهات الصناعات .

وختم المقدمة بفائدة عن الفرق بين الصناعة والحرفة .

ان هذه المقدمة التي لم تتجاوز ثلاثين صفحة من الكتاب تدل على أن مؤلفه لم يكن رجل جمع وترتيب وتعقيب . ليس غير ، وانما كان أيضا رجل تفكير وتوليد ، على ما في العصر الذي ولد وعاش فيه من تأخر وانحطاط ، واقتباسه عن ابن خلدون ، بحد ذاته ، في زمان لم تعرف فيه

---

(١) الياس بطحيش ـ النباتات والصناعات الزيتية في الغوطة ودمشق ـ ص٢ (مكتبة جامعة دمشق) .

الا الكتب التقليدية الصفراء ، وتصنيفه مقدمة كتابه بهذه الأبحاث التي لم يحذ فيها حذو أحد من المؤلفين السابقين، وانما كان أبا عذرتها وصاحب فكرتها ، دليل على أنه رجل تحلى بالفكر المولد ، والذهن المتوقد .

ويدلف المؤلف بعد هذا الى الغرض الذي انتدب لـه .

ويصف في كتابه صناعات الشام أدق وصف وأوفاه كما كانت قائمة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

فهو وثيقة تاريخية هامة ، تتضمن تصويرا للصناعات الشامية: فحفظ ما كان يمكن أن يندثر ، وما اندثر بالفعل ، من أسماء وأوصاف كثير من الصناعات التي عاشت وعاش أهلوها في بلاد الشام .

والكتاب قد حاول احصاء الصناعات المعروفة في العصر الذي وضع فيه . ووضع لكل منها تعريفا وايضاحا للطريقة التي تزاول فيها الصناعة. ولقد اقتضى هذا جهدا ليس باليسير . فما كان لمؤلفي الكتاب الاحاطة بجميع الصناعات الشامية ، وطريقة مزاولتها وما تحتاج اليه من الآلات والأدوات ، وأسمائها الاصطلاحية ، ومواسمها ، وغير ذلك مما تراه في تضاعيف الكتاب وسطوره . وما كان هذا متيسراً ولا ممكنا الا بالاجتماع أحيانا الى أهل الصناعات أنفسهم ، والتعرف منهم الى طرائق صناعاتهم. والا بالانتقال أحيانا الى أماكن الصناعات أنفسها ، والاطلاع على الطريقة ووصفها ، ووصف آلاتها وذكر أسمائها .

وترى في الكتاب أسعار بعض الحاجات ، كما كانت معروفة بالعملة المتداولة في ذلك العصر . كما تلحظ فيه بيان أجور بعض الأعمال . فهو من هذه الناحية مصدر من مصادر تاريخ الحياة الاقتصادية في البلاد ، قد لاتظفر عن تلك الفترة بغيره من المصادر .

وفيه بعض المعلومات الزراعية التي ذهب ريحها أو كاد ، بسبب الرقي الذي طرأ على الزراعة وطرائقها .

ومن أهم ما تضمن هذا الكتاب أنه وصف الحياة الاجتماعية في البلاد على شكل لايمكن أن تجده في كتاب آخر ، فترى فيه مثلا وصفا للتهاليل

وايضاحا للطريقة التي كان يتبعها أهل الشام في اقامتها ، وما استتبع ذلك من العادات في أحزان الناس [1] . كما ترى فيه وصفا للسيارين [2] التي اعتادها أهل الشام ، وما جرى عليه الناس في الأعراس والأعياد وغير ذلك مما امتلأ به الكتاب .

وترى في الكتاب غرضا أصليا ، تكاد تلمحه في أكثر الصناعات التي تمر بك ، هو مزيج بين الدين والأخلاق ففيه تصحيح لبعض العقائد الفاسدة ، أو لبعض الأوهام التي شاع على أنها من الدين وهي ليست منه [3] . وما من عادة ذميمة ، أو خلق سيء أو تقليد كريه ، الا تعرض المؤلفون لذمه بكثير من الحماسة الاخلاقية ، أو للنهي عنه بحسية دينية واضحة .

فهو حين يبحث عن السائلين [4] ، يروي طرائقهم المقوتة ، ويعدد أحابيلهم بكثير من الازدراء والاشمئزاز ، بأسلوب أدبي لطيف ، ينم عن رغبة عميقة ، لا في خدمة التاريخ الاجتماعي وحده ، بل عن رغبة عميقة في خدمة المجتمع ، وتطهيره من هذه الأدران الخبيثة التي علقت به .

وقد انفرد هذا الكتاب بوصف ألبسة الرأس ، التي كانت شائعةقبل عصر المؤلفين ، والتي نسمع بها اليوم ، ولا نعرف معانيها . ونعتقد أنه لولا استقصاء هذا الكتاب لهذا الموضوع ، لما كان للناس أن يعرفوا كيف كان يعتمر أجدادهم من النساء والرجال [5] .

ومما يوجه النظر في هذا الكتاب أنه أشار الى أن بعض الصناعات لايتعاطاها الا اليهود أو النصارى [6] .

وزين الكتاب بكثير من الشعر والطرائف الأدبية ، وان لم تكن بالمستوى الذي عرف في هذا الزمان ، ولكنها دليل على الذوق الأدبي

---

(1) ص ٢٢٢
(2) ص ٢٠٥
(3) راجع ص ١٧٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٩٩ ، ٢٢٠ وغيرها .
(4) ص ١٧٧
(5) ص ٢٧٦ ، ٣٩٤
(6) ص ٢٣٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٤٨٦

الذي غلب على مؤلف الجزء الاول. كما أن فيه كثيرا من الفوائد اللغوية، كتصحيح بعض الالفاظ العاميــة ، أو ردها الى أصولها الصحيحة.[1]

وفي الكتاب فكاهات لطيفة ، وقصص طريفة ، تمر بالقارئ ، فيرتاح لها ، وينشط للمطالعة والاستزادة منها [2]

كما أن فيه تمجيدا للموسيقى وأهلها ، وتعريفا حلوا لها [3]

وفيه كذلك فوائد بيتية ، كان يمكن أن ينتفع منها أصحاب البيوت، تجدها مبثوثة في الكتاب هنا وهناك .

ولم يخل الكتاب من فوائد تاريخية نادرة ، قد لاتجدهــا في مصدر آخر ، كابتداء لبس الحذاء «كندرة»[4] ، «والتصوير »[5] والمسحر [6] وانشاء الخط الحجازي[7] وتاريخ التمثيل المسرحي في سورية[8] وغيرها .

ومن الابحاث الهامة التي تضمنها الكتاب نسبة بعض الضرائب التي كانت تستوفى من المواطنين[9] .

وقد أشاد المؤلفون بالمدنية والعلوم الحديثة في كثير مــن مواضع الكتاب ، ولا غرو ، فقد كانوا أسبق من العصر الذي عاشوا فيه . فهم ينهون عن التدجيل في الطب ، ويشيرون بمراجعة الأطباء المختصين[10]، وكذلك في الصيدلة والكحالة وغيرها .

وترى الاصطلاحات الأعجمية في كثير من صفحات الكتاب مبثوثة بألفاظها ، مما يدل على سرعة اقتباسهم لشؤون المدنية الحديثة .

---

(١) ص ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٠ ، ٢٧٠ وغيرها .
(٢) ص ٤٦٤
(٣) ص ٤٥٩
(٤) ص ٣٩٤
(٥) ص ٤٤٥
(٦) ص ٤٤٠
(٧) ص ٤٦٦
(٨) ص ٤٧٠
(٩) ص ٢٢٥ ، ٣١٠
(١٠) ص ٢٨٩

وتلحظ الدهشة من ظهور بعض الآلات الحديثة التي دخلت الى المجتمع الدمشقي قبل نحو ثمانين عاما . كآلة الخياطة التي « تسمى ماكينا ، وهي من اشغال الفرنج : ذات دولاب وآلات : مما يبهر العقول . . . والخياطة بها قد تعلمها كثير من نساء المسلمين(١) » .

ومن أهم ما في الكتاب تصوير للميول الفنية التي اتسم بها الشاميون: فهم في سهراتهم (الدور) ، مولعون بالموسيقى ، وكذلك في سيارينهم. أما شغفهم بالتمثيل الذي ظهر فجأة في جو دمشق عام ١٢٩٥ ، فقد جاوز الحدود « بحيث لو تاخر شخص عن الميعاد المضروب لم يجد محلا للجلوس ، واصبح الصانع الذي يعمل في يومه من الاجرة يصرفه على التفرج عليها ، ويترك أولاده وعياله يتضورون جوعا(٢) » .

والكتاب بعد هذا جدير بأن يدرس دراسة علمية منظمة عميقة: بحيث تصنف المعلومات التي ضمها تصنيفا يسهل الانتفاع منها ، حين الرجوع اليها . فما بين دفتيه من المعلومات الاقتصادية والمالية والاجتماعية والتجارية والأخلاقية والدينية وغيرها مما يتعلق بالعصر الذي وضع فيه: مادة أصيلة للباحثين والمؤرخين .

ظافر القاسمي

---

(١) ص ١٣١

(٢) ص ٤٧٠

وصف للمخطوطتين

في المكتبة القاسمية نسختان خطيتان من هذا الكتاب ، بقطع واحد :

الاولى – وجد في أول صفحة منها : « هذا الكتاب مسودة ، والمعول على مبيضته فلينتبه » .

وهي مؤلفة من جزئين مضمومين الى مجلد واحد .

لم أهتد الى ناسخ الجزء الأول ، وانما وجدت في آخره العبارة التالية : « يقول جمال الدين بن المصنف : الى هنا وقف جواد قلم جامعه سيدي الامام الوالد ، قدس الله سره في مسودته ، ولم يقدر له اتمامه . وقد نقلت ما تقدم عن المسودة . وفي نية الحقير جمع تكملة له على حسب الوسع ، يسر المولى لنا ذلك » .

وقوله : « نقلت ما تقدم » لا يعني أنه نقله بالذات ، وانما يعني أن النقل كان بالواسطة .

وجد في آخر الجزء الثاني : « تم كتابة على يد الراجي عفو ربه حامد بن محمد أديب التقي في جمادى الثانية ١٣٢٥ » .

وقد لاحظت في الجزء الاول من المسودة بعض التعديل ، أكثره بخط ولد المؤلف .

الثانية – وهي التي اعتمدنا عليها ، من حيث ترتيب مواد الكتاب . وقد نسخها بكاملها الشيخ محمد المجذوب .

وقد لاحظت أيضا بعض التعديل في بعض مواد الجزء الاول ، أكثره بخط ولد المؤلف ، فأشرت اليه بين هلالين (   ) . وما كان بخط غيره فوضعته بين حاصرتين ، وأشرت اليه في الهامش .

يغلب التطابق على النسختين ، وان كانت المسودة في المواضع المشتبهة ، أصح ، لأن كاتبها أجود خطا ، وأدق فهما .

[illegible]

والحبدة يقال لها المحرية اقل ثمن ذراعها يساوي قرشين والتي دونها
ذراعها بقرش فاقل وصنعتها ان تمد خيوط من
جنس الكتان يقال لها مصيص من خشبة الى خشبة اخرى
كل خيط يخطه على الثاني وتدخل تلك الخيوط بالقصب خشبة
لمشط الحياكة وتشد شدا قويا وتاتي الصناع بالقش وتدخله
بين تلك الخيوط بالتشن المحكم على مقدار عرض الحصيرة حتى
اذا فرغوا من الادخال بحقه او عرضها وقوّوها بذلك المشط وهكذا
حتى يفرغوا منها فاذا انتهوا منها على حسب مطلوب المشتري
قصوا الخيوط وربطوها ربطا محكما بعرض القش لئلا ينفسل وسلموها
للمشتري وبالجملة فهذه الصنعة عندنا الحزّار يا بجها الذين يقال
لها الحصريون مستورون ومنجبرون ويكتسبون منها كفايتهم
وانه سهل السبب لا رب غيره ولا

حطاب

~~اسم لمن يبيع الحطب وهو اما ان يكون الحطاب صاحب ارض~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
ومنها البساتين ... ان اشترطا في حلب العقد ان
يكون الشجر اليابس لها فقطعا وباعا فلا حرج عليهما والا فلا آخذ
لشيء من الحطب يختلس ويغتصب وفاعله يجب رد ما اخذ على
مالكه او يغرم ثمنه ثم اعلم ان اعلا الحطب واغلاه حطب الزيتون
والجوز والمشمش وما عداه من حطب الزعرور والتين فدونها في الثمن
والكمن وبالجملة فالحطابون كثيرون ويتعيشون في الجملة ثم من لوازم
الحطاب ان يتبعه الكسار اي كسار الحطب وقد يكون الكسار منه

كثيرين

يشتري الاشجار العادمة النفع ممن يبيعها من اصحاب البساتين ثم بعد قلعها وتقطيع اغصانها يهيئونها احمالا ويحملونها على دوابهم من جمال وافراس وحمير ويأتون بتلك الاحمال الى البلدة ويدورون بالشوارع ويبيعونها بالسعر الحاضر. والحطابة اناس لهم مهارة بقطع الشجر وتهيئته كما يأتي منفصلا في حرفة الكسار (فائدة فقهية) صح

راموز الصفحة ٦٤ من المخطوطة ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ من المطبوعة
تلاحظ تصويبات الهوامش بخط جمال الدين القاسمي

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

المعطي المانع، الضار النافع، الرشيد الصبور . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه وخليله ، المستعيذ من العجز والكسل ، والناهي عن البطالة في العمل، والقائل[1] : « إذا فُتِحَ لأحَدِكُمْ رزْقٌ مِنْ بَابٍ فَلْيَلْزَمْهُ » ـ رواه البيهقي المشهور ـ صلى الله عليه وعلى آله العاملين في نخيلهم وزرعهم ، القانعين بثمرات تجارتهم ، وبركات ضرعهم ، القائمين على قدم التقوى ، الزاهدين في دار الغرور، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم يبعث من في القبور، ويحصّل ما في الصدور .

أما بعد فهذه نبذة عجيبة ، ونخبة غريبة ، ماسنح فكر بمثلها ، ولا سمح عصر بشكلها، سميتها: «بدائع الغرف، في الصناعات والحرف» ، ترتاح لها الأرواح الفاضلة ، وتأنس بها النفوس الكاملة ، ويتعرف منها المحترف نجاح أحواله ، وما يكون به استجلاب كماله ، تدعوه للتفطن في أقوم المصالح ، وضبط معيشته على الوجه الناجح، فيستنبط منها كمال فوائده ، ويقف على نقطة الاعتدال في مصادره وموارده، إذ يبصر من صفوفها الغرائب، ومن محيطها أنواع الاذواق والمشارب، وقد قام بالحِرَف جُلُّ / الناس ، وجلاَّ من الفاقة والافلاس ، ٣

(١) رواه البيهقي ، ورواه ابن ماجه من حديث انس ، بلفظ : مَنْ اصاب .

وذلك لتوقف نظام العالم عليها ، والتفات الناس لأجل معاشهم اليها . بيد أنهم أعرضوا عن حرفة العلم ، وصناعة الأدب ، وانكبوا على الدنيا لينالوا من زخرفها الأرب ، وما علموا ماقيل :

وليس بفقرٍ فَقْدُكَ المال والغنى
ولكنَّ فَقْدَ الفضل عندي هو الفقرُ

لكنهم لما تحققوا كساد الفضل وأهله ، ونفاقَ ابن الدنيا مع جهله ، اختاروا النِّفَاق ، ولو بالنِّفاق ، وآثروا الارتفاق ، ولو بالشقاق ، مع أن كسب الفضيلتين ، وإحراز التجارتين ، ما هو بالعسير على ابن الهمة الأبية ، والنفس العصامية ، وقد كان يقال عن السلف : يده في الكتاب ، ورجله في الركاب ، وفي سواد الليل راهب ، وفي طرفي النهار متعلم وفيما عداهما كاسب ، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ، وبنسبة الجدُّ تنال المغانم .

فالصناعات ركن ركين ، وعماد للعمران متين ، لايخلو أحدٌ عن الجولان في حَلَبَتِها ، والانتفاع بعبير روضتها . ولا يخفى مسيس الحاجة إلى معرفة مفرداتها ، وما يكتنفها من ضروريّ

متممآتها ، إذ لاتفهم معانيها لِمُغانيها ، ولا ما فيها لِموافيها ، إلا لمن عرف أصولها ومبانيها ، وجال في أقاصيها وأدانيها .

وكثيراً ما كان يجول بفكري جمع قاموس لموادّها ، يحشر في صعيده مقدارها لعادّها ، مما يحترف به الاقوام ، في بلدتنا دمشق الشام ، فانه الذي تبلغه القدرة ، وتحيط به الفكرة .

ثم توكلت على الرب الأكرم ، وشرعت في ترتيبه على حروف المعجم ، ضاماً لكل صنعة وغيرها من الفوائد ، ماينتظم في سلك القلائد كالفرائد ، مما يُمدح تعاطيه ، ويذم الاشتغال فيه ، مع مايفتح الفتاح ، ويحْسن فيه السماح ، ليرغب منها في الشريف الرفيع ، ويجتنب الدنيء الوضيع . فدونك مؤلفاً ما سمع بمثله ، ولا عثر بعد التفتيش على شكله . والناس ترغب في العزيز ، كميلها للذهب الابريز .

وقد بدأت قبل المقصود بمقدمة وفصول ، هي للفروع بعدها بمنزلة الاصول ، تحوي فوائد جمة ، وآداباً مهمة ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

مقدمة

في معنى الرزق والكسب وما لهما من الأحوال وان الكسب هو في الحقيقة قيمة الأعمال

اعلم أن الانسان مفتقر بالطبع إلى مايقوته في حالاته وأطواره، من لدن نشوئه الى كبره. ومتى اقتدر على نفسه، وتجاوز طور الضعف، سعى في اقتناء المكاسب. ثم ان ذلك المقتنى، إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته، يسمى رزقاً. ولذا قال صلى الله عليه وسلم[1]: إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ.

ثم إن الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء، والقصد الى التحصيل. فلا بد في الرزق من سعي وعمل، ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه. قال تعالى[2]: « فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ ».

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة

(٢) ٢٩ ـ العنكبوت ـ ١٧

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لا يمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب . ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب . وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وقال تعالى(١) : « فَٱنتَشِرُوا فِي ٱلأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ ٱللهِ » .

وأما الوجوب : فقد قال صلى الله عليه وسلم (٢) : « مِنَ ٱلذُّنوبِ ذُنُوبٌ لاَ يُكَفِّرُهَا إلاَّ ٱلْهَمُّ فِي طلَبِ ٱلمَعِيشَةِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم(٣) : « مَنْ طَلَبَ ٱلدُّنيا حَلالاً وَتَعَفُّفاً عَنِ ٱلمَسْأَلَةِ ، وَسَعْياً عَلَىٰ عِيالِهِ ، وَتَعطفاً عَلَىٰ جَارِهِ ، لَقِيَ ٱللهَ وَوَجْهُهُ كالْقمَرِ لَيْلَةَ ٱلبَدرِ » .

وكان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه ذات يوم ، فنظروا الى شاب ذي جلد وقوة ، وقد بكر يسعى ، فقالوا : ويح هذا ! لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ! فقال صلى الله عليه وسلم (٤) : « لاَ تَقُولوا هٰذَا ! فَإِنَّهُ إنْ كانَ يَسْعَىٰ عَلَى نَفْسِهِ لِيَكُفَّهَا عَنِ ٱلْمَسْأَلَةِ ، وَيُغْنِيَهَا عَنِ ٱلنَّاسِ ، فَهُوَ فِي سَبيلِ ٱللهِ ، وَإِنْ كَانَ يَسْعىٰ عَلَى أَبَوَيْنِ ضَعِيفَيْن ، أَوْ ذُرِّيَّةٍ ضِعَاف ، وَيَكْفِيهِمْ ، فَهُوَ فِي سَبيلِ ٱللهِ . وإنْ كَانَ يَسْعىٰ تفَاخُراً أَوْ تَكاثُراً فَهُوَ فِي سَبيلِ ٱلشَّيْطَانِ ! » .

---

(١) ٦٢ — الجمعة — ١٠

(٢) رواه الطبراني في الاوسط ، وابو نعيم في الحلية عن ابي هريرة مرفوعاً .

(٣) رواه ابو نعيم في الحلية عن ابي هريرة .

(٤) رواه الطبراني عن كعب بن عجرة .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

وقال صلى الله عليه وسلم [1] : « أَلأَسْوَاقُ مَوَائِدُ اللهِ ، فَمَنْ أَتَاهَا أَصَابَ مِنْهَا » .

وقال عليه السلام [2] : « لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلاً أَعْطَاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَيَسْأَلَهُ ، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ .

وقال صلى الله عليه وسلم [3] مَنْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَاباً مِنَ السُّؤَالِ ، فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْفَقْرِ »

وأما الآثار : فقد قال لقمان الحكيم لابنه : يابني ! استغن بالكسب الحلال عن الفقر ، فانه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته . وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به .

وقال عمر رضي الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول : أللهم ارزقني ! فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة!

وقال أيضاً رضي الله عنه : ما من موضع يأتيني الموت فيه أحب إليّ من موطنٍ أتسوّقُ فيه لأهلي ، أبيع وأشتري .

---

(١) لم يرد الا في احياء علوم الدين ٢/٥٧

(٢) اخرجه الشيخان في كتاب الزكاة من حديث أبي هريرة .

(٣) رواه البيهقي من حديث ابن عباس.

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

يموت حاجاً أو غازياً أو عامراً لمسجد ربه فليفعل . ولا يموتن تاجراً ولا خائناً .

فالجواب :

إن وجه الجمع بين هذه الاخبار ، تفصيل الاحوال. فلسنا نقول: التجارة أفضل مطلقاً من كل شيء . ولكن التجارة إما أن تطلب بها الكفاية ، أو الثروة ، أو الزيادة على الكفاية . فان طلب منها الزيادة على الكفاية لاستكثار المال وادخاره ، لا ليصرف الى الخيرات والصدقات ، فهي مذمومة ، لأنه إقبال على الدنيا ، التي حبها رأس كل خطيئة ، فان كان مع ذلك ظالماً خائناً ، فهو ظلم وفسق .

وهذا ما أراده سلمان بقوله : لا تمت تاجراً ولا خائناً . وأراد بالتاجر طالب الدنيا . فأما إذا طلب بها الكفاية لنفسه وأولاده ، وكان يقدر على كفايتهم بالسؤال فالتجارة تعففاً عن السؤال أفضل.

وترك الكسب أفضل لأربعة :

١ — عابد بالعبادات البدنية ؛

٢ — ورجل له سير بالباطن ، وعمل بالقلب ، في علوم الاحوال والمكاشفات ؛

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لا يمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

والضابطُ فيه ان لايحب لأخيه الا ما يحب لنفسه، وهو ظلم[١]، وصاحبه مذموم في الشرع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[٢]: «مَــن ٱحْتَكَرَ ٱلطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَومًا، فَقَدْ بَرِىءَ مِنَ ٱللهِ، وَبَرِىءَ ٱللهُ مِنْهُ».

وروي في فضل ترك الاحتكار عنه صلى الله عليه وسلم[٣]: «مَنْ جَلَبَ طَعَامًا، فَبَاعَهُ بِسِعْرِ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا تَصَدَّقَ بِهِ». وفي لفظ آخر: «فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ رَقَبَةً».

وعن بعض السلف: أنه كان بواسط، فجهز سفينة حنطة الى البصرة، وكتب الى وكيله: بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة، ولا تؤخره الى غد. فوافق سعةً في السعر، فقال له التجار: لو أخَّرْتَهُ جمعةً ربحت فيه أضعافه، فأخره جمعة، فربح فيه أمثاله. وكتب الى صاحبه / بذلك. فكتب اليه صاحب الطعام: يا هذا! انا كنا قنعنا بربح يسير، مع سلامة ديننا، وانك قد خالفت،

١١

(١) اي الاحتكار.

(٢) رواه احمد وابو يعلى والبزاز والطبراني في الاوسط.

(٣) لم اهتد اليه.

وما نحب اضعافه بذهاب شيء من الدين ، فقد جَنَيْتَ علينا جناية ، فاذا أتاك كتابي هذا ، فخذ المال كله ، فتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من اثم الاحتكار كفافاً ، لا عليّ ولا لي .

وبالجملة ، فبقدر درجات الاضرار ، تتفاوت درجات الكراهة والتحريم .

وعلى كل ، فالتجارة في الاقوات مما لا يستحب ، ولذلك أوصى بعض التابعين رجلاً وقال : لا تسلم ولدك في بيعتين ، ولا في صنعتين : بيع الطعام ، وبيع الاكفان ، فانه يتمنى الغلاء ، وموت الناس . والصنعتان : أن يكون جزاراً ، فانها صنعة تقسي القلب ، أو صواغاً ، فانه يزخرف الدنيا بالذهب والفضة .

الرابع ـ النصح في المعاملة : وذلك بأن لا يثني التاجر على السلعة بما ليس فيها ، وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً أصلاً ، وأن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئاً ، وأن لا يكتم ما لو عرفه المشتري لامتنع عنه .

الخامس ـ الاحسان : وهو عدم الغبن الفاحش في المعاملة . قال أهل اللغة : غَبَنَهُ في البيع خدعه . وذلك بأن لا يغبن صاحبه بما

لايتغابن فيه في العادة . فأما أصل المغابنة ، فما دون فيه ، لأن البيع للربح ، ولا يمكن ذلك الا بغبنٍ ما ، ولكن يراعى فيه التقريب . فان بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد ، إما لشدة رغبة ، أو لشدة حاجة في الحال اليه ، فينبغي ان يمتنع من قبوله ، فذلك من الاحسان ، ومهما لم يكن تلبيس ، لم يكن أخذ الزيادة ظلماً .

قال الغزالي : وقد ذهب بعض العلماء الى ان الغَبْنَ بما يزيد على الثلث يوجب الخيار . قال : ولسنا نرى ذلك . ثم قال : يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حُلَلٌ مختلفة الاثمان : ضربٌ قيمة كل حلة منها أربعمئة ، وضرب كل حلة قيمتها مئتان ، فمرّ الى / الصلاة، ١٢ وخلف ابن أخيه في الدكان ، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمئة فعرض عليه من حلل المئتين فاستحسنها ورضيها واشتراها بأربعمئة ، فمشى بها وهي على يديه ، فاستقبله يونس ، فعرف حلته ، فقال للأعرابي : بكم اشتريت هذه الحلة ؟ فقال : بأربعمئة . فقال : لاتساوي اكثر من مئتين ، فارجع حتى تردها . فقال له : هذه تساوي في بلدنا خمسمئة ، وأنا أرتضيها ! فقال له يونس : ارجع معي ، فان النُّصْح في الدين خير من الدنيا بما فيها . ثم رده الى الدكان ، ورد عليه مئتي درهم ،

وخاصم ابن أخيه في ذلك وقاتله ، وقال : أما استحييت ، أما اتقيت الله ، تربح مثل الثمن ، وتترك النصح للمسلمين ؟ ! فقال : والله ما أخذها الا وهو راض ! قال : فهلاّ رضيت له بما ترضاه لنفسك؟!

وهذا ان كان فيه اخفاء سعر وتلبيس فهو من باب الظلم .

وفي الحديث (١) : « غَبْنُ ٱلْمُسْتَرْسِلِ حَرَامٌ » .

وكان الزبير بن عدي يقول : أدركت ثمانية عشر من الصحابة، مامنهم أحد يُحْسِنُ ان يشتري لحمًا بدرهم ، فغبن مثل هؤلاء ظلم ، وان كان من غير تلبيس ، فهو من ترك الاحسان .

وقد قيل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : ماسبب يسارك؟ قال : ثلاث . مارددت ربحًا قط ، ولا طلب مني حيوان فأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة .

وروي ان الحسن البصري رحمه الله باع بغلة له بأربعمئة درهم ، فلما استوجب المال ، قال له المشتري : اسمح يا أبا سعيد ! قال : أسقطت عنك المئة . قال له : فأحسن يا ابا سعيد ! قال: وقدوهبت

---

(١) حديث ضعيف جـداً ، اخرجه الطبراني في الكبير ، وابن عدي في الكامل ، والبيهقي في السنن الكبرى .

لك مئة أُخرى ! فقبض الحسن من حقه مئتي درهم . فقيل له : يا ابا سعيد ! هذا نصف الثمن. فقال: هكذا يكون الاحسان، والا فلا.

السادس - الورع والشفقة على الدين : وذلك بأن يحسن التاجر النية والعقيدة في ابتداء التجارة ، ولينو بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، استغناء بالحلال عنهم ، وقياماً بكفاية العيال ، ليكون من / جملة المجاهدين به ، وَلْيَنْوِ النصح للمسلمين ، ولينو الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، في كل ما يراه في السوق . فاذا أضمر هذه النيات ، كان عاملا في طريق الآخرة ، فان استفاد مالا ، فهو مزيد ، وان خسر في الدنيا، ربح في الآخرة، وأن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة ، وأسواق الآخرة المساجد . ١٣

قال تعالى[1] : « رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ » .

وكان عمر رضي الله عنه يقول للتجار : اجعلوا اول نهاركم لآخرتكم ، وما بعده لدنياكم .

---

(١) ٢٤ — النور — ٣٧

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

وكان عمر رضي الله عنه اذا دخل السوق يقول : ألّلهم إني اعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما احاطت به السوق . أللهم اني أعوذ بك من يمينٍ فاجرة ، وصفقة خاسرة .

فذكرُ الله تعالى سبب للربح .

الثامن ـ أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، فلا يكون اول داخل ، ولا آخر خارج .

/ثم على التاجر ان يراقب الله تعالى مع كل واحد من معامليه . ١٤

يقال : انه يوقف التاجر يوم القيامة مع كل رجل كان باعه شيئاً وقفة ، ويحاسب عن كل واحد محاسبة، على عدد من عامله ـ وتتمته في الاحياء [١] ـ

فهذا ما على المكتسب من العدل والاحسان ، والشفقة على الدين والآداب ، والله أعلم بالصواب .

(١) اي : ان تتمة هذا البحث في كتاب احياء علوم الدين للغزالي .

فصـــل

في الإشـــارة إلى أمهـــات الصناعات

اعلم ان الصناعات في النوع الانساني كثيرة ، لكثرة الاعمال المتداولة في الأمصار . فهي تشذ عن الحصر ، ولا يأخذها العد . الا ان منها ما هو ضروري في العمران ، او شريف بالموضوع ، او مُمْتَهَنٌ في الغالب .

فأما الضروري : فالفلاحة والبناء والخياطة والتجارة والحياكة .

وأما الشريفة بالموضوع : فكالتوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب .

وما سوى ذلك من الصنائع والحرف، فتابعة وممتهنة في الغالب. وقد يختلف ذلك باختلاف الأغراض والدواعي ، على حسب رغبة

الراغب . فنها ما هو شريف كالتجارة ، ومنها ما فيه نوع شرف كالعطار ، ومنها ليس بشريف كالحجام والاسكاف . ومنها ما هو دنيء كالقميمي . ومنها ما هو أحقر كالقنياطي . فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ . وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فالرب سبحانه وتعالى ، خلق الخلق والهمهم ما هم عليه ، لأجل بقاء نظام الكون وعدم اختلاله ، على حسب تقديره الأزلي .

فائدة

في الفرق بين الصناعة والحرفة

١٥ اعلم ان كل ما اشتغل به الانسان / يسمى صنعة وحرفة. لأنه ينحرف اليها. والصِّنَاعَةُ كَكِتَابةٍ حرفة الصانع وعمله. والصَّنيعُ كالصنعة جمعه صنائع. والحرفة بالكسر، الطُّعمَةُ بضم الطاء؛ والصناعة يرتزق منها. جمعها حِرَف كَعِنَبْ.

قال بعضهم: والفرق بين الصناعة والحرفة ان الانسان إذا سعى في تحصيل ما يعيش به، جعل له سبباً من الاسباب. فان كان السبب عمل يده، فهو الصناعة، والا فهي الحرفة.

وسنستقصي ذكر ذلك على حسب ما استحضرناه، وعلى حروف المعجم قد رتبناه وَبوَّبناهُ، كما ذكرنا ذلك فيما اسلفناه،

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

٣ ـ أجـــير

الأجير من استأجرته على عمـل أو أعمال بمدة معلومة ، بأجرة معلومة. وأجرته التي يأخذها كراؤه . وكل من اشتغل عند معلم ، تحت يد صانع ، يقال له « أجير » . وتصح نسبته اليك فتقول : هذا أجيري ، وأجير أخي ، وما أشبه ذلك .

ثم تنقسم أهل الحرف والصنائع الى ثلاثة أقسام :

معـلم — وهو رئيس (الصنعة) ، ومتقنها ، (الماهر فيها) .

وصانع — وسيأتي في باب الصاد ، وهو من يحسن الصنعـة (ولم يصل الى مهارة المعلم) .

واجـير — وهو من لايحسن الصنعة ولايتقنها ، بل هـو تحت المعلم والصانع ، كالخادم ، الا أن المعلم والصانع يلاحظـونه بالتعليم والتأديب ، ومشقات الخدمة ، لأجل أن يكتسب الصنعة .

ثم ان الأجير اما أن يكون مقيداً ، وهو ما قدمناه ، واما أن يكون مطلقاً . وأعني بالمقيد الذي قيد بصنعةٍ ما من الصنائع . وبالمطلـق الذي لم يتقيد بصنعة ، بل يؤجر نفسه لمن أراد . ويدخل هنا « الفاعل » الذي يشتغل / بصنعة الطين ، أو تحت يد البنـاء ـ ويأتي ذكره في حرف الفاء ـ و « المجارفي » ويأتي ، وغـير ذلك . لكن المراد بالمطلق المتقدم من لايحسن صنعة ، بل يؤجر نفسه لمـن أراده . وهي حرفـة يتعيش بها الفقير والمسكـين الذي ليس له كسب ، فيأخذ منها قـوته الضروري على حسب حاله .

١٨

٤ - أجزاجي (معناه) أجزائي (أي بائع الأجزاء)٠ ومحـله « أجزاخانة » أي محـل الأجزاء ٠ وهو بائع العقاقير الواردة من بلاد أوربا ٠ ثم منها ما يكون بسيطاً ومركباً ، وكـل منهما يروق الناظرَ شكلُه ، لمـا فيه مـن ابداع وضعه على تلك الهيـأة الحسنة ، السهلة التناول للمريض ، من مسهل مائع ، أو سفوف ، أو حبوب ، أو لصوق ، أو غير ذلك مما (لا) يأنفه المريض ، لسهولة استعماله من خارج، أو داخل ، بلا مشقة ، كما هو مشاهد ومعلوم ٠

وهذه الحرفة من أربح الحرف ، وأعظمها كسباً ، سيما عند اشتداد المرض ــ لا كان ــ لربحه أضعافاً مضاعفة ٠ (وقد يكون أصله ومفرداته لاتساوي عشر ثمنه ، لجهالتها عند المشتري) ٠ وقد كانت العقاقير التي تؤخذ قديماً من عند العطار معروفة الأصل، وثمنها بخس جداً ، فأصبحت بفضل الصناعة الأوربية واتقانها ، وأخذ لبابها ، وترقي الطبابة ، مضاعفة الأثمان ، لايرثى فيها لفقير ولا لغنيٍّ ، والله المسبب ٠

٥ - أراكيلي « هو »في (عرف) أهل الشام صانع الأراكيل(جمع أركيلة) ٠ والأركيلة تنقسم قسمين : / شيشة ، وجوزة (وتسمى بورية) ٠ فالشيشة زجـاجة بـللور كالقنينة ، تختلف كبراً وصغراً ، وجنساً وحسناً ، وغلاءً ورخصاً ٠ وغالب ورودها مـن بلاد الافرنج ٠ وقد تكون غير بللور ، من المعدن ، النحاس الأبيض ، منقوشة نقشاً لطيفاً ، ترد غالباً من بلاد الهند ٠

١٩

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

٧ - إسكافي

قال أهل اللغة : الأُسْكُفُّ والاسكاف والأُسكوف والسكّاف والسَّيْكَفُ : الخَفّافُ . أي : صانع الخِفاف . والمثل القديم شاهد له ، وهو قولهم : لايعلم ما في الخف الا الله والاسكاف ـ أصله : أن اسكافاً رمى كلباً بخُفٍّ فيه قالب ، فأوجعه جداً ، فجعل الكلب (يعوي عُواءً شديداً فقيل) : أكُلُّ هذا من خف؟ فقال لهم : لايعلم ما في الخف الا الله (والاسكاف).

والذي يطلق عليه الآن (الاسكافي) هو من يخصف النعال القديمة، ولذا صارت هذه الحرفة ممتهنة ، وان أثرى صانعها ، لأن متعاطيها قلَّ أن يتوارى النجاسة من أسفل النعال ، حين خَصْفِها ، ولايتعاطاها (الا) المُمتَهَنُون من الناس . وقد كنت أظن أن متعاطي هذه الحرفة لايكون الا فقيراً جداً ، تجب عليه الصدقة ، لما يظهر من رثاثة ثوبه الخَلِق ، سيما وأن غالبهم يشتغلون في الأرض ، لا قدرة لأحدهم على استئجار دكان ، حتى حضرتُ مرةً تركة بعض الاسكاف ، مع بعض الاغنياء ، فأخرجوا من بين المتروكات كيساً فيه مئة وخمسون ليرة انكليزية ، ونحواً من خمس[1] وعشرين ليرةعثمانية، ومن الفضة نحواً من ألفي غرش. وكان الميت اسكافاً ، يشتغل في الارض ، أمام قاعة النشا في سوق السنانية . فتعجبت من ذلك غاية العجب ، فقيل لي : لاتعجب ! هذه الصنعة مثل الاكسير ، وان كانت ممتهنة فربحها كثير !

---

(١) في الاصل : خمسة .

٨ - ألاجاتي

بتفخيم اللام ، نسبةٌ الى معلم هذه الحرفة، ورأسها، ومديرها، وبائعها، والمُتَّجِرِ فيهـا . وأما حائكهـا فسيأتي في باب الحاء في صنعة الحياكة . وهي حرفة شريفة ، وتجارة منيفة . تحتاج الى رأس مال/كثير ، وسعة .

٢١

والألاجـا أقمشة من الحرير والغزل ، أي : القطـن . تحاك في دمشق عندنا غالباً ، وبالهند كذلك . وتباع الهندية بمكة غالباً ، وهي بديعة مثمنة . ثم تكون بأشكال مختلفة ، وألـوان منوعة ، وأسمـاء كثيرة . فمن أسمائها : الهندية ، والقطنية ، والمصرية ، وكمخة ، ومتمنة، ومسنَّنة ، (وعطافية) .

ثم مدير هذه الحرفة يقال له في اصطلاح أهل الشام : معلم الألاجا ، وهو مَنْ يهيىء الحرير والغزل ، ويعطيه (الى الصناع عنـده ، الذين يقومون بعمله ، من كبَّابة ، ثم فتال ، ثم مسدّي ، ثم صباغ ، ثم ملقي ، ثم مزايكي ، ثم حائك . ومتى انتهى الحرير الى الحائـك ـ المسمى بالصانع ـ وأخذه ، فيباشر بحياكته الى) أن يقطع كـل ثوب بعد فراغ السدي تسعة أذرع،أو تسعة أذرع وربع.ثم تغسل الأثواب بعدالقطع بهذا المقدار ، وتعطى للدقّاق ـ الآتي ذكره في حرف الدال ـ فيدقها ، ثم يضعونها[1] في المكبس بعد الدق ، فتكبس زمناً معلوماً ، ثم تقام مـن المكبس ، فتوضع عند التاجر الى أنتستريح ، فتكشف ، فيرى لها (بريق ولمعان) كالأمواج.وتسمى هذه القطعة المقطوعة من القماش « صاية » ، فيقولون « صاية الاجـا » في اصطلاح هل الشام .

---

(١) في الاصل : يضعوها .

وهذه (التجارة) تحتاج الى حرف كثيرة ، منها : كبّابة الحرير ، وهي من صنعة النساء التي تأتي في حرف الكاف . والفتّال بفتح الفاء، والمسدّي ، ويأتي في حرف الميم ، والصباغ بحرف الصاد ، والمزايكي والملقي ، ويأتيان في حرف الميمأيضاً ، وبعده الحائك(كما تقدم قبل) . والحاصلتحتاجالى (أشغال) كثيرة.فسبحانمن علم الانسانمالم يعلم .

٩ - أنتكجي

أي : بائع الأنتيكة . وهذه اللفظة (لاتينية) ، معناها أثر قديم . ومعنى الأنتكجي : بائع الآثار القديمة .

وهذه الحرفة قد راجت بهذا الوقت الرواج العظيم ، وذلك لرغبةالفرنج فيها وفي اشترائها الرغبةَ العظيمة ، سيما اذا كانت أثراً قديماً من زمانٍ وأجيال ، وكان بها تاريخ ، فانهم يأخذونها بأضعاف مضاعفة . وذلك لما كثرت سياحة الفرنج (الى البلاد) ، وكان جل رغبتهم التفرج على الآثار القديمة ، والأبنية/العظيمة ، كبعلبك وتدمر ، وغير ذلك ، فاذا عثروا أثناء سياحتهم بقطعةٍ قديمة من أي نوع وشكل ، سواء كان من ملبوس كثوب قديم ، أو مفروش كبساط وسجادة ، ولو مقطعة ، أو حجر سيما القيشاني ، أو قطعة نحاس ، أوسيف ، أو بندقية ، أو غير ذلك، أخذوه بثمن زائد ، لرغبة أفكارهم في مثل هذه الأشياء ، كما بلغني أن رجلا اشترى طاسة نحاس قديمة من مكة بربية ، وهي كناية عن نصف ريال ، فرآها رجل معه في بيروت ممن يرغب في شراء الأنتيكة ، لأجل أن يبيعها للسياح[1] ، فسامها منه ، فطمع صاحبها فيها ، فطلب منهعشرين

٢٢

(١) في الاصل : للسواح .

ذهباً فرنساوياً ، فلم يزل المشتري يزيده في ثمنها ، حتى اشتراها منـه بثلاث عشرة ليرة فرنساوية (فَنَقَدَهُ) الثمن ، ففرح البـائع الفرح العظيم ، لأنه ربح في كل قرش ذهباً فرنساوياً ، وقال : خرج مصـرف حجتي من ربح الطاسة • ثم بَلَغَهُ عن الذي اشتراها أنه باعها لسائح افرنجي بمئة وخمسين ذهباً فرنساوياً ، فصار ينادي على نفسه بالويل والثبور ، وكان قد نفذ فيه المقدور • وغير ذلك مما لايحصى •

وقد صار كثير من الناس أصحاب ثروة عظيمة بهذا السبب •

وهذه الحرفة تصادف ربحاً عظيماً ، سيما أيام موسم القدس الشريف ، وكثرة الزوار والسياح[1] الواردين مـن أوربا • وقد صار في بلدتنـا دمشق حوانيت كثيرة من تلك الحرفة ، ممتلئة من تلك الآثار • ثم منها ما هو قديم ، ومنها ما هو تقليد القديم ، ومنها ما هو من الاشغال الجديدة ، الا أنها برسم بديع ، وشكل جميل جداً ، وكلها مرغوبة للافرنج • ومن الناس من جعلها تجارة ، وقد جعل في بلادهم عميلا له يرسل هذه الاشياء الى بلاد الافرنج • ولو لم تكن هذه الحرفة تنتج ربحاً عظيماً ، وكسباً وافراً ، لما كثرت في بلادنا بعد أن كانت معدومـة ، ولم يكن لها أثر ، ويتعيش من تلك الحرفة أشخاص أجر/ مثل المتسوق : وهو المشتري الأول ، والبائع ، والسمسار ، الى الواسطة والترجمان والمشتري ، وهو الافرنجي ، لانه قد يبيعها في بلاده بربح عظيم • والله تعالى هو المسبب للاسباب ، والمفتح للابواب ، الذي يرزق من يشاء بغير حساب •

٢٣

(١) في الاصل للسواح •

حرف الباء

١٠- برابيشي

صانع البرابيش ، جمع بربيش ، غير عربي : وهي آلة معلومة من آلات الأركيلة التي يشـرب بها التنباك ،

وهو الدخان المعلوم • (وذلك) ان الأركيلة لها آلات معلومـة وهي : القلب والرأس المعمول من التراب المحروق ، وفيه أثقـاب ، والبربيش (المذكورة) •

وصنعته أن يلف شريط رفيع من حديد على قالب كالقصبة مستوية من خشب ، ثم يلصق عليه جلد رقيق بالسراس ، باحكام جيد • ثم يلف فوق الجلد شريط أصفر أرفع من شريط باطنه ، أو شريط لماع يسمى « طرقاً » أصفر • ثم يقطع ويجعل طوله على حسب رغبـة المشتري ، ويجعل في أحد طرفيه فماً من خشب ، الذي يسمى بـ « البز » ، وفي الطرف الآخر مثلها ، الا أن رأسها رفيع لاجـل وضعها في فـم قالب الأركيلة • وبعض (الاكابر) يجعل لطرفيه ــ الفم والعقِب ــ آلتين من الفضة ، كالقلب ، كما هو مشاهد معلوم •

وهذه الحرفة تجلب ربحاً في الجملة يتعيش به (لكثرة من يستعملها) ، حتى (ان) بعض من له تولع بشربها يستغني عن القوت يومه ، ولا يستغني عن شربها ، ويفطر وقت الصيام عليها ، لشدة تولعه •

وهذه الحرفة متوسطة بين الخسة والشرف . فسبحان من جعل لكل شيء سبباً .

١١ - بـــزاز بائع البَزّ : وهي أمتعة البيت ، من ثياب ونحوها — كما قاله أهل اللغة — وهذا الاسم في هذا الوقت لا يستعمل لشيء ، الا أن الغالب على معناه في هذا الوقت الذي يبيع اليمني والشيت ، وغير ذلك . ويسمى باصطلاح أهل الشام الخواجا أو الخواجكي . ثم الذي يبيع الثياب وأمتعة البيت كثير ، فمنه المطربازي — وسيأتي في حرف الميم — لكن البزاز الذي يبيع الثياب والأمتعة غير المخيطة ، من جميع الاجناس والاصناف ، حتى من أجناس الحرير المنوعة . وغالب بضاعتهم الآن لاجل النساء . فهي في ذاتها حرفة شريفة، الا ان غالب بضاعة هذه الحرفة مغشوشة ، ولذا صاحب هذه الحرفة لا يثري ، لانه لا يستعمل النصح في بيعه ، بل غالبهم يظن أن نفاق بضاعته بالغش والكذب والأيمان الفاجرة ، وغير ذلك من الخداع ، فيصير آخر أمره الى ذهاب رأس ماله ، ومال غيره من التجار ، كما شاهدنا ذلك كثيراً . وسبب ذلك : عدم تقوى الله في السر والعلانية ، وعدم مراقبته، من لا تخفى عليه خافية . ومنهم — كما أخبرنا — من يسول له الشيطان أكل أموال الناس والتجار بالباطل ، ويزعمون برأيهم الفاسد أن احوالهم تأخرت ، وذهب رأس مالهم ومال غيرهم ، قائلين : ان الذي حصل لنا من وقوف الحال ، وعدم البيع والشراء ، فتأتي التجار ، ومن لهم عليهم دين ، وتقوّم بضاعتهم بالسعر المعلوم ، فيخرج قرشهم ربعاً أو أقل أو أكثر ، على حسب ما أبقوه من البضاعة ، فيأخذونها منهم ، أو يتركونها عندهم ، ويقسّطون[1] عليهم ما بقي من المبلغ، وذلك بعد اعطاء الكفالة.

---

(١) في الاصل : يقسطوا

٢٥ ثم بعد ذلك يظهرون القلة/والفـاقة والمسكنة ، وبعد مدة يفتحـون حوانيتهم ، ويأخذون في البيع والشراء ، ويرجعون لحالتهـم الاولى ، فيظنون بهذا الفعل أنهم ربحوا في الدنيا . كلا والله! بل خسروا الدنيا والآخرة ، واشتهر صيتهم بالافلاس ، وأكل أموال الناس ، ودخـلوا تحت قوله تعالى[1] :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ » .

الى أن قال تعالى :

« وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً » .

ولايخفى أن حقوق الله مبنية على المسامحة ، وحقوق العباد مبنية على المشاحّة .

ثم اعلم أن كل صاحب حرفة أو صنعة أو معاملة بين الخلق ، اذا استعمل الصدق ، وراقب حقوق الخالق والخلق ، واتقى الله في جميع شؤونه ــ كما ذكرنا ذلك مفصلا في آداب الكسب في الفصل الثـاني من المقدمة ـــ ربح الدين والدنيا والآخرة ، وان لم يوفق لذلك خسـر الجميع . والله الملهم والموفق ، وهو البصير السميع .

---

(١) ٢ ــ البقرة ــ ١٨٨

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

مِنْ سرّها قـد ذلّ عنتر عبسه   وهي الدواء لذي الصداع برأسه
هـذا لمن طَلَب النجـاةَ بنفسه   والقطرُ لاتنس حـلاوة أتسه

فله على كل الشراب علاء

وهي طويلة • وهذا الذي (حضرني) منها •

وهذه الحرفة لابأس بها ، وليست بدنيّة • وهي رائجة كثـيراً ، ولاتزال في ازدياد في شامنا ، سيما في أيام المواسم ، كالاعياد ، فانهم يشتغلون من ذلك (ما يزيد على العادة) ، ويزيدون على ذلك «المعمول» ــ وهو معلوم ــ ويشتري من (ذلك الغني والفقـير) : وفي موسم نصف شعبان يصنعون « الغريبة » ــ (بالتصغير) ــ وهي طحين ناعم يعجن مع السمن المحمي والسكر ، ويجعل منه كالكعك ، ومنه مايجعل كالأكرة ، وغير ذلك • ويبيعون تلك الليلة قناطير عـديدة • وكذلك تروج حرفتهم أيام الأعراس ، وأيام النشاط في أوقات الصفا ، لمن يريد أن يذهب في نحو نزهة في مرجةٍ أو بستان ، أو غير ذلك •

وبالجملة فهذه الصنعة يتعيش منها صانعها (تعيشاً حسناً)• وسيأتي زيادة على ذلك ان شاء الله تعالى في حرفة « السنبوسكاني » ، في حرف السين ، وهي كما يأتي • والله الرزاق لاغيره •

١٣- بغّـال — هو من يبيع البغال ، كالذي يبيع الخيل• وأما من يحمل عليها الأرزاق من بلد الى بلد ، أو يكريها للركوب في الأسفار ، فهو « المكاري » ــ وسيأتي في حرف الميم ــ •

وأهل هذه الحرفة يصادفون ربحاً عظيماً ، سيما عند طلبها لغير بلد، كما اتفق انه من مدة عشر سنين صار طلب الخيل والبغـال الى مصر ،

فاتجرت أناس كثيرون بها ، وصاروا يرسلون الى مصر منها ، ومن البقر كذلك ، فربحوا أرباحاً جسيمة ، وأثرى بعضهم كثيراً .

والبغال تباع في الشام في سوق الخيل مع الخيل .

ويطلق « البغّال » على راكب البغل قليلاً . وأما « الخيال » فيطلق على الراكب ليس الا . وهذه الحرفة لابأس بها ، سيما وقت/رواجها . ٢٨ والله الغني وأنتم الفقراء .

١٤- بقّـــال

قال أهل اللغة : البقّال لغة عاميــة معناها : بياع الاطعمة والمأكولات . أقول : هــو كالسمان ــ الآتي في حرف السين ــ الا أن البقال متفوق عليه بزيادة أنواع في الاطعمــة ، في أيام الفاكهة يوجد عنده من أعلاها ، كالعنب في أيامه ، وهلم جرا . فمن كان جائعاً ، واشتهى طعاماً ــ سوى اللحم الطبيخ ــ فيجد عنــده من الخبز والجبن بسائر أنواعه ، وغير ذلك مما تشتهي نفسه ، من نحو عنب وبطيخ وبرتقال[1] ، على حسب كل أوان . ويمكن ان حرفة البقال تتميز على السمان بتلك الزيادات التي ذكرناها ، مما لاتوجد عندالسمان، فتنتج ربحا مباركا ، كما هو مشاهد .

وهذه الحرفة كثيرة عندنا في الشام ، سيما في الاماكن الشهــيرة كسوق علي باشا[2] عند سوق الخيــل ، فانه يوجــد فيه كثير من هــذه الحرفة .

وبالجملة فهي كالسمانة في توسطها ، وعدم دناءتها . ووجدنا ممن أثرى كثيراً ، وكانوا في بدايتهم بتلك الحرف . فسبحان المعطي لايسأل عما يفعل .

---

(١) في الاصل : بردقان .

(٢) زالت هذه السوق من نحو عشر سنين وكان فيها اشهر البقالين .

١٥- بقّـــار البقـار : هو بائع البقر ، (وهو من يتجر بها ، ويجلبها من البـلاد التي تكثر بها ، كأرز روم ، ثم يقدم بها الى الشام ، ويعرضها للبيع) ، ولها سوق مخصوص يوم الجمعة،(تأتي) اليه الفلاحون زمراً زمراً ، ومعهـم بقر وأثوار ، فيقفون في السوق ، ويأتي من يريد الشراء ، فيأخذه السمسار ـ الآتي في حرف السين ـ وهو من يرغّب المشتري في السلعة ويحسّنها له ، كما يقع في سـوق الخيل والجمال وغيرها من الحرف التي يقتضي لها سماسرة مما يأتي ذكره في مواضعه ، ويتوسط بينهما ، فان حصل بينهما اتفاق اشترى •

وهذه الحرفة تروج غالبا ، وتغلو أثمانها اذا نزل بها بلاء كالوباء •

والبقر أجناس وأصناف : أعلاها البلدي ، وهي العظيمة الجثـة ، الحلوب بكثرة • ثم الخماسي وهي تنزل عما قبلها ، ثم العكش وهي أدنى الجميع •

٢٩

١٦- بندقجي هو من يصلح البنادق ـ أي البواريد ـ بسائر أنواعها وأصنافها ، كالفرد ، والطبنجة ، والورويرات ، وغير ذلك كالجفوت • وهي صنعة من الصنائع المشهورة ، كالسيوفي ـ الآتي في حرف السين ـ لكن هذه الصنعة أروج وأشغل ، لرغبة الناس بالبنادق، والحاجة اليها للاصطياد وغيره ، ولقلة الرغبة في السيف ، لعدم لزومـه غالباً مع الآلات النارية • وبالجملة فهي صنعة ليست بدنيئة ، وهي الآن كالضرورية ، وتنتج (ربحاً جيداً) •

١٧ - بلّان

قال أهل اللغة : البلان الحمامي .
والمصطلح عليه عند أهل الشام: الدلاّك والمصوبن — وسيأتيان في باب الدال والميم — .

فالبلان صانع من صناع الحمام ، وهو من يخدم « المستحم » بما يحتاجه من نحو ذلك بالكيس المزيل للاوساخ أو الصابون، ويهيء النورة، وغير ذلك من الخدمة .

(هذا في الحمام المعد للرجال ، وأما الحمام الذي تدخله النساء ، فلم يزل يعرف من خداماته : البلانة وهي التي تدلك النساء ، وتحمل علب الماء البارد اليهن ، وتحمل لبعض النساء الموسرات بقج ثيابهن ذهابا وايابا) .

وهي صنعة من ضروريات الحمام ، وهي لغير أهلها دنيئة غير شريفة، ويكتسب صاحبها القوت الضروري . نسأله تعالى الستر من فضله ، انه ذو الفضل .

ولبعضهم في بلان :

وبلاّن له ظفر يباهي . به حدّ الشفار المرهفات
هرى جسمي فألبسه نجيعاً[1] على حلل الستور السايلات
ورام يلين أعضائي برفق فأيبسها وكسّر فوقحاتي
ولم أنظر له أبداً جميلاً وذلك من عظيم المهلكات
وأعمى مقلتي بصنان ابط يفوح به على كل الجهات
فلا تجعل الهي مثل هذا يغسلني اذا حانت وفاتي

---

(١) النجيع من الدم ما كان الى السواد . اهـ قاموس (المؤلف) .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

العمران الحضري وأقدمها ، وأكثر ما تكون في الاقاليم المعتدلة ٠

وأهل هذه الصناعات القائمون عليها متفاوتون : فمنهم البصير الماهر الحاذق ، ومنهم القاصر ٠ ثم هي تتنوع أنواعاً كثيرة ، فمنها :

البناء بالحجارة المنحوتة ، المحكمة الوضع ، بالميزان المستقيم ، تقام بها الجدران ملصقاً بعضها الى بعض ، بالاشتباك بالجص والكلس مع التراب والسماد الذي يعقد معها ويلتحم ، كأنها جسم واحد ، ويهندس المحل بالتحسين وغيره ، على حسب حال/(المبنيّ له) ٠ ٣١

ومنهـا : البناء باللبن ـــ بكسر الباء ـــ وهو التراب المجبول بالماء ، يوضع بقالب من خشب مربع ، ثم يجفف بالشمس ٠ وبعد يبسه يبنى به جدران الفقراء الذين لاقدرة لهم على البناء بالحجارة ٠

ومنها : البناء بالتراب خاصة ، وهو المسمى بـ « الدك » ـــ الآتي في حرف الدال في الدكاك ـــ اذ هو من قسم البناء ٠

ومنها : البناء بالتراب أو الرمل مخلطاً بالكلس ـــ وصنعته كالدك الآتي ـــ الا أن هذا أعظم جرماً منه ، مع زيادة الكلس في ترابه ٠ وذلك بأن يتخذ لوحان من الخشب ، مقدران طولاً وعرضاً ، فينصبـان على أساس ، وقد بوعد بينهما بما يراه صاحب البناء ، ويوصل بينهما بأذرع من الخشب ، يربط عليها بالحبال ، ويسد الجهتان الباقيتان مـن ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ، ثم يوضع فيه التراب أو الرمل مخلوطاً بالكلس ، الى أن يمتلىء ذلك الخلاء بين اللوحين ٠ وذلك بعد الدق بمدقة من خشب ثقيلة ، الى أن يصير جسماً واحداً ٠ ثم يعادنصب اللوحين على الصورة التي ذكرناها ، ويركز كذلك الى أن يتـم وينظم الالواح كلها ، سطر فوق سطر ، الى أن ينتظم الحائط كله ملتحمـاً ،

كأنه قطعة واحدة . ويسمى « الطابية » ، وصانعه « الطواب » ــ الآتي في حرف الطاء ــ .

ومن صناعة البناء مايرجع الى التنميق والتزيين ، كما يصنع من فوق الحيطان والاشكال المجسمة من الجص ، فيشكل على التناسب تخريماً بديعاً بمثاقب الحديد . وربما عولي على الحيطان أيضاً بقطع الرخام أو الصدف أو السبح يفصل أجزاء متجانسة ومختلفة ، وتوضع على نسب وأوضاع مقدرة عندهم ، يبدو به الحائط للعيان ، كأنه قطع الرياض المنمنمة ، الى غير ذلك من بناء الجباب والصهاريج ، لسفح الماء ، بعد أن تـعـدّ في البيوت قصاع الرخام القوراء ، المحكمة الخرط في وسطها، لنبع الماء الجاري الى الصهريج، يجلب اليه منخارج فيالقنوات/ المفضية الى البيوت . وهذه من صنعة البناء ، لكنها مختصة بالقنياتية ــ الآتية في حرف القاف ــ الى غير ذلك .

٣٢

وهذه الصنعة ، أعني صنعة البناء ، من أروج الصنائع الشاقة ، التي لا يستغنى عنها في المدن .

وتختلف الصناع في جميع ذلك باختلاف الحذق والمعرفة . وربما يرجع الحكام الى نظر هؤلاء فيما هم أبصر به من أحوال البناء . وذلك ان الناس في المدن ، لكثرة الازدحام والعمران ، يتشاحون حتى في الفضاء والهواء ، للأعلى والأسفل، ومن الانتفاع بظاهر البناء، مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان ، فيمنع جاره من ذلك ، الا ما كان فيه حق ، ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية ، وغير ذلك . وربما يدعي بعضهم حق بعض في حائطه ، أو عُلْوِه ، أو قناته، لتضايق الجوار . أو يدعي بعضهم اختلال حائطه ، خشية سقوطه ،

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

قوة الحبل ، بادخاله في المعالق من أثقاب مقدرة ، على نسب هندسية ، تصيِّر الثقيل عند معاناة الرفع خفيفاً ، فيتم المراد من ذلك ، بغير ذلك • وهذا انما يتم بأصول هندسية معروفة ، متداولة عند أربابها ، وبمثلها كان بناء الهياكل العظيمة ، لهذا العهد التي يظن الناس أنها من بناء الجن أو الجاهلية ، وان أبدانهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني ، وليست كذلك ، وانما تم لهم ذلك بالحيل الهندسية ، كما ذكرناه • فعلم من ذلك أن هذه الصنعة ، وان كانت شاقة ، فهي لا بأس بها ، لتعلقها بعلم الهندسة • وغالب صناعها في الشام نصارى ، بل كلهم الا النادر • وتنتج (أجراً وافراً) والله المدبر والمعين •

٢٠ - بوايكي

اسم لبائع المقتاتات : من قمح وذرة وشعير ، في مخزن كبير ، يسمى في اصطلاح أهل الشام « بائكة » •

و « البائكة » في اللغة : اسم للناقة السمينة • وكأنَّ هذا المحل سُمي بذلك لبروك البوائك فيه ، فان هذه الحبوب لاتجلب الا عليها •

وهذا البوايكي يثري غالباً ، لان أهل هذه الحرفة يحتكرون هذه الحبوب ، ويدخرونها الى زمن المحل ، أو وقت قلة المطر أيام الشتاء ، فيبيعونها بأضعاف الثمن الذي اشتريت به • وغنيُّهم يُسَلِّفُ الفلاح ، بأن يعطيه أيام / الشتاء مثلا دراهم ، أو يشتري له ثياباً ، وما يحتاجه ، على أن يسلمه وقت البيدر قمحاً وشعيراً بثمن بخس جداً • والفلاح وقت حاجته للدراهم ونحوها ، يقبل منه ، لاضطراره لذلك • ثم الفلاح بعد أتعابه بالفلح والزرع والحصيدة والدراس ، وغير ذلك من المشقات العظيمة ، يأتي بالقمح الذي فضل عنده ، بعد أخذ الاعشار الميرية منه ،

٣٤

وما يلحقه من المصارف للفعلة وغيرهم ، الى البوايكي المسلف له (فيستلمها منه ، وينزل أحمالها في البائكة المتقدمة . ثم ان بعض هؤلاء البوايكية) يكيل كيالة القمح والشعير بالتطفيف ، فتبلغ عشرة الفلاح تسعة ، أو أقل ، فيرجع صفراً ، بعد أتعابه طول سنته ، أو تحت الفاضل ، فيبقى مدة حياته فقيراً متعوباً ، مديوناً له . واذا كال كياله للمشتري الوطني ، فيخرج عشرة الفلاح احدى عشرة ، أو أكثر . وهذا أمر متواتر عنهم ، وكأنهم لاسمعوا ولا قرؤوا الوعيد الالهي في ذلك ، وهو قوله تعالى[1] : « وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ، ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ، أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ، يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ » .

و « الويل » هو كلمة عذاب . أو وادٍ في جهنم . وعلى كل حال فعاقبته وخيمة ، ولا يسلم غالباً من المصائب . قال تعالى[2] :

« حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً » ، لاسيما اذا احتكر قوت عباد الله ، ينتظر به الغلاء ، فهو ظلم ، وصاحبه مذموم في لشرع ، لحديث[3] :

« مَنِ ٱحْتَكَرَ ٱلطَّعَامَ أَرْبَعِينَ يَوْماً ثُمَّ تَصَدَّقَ بِهِ لَمْ تَكُنْ صَدَقَتُهُ كَفَّارَةً لِٱحْتِكَارِهِ » .

---

(١) ٨٣ — المطففين

(٢) ٦ — الانعام — ٤٤

(٣) قال في جامع الاصول : ذكره رزين ولم أجده . واخرجه الديلمي في سند الفردوس ، واورده السيوطي في اللآلئ المصنوعة .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانسـاني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

اجمالا ، الا بقيةصناع قليلين ، يتقوتون بالضروري منها ، لانهم يشتغلون للفلاحين وأهل (القرى) ، على حسب مطلوبهم ـ كما قدمنا ـ لان الفلاحين باقون على طرازهم القديم، وحليتهم الأصلية. والله المسبب لاغيره.

٢٢ - بوّاب

اسم لمن يحفظ الباب ويحرسه ويلازمه. وهو بهذه الحرفة الوضيعة بالنسبة لحاله على مراتب :

فاما أن يكون بواباً لدار أمير ، أو ذي جاه ومنصب كبير ، فيحترم اكراماً لمن هو عنده ، ويجعلون له من المعاش ما يكفيه .

واما أن يكون بخان من خانات التجار المسمى بـ « القيسرية » ، فله على كل من يشتري من التجار شيء مخصوص[1] يتعيش به ، وهو دون الاول .

واما أن يكون بواباً بخان الدواب ، فهو اما المستأجر نفسه (ويسمى الخاناتي) ، واما أجير عنده بأجرة مخصوصة لحفظ الدواب وغيرها ، وهو دون الاولين .

٣٦ وعلى كل فهي حرفة دنيئة . / ومما قيل في بواب :

سأتركـ باباً أنت تملك أذنه ولو كنت أعمى عن جميع المسالك
فلو كنت بواب الجنان تركتها وحولت رجلي مسرعاً نحو مالك

فملك الله جلّ شأنه متمم ، وهو بعباده أدرى وأعلم .

٢٣ - بيطار

هو معالج الدواب . و « البيطرة » صنعته ـ كما في اللغة ـ . وصاحب هذه الصنعة للحيوان ذي الحافر ، كالطبيب للانسان . فيجب أن يكون صحيح النظر مطلقاً ، قوي الذراعين،

(١) في الاصل : شيئاً مخصوصا .

عَبْلَ البدن ، خفيف الحركة ، نصوحاً ، صدوقاً . وأن تكون آلتــه نقيةً ، وأن يتعاهد الكفة والمباضع بالتنظيف والدهن . وأن تكون نفسه قوية الاقدام ، غير نفورة من القاذورات ، شفوقاً بالطبع أو التطبــع ، عالماً بأن الحيوانات تتألم كالانسان . فليتّق الله فيها .

واما آلاته :

فيجب أن يكون عنده ثلاث مطارق كبرى ، زنة سبعمئة وخمسين درهماً ، يقوّم بها ما اعوجّ من المسامير والتطابيق وسائر الآلات ؛ ووسطى للدقوقات الأوائل ، وبعض التقويم ، وبها تعدّل غالب الآلات ؛ فصغرى لاجل التبشيم ، وتقويم المباضــع ، وأقل ما تكون زنة مئــة درهم . ولايجوز التبشيم بالوسطى ، فضلا عن الكبرى ، فانه يفضي الى خرق الحافر ، وفساد الظفر .

وأقل ما يكون عنده من المباضع تسعة : واحد للعين ، وهو أدقهــا وألطفها . وثان للرأس . وثالث للّبان . ورابــع لما تحت اللحيين . وخامس للمنخرين ونحو الظفر . وسادس لعضد الذراع عنــد ثقله ، ويجب أن يكون هذا أحدّها . وسابع للكشط ، يكون فيه عرض ما . وثامن يسمى « المسبر » يختبر به عمق الجروح ــ وبعض البياطرة يكتفي عن هذا بالميل ، وهو خطأ يجب تعزير فاعله ، والآمر به ، لأنه يؤول الى فساد العين ــ . وتاسع يرفع به الاوساخ ، وبقايا اللبوص ، ويجب كونه غير محدود الرأس .

وثلاث كفات : واحدة/لذوي الأخفاف ، وأخرى للخيــل خاصة ، وأخرى لباقي المواشي تكون أصغر الكل .   ٣٧

ومن المماسك كذلك ، لقلع ما تفاوت تمكناً وحجماً .

والمبارد لم تحصر فيما يظهر ، وكذا المسنات والطوابق .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

والسعال : الكائن من ضعف الرئة أو الدماغ •

والقصر : بفتحات ، وهو مرض يعتريها اذا عرقت ، ومسها البرد •

والجرد : وهو كداء الثعلب ينثر الشعر من القوائم وغيرها • وهو مختص غالباً بالخيل والبغال •

والشانكان : وهو عبارة عن بروز الجلد لخراج أو ريح محقون •

والكوكب : وهو ما برز عند الكتف ويجتمع •

والحمر : وهو ثقل/المشي، والنفاخ، وثقل الصدر، ويبس الاعضاء• ٣٨

واللكون وهو العظم المعترض يتكون في المفاصل •

والشش وهو ورم ينتؤ في العصب •

وغير ذلك من الامراض المبسوطة في كتب هذه الصناعة • فمن أ. ادها ، وأسبابها ، وعلاجها ، فليطلبها من محالها • فنحن لخصنا ماذكرنا قصداً للاختصار ، وتتميماً للفائدة ، في كتابنا هذا •

وبالجملة ، فان هذه الصنعة (مهمة) ، جالبة للكسب الحلال المبارك، بالشروط التي ذكرناها ، والله واهب العطاء ، ويفعل ما يشاء •

٢٤ - بيّـــار اسم لمن يعزّل الآبار الحلوة من الدور والبيوت وغيرها • أي يخرج ما (تراكم من الاوساخ والاتربة التي تسد منابعها وما) سقط فيها من نحو حيوان ، كهرّة ، أو دلو ، أو غير ذلك ، بآلة معه ، وهي عصا طولها نحو رمح ، في رأسها دائرة من حديد، تجمع كلاليب كثيرة ، وطرفها الآخر مثقوب ، فيه قطعة حبل معقودة ،

يدخلها في يده ، ثم يدلّي العصا المذكورة في البئر ، ويحركها بصنعة ، ويخرجها شيئاً فشيئاً . فالساقط في البئر لابد أن يعلق في أحد الكلاليب ويخرج . وذلك بعد أن يشرطوا له جعلاً معلوماً على اخراج الساقط (أو الاوساخ) .

و (صاحب) هذه الصنعة يدور في الأزقة التي كثرت فيها الآبار ، وينادي بالحارات : « معزل البيارة » بتلك اللغة العامية .

وليس من البيار من يصنع البئر ويحفره ، بل هو ما ذكرناه . انما صانعه (عامل ماهر من العاملين في الابنية ، أو نحت الاحجار ، البصير بالطرق المسهّلة لقطع الصخور ، التي تتفجر منها عيون المنابع . هذا في المدن ، وأما في القرى ، فكل فلاح يمكنه حفر البئر) . والله من فضله يرزق من يشاء .

حرف التاء

٢٥ - تاجر

اسم كليٌّ ينطوي تحته أفراد كثيرة، كغالب ما انطوى عليه كتابنا هذا . ولذا قال في القاموس : التاجر الذي يبيع ويشتري ، وهو مأخوذ من التجارة ، التي هي محاولة الكسب ، بتنمية المال بشراء السلع بالرخص ، وبيعها بالغلاء . ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة : أنا أعلّمها لك في كلمتين : اشتراء الرخيص ، وبيع الغالي .

تنبيه :

ما أشعرت به آية[1] :

وَإِذَا رَأَوا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا . من ذم التجارة ، محمول على تجارة تشغل عن أمور الدين ، وتصرف عن أمور الآخرة . وتحمل على الاقبال والانهماك على الدنيا ، كما يشير الى ذلك قوله تعالى: انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً . وأما اذا خلت عن ذلك ، فهي ممدوحة . وقدمنا في الفصول/ السابقة أول الكتاب بعض ما يتعلق بآداب التاجر مستوفى فراجعه ان شئت .

(١) ٦٢- الجمعة - ١١

وللمناسبة في التاجر والتجارة أذكر بعض مِلَح وآداب ذكرها بعضهم نظماً • فمنها ما قاله البربير في الاقتباس :

يا تاجراً لايزال يرجو ربحاً ويخشى من الخسارة
عبادة الله كل حين خير من اللهو والتجارة
فاعبُدْهُ مادمتَ واخش ناراً وقودُها الناس والحجارة

وقال آخر :

لمّا رَنا الناس على حسنه لها ازدحام ماله آخر
قال:علامَ ازدحامُ الورى؟ قلت: على عينيك ياتاجر !

وقال آخر :

وقائلةٍ : مالي أراك مجانباً أموراً وفيها للتجارة مربح ؟
فقلت لها : مالي بربحك حاجة ونحن أناس بالسلامة نفرح!

وللبربير :

أبناءَ دهري طلّقوا الـأُخرى وما ندموا عليها
واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضّوا اليها

وله أيضاً :

أرى التجار سكارى من سكرهم ما أفاقوا
وليلنا اسودٌ منهم واحمرت الآفاق
فالخُسْرُ عدُّوه ربحاً غداً اليه يساقوا
وسوقهم بات فيها ماءُ الحياءِ يُراق
للصدق فيهم كسادٌ وللنِّفاق نَفَاق

ولآخر :

ولما رأيتك لا خير فيك ولا نفع للصاحب الماجد
أتيت بك السوق سوق الهوان فناديت هل فيك من زائد؟

على رجل غادر بالصديق — كفور لنعمائه جاحد
فما جاءني رجل واحد — يزيد على درهم واحد
سوى رجل حان منه الشقا — وحاقت به دعوة الوالد
فبعتك منه بلا شاهد — مخافة ردك بالشاهد ٤١
وأبتُ الى منزلي سالماً — وحل البلاء على الناقد

ولابن الرومي :

ربَّ أطلِق يديَّ في كل شيخ — ذي رياء بِسَمْتِهِ وسكوتِهْ
تاجرٍ فاجر جموع منوع — يُرْهِقُ الناسَ باقتضاءِ ديونه

مفرداً[1] :

ما للتجار وللسخاء وانما — نبتت لحومهمُ على القيراط

غيره :

اذا ما غضب السوقي — فالحبةُ ترضيه

ولبعضهم :

قد ترى يا ابن أبي اسحا — ق في ودك عهدَهْ
وكذا السوقي للاخوان — سوقيُّ المودَّه

وبهذا القدر كفاية . وعلى الله الكفاية والعناية .

٢٦ - تبّان

اسم لمن يبيع التبن المعلوم . وهو من يذهب للقرى ويشتريه من أصحابه الفلاحين ، الذين يعتنون بالاغلال ، وهي كناية عن القمح والشعير ، ويَتَفَضَّل عندهم التبن بعد الدراسة

(١) يعني : بيت مفرد

فيضعونه في محل يقال له « المتبن » ، فيأتي من يريد شراءه من فقراء الفلاحين وغيرهم ، ويحملونه على الجمال أو الحمير، وينزلون الى المدينة، فيبيعونه ويربحون به ربحاً يتعيشون به ، على حسب حالهم .

والتبن يكون علفاً للدواب ، كالبقر (وغيرها) . ويجعل في الطين الأحمر ، بعد تخميره ، ويطين به أسطحة غالب دور الشام ، سيما الفقراء من أهلها ، فانهم في كل سنة ، قبل مجيء الشتاء ، يبادر غالب الناس في تطيين أظهرّ بيوتهم ، خوفاً من حصول الوكف وهو « الدلف » . ففي بعض الاوقات يباع التبن بأضعاف ثمنه ، وينتج ربحاً عظيماً لاجل ذلك، وتروج حرفة الطيانة في أوائل الشتاء ، لانهم جعلوا قاعدة لهم اشتهرت عند الناس ، وهي : / أنهم قالوا : كل التين ، وارفع الطين ــ كما سيأتي ان شاء الله في حرف الطاء ــ . ٤٢

وبالجملة فهي حرفة تتعيش منها أربابها، على حسب حالهم واستعدادهم . والله المدبر لاغيره .

٢٧- تتنجي

اسم لمن يبيع التتن المفروم ، ويقال له التبغ . وهو أنواع : عربي ، واسلانبولي ، وافرنجي . فالعربي أنواع وأجناس ، وأحسنه جنسان : كوراني ، وشبعاوي . والاسلانبولي على أنواع ، وأحسنه ما غلا ثمنه ، ويشترك في ذلك غيره أيضا . وأما الافرنجي فقد بلغني أنه أهدي لعزيز مصر صندوق فيه ألف جيكارة افرنجية ، قيمتها ألف ليرة ! والمخبر لي من كبار الشام ــ والله أعلم بصحة ذلك الخبر ــ .

وباعة التتن بدمشق يزينون دكاكينهم بأنواع الزينة . وهي حرفة غير دنيئة ، ولكن أصبح ربحها قليلا بالنسبة للزمن السابق ، وذلك قبل احتكار التتن من قبل الحكومة ، حيث كانت تنتج أرباحاً عظيمة ، ولهذا أثرى منها أناس كثيرون ، وأصبحوا بثروة طائلة . ولما وضعت يدهـا الحكومة على التتن ، وضربوا على أيدي باعته ، الا أن يكون مشتراهم من قبل الادارة التي اختصت به ، وهي ادارة « الروجي » ، أخذت تلك الارباح بالهبوط ، حيث اختصت بها تلك الادارة ، وأصبح تجـاره بعد ترقيهم في معارج الغنى والارباح في تقهقر . والبعض منهم يبيـع التتن بالخفية عن تلك الادارة ، حيث يكون اشتراه من زرّاعه بأثمـان رخيصة ، فيبيعه بأثمان غالية ، تنتج له ربحاً بذلك . ولكن قلّ ما يسلم بتتنه من أيدي مراقبيه ، الذين هم منتشرون في أنحاء البـلدة ، وهم أناس يقال لهم « وردیانيـة »[1] ، فيراقبون أمر بائعي التتن ، الذي لم يؤخذ من الادارة ، مع بث الجواسيس من قبلهم ، حتى اذا وقع أحـد بأيديهم ، يضبط ما عنده من التتن ويحبس ، وغب/ذلك يؤخذ منه على كل أوقية من التتن الذي يوجد عنده نصف ذهب عثماني ، ولذلك قلّ ربحها .

٤٣

٢٨ - تـرّاب — بتشديد الراء المهملة . وهو مـن يبيع التراب الأحمر . وذلك بـأن يذهب الى محفرة من المحافر المعدة لذلك ، فيستخرج منها التراب الأحمر ، ويضعه في أوعية صغيرة ، على حمير مهزولة غالباً ، ويبيع كل حمل بقرش أو أكثر ، على حسب طلبه ونفاقه ، سيما في أوائل الشتاء ، وموسم تطيين الأسطحة ، أوائل الشتاء فيروج كثيراً

(١) اصله فرنسي : Gardien

ويربح فيه ، لانه من محلّ بلا قيمة ، بل هو مباح لكل أحد ، وليس له كلفة سوى العليق للدواب ، والغالب في عليقهم تبن أونخالة .

(ولباعة هذا التراب الأحمر محال معروفة ، يقصدون للشراء منهم ، والتسليف عليهم بالمقدار المطلوب، ولرئيسهم أجراء عنده ، يرسلهم للمحافر وللدور .

(هذا ومن باعة التراب نفرٌ من الفلاحين ، يدورون في الأزقة في فصل الربيع ، بأحمال من تراب ، يسمى « تراب الخلد » ينادون عليه « تراب الوليدات » ـ بالتصغير ـ يعنون الأطفال الرضّع ، الذين تضع أمهاتهم وقت انامتهم مع حفاظهم تراباً ، صيانةً لفخذيه واليتيه من الالتهاب الجلدي ، وتسميه العامة بـ « التسميط » . وهذا التراب نوع مخصوص، يجمعه الفلاحون من أثقاب الخلد في البرية . فان هذا الحيوان ، متى آنس تقلص ظل الشتاء ، وطلائع حرارة الهواء ، يخرج من مدافنه الشتوية ، ويبحث بأسنانه ويديه جاهداً ، الى أن يصل الى سطح الارض، وهناك يتجمع على سطحها ما ساقه من التراب ، فيأتي الفلاحون ، ويجمعونه ويحملونه على ظهور الحُمُر الى الشام ، ويبيعونه في الحارات . والحمل يساوي قرشاً ونصفاً . ومنهم من يبيعه أيضاً للزرع، وينادي عليه : « تراب الزريعة »[1]).

وللبلقيني في ترّاب قوله :

رُبَّ تـرّابٍ مليـح   أورث القلب عذابا
قلتُ لما أنْ بدالي :   ليتني كنتُ ترابا

وبالجملة فهي حرفة سهلة لأربابها ، يتعيشون منها ، ويحمدون الخلاّق ، وهو نعم الرزّاق .

---

(١) مابين القوسين وجد على الهامش . وهو بخط المرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي ولد المؤلف .

٢٩ - تــرّاس

هو من يحمل أنواع الحبوب ، من عند بائعها ، وهم أصحاب الحوانيت والفلاحة ، مما ينتج من مزروعاتهم ، الى البوايكي ، وبالعكس من عند البوايكي ، كأنواع البــذار ، الى أصحاب الحوانيت على الحمير ، ويمشي خلفها ، وبيده سوط ، ليسوقها به سوقاً حثيثاً الى البايكة. ولذلك يقال لهذه الحمير : «حمير التراسة ». ولا يزال هذا ديدنه كل يوم ، من طلوع الفجر ، الى الضحوة الكبرى. ويجعلون له كل يوم أجرة مخصوصة ، يتعيش بها .

وأما من يحمل الطحين الى الافران من الطاحون ، والى البيوت ، فيقال له « السائق » — الآتي في حرف السين ان شاء الله تعالى — .

الا أن هذه الحرفة كلها دائماً ترجع (بهم) القهقرى ، في دينهــم ودنياهم وصحتهم ، فلا تجد تراساً آخر أمره الا مصاباً بالفقر والفاقة ، وغير/ذلك من أنواع البلاء . وذلك بسبب عدم خوفهم من الله ، وعدم مراقبته ، بظلمهم للحمير ، بكثرة ضربهم (لها) ، وسبّهم لاصحابهــا ، (مع تلفظهم بمكفرات) . فنسأل الله سلامة الدين والدنيا .

٤٣

وبالجملة فهي حرفة مذمومة بتلك الاسباب . وأما ان خلت مــن ذلك ، واستعملت بتقوى الله وخوفه ، فلا بأس بها لاربابها ، لانها مــن الكدّ . والله الموفق .

٣٠ - ترجـمان

اسم لمن يترجم اللغة العربيــة الى التركية مثلا ، أو الى الفرنجيــة . وهي حرفــة رائجة عندنــا ، سيما مــن يترجم العربيــة بالفرنجية . والمستعدون لهــذه الحرفة النصارى عندنــا في الشام . وذلك لكونهــم اتقنوا تعلم الألسن ، كالرومي

والطليـاني والافرنسي والانكليزي ، وغـير ذلك . ولمـا كثر ورود الافرنج مـن السيـاح والزوار الى بلدتنـا كغيرهـا ، سيمـا في أيام موسم القدس الشريف ، فتأتي المترجمون لهم ، ويذهبون بهم الى الاماكن القديمة والمزارات ، وغير ذلك ، بأجرة وافية يأخذونها منهم . ثم ان أرادوا شراء شيء من البضائع ، من صنعة الشام ، أو غيرها مـن الآثار القديمة ، التي تسمى بـ « الانتيكة » ، اشترط الترجمـان على البائع شيئا معلوما من الدراهم ، أو يسومها منه بثمن ، ويترجم للافرنجي بأزيد مما سامها ، ويأخذ الترجمان تلك الزيادة . وهذا الفعل حرام من الكبائر ، هذه الزيادة التي أخذها الترجمان من السُّحْتِ . والبائـع مؤاخذ كذلك ، لانه من الخداع والغَرَر . فليحذر المسلم البائع مـن ذلك ، لان الرزق على الله ، وما كان لك سوف يأتيـك على ضعفك . ومثله السمسار ، ويسمى باصطلاح الباعة « ابو خديجة » ـ وسيأتي ان شاء الله تعالى في حرف السين ـ .

وأما ترجمان المحكمة ، فهي بالارث قديماً عن آبائهم وأجدادهم ، عن بيت الترجمان ، وهو فيها صوري ، وينتفع من أرباب الدعـاوى بما يتعيش .

٤٥ وبالجملة فهي حرفة لابأس بها ، بشرط تقوى الله في السر/والعلانية، ومراقبة من لا تخفى عليه خافية . والله الملهم والمسبب والموفق ، لاغيره.

٣١ - تنبكجي — هو من يبيع التنباك المعلوم ، يشتريه من عند تاجره بالنقد أو بالنسيئة ، ويبيعه في دكانه . والتنباك أجناس وأجوده القادم من جهة العجم ، وتاجره غالباً يثري ، وذلـك بأن يبطىء مجيئه وجَلَبه ، فيعلو سعره ويزيد . ثم هو في بلاده ، نباته كاللخنا

عندنا ، ورقه عريض . ثم عند بَدْوّ صلاحه ، تقطع أوراقه وتجفف ، بعد بسطها ، ويوضع بعضها على بعض ، بوضع محكم ، حتى تصير كـقطعة عمود ، وتوضع بأكياس ، وتلف بالجنفاص ، ويخاط عليها . ثم كلما قدم ويبس كان أجود .

وهي حرفة متوسطة ، وبضاعة غير كاسدة . وهو كالتتن في كونه دخاناً ، الا أنه أنفع منه ، من حيث تبريده بالماء الذي يوضع في الاركيلة، فهو أخف ضرراً من التتن ، كما قدمنا ، وبعده التتن ، فهو أخف من الأنفية ، وهو المسمى بـ «النشوق» و « العطّيس » ، لأن الاولَين دخان، والثالث جرم يحشى بالانف ، فهو أعظم ضرراً ، كما رأيت ذلك في بعض مؤلفات الطب الجديد ، والمعافى من عوفي منها كلها .

وبالجملة فهي حرفة يرتزق منها أناس كثيرون ، وكانت تنتج ربحاً عظيماً في الزمن السابق ، وقد أصبحت قليلة الربح ، وذلك لاحتكارها أيضاً من قبل الحكومة. وقد تقدم الكلام على ذلك في حرفة «التتنجي» .

٣٢ - تنّوري

اسم لمن يخبز الخبز في التنور ، وهو من أجود أنواع الخبز وألذها . وهذه الحرفة رائجة في البلدة ، وصانعها ، في أي بلدة أحب يشتغل فيها . وقد رأيت من كان يشتغل عندنا في الشام ، يشتغل في مكة المكرمة ، ورأيته في بيت المقدس ، وفي يافا ، بخلاف الخباز — الآتي ذكره ان شاء الله تعالى — .

وصانع هذه الحرفة مستور متعيش منها ، /والله سبحانه الميسر والمسبب لاغيره .

٤٦ .

حرف الثاء

٣٣ - ثلّاج

اسم لمن يأتي بالثلج من محله المدّخر فيه أيام الشتاء، كالتل ومنين وغيرهما من بلاد الجرد . وذلك اذا نزل الثلج في تلك البلاد أيام الشتاء، يأخذونه ويضعونه في محلات مخصوصة عندهم ، وذلك بعد كبسه ، ثم يعللونه بما اصطلحوا عليه الى أيام الصيف، فيروج ويباع بثمن وافٍ . وقد كثرت حرفة « الضرمنة شكر » عندنا في الشام ، فيباع في كل يوم لتلك الحرفة أكثر من مئة حمل أيام الصيف ، عدا العرقسوسية ، والجلابجية ، وللبيوت وغيرهم . وبالجملة فلا ينقطع الثلج عندنا في الشام ، لاصيفاً ولاشتاء . وعندنا في الشام جبل يقال له « جبل الشيخ » ، لاينقطع منه الثلج صيفا ولاشتاء ، منذ خلقه الله .

وحقيقة الثلج ــ كما قاله الاطباء ــ : هو ما تصاعد من البحر الى كرة الزمهرير ، ليكون مطراً ، فتتعاكس عليه الرياح الباردة ، فينعقد ويسقط في البلاد البعيدة عن الشمس ، وهو اما « مبندقاً » ويعرف بـ « البَرَد » ، أو قطعاً رقاقاً ، ويخص باسم « الثلج » .

قالوا : وهو عظيم النفع في الحميات الحارة ، والجرب ، والحكة ، وضعف المعدة عن حرّ ، ويسمن الحيوان غير الانسان . وهو ضار

بالمشايخ، ومن غلب عليهم البلغم ، وبالعصب، ويصلحه القرنفل والعسل. انتهى .

قال سيدي عبد الغني النابلسي قدس سره مادحاً له :

انمـا الثلج مـاء عين الحيـاة وهو يطفي حرارة الحميـات
وهـو أيضاً يبرّد الكبد الحرا ويحمـي بـرودة المعـدات
خلّ عنك قول الطبيب وجانب نصحه فهـو قول العـدات
كله واشرب من مائه فهو هضم للطعـام الغليظ نعم المـواتي
أبيض بـارد كمندوف قطـن وهو عند المحرور قطر النبات
بـادٍ زهـرية به لعليـل جالب للشفـاء بين الشفـات
ثلجنا في دمشق لا في سواهـا فيه نفـع بمقتضى العـادات

٤٧

ومن الملح المستظرفة في الثلج ما قيل :

لاتلوموا دمشـق ان جئتموها فهي قد أوضحت لكم ما لديها
انها في الوجـوه تضحك بالز هر لمـن مر بالربيـع عليهـا
وتراهـا بالثلج تبصق في لحـية من جـاء في الشتاء اليهـا

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها كثير من الناس . فسبحان من ألهم ما أراد لما يريد .

٣٤- ثـوّام

اسم لمن يبيع الثوم المعلوم ، فتشتريه المتعيشة من أصحـابه ، ويشلّفونه على الحمـار ، وينـادون عليـه :
« يبرودي ياتوم » : لأن أجوده ما جاء من بلدة « يبرود » التابعة لقضاء النبك ، التابع لولاية الشام .

ثم الثوم نبت معروف ، وهو اما قطعة واحدة ، ويسمى الجبـلي ، واما أسنان ملتئمة كبار ، وهو الشامي ، أو صغار جدا ، وهو المصري . وأجود الثوم : الأسنان المتفرقة الكبار ، وخاصيته أنه ينفع من السعال، والربو ، وضيق النَّفَس ، وقروح المعدة ، والرياح الغليظة . ولا يؤكل منه ما جاوز السنة ، ولا ما نشأ في البلاد الحارة كمكة . انتهى ماذكره الشيخ داود مختصراً .

وأما ماورد من كراهة أكله ، وأكل البصل في الشرع ، فمحمول على أكله نيئاً ، لامطبوخاً (ولمن أراد أن يحضر مع الجماعة ، والا فلا كراهة).

وبالجملة فبيعه والتعيش به لابأس (به) ، وهــو يجلب كســباً في الجملة للفقراء ، والله الرزاق .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

٣٦- جبّـــان

اسم لمن يبيع الجبن في الخان المعروف بخان الجبن ، أو في دكانه • وتجار الجبن يشترون الجبن من الفلاحـين الذي يقدمون به من قراهم ، ويبيعونه للبقالة ، أي السمانة •

والجبن : ما انعقد من اللبن الحليب ، اما بالأنفحة ، أو غيرها من المجمّدات • وجيد الجبن ورديئه يتبعان اللبن •

ثم الجبن عندنا ينوع أنواعاً ، فمنه نوع يقال له :

جبنة قرمانية : وهي التي تدق وتوضع في الظروف الجلد مع الملح والمحلب وحبة البركة •

ونوع يقال له : المغلية : وهي أن تغلى بالماء المسخن ، حتى تلـين وتبسط بالمحلب والحبة السوداء ، أي حبة البركة ، وتوضع بالماء والملح ، وتبقى زماناً الى آخر الشتاء ولاتتغير •

ومنها : الزيتية : وهي أن توضع بهيأتها في الزيت الحلو البلدي ، فتبقى زماناً •

ومنها : المشروشة : وهي أن توضع بهيأتها في الماء والملح •

وأجودها المغلية • قال بعضهم : اذا أكل من غير ملح ، وأتبـع في الجوز والصعتر ، سمّن الأبدان تسميناً لايعدله شيء في ذلك ، وأذهب الأخلاط الصفراوية ، والحكّة ، وحرقة البول ، وضعف الكلى ، ونعّم الجلد ، وحسّن الالوان • لكنه بطيء/ الهضم ، خصوصاً في المبرود ، ويصلحه العسل •

ومن الجبن أنواع تجلب الينا من البلاد ، كالأشأوان ، وان أعرضنا عن ذكرها ، لاننا في صدد صنائع وحرف بلدتنا الشام .

ومما قيل في جبان :

فديته بائعاً للجبن مقلتـه	كَسْلى وكم صرعت في الحب من بطل
وكم شجاع غدا في حبه أبداً	عن السُّلُوّ حليفَ الجُبنِ والكسل

٣٧- جباسيني

ويقال له : الجصاص قديماً . وهو بائع الجِبْس ، بكسر فسكون . وتسميه العامة « الجبصيني » .

وصنعته : أن تقطع أحجاره المعلومة قطعاً محكماً ، وتوضع في بيت النار حتى تسود ، ثم تحمر ، ثم تبيض ، (ثم تطحن في مدرس بواسطة دابة ، كالزبيب والنشا ، مما يدرس) ، ثم تدق ناعماً وتنخل ، فتصير جبصيناً ، تلصق فيه الاحجار عند البناء .

وأخبرني بعض البنائين : أن الجبصين للحجر ، كالمسمار للخشب .

ومن خواصه أنه اذا سحق بالزيت ويسير البورق والشب ، ولطخ به على الكتابة أزالها . واذا جعل على الثياب ، قلع ما فيها من الأعراق والاوساخ والادهان .

والجباسيني يبيع ألواح بللور الزجاج أيضا . وحرفته رائجة يكتسب منها معاشاً حسناً لابأس به . فسبحان من جعل لكل أحد من خلقه سبباً .

٣٨ - جـــدّا

بتشديد الدال . هو من يبيع الجدايا أوائل الربيع غالباً . وذلك اذا ولدت المعز ينظر (أصحابها) ، فان جاءت بأنثى تركوها مع أمها ، وان ولدت ذكراً (باعوه الى الجدّا المذكور ثم هو ونظراؤه في هذه الحرفة ، بعدما يشترونه) يذبحونه ، ويأخذون انفَحَتَهُ ، (ويتعاطون بيعه مذبوحاً مسلوخــاً) . وذلك بأن يضعوا الجدايا على الدابة ، ويدورون بها في الشوارع والاسواق ، وينادون : «الجدي الريّان» ، فيبيعونها للاهالي ، ويسعرون الرطل بسعر مخصوص، فيتّزان الجدي مذبوحاً مسلوخاً ، ويباع بالسعر الحاضر .

وبالجملة فهي حرفة دنيئة يتعيش منها أربابها . والله الملهم .

٥٠ ٣٩ - جــذّاذ

هو من يجذُّ أي يقطع ويقص شعر الغنم وصوفها/ ولذا يقال للصوف الجيد : « صوف جذ » أي مجذوذ. والجذاذ يدور ويذهب الى العرب[1] ، ومن عنده غنــم ، في أوقــات مخصوصة ، ويجذُّ صوفها بأجرة معلومة ، يتعيش منها ــ وسيأتي ان شاء الله تعالى في حرف القاف في القصاص زيــادة على ذلك ــ والله المسبب لاغيره .

٤٠ - جــرّاح

من يتعاطى صنعة الجراحة . وهي قسم مــن أقسام الطب الرائجــة . وصاحبها يتعاطى المجاريح بالتفتيش عليهم ، بوضع اللصوق والمراهم ، سواء كانت بجراحة أصلية أم عرضية.

(١) راجع الحاشية الواردة في الصفحة ١٩ من هذا الكتاب .

وهذه الصنعة ليس فيها كساد ، سيما في مثل بلدتنا ، فلا تجدالجرائحي كاسداً أبداً . وهي تثري غالباً ، سيما ان اشتهر ، ولو بلا علم ومعرفة ، وساعده الحظ ، فان الشهرة والحظ هما من أعظم رأس مال الانسان .

وبالجملة فان صنعة الجراحة من أروج الصنائع ، كالطب الآتي ان شاء الله تعالى في حرف الطاء .

٤١ - جـــرّاد

(هو من يتّجر في حاجيات الأعراب والبدو ، مـن قمصان وعبي وكفافي وحطات حريرومحارم كبيرةوصداري وثياب وغير ذلك من ملبوساتهـم كفروات وعكل . وهؤلاء تجـار مخصوصون ، يذهبون في مواسم مخصوصة ، عند طلوع الحـاج ، ويجعلون في رقعة « مزيريب » سوقاً مخصوصـاً يسمى « القصبة » مشتملا على كل شيء من البضائع . والعرب تنتظر تلك المواسم ، فيأتون اليها ، ويشترون من التجار ما يلزمهم من ملبوسات وقهوة وغير ذلك . وذلك السوق يشتمل على أكثر من مئة خيمة . وفي رجعة الحج ، يذهب بعض التجار مع جردة الحج كذلك : وهو موسم مخصوص أيضاً ، يقام في « مدائن صالح» . وبالجملة فتجـار هذه الحرفة كثيرون ، ويثرون غالباً . ويطلق الجراد أيضاً على من يجرد البضائع للبلاد البعيدة الصغيرة، أو القرى ، بأجرة معلومة . ويسمى « العميل » أيضاً ــ كما يأتي في حرف العين ان شاء الله تعالى) .

هو اللحـام الآتي في حرف اللام .

٤٢ - جـزّار والجزارة : الصنعـة . والمجزرة : موضع الجزر ، أي الذبح ، المسمى الآن بـ « المسلخ » . وهذه الصنعة غير شريفة ، كالاسكاف والحجام الآتي .

٥١ (ومما ينسب للامام) الشافعي أنه قـال ـ كما/رأيته في بعض المجاميع :

تجنَّبْ عشـرة الأنذال تنجو لتصحَبك السعادة في أولئك
فستٌ ليس يصحبهـم لبيت فان اعددتهـم فهمو أولئك :
فجـزار وبـواب وعبـد وحجـام واسكاف وحائك

وقد فضَّل أبو الحسين الجزار الشاعر المشهور صنعة الجزارة على حرفة الشعر بقوله :

كيف لا أشكر الجـزارة ما عشـت حفاظـاً وأرفض الآدابـا
وبهـا كـانت الكـلاب ترجيـني وبالشعر صرتأرجو الكلابا

وقال أيضاً :

لأتعبـن بصنعـة القصـاب فهي أذكى مـن عنبر الآداب
كان فضلي على الكلاب فصار الـآنَ حقاً عليَّ فضل الكلاب

وأبو الحسين الجزار هذا هو القائل :

فان يكن أحمد الكندي متهما بالفخر يومـاً فاني فيـه متهم
فاللحم والعظم والسكين تشهدلي والجدوالقطع والساطوروالوضم

قال الصلاح الصفدي : يريد بأحمد الكندي أبا الطيب المتنبي القائل:

ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلين به ... حتى خرجتُ وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلم

يقول (الشيخ) عبد الغني النابلسي في شرح بديعيته : وعندما وقفت على هذه الابيات ، جعلتها كالمثال ، ونَسَجْتُ على منوالها العجيب ما يُتلى عليك من المقال ، فقلت ارتجالاً :

باللهو في شغف ان كنت تنكره ... وتدعي أنك العلامة الفهم
فالعود والجنك والطنبور يشهدلي ... والدف والطبل والنايات والنغم

وقال أيضاً « رحمه الله » :

ان كنت تنكر في العشاق منزلتي ... ولا يردك عني الدمع والسقم
فالثغر والشَّعر والأصداغ تعرفني ... والقِطف واللحظ والوجنات والضَّرمُ

وقد أطلنا الكلام على ذلك ، وكدنا أن نخرج عن الصدد ، لكنه لايخلو من لطائف . وبالجملة فهذه الصنعة كثيرة الوجود ، ويتعيش/منها كثير من الناس . والله الرزاق .

٥٢

٤٣ - جزماتي

اسم لمن يصنع الجزمات عندنا في الشام . والجزمات جمع جزمة . وهي ما يلبس بالرجل من النعال ، له ساق يستر ساق الرجل أو بعضه غالبا . وهي أجناس : عال ، ووسط ، ودون .

فالعال : ما يلبسها امراء العرب ووجوههم ، وجلدها أحمر قانٍ ، ولها طيات أمام الساق ، وعلى رأس ساقها المطوي طرة حرير طويلة ،

لونها أزرق ، ملتف عليها خيوط من السيم ، وبأسفل قدمها « حذوة » ، أي : حذاء من الحديد ، يلبسها البدوي ويفتخر بها ، وهذه مثمنة .

والوسط : دونها في القيمة والحسن .

والدون : لها سوق مخصوص بميدان الحصى ، يقال له : سوق الجزماتية ، يشتغلون بها الجزمات الدون ، لون جلدها أبرش الى الصفار أقرب ، يلبسها فلاحو أهل حوران ، نساءً ورجالا ، وأهلُ تلك الجهات من البدو . وهذه أجناسها أيضاً مختلفة بالحسن والجودة ، ومنها — أي من جنس الجزمات — ما يلبسه الجند ، أي العساكر السلطانية ، يشتغلها الكندرجية ، وصناع الميري ، جلدها أسود فرنساوي ، وساقها طويل فوق الركبة . وقد يلبس الضباط منها مايكون ساقها الى آخر الفخذ . وهذه ثمنها كثير ، على حسب صنعتها واتقانها .

وبالجملة فهذه الحرفة رائجة ، ولابأس بها ، وأهلها مستورون ، ومن ذوي البيوت . والله المسبب لاغيره .

٤٤ - جـلّاد اسم لمن يشتري جلود الغنم والمعز من اللحامة ومن المسلخ ، ويبيعونها الى الدباغين ، فيدبغونها ، ويجذون الصوف ، ان أرادوا اذا كان صوف الجلد يصلح لان يصير فراءً كجلد الخروف ، فيبقونه على حاله لأجل الفراء . ويبيعه الدباغون — وسيأتي ان شاء الله تعالى في حرف الدال ، في الدباغ زيادة على ذلك — .

٥ وبالجملة فهي صنعة غير مستحسنة ، لقذارتها في الدماء/والنجاسة ، وغير ذلك . لكن أربابها أغنى من غير حرف أمثالهم . والله المانح لاغيره.

٤٥ـ جليلاتي

اسم لمن يشتغل جـلال الدواب • وهي ما تلبسها الدابة لتصان بهـا ــ كما ذكره أهل اللغة ــ • والمقصد أن (أهل) هذه الحرفة تسمى « جليلاتية » ، تصنع جل الدواب ، من حمار وبغل وفرس • وأهل هذه الحرفة ، ومن يشتغل السروج الآتي في حرف السين (حرفتهم رائجة) وصنعتهم لابأس بها ، لانها غير دنيئة •

وهؤلاء ينوعون الجلال على حسب الطلب • فمنها الجميل كالسروج، فيوضع على دابة الركوب ، على حسب الراكب ، من أمـير فما دونه ؛ ومنها الدون الذي يوضع على دواب الحمالة ، كالزبالة وغيرها • فسبحان من ألهم عقلاء عباده ، تدبير الامور على مراده •

٤٦- جـمّال

بتشديد الميم• هذا الاسم يصلح لمن يبيع الجِمال بسوق الجمال • ولمن يسوس الجمـال ، ويفتش عليهـا ، وعلى طعامها وشرابها ، بأجرة من أصحاب الجمال معلومة تكفيه • وعلى من يستأجر الجمال بأجرة مخصوصة ، وهو ينتفع بالتحميل عليها •

وبالجملة فهي صنعة دنيئة • وأربابها من أداني الناس ، ويضرب المثل فيهم فيقال : هذا كلام جمّالي ، أو هذا اللفظ جمالي ، لانه يقع منهـم (تفاحش في الالفاظ ، وجفاء في الكلام • وقد يقع منهم ما يؤدي الى الكفر ــ والعياذ بالله ــ لغلبة جهلهم) ، سيما في طـريق الحج ، وذلك مشهور فيهم ، لايحتاج الى تمثيل • وبالجملة فَتَجَنُّب هذه الصنعـة وأهلها أولى ، لكن المولى تعالى أقام العبـاد ، فيما أراد ، والله رازق خلقه لاغيره • تبارك وتعالى •

٤٧ - جنباظ

اصطلح اطلاق هذا الاسم على رجل أو أكثر ، مركزه بسوق الخيل ، يشتري الخيل من الدلالين، ويحسّنها ، ويبيعها لمن أراد شراءها بالخداع والغرر ٠ وقد يشترك فيها جملة جنابظة، وهو لايشعر ٠ فيأتي أحدهم ، فيحسنها للمشتري ، ويوهمه بأنه خالي الغرض ، والحال أنه شريكه، ويقول له : تساوي أكثر، وأعطه ربح كذا، فيشتريها/بخداع شريكه٠ويأتي الدلال ، ويتوسط بين البائع والمشتري، ويضع يد أحدهما في يد الآخر ، ويجعل يديه على يديهما ، ويهزهما ، ويقول للبائع : بارك له بثمن كذا ٠ ولا يزال كذلك ، حتى يبارك البائع للمشتري، ولو بالاكراه غالباً ٠ وله على ذلك جُعْل" من البائع والمشتري٠ وعلى هذا الحال الجنابظة في أسواق الدواب ٠ واذا كان هذا حالهم ، فما يأخذونه على هذا الوجه يكون كالسُّحت ٠ واذا استعملوا التقوى، وأخذوا شيئاً برضاء الفريقين ، ظاهرا وباطناً ، بالصدق والنصح ، يوشك أن يحسن كسبهم،والأعمال بالنيات، ولكل امرىء مانوى — وهو أعلم —٠ ٥٤

٤٨ - جلّبجي

هو بائع الجُلاّب ٠ والجلاب نقيع الزبيب : وذلك بأن يدق الزبيب ويهرس ، حتى يصير كالحلاوة ، ويوضع عليه الماء ، حتى يتحلل حلاوة الزبيب في الماء ، وتشتد حلاوته٠ فاذا اشتدت حلاوته يسمى « صليبة » ، فيزاد عليه من الماء حتى (تعتدل) حلاوته ، فيوضع في حقاق الزجاج أو البللور ، ويوضع معه (ثلج) ، ويباع في الاسواق والشوارع ٠

وهذه الحرفة كثيرة ، كالشربتجية ، والضلضمجية ـ الآتي ذكرهما في حرفي الشين والضاد ان شاء الله تعالى ـ ويتعيش منها كثير ممن لاكسب لهم . والله رزاق العباد لاغيره .

٤٩ - جُوَخجي

اسم لبائع الجوخ . وهذا كالبزاز في حرفته . ثم من الجوخ ما يكون بألوان بسيطة ، كالأسود والأزرق والأحمر وغير ذلك . وغالب من يبيعه اليهود في سوق الخياطين عندنا في الشام . ومنه ما يكون منقوشاً ملوناً . وغالب من يبيع ذلك النصارى الخياطون ، وأكثرهم في سوق الجديد والحميدية . وعلى كل فهي حرفة شريفة ، وهي نوع من أنواع التجارة قابلة للربح ، لكونها مجهولة في الجملة . والله الميسر لاغيره .

٥٠ - جوهرجي

٥٥

ويقال له : الجوهري . اسم لمن يبيع الجوهر . والجوهر في اللغة : كل حجر يستخرج منه شيء ينتفع به . والمصطلح عليه ، ماله (قيمة) مثمنة من الاحجار النفيسة ، كالياقوت والزمرد والألماس وغير ذلك . وغالب ما يوجد عندنا بكثرة حجر الألماس ، الذي يقال له « ا لماس » . ثم ان كان يباع عند صائغه ـ أي صائغ الحلي المجوهرة ـ فيقال لبائعه : « صائغ » و « جوهرجي » . وان كان بائعه تاجره ، أي الذي يشتري الحلي المجوهرة ويبيعها ، فيقال له «جوهرجي» فقط ـ ويأتي في حرف الصاد في الصائغ زيادة على ذلك ـ .

حرف الحاء

٥١ - حائك

اسم لمن ينسج خيوطاً من غزل أو حرير أو صوف أو كتانٍ في الطول، ولُحمةٍ في العرض ، على هيأة مخصوصة معلومة . وصانعها يقال له « حائك » ، والصنعة « الحياكة »، وآلتها يقال لها « النول » و « المنوال » . وهي من ضروريات البشر ، كالخياطة غالباً . فمنها الأكسية ، ومنها الألبسة ، ومنها غير ذلك . وحيث تعالى كسا الحيوان بالشعر ، والطير بالريش ، ألهم البشر أن يصنعوا لأنفسهم سرابيل تقيهم الحرّ والبرد. والسرابيل جمع سربال . والسربال: القميص ، أو كل مايلبس .

والحياكة تنتج أكسية تصنع سرابيل ، أي ألبسة ، على حسب حال اللابسين .

والملابس تختلف أزمنةً كالشتاء والصيف ، وأمكنةً كالقطر الحار والبارد .

وهذه الصنعة دنيئة غير شريفة ، كما أسلفناه في « الجزار » من الأبيات المتقدمة .

ومن النظم الحسن ما قاله بعضهم في غلامٍ حائك :

يا حائكاً لِمُحبّه ثوبَ الضنا أقصِرْ فقد طوّلتَ شُقّةَ بَيْنه
وملكتَ شقة وصله فقطعتها وأخذتَ يا خلي الكرى من عينه

وقال آخر :

أقول للحائك الظريف وفي بنانه طاقة يخلصها
هل لك في ود مهجة لفتى ليس له طاقة يخلصها

٥٦

مراده بالطاقة الاولى الشقة ، وبتخليصها تطييبها للحياكة ، وبالطاقة الثانية القدرة ، وبتخليصها انتزاعها ممن أخذها قهراً .

وقال بعضهم :

أعملتُ فكري في السماء وقد بدا فيها هلالٌ جسمه منهوك
فكأنما هي شقة ممدودة وكأنه من فوقها مملوك

قال الشهاب المنصوري يعتذر لكبيرٍ عن عدم قيامه له لكبر سِنّه :

وما ذَهبَتْ بلُحْمَتِهِ الليالي أيمكن أن يكون له قيام

ولابن حجر العسقلاني هذا المفرد :

وخيوط هذا الشيب لاتنسج بها حلل المعاصي فهي ما خُلقتْ سُدى

ولغيره :

قالت وقد أبصرت للشيب يلمع ما هذا الذي هاج مذ أبصرته حزني
فقلت : هذي خيوط لم تَلُحْ لفتى الا لينسج منها حلة الكفن

ولأبي نواس في مليح حائك :

وحائك يا صاح أبصرته كالبدرَ في كفّيه ما سوره
فلم أرح الا وروحي كما عاينتُ في كفيه ما سوره

واعلم أن صناع الحياكة مختلفون فيها ، فمنهم من يحيك الألاجا بسائر أنواعها المتقدمة . ومنهم من يحيك الديما بسائر أنواعها الآتية في حرف الدال . ومنهم البرنجكية . ومنهم من يحيك البرنجك في سائر أنواعه ، ومنهم من يحيك الكفافي ، ومنهم من يحيك الشراشف والشالات القطن والأثواب الصالحانية والعبي بسائر أنواعها . وغير ذلك من الاقمشة التي تحاك عندنا في الشام .

وأما الحاكة في غير بلدنا كحمص ، فلا يحصيهم قلم .

وأما الاقمشة الواردة من بلاد أوربا ، فتلك شيء لايسعه عقل عاقل ، وأشغالهم على هذا المنوال الذي لايمكن حصره . فلذا اقتصرنا في هذا الكتاب على صنائع الشام وأهل الحرف المتعيشين بالاكتساب ./ والله ٥٧ مفتح الأبواب ، ومسبب الاسباب ، وهو المعطي الوهاب .

٥٢ - حارس

اسم لمن يحرس الأسواق المشتملة على الدكاكين والخانات ، مخافةً من مغتال أو سارق . ومن يحرس بعض الأزقة المجاورة للأشقياء . والحرّاس موظفون من قبل الحكام ، ومعاشهم من البلدية التابعة للحكام ، فيجعلون في كل سوق حراساً على حسب كبره وصغره ، فلا يزالون صحاةً بالليل ، وينامون بالنهار . ومع كل حارس آلة يصفرون بها تسمى « دُدُك » . ولهم في هذا الصفير اصطلاح

متعارف بينهم • وتجدهم طول ليلهم يراقبون المارّة ، فيعرفون الشقي من غيره • ولايزالون كذلك الى أن تتعارف الوجوه ، وتكثر الارجل ، وتمشي الناس ، فهنا يتركون الأسواق ، ويذهبون الى محلهم يرقدون فيه • فسبحان من رتب من أراد لما يريد ، وهو الفعال لما يريد • لارب سواه •

٥٣ ـ حبّار

(ويقال له حبري ، وهو) اسم لمن يصنع الحبر ويبيعه في بلدنا ، وهو المراد هنا ، وثمنه على حسب حسنه وجودته • ثم منه مايكون مائعاً ، وهو الأروج للمبيع ، ومنه ما يعمل جامداً يابساً محبّباً كرأس الأنملة أو الحصاة الصغيرة ، يوضع في نحو كيس ، لأجل الختم به بلا مشقة • ومنه ما يرد من البلاد كالمسمى بـ « الكوبيا » ، فيجلب من أوربا في حقق صغيرة من خزف بنفسجي اللون ، الى الحمرة أقرب • وهذا الجنس رائج جدا ، يستعمله التجار للكتابة ، ولطبع المكاتيب •

وقد ينوّع الحبر ألواناً : فيكون أحمر ، وأخضر ، وأزرق ، ومذهباً، وشبيهاً بالذهب ، كالنحاس ، وغير ذلك •

وبالجملة فهذه الصنعة منضروريات الحضارةوغيرها غالباً • وأربابها يتعيشون منها على حسب حالهم • والله تعالى المسهل للسبب لاغيره •

٥٨   ٥٤ - حبّــال   اسم لمن يصنع الحبال المعلومة بسائر أصنافها/كالمرس والخيوط المصيص، وأكثر عماله وصناعه أهل « المزة ».

بينها (وبين دمشق) نحو ميل . والحبال تعمل من (قصب القنب . وهذا) القصب يزرع كسائر الحبوبات ، فيبذر حبّه في أوائل فصل الربيــع ويزرع . وحبه يُعرف بـ « القنبس » . ثم يُتعاهد بالماء سقياً في نوبات معروفة اسبوعية ، فينبت ويعلو نحو قامتين ، ويدرك في ايلول . وأكثر زرعه في القرى الغزيرة بالماء ، وفيها يجوده . واذا اتفق زرعه في قرية قليلٌ ماؤها بالنسبة لكفايته ، فلا يجود ، لاتنمو أغصانه النمو المرغوب . وقد ضرب المثل عند الفلاحين في الغوطة بـ « قنب دوما » ، لخروجه رفيع الغصن ، دقيقه ، قليل الجدوى الزراعية . وكثيراً ما يقول الشاميون أيضاً اذا غدر أحد الشريكين بصاحبه : « طالعَهُ على قنب دوما » .

وكيفية عمله : (أن ينقع هذا القنب بعد قطعه) في مستنقعات معدةله مدة معلومة ، حتى يتحلل لحاؤه من أغصانه ، فيستأجر أصحابه عمالاً من نساء أو رجال ، يقشرون اللحاء عنه ، وأجرتهم قضبانه ، يأخذهـا الفعلة ويبيعونها وقيداً لافران الخبز . وأهل هذه الحرفة تسمى «قنابة» — وستأتي في حرف القاف — ثم تؤخذ تلك اللحاء وتجفّف ، ثم تباع للحبالة ، فيأخذونها ويمشطونها بمشط من حديد مُعَدٍّ لذلك . ثم بعد التمشيط يبقى اللحاء الخالص كشبه الحرير ، فيصنعونه حبالاً بالبرم، بدواليب مخصوصة ، وينوعونه من جميع الاصناف المذكورة . ثم مايبقى من اللحاء ، وهو الذي ينتثر بعد الامتشاط ، يباع للكلس والمونة التي توضع على الجدران — كما يأتي في حرف الكاف ، في الكلاس — .

وهذه الصنعة كادت أن تكون من الضروريات الحضرية والبدوية ، التي لايستغنى عنها • وهي رائجة جداً ، ويكتسب منها غير صناعها خلق كثير ، من تجار وسوقة • والله تعالى الملهم والميسر ، لارب غيره •

٥٥ - حبوباتي

اسم لبائـع الحبوب المنوعة ، مـن حمص وفول وعدس وقنبس ولوبيا وماش وغير ذلك ، من صعتر وسماق وقشر رمان يابس وسلل وقفف وأطباق من قش للسُّفَر ومناخل وغرابيل ومكانس ومقشات ، وأمثال هذه الانواع •

وهذه الحرفة يقال لها « الحبوباتية » • والمحترفون بها كثيرون • وهي رائجة كالعطارة • وأكثرها في الشوارع ، كمحلة السنانية عندنا في الشام/والله الملهم الوهاب ، وهو مسبب الاسباب لاغيره • ٥٩

٥٦ - حجّـار

اسم لمن يقطع الحجار من الجبال ، بآلة معلومة من حديد ، طولها قدر قامة أو أكثر • أحـد طرفيها مبروم ، والآخر مبسوط • وذلك بأن يدق الجبل من الطرف الرفيع دقاً كثـيراً ، ويعمّق محل الدق نحواً من شبر أو أكثر ، على حسب ما يظهر لهم • ويسمى هذا المحل باصطلاحهم « لغماً » • ثم يملؤون الثقب بـاروداً ، ويلقون عليه قطعة نار ، فيسمع لذلك صوت كالرعد المهول ، وتنقطع قطعة حجر عظيمة ، فيكسرونها على حسب المطـلوب • فان كان الحجر أسود ، أو صخرياً منقوشاً بعروق طبيعية ، أو صخرياً دونه ، أو كدّاناً ، باعوا الاول والثاني للنحاتين ، فينحتون منها للبناء والتبليط ، والثـالث

للأتونـي ليحرق ويعمل كلساً ـ كما تقدم ـ ، والرابع ليحشى بين البناء ، وللبناء أيضاً ، ويسمى بـ « الحجر الغشيم » .

وبالجملة فهي من الصنائع الشاقة ، وأهلها أشداء أقوياء :

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعةٍ وثريد

وقلت :

خلق الله للحجار رجالاً ورجالاً لسندس وحرير

٥٧ - حجّام

هو والحلاق والمزين بمعنى واحد .

والحجام في اللغة : المصاص . وهو من يمتص الدم بالمحجم . وهي آلة كالقرن ، مجوفة ، رفيعة الرأس ، مثقوبة الفم ، يمتص الحاجم الدم ، بعد شرط الجلد ، بآلة حديد كالموسى . وقد يحجم الحجام بغير القرن، ككاسات الزجاج ، وهو الغالب الآن ، فلا تحتاج الى مص .

وكرهوا صنعة الحجامة ، كالفصادة ، لعدم تحرز الحاجم والفاصد عن الدم ، باصابته الى ثيابه غالباً . فالكراهة من هذه الحيثية .

وهذه الصنعة يشترك فيها الحلاق والمزين ـ الآتي ذكرهما ـ كما قدمنا ، بمعنى أن كل واحد منهم عنده معرفة بالحجامة والحلاقة والتزيين. وقد ينفرد الحجام بها نادراً .

٦٠ والحجامة باخراج الدم ، الآن قد ندرت/جداً ، الا لضرورة شديدة، لمنع الاطباء الناس في هذا الزمن عن اخراج الدم ، مخافة انحطاط الجسم وضعفه ، لاعتقادهم أنه الروح . والخلاف فيها شهير بين العلماء .

ويستعملون الآن « حجامة الهواء » بكاسات الزجاج : وهي أن تحرق قطعة ورقة هش وتشعل ، وتوضع في الكاس ، ويوضع الكاس على جلد العضو المحتاج لذلك ، فيمتص الكأس من الجلد امتصاصاً قوياً ، حتى اذا أريد اخراجه يقلع قلعاً بالجذب القوي ، وهو مانع لبعض الامراض .

ومما قيل في مليح حجام :

كلفت بحجام (تحكم) طرفه   فغدا على سفك الدماء يواطي
أضحى كثير الاشتطاط ولم تكن   منه اللحاظ كليلة المشراط

وقد أتي الحجاج بشاب سكران ، فقال له : من أنت ؟ فقال شعراً :

أنا ابن من دانت الرقاب له   ما بين مخزومها وهاشمها
تأتيه بالرغم وهي صاغرة   يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عنه ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين . وقال لبعض شرطه : سل (عن) هذا . فسأل عنه ، فاذا هو ابن حجام . فقال لجلسائه : علّموا أولادكم الأدب ، فو الله لولا أدبه لضربت عنقه . وعفا عنه .

٥٨ - حدّاد

اسم لمن يعالج الحديد بوضعه في الكور، والنفخ عليه في الكير، حتى اذا صار كالجمر ، لانّ معه ، وصنعه كيف شاء . وهذه الحرفة عندنا كثيرة ، وأهلها مختلفون في الصنعة : فمنهم من يصنع آلات العربية ، وهم قسم مخصوص . ومنهم من يصنع آلات الحرث وغيرها ، كالمجارف والسكك والمرور للحرث . ومنهم من

يصنع الجنازير للخيل ، وغير ذلك من السكك • ومنهم من يصنع الآلات التي تلزم لنجارة المحلات والابواب وغير ذلك • ومنهم من يصنع الكوانين كالصوبات والطبابيخ وغير ذلك • ومنهم الغالاتية — وسيأتي ذكرهم في حرف الغين — الى غير ذلك من حرف الحدادين التي هي بكثرة •

٦١ وبالجملة فهي من الصنائع الشاقة التي قيّض الله لهـا أناساً/لتتميم نظام الكون • والله متولي العون لاغيره •

٥٩- حـدّار (هو من يأخذ من غالب أجناس البضائع ، ويخرج بها الى القرى • وذلك نحو الخام واليمني والمحارم والمناديل والخيطان والأ بر وغير ذلك ، ويتجر بها في بلاد الفلاحين ، فيبيع بدراهم وبقمح وكشك وعدس وبرغل وغيرها ، ويربح من ذلك ما يتعيش به •

ولايتعاطى هذه الحرفة الا الفقير المدقع • والله سبحانه الميسر) •

٦٠ - حـذّاء ويقال له « حدّا » بدال مهملة : اسم لمن يصنع الحذوة في أسفل النعل ، من جزمة وبابوج وغير ذلك من نعال وجزمات الفلاحين • ثم الفلاحون يحذون جزماتهم ، وبعض بوابيج الفلاحين بحذوة حديد ، توضع بأسفل النعل ، من جهة العقب • ومنهم من يحذو نعله بقطعة نعل غليظة عوض الحديد ، يجعلها في أسفل

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

والحراث أجير فلاح عنده خبرة ومعرفة بالحرث ، يستأجره الشداد أو المستأجر أو المزارع للحرث ، فيذهب بالفدان مع رفقائه الى البرية ، فيحرث الارض المقتضي لها الحرث الى وقت الظهر ، فيذهب بفدان البقر الى المربط ، فيجده مملوءاً من العلف ، كالتبن(المخلوط بمطحون الكرسنة أو الفول أو الجلبان) ، وقد وضعه وهيأه أجير مخصوص • فاذا فرغ من العليق ، سقاه أيضاً من الماء الذي هيأه الأجير •

ويتعاطى هذا الحراث المذكور بقر الحرث والأثوار بالخدمة ، من مسح وتنظيف ، ويجعل له سيده ، الشدّاد أو المستأجر ، نظير أتعابه مبلغاً معلوماً من الدراهم سنوياً ، يتعيش به • والله مدبر الكون لاغيره•

ورأيت لغزاً في الفدان والسكة والحراث :

ومدفونةٍ تمشي وفي الارض نصفها　　يدب دبيب النار في الزرجون
لها ست أيدٍ عندها ست أرجلٍ　　وآذانها ستٌ وست عيون

أقول : المراد بالأيدي والأرجل والآذان والعيون أعضاء الفدان •

(وللأديب ابن فهد الحلبي ثم الدمشقي في حراث مليح) :

عشقتُ حراثاً مليحاً غدا　　في كفه المحراث ما أجملَه
كأنه الزهرة قد أمّهُ الثورُ يراعي مطلع السنبلة

٦٢ - حزّام

اسم لمن يتعاطى شدّ الأحمال بالحزم في الحبال،بهيأة وترتيب مخصوص• وذلك بعد لفّ البضائع بالخام وغيره، ووضع الحبال عليها ، من سائر جهاتها مرتبة ، وشدها بآلة معلومة تسمى « اصبعاً » • وتارة يحزمون الصناديق الممتلئة بالبضائع • ولهم بهذه الصنعة اعتناء عظيم بهذا الحزم ، مع الاتقان ، وتصير فردة المحزوم

كقطعة واحدة ، بحيث لو سافر بها صاحبها الى أقصى البلاد ، لايحصل للبضائع التي هي داخلها أدنى ضرر •

وهذه الحرفة مخصوصة •(وأهلها) قليلون ، وتجلب لهم ربحاً عظيماً ، لان لهم على كل فردة أجرة معلومة • فسبحان الميسر/لارب غيره ، ولا معبود سواه •

٦٣

٦٣ - حشّاش

هو من يبيع الحشيش ، من أصيل وفصة وبيقة ، لمن عنده نحو خيل وحمير وغير ذلك ، بأن يضمن قطعة أرض من صاحب بستان ، زرعها صاحبها أصيلاً أو فصة أو بيقة ، بثمن معلوم • فيأتي الحشاش أيضاً كل يوم ، فيحصد منها بمقدار ما تطيق دابته حمله ، وذلك بعد ما يجعل الحشيش جُرَزاً ، أي : يحزم كل رزمة ، فيجعلها حزمة ، ويضعها على دابته ، ويذهب الى زبوناته الذين عندهم دواب ، فيرمي لهم بقدر حاجة دوابهم ، ويدور في الاسواق ، ويذهب الى خانات الدواب ، ويبيع ويربح ، ويحمد المولى عز وجل •

فائدة — من خواص الفصة أنها لو زرعت (في أرض وتعوهدت كل نحو خمس سنين ، فانها تبقى جذورها سنين عديدة) ، وكلما حصدت تعود وتنبت كما كانت ، بخلاف الأصيل ، وهو سنابل الشعير قبل يبسه ، فهو انما ينمو ويضمن للدواب زمن الربيع لاغير • والله خلقكم وما تعملون •

٦٤- حصّاد اسم لمن يحصد القمح والشعير وغيرهما من الغلة أي : يقطعه بالمنجل المعلوم، عند اشتداد الحَبّ ويبسه . وله زمن معلوم ، يقال له : وقت الحصيدة . وهو من وقت اشتداد الحر .

وأهل هذه الحرفة يقال لهم : « الحصادون » . وذلك بأن يشترك جماعة من الحصادين بأخذ حانوت من الحوانيت من مالكه أو مستأجره، ويجعل لهم المالك أو المستأجر مبلغاً معلوما من الدراهم مقاطعةً على حصيد جميع الغلة التي في الحانوت ، فيشتغلون في الحصيد كل يوم من الصباح الى بعد الزوال ، وهكذا الى نفاد الغلة .

وبالجملة فأهل هذه الحرفة يتعيشون بها كفايتهم .

٦٥- حصري اسم لمن يصنع الحصر التي تفرش في المحلات والبيوت ، للجلوس عليها . ثم الحصر تختلف في الجودة والخسة ، على حسب رغبة المشتري/فالجيدة يقال لها « المصرية » ، أقل ثمن ذراعها يساوي قرشين . (والتي دونها) ذراعها بقرش فأقل . ٦٤

وصنعتها : أن تمد خيوط من جنس الحبال ، يقال لها :«مصيص» ، من خشبة الى خشبة أخرى ، كل خيط بخيطه على التساوي . وتدخل تلك الخيوط بأثقاب خشبة كمشط الحياكة ، وتشد شداً قوياً . وتأتي الصناع بالقش ، وتدخله بين تلك الخيوط بالتثني المحكم ، على مقدار عرض الحصيرة ، حتى اذا فرغوا من الادخال بمقدار عرضها ، دقوها بذلك المشط . وهكذا حتى يفرغوا منها . فاذا انتهوا منها على حسب

مطلوب المشتري، قصّوا الخيوط، وربطوها ربطاً محكماً ، بعرض القش، ولفوها ، وأرسلوها الى المشتري •

وبالجملة فهذه الصنعة عندنا رائجة ، وأربابها الذين يقال لهم « الحصريون » مستورون ومنعمون ، ويكتسبون منها كفايتهم • والله مسهل السبب • لارب غيره •

(وبقي من أنواع الحصر ، نوع يصنع في بعض قرى الشام ، كقرية بلودان ، نفيس جداً ، له نقوش جميلة ، وحياكة جيدة ، يساوي ثمن الذراع منها ماينيف على عشرة قروش • ونوع آخر يسمى « الحصر الدباجية » : وهي حصر غليظة جداً ، في مقابلة النوع الذي قبله ، تأتي من قرية « حران » ، من قرى مرج الغوطة ، تصنع ثـمَّةَ ، وتباع بدمشق عند العلافة ، يشتريها بعض الفلاحين ، وبعض أصحاب القهاوي لمصايفهم، في مثل المرجة ، وحافات بردى ، وغير هؤلاء أيضاً) •

٦٦ - حطّاب

(اسم لمن يشتري الاشجار العادمة النفع ممَّن يبيعها من أصحاب البساتين• ثم بعد قلعها وتقطيع أغصانها ، يهيئونها أحمالاً ، ويحملونها على دوابهم من جمال وأفراس وحمير ، ويأتون بتلك الأحمال الى البلدة ، ويدورون بالشوارع ، ويبيعونها بالسعر الحاضر •

والحطّابة أناس لهم مهارة بقطع الشجر وتهيئته ــ كما يأتي مفصلاً في حرفة الكسار ــ) •

فائدة فقهية ــ مستأجر البستان ، أو الضمّان ، ان اشترطا في صلب العقد أن يكون الشجر اليابس لهما ، فقطعا وباعا ، فلا حرج عليهما ، والا فالآخذ لشيء من الحطب مختلس ومغتصب وخائن ، يجب رد ما أخذه الى ما لكه ، ويغرم بقيمته •

ثم اعلم أن أعلى الحطب وأغلاه حطب الزيتون ، فالجوزوالمشمش ، وماعداه كحطب الزعرور والتين فدونها في الثمن والحسن •

وبالجملة فالحطابون كثيرون ، ويتعيشون في الجملة •

ثم من لازم الحطاب أن يتبعه الكسار ، أي كسار الحطب • وقد يكون الكسارون/كثيرين على مقدار أحمال الحطب ، يمشون خلفها ــ وسيأتي ان شاء الله في حرف الكاف عند لفظ الكسار زيادات ــ والله القوي الرزاق •

٦٥

٦٧ ــ حفّار هو اسم لمن يحفر القبور ، ويدفن فيها الموتى • وهذه الحرفة ، وان كانت تشمئز منها نفوس من لم يعتدها ، لكنها تثري في الغالب • وغالب أهلها متوسطون ، ومنهم من أثرى كثيراً ، وصار يعد من الاغنياء • أشهرهم في الشام من يتعاطى الحفر في التربتين الكبيرتين الشهيرتين : الاولى تربة **باب الصغير** والثانية تربة **الدحداح** • ويوجد في البلدة غيرهما كثيراً ، لكنهما لكبرهما وسعتهما وشهرتهما ، بأنه دفن بهما من الصحابة والتابعين والصالحين ، سيما باب الصغير ، المشتمل على المزارات الشريفة ، كمقام سيدنا بلال ، مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغيره من الصحابة ، وأهل البيت ، مما هو شهير • وقبورهم ظاهرة ، والجلالة عليها لائحة ،

كما لايخفى على من زارهم . ولذا لاتختار أهل البلدة غالباً الا الدفن فيهما ـ أي بتلك المقبرتين ـ . من هذا ترى الحفارين الذين هم بتينك التربتين أثرى وأغنى من حفاري غيرهم من الترب ، لاسيما اذا مات أحد من الأغنياء أو الأمراء ، فانهم يأخذون منهم فوق مايريدون ، من أجرة دفن ، وأجرة مظلة . وأجرتها في كل يوم للفقير عشرة غروش . وأما الغني فيأخذون عنها في كل يوم خمسة عشر غرشاً أو أكثر ، سيما ان كان الميت أميراً أو وزيراً ، فلا تسأل عما يأخذونه . وكذلك مثل أجرة كراسي أيام الصباحيات ، وأجرة تفتيش على القبر الى السنة غالباً . وقد يجعلون له معاشاً عن شهر شيئاً معلوماً (من الدراهم) ، وبالأعظم اذا حصل موت متتابع ، بسبب طاعون ، أو ريح وخيم أصفر ـ لاحصل ، ولا كان ان شاء الله تعالى ـ كما نقلوا لنا عن الريح الوخيم الذي حصل في الشام سنة ١٢٦٤ ـ لا أعاده الله ـ فانه عَدّ فيه من الوفيات كل يوم أكثر من ألف . فمن مثل ذلك يحصل للحفارين في تلك المواسم ـ لاكانت ان شاء الله ولا تكون ـ/ الغنى والثروة الكثيرة . ٦٦

٦٨ـ حكّاك الخواتم

هو اسم لمن يحفر الختم المصبوب من النحاس الأصفر الرملي . وتارة يكون من فضة.ويحفر أيضافصوص الخواتم المعمولة من الاحجار المعدنية ، كحجر العقيق ، وحجر الدم ، وغير ذلك .

وأهل هذه الحرفة ، غالبمقرهم أمام باب سرايا العسكرية أو المالية. وغالبهم يجلس في الطريق والسكة . ويوجد منهم بين السرايين ، في الدكاكين ، ولكن هؤلاء الذين هم في الدكاكين متقنين لحفر الخواتم

بالخط البديع جداً ، ويأخذون على كل حرف شيئاً معلوماً من الدراهم لحسن حفرهم ، وخطهم الاسلامبولي ، وغالب من يحفر عندهم الأمراء وضباط العساكر ، وغيرهم من الاغنياء . وأما اولئك الذين يجلسون على الارض ، فيحفرون الخواتم للفلاحين وللعساكر والفقراء من عشر بارات الى عشرين باررة ، المسمى بالقمري .

وعلى كل فهي صنعة جميلة ، وحرفة لطيفة ، يتعيش بها ، ويتقوت منها ، ولا بأس بها .

٦٩ - حلّاج

اسم لمن يحلج القطن ، أي يخرج بزره بآلة تسمى «المحلج» . وذلك بأن يبني الحلاج في جهة الحائط من دكانه بناءً مرتفعاً ، نحو قامة ، من جهة الدولاب ، وبمقدار نصف قامة من جهة جلوسه ، مستنداً على جدار . وعرض هذا البناء كطول آجرة . ويوضع الدولاب من أعلى البناء ، وبوسط الدولاب حديدة فولاذ مبرومة متصلة بجهة يده ، داخلة في خشبة ، وملاصق الحديدة نظيرها من خشب ، بل أغلظ منها . وفي وسط الدولاب عود أعوج ، يعلق في وسطه عند ارادة فتل الدولاب ، وهذا العود الاعوج مربوط بحبل يتصل الى رأس دف مثقوب من رأسه ، مربوط به هذا الحبل . وهذا الدف ممتد على الأرض ، مرتفع من جهة الحبل . فاذا اراد الحلج ركب هذا البناء المسمى بـ « الدولاب » / في عرف الشاميين ، و بـ « المحلج » في عرف أهل القرى ، ووضع رجله اليمنى على مؤخر الدف وحركه ، فاذا حركه برجله انفتل الدولاب فيفتل الحديد الى جهة ، والخشب الى جهة أخرى ، فيأخذ القطن ، ويدخله بين الجهتين . فيخرج البزر من جهة يسراه ، ويبقى القطن من جهة يمناه محلوجاً ، خالياً عن البذر .

٦٧

وهذه الصنعة يشتغلها «القطان» ـ الآتي في حرف القاف ـ غالباً ، وغيره من الصناع . وهذه حرفة لا بأس بها ، ويتعيش منها .

٧٠ - حلّاق

اسم لمن يحلق الشعر من الرأس والوجه، بالآلة المعلومةوهي الموسى. وهذه الصنعة كثرت عندنا في الشام جداً ، سيما في هذا الزمن ، وهو سنة ١٣٠٩ . وقد اتقنت فوق العادة ، وذلك بتحسين الدكاكين ، وصنع المرايا الكبار ، والقطع الجميلة ، والتصاوير والغازات المثمنة ، وغير ذلك من آلات التحسين ، والعدة البديعة ، من الامواس الطيبة ، والمقصات من الأجناس العالية والغالية .

وصناع هذه الصنعة مرفهون في ملبسهم وهيأتهم ، مع نظافة المحل والبشاكير ، واستعمال الروائح الفاخرة ، بحيث لو مر الشخص على احدى دكاكينهم لاشتهى أن يحلق ، ولو كان حالقاً ، وذلك لما يجد من الرونق والزخرفة التي استعملها الحلاقون .

وأهل هذه الصنعة من غالب الملل : كالمسلمين والنصارى واليهود . وغالبهم نصارى ، وهم الذين ترققوا وأبدعوا في هذه الصنعة ، وتبعهم غيرهم في التحسين .

ويوجد حلاقون فقراء، يحلقون للفقراء والفلاحين ، ليس لهم دكاكين، بل هم يطوفون في الشوارع والأسواق ، فاذا رآهم أحد من الفقراء والفلاحين ، فيعلق عدته في جدار حائط كشارع السنانية ، فيراه الفقير الفلاح ، فيأتيه لأجل أن يحلق ، فيجلسه على كرسي من قش ، منحرفاً عن الطريق ، ويحلق له بموسى كالمنشار / فلا يتمم له الحلاقة حتى يخضب

رأسه بحناء الدم ، من كثرة الشدوخ التي تشدخه بموسه المصدي . وقد قيل : الجزاء من جنس العمل . فهذا العمل ، وهو هذه الحلاقةالذباحة ، جزاؤها تلك الأجرة ، وهي عشرة بارات ، بخلاف الذين قدمناهم أول الكلام ، فجزاؤهم مثل عملهم ، فيحلقون للذوات والأغنياء والمتوسطين . فالذات لايدفع لهم أقل من نصف مجيدي أبيض . والمتوسط من ثلاثة غروش فأكثر.وكثيراً مايحلق عندهم فقراء مستورون مرفهون ، فيدفعون لهم كأجرة المتوسط أو أكثر .

وبالجملة فهي حرفة من أروج الحرف ، وصنعة لابأس بها ، وبعضهم يثري منها بالنسبة لأهل حرفته ، ويصير له نوع قبول أكثر من غيره . وليسوا مختصين بالحلاقة ، بل عندهم معرفة بالفصادة والحجامة وعنده آلاتها . وبعضهم يكون عنده معرفة بالجراحة ، وعنده آلاتها ومراهم ولصوق ، ويعرف أيضاً مايعرفه المزين ــ الآتي في حرف الميم ــ وهــو الخاتن الذي يختن الأولاد ــ كما قدمنا في الحجام ، فراجعه ان شئت ــ . والله الميسر والمسهل والمساعد ، لارب غيره .

ومما قيل في حلاق سيء الخلق فظ :

ألا رب حــلاق بليت بشــره   فأثر في رأسي الجراحة والبوسا
أنامله كالطور من فوق جبهتي   ورأسي كليم كلما حرك المــوسى

ولابن نباتة :

رأيــت في جلــق غــزالاً   تحــار في وصفــه العيــون
فقلت : ماالاسم ؟ قال : موسى   قلت : هنــا تحلــق الذقــون

٧١ - حـلّاب اسم لمن يبيع اللبن الحليب من بقر أومعز ، وهو الغالب عندنا ، ثم هو اما أن يكون بمحل مخصوص كدكان فيشتريه من بعض الفلاحين وغيرهم ممن له بقر أو معز ، يبيعه في دكانه للاهالي ، وله ثمن مخصوص على حسب الزمن ، من قلته أو من كثرته ، من جدب أو رخاء . وهؤلاء الذين يبيعونه في دكاكينهم ، قل أن يبيعوه خالصاً ، وغالبهم يشوبونه بالمـاء ، حتى تذهب دسومتـه . وهؤلاء /الشائبون الغشاشون ، تجدهم دائماً في قلة من الدين والدنيا . ومنهم ٦٩ من يأتي بمفرده من قرية حتى يصل الى البلد قبل طلوع الشمس، فينادي بالأزقة بالحليب ، فيأتي من يريد الشراء منه ، ويحلب له أمامـه . وهم أكثر وجوداً ، سيما في زمن الربيع . وأهل هذه الحرفة غالبهم فلاحون من القرايا ، ورأس مالهم مواشيهم ، من البقر والمعز ، ويقتاتون من أثمان ألبانهم . وبعض القرايا البعيدة يجبّنون حليبهم ، ويأتون به للبلـد ، ويبيعونه جبناً . ففي أيام الربيع ينزل سعر الجبن ويرخص كالحليب ، ويصير ثمن الرطل نحواً مـن خمسة غروش . وأما في زمـن الخريف ، كالشتاء ، فيباع الرطل بأكثر من خمسة عشر غرشاً ، وذلك لقلته ورغبته في تلك الأوقات .

وعلى كل فهي من الحرف الرائجة جداً . ولا ينقطع الحليب عندنا صيفاً ولا شتاءً . وذلك من جملة النعم الغزيرة التي تفضل الله بها علينا ، معشر أهل الشام ، والله ولي النعم والإِنعام ، ورازق الدواب والأنعام .

٧٢ - حلواني هو عند الاطلاق اسم لمن يبيع الحلاوة الطحينية بالسكر أو بالدبس . وأهل هـذه الصنعة في أماكن متفرقة في البلد ، وهم شهيرون في محالهم . وهذه الحرفة كانت قديماً رائجة جداً ، غير أنه في هذا الوقت تنازل أمرها بالنسبة لما كانت قديماً ، فلذا قلّت صناعها ، لقلة طلبها . ومع ذلك يوجد منهم الآن فرقة ، وهم مستورون . والحلاوة التي يصنعها الحلواني أصناف : فيها السكرية : والطحينية الدبسية، والجوزية، والمشبكة، ومنها ما يصنعونه في موسم رجب، وتسمى «العقيدة» وغير ذلك . والذي ذكرته من أصناف الحلاوة التي يصنعها الحلواني هو أشهرها .

٧٣ - حمّار اسم لمن يكون عنده حمير معدة ومهيأة ، فيؤجرها للركوب من محل الى محل ، بأجرة مخصوصة ، على حسب المسافة التي يريدها / المستأجر . وهذه الحرفة كانت قبل ظهور العربات كثيرة ورائجة جداً . وذلك أن غالب الناس يحتاجون الى الذهاب لنزهة أو لقرية ، أو لمحل بعيد ، سيما من كان عاجزاً عن المشي، فيأتي الى الحمّار فيستأجر حماراً لنحو قريته ، أو بستان لنزهة ، أو لمحل بعيد مجبور للذهاب اليه ، بأجرة مخصوصة ، فيركبه المستأجر لـه ، ويرسل مؤجره — صاحب الحمار — معه غلاماً ، حافي الرجل ، بيـده قضيب فيسوقه له ، حتى يصل راكبه لمحل قصده ، فيأخذ الأجير الحمار ، ويذهب به إلى معلمه ، وهلم جرا . فلما ظهرت العربات استغنى غالب

٧٠

الناس عن ركوب الحمير ، وصاروا يستأجرون العربات لأي محل أرادوا، نظراً للراحة والسرعة . وعلى كل ، فالآن باق منهم بقية ، يستأجر منهم من يرغب رخيص السعر ، ولو مع المشقة ، لأن أجرة الحمار لنحو ساعة بعشرين فضة أو ثلاثين الى القرش . والله تعالى يرزق من يشاء ولا ينسى من فضله أحداً .

٧٤- حمّامي اسم لمعلّم الحمام (ويسمى : المعلم)، سواء كان صاحبه ، وهو نادر ، أو مستأجره،وهو الغالب عندنا في الشام.

ثم ان معلم الحمام (المذكور) يحتاج الى أشياء لايتم أمر الحمـــام الا بها :

أولها ــ **عدة الحمام** الضرورية، وهي الفوَط ، وتسمى بالمناشف. وهي أجناس : عال ، ووسط ، وأدنى ، على حسب الزبون .

والى **ناطور** ــ وسيأتي في حرف النون ــ وهو مــن يتعاطى كسوة الخارج من داخل الحمام بالكسوة بالمناشف . ويشترط أن يكون عارفاً بالزبونات ، يكسو كل انسان مــن المناشف على حسب حاله . ويحتاج الى تبّع ؛

والى **مصوبن** ــ وسيأتي في حرف الميم ــ وهو من يغسل الانسان بالصابون والليفة ، والدلك بالكيس ، واخراج الوسخ لمن أراد ؛

ويحتاج الى **قهوجي** يسقي القهوة في الحمام للزبونات ، ويهيىء الأراكيل لمن يبغي الشرب بها ، ويأتي بقطعة نار لمن معه جيكارة لتعليقها.

ويحتاج الى اجـير أو أكثر ، لأخذ النعال و (تقديمها) لاصحابها •

٧١ ويحتاج أيضاً الى **مرآة ومشط** لمن أراد تسريح/شعره ، كلحيته ورأسه ، وهندسة عمامته • والى غير ذلك من زخرفة حمامه كوضع مرآة كبيرة في كل ايوان من أواوينه في براني الحمام ، ووضع ثريات وقناديل فوق بركته •

ويحتاج أيضاً الى **وقّـاد** ــ كما يأتي في حرف الواو ــ •

و **زبّـال** ــ كما يأتي في حرف الزاي ــ

ثم من حمامات دمشق من يفتح من قبل الفجر الى الظهر للرجال ، ومن الظهر للمساء للنساء • وتلك حمامات الأزقة والحارات غالبـاً • (ومنها) من يفتح للرجال فقط ، وهي الحمامات التي في الاسـواق والشوارع •

ولحمام النساء خَدَمَة من معلمة وغيرها :

فأما **المعلمة** : فهي التي تستقبل الزبونات ، وتقبض منهم أجـرة الحمام ، وتكون بهيأة جميلة ، من ملبس وغيره • وأما خدمة داخله :

فالأسطة : وهي التي تغسل البدن والرأس ، وهي كالمصوبن في حمام الرجال •

والبلانة : وهي تدلك البدن بالكيس ، وتصبغ الشعر الابيض •

وزقاقة البارد : وهي التي تأتي بالماء البارد ، وتضعه بالماء السخن ، حتى يطاق استعماله •

والناطورة وهي التي تحرس ثياب النساء ، وتأتي بمناشفهن ، وتنشف أبدانهن .

ثم حمامات النساء ، لايلزم لهن عدة كعدة حمامات الرجال ، فان النساء اذا أردن دخوله ، فمناشفهن من عندهن .

وبالجملة فهي صنعة كدّ وأتعاب ، وهموم وأكدار ، لكنها تثري غالباً لمن أتقنها ، لاسيما في أيام الشتاء ، وصبر عليها ، سيما في أيام الصيف.

وعدد حمامات دمشق [1] . وأشهرها في الحسن والاتقان والنظافة، ثلاث حمامات : حمام الخياطين ، وحمام القيشاني [2] ، وحمام الملكة .

ومما تفتخر به دمشق على غيرها من البلدان ، كثرة حماماتها ، الناشئة عن كثرة مياهها الجارية اليها بلا كبير كلفة . وذلك معدود من محاسنها.

وللمناسبة نذكر ما قاله بعض الشعراء في الحمامات ، مما وقفنا عليه من أبيات ، ومن نوادر وحكايات ، فنقول :

دخل بعض الأمراء مع الرقاشي الى الحمام ، فقال : أسمعنا شيئاً في مدحه ! قال : يُذهب القشافة ، ويعقب النظافة ، ويفش التخمة ، ويطيب النغمة .

---

(١) فراغ في الاصل .

(٢) (هذا الحمام كان شهيرا في الحسن والرونق ، وجودة الخدمة ، والمدة . ونال حظا من الاقبال في المدة الاخيرة ، بحيث صارت تضرب به الأمثال . ثم سقط وهجر ، وزهد فيه ، نفورا من قيّم كان اداره بنفسه ، وليس من أهل الخبرة في التودد والتلطف لقاصديه. ولازال كذلك حتى ظهر لملاكه ان يعملوه سوقا ، فحولوه الى مخازن ودكاكين . وذلك عام ١٣٢٤ . وقد كمل وسكن في عام ١٣٢٥) اهـ بخط الامام جمال الدين القاسمي .

فقال : قل فيه هجاءً . فقال : يهتك الأستار ، ويولد البخار ، ويذهب الوقار .

٧٢ وقال بعضهم : /اللذات خمسة : لذة ساعة وهي الجماع . ولذة يوم وهو الحمام . ولذة جمعة وهي النورة . ولذة حول وهي تزوج البكر . ولذة أبد وهي في الدنيا محادثة الاخوان ، وفي الآخرة نعيم الجنان .

ولبعضهم :

وحمامٍ : كـأنَّ النـار فيـه مسعـرة بنـيران الجـحيـم
دخلت أنـا ومن أهواه فيـه فعـاد لنـا كجنـات النعيـم

ولأبي طالب المأموني العباسي :

وحمّـامٍ لـهُ حَرُّ الجحيم ولكن شابَهُ بَـردُ النسيم
فذقتُ به ثوابـاً في عقـابٍ وزرت بـه جحيمـاً في نعيـم

ودخل محمد بن عبد الله أبو الحسين الهاشمي، من ولد علي بن المهدي — وقيل : هو محمد بن سكرة — حماماً ، فسُرق نعله ، فعاد الى منزله حافياً، وقـال :

اليك أذم حمـام ابن موسـى وان فـاق المُنى طيبـاً وحراً
تكاثرت اللصوص عليـه حتى ليحفى مـن يطوف به ويعـرا
ولم أفقِـد بـه ثوبـاً ولكن دخلت «محمداً» وخرجت «بشرا»

فورَّى بـ « بشر الحافي » الزاهد المشهور ، ليَذُمَّ المَشيَ حافياً، فلقّب به .

ولبعضهم فائدة في الحمام :

خـذ مـن الحمـام واخرج قبـل أن يأخـذ منـك
حَـدَثَـنْ عنـه و الا حَـدَّث الحمـام عنك

ولابن العربي :

عاينتُ في الحمام بدراً مشرقاً ... يرنو بمقلة شادن مذعور
يرخي ذوائبه على أعطافه ... فيريك ظلاً لاح فوق غدير

ولابن الوردي :

خشيت على حبيب القلب لما ... أتى حمامه ونضا الثيابا
نهارٌ وَجنهُ والجسمُ زُبدٌ ... اذا طلع النهار عليه ذابا

وله أيضاً في قيِّم حمام :

وقيم قيم في حسن صنعته ... حاز الجمال على حسن من الترف
لو يخدم البدر أنقى البدرَ من كلفٍ ... لكنه لم يُزِلْ ما بي من الكلف

٧٣

ولبعضهم :

دخلت للحمام مع رفقة ... كأنهن الحور والأقمار
فيالها حمام من حسنها ... وقد جرت من تحتها الأنهار

ولبعضهم أيضاً :

حمامكم هذه حمام ... وماؤها يذهب الطهارة
وقيل التي قيل فيها : ... وقودها الناس والحجارة

غيره :

وحمام دخلناه سحيراً ... جماعتها أناس مجرمونا
فصحنا من لظاها أخرجونا ... فان عدنا فانا ظالمونا

ولبعضهم :

دعاني صديق لحمامه ... فأوقدني في العذاب الأليم
كلام يزيد وماء يقل ... فنعم الصديق وبئس الحميم

ولأبي الفضل بن أبي أوف رحمه الله :

وليـل لايشـابهـه نهـار وأقمـار تطل على الشموس
وأنهـار على النـيران تجري وأسياف تسـلّ على الرؤوس
وأقـوام تراهـم كالسكارى وما شربوا شراب الخندريس
اذا اجتمعوا جميعاً في مكـان رأيتهمو جميعـاً مـع رئيس

ودخل بدويّ حماماً فاستطابه ، فقال لصاحبه :

ان حمامك هـذا غير مذموم الجـوار
ما رأينـا قبـل هذا جنـةً في وسط نار

وعلى كل ، فالحمام من نعيم الدنيا ، وهو من ضروريات أهل الحضر، ويتعيش منه أشخاص كثيرة • وله آداب أفردها العلماء بالتآليف ، فمن أرادها فليطلبها من محلها • وبالله التوفيق •

٧٥ - حكواتي اسم لمن يحفظ الحكايات ، ويلقيها عن ظهر قلبـه ، أو مـن الكتاب ، كقصة عنترة ، الملك الظاهر ، والملك سيف ، وحكايات مضحكة ، وغير ذلك • وله في كل قهوة وقت مخصوص لالقاء الحكايات • وغالب أوقاته بعد المغرب ، وبعد العشاء • فيجتمع الناس في القهوة، وتصغي لقوله ، مع السرور والانبساط • وقبل شروعه في الحكاية يحكي لهم مقدمة تسمى بـ « الدهليز » ، وفيها أمور مضحكة، ونصائح ، وهي من العجب • ثم بعد اتمامها ، يشرع لهم في اتمام ما كان قدّمه لهم في الليلة الماضية • لان الحكواتي يقف في محل مـن القصة تتطلب النفوس لاتمامها • وبعضهم يتأذى بذلك القطع التأذي العظيم •

وذلك شطارة ومهارة من الحكواتي ، حتى تبكر الناس لاستماع تمام القصة . كما بلغنا عن رجل من أهل حمص كان يحضر كل ليلة الى حلقة الحكواتي يسمع فصلاً من قصة عنتر . ففي بعض الليالي تأخر الرجل في حانوته فحضر لسماع الحكواتي بدون عشاء . وكان في تلك الليلة يتكلم على حرب عنتر مع كسرى، الى أن وقع عنتر في الأسر عند الفرس، فحبسوه، ووضعوا القيد في رجله. هناك قطع الكلام الحكواتي ، كما هي عادتهم، وانفضت الناس . فدخل على الرجل أمر عظيم ، واسودت الدنيا / في عينه على على حبس عنتر ، وذهب الى بيتـه حزيناً ، فقدمت له زوجته الطعام ، فرفس المائدة برجله ، وشتم المرأة ، فصادمته في الكلام ، فضربها، وخرج يدور في الاسواق ، وهو لايقر له قرار . ثم غلب عليه الحال ، الى أن ذهب الى بيت الحكواتي ، فوجده نائماً فأيقظه ، وقال له : قـد وضعت عنترة في السجن مقيداً ، وأنت تنام مستريح البال ، فأرجوك أن تخرجه من السجن ، وانا أعطيك ماتجمعه من الجمهور الآن ، فاني لاأقـدر أن أنام وعنترة محبوس مسجون . فأتم له الحكواتي القصة ، وأخرج لـه عنترة من السجن . فقال له الرجل : أقر الله عينك ، وأراح بالك ! الآن طابت نفسي ، وزالت همومي ، فخذ هـذه الدراهم ، فلك الفضل . ثم انصرف الى بيته مسروراً ، وطلب الطعام ، واعتذر للمرأة ، وحكى لها قصته .

٧٥

وبالجملة فهي صنعة رائجة جداً ، لان غالب الناس مكبون على استماعه، أكثر من انكبابهم على العلم . وهذا من الجهل المفرط .

ثم الحكواتي لايقتصر على القهـاوي ، بل يذهب لبعض البيـوت بأجرة مخصوصة، عند اقتضاء ليلة سرور . وأما أجرته في القهوة فنصف

أجرة صاحب القهوة ، لأن كل شخص يدفع لصاحب القهوة عشر بارات ، ويشرب قهوة ودخاناً ، فيأخذ الحكواتي نصف الحاصل ، وهكذا يفعل في كل قهوة . والله سبحانه المسبب . لارب غيره .

٧٦- حمّال — اسم لمن يتعاطى تحميل البضائع على دابته في بلده ، من محل الى محل (آخر) ، بأجرة مخصوصة .

والانسان قد يحتاج الى شراء بضائع كثيرة ، لايستطيع حملها ، أو جسيمة ثقيلة ، كخشب وأحجار ، وغير ذلك ، فيحتاج الى حمال يحمل له ذلك ، فيأتي بالحمال ، ويشرط له أجرة معلومة ، فيحملها له الى المحل الذي يريده . وفي كل محل يحتاج الى الحمال يوجد فيه حمالون متعددون لذلك . وأما الذي يحمل على ظهره فيقال له حمال وعتال ، وشهرته بالعتال أكثر — وسيأتي ذكره في حرف العين ان شاء الله تعالى — .

٧٦ وعلى كل حال هي حرفة يتعيش/ويكتسب بها ، حتى بلغني ان بعض الحمالين أثرى كثيراً . والله الرزاق لارب غيره .

٧٧- حمصاني — اسم لمن يبيع الحمص المطبوخ بماء القلي ، ثم ينوعه أنواعاً . وأطيب أنواعه « المسبّحة » . وصنعتها :

أن يوضع الحمص مع طحينة السمسم ، ويدق الحمص فيه دقاً ناعماً بمدقة مخصوصة من خشب ، الى أن يصير الحمص والطحينة كالمرهم ، ثم يدق الدق الناعم ، يعصر عليه ماء الليمون الحامض ، أو ماء الرمان الحامض ، وان جمعا معاً كان حسناً ، ويخفق به حتى يختلط الحمض مع الحمص ،

ثم يضع عليه حمصاً صحيحاً من غير دق ، ويخلط بالمدقوق ، ثم يؤتى بالسمن المحمي الموضوع به شيء من الصنوبر والفستق ، ويصب على الحمص المصنوع بما ذكرناه ، ويؤكل ، فهو من لذيذ أنواعه . وتارة يضع عليه من الزيت الطيب ، وتسمى « مسبحة بالزيت » . وتارة يوضع الحمص مع الفول والزيت والحمص ـ ويأتي في حرف الفاء عند ذكر الفوال ما يتعلق بالفول ـ . ومنه نوع يقال له « حمص بالزيت » ، وذلك بأن يدق الحمص مع الزيت الطيب حتى ينعم ، ويرش عليه شيء من الصعتر والكمون المدقوق، ويؤكل . ومنه نوع يقال له «حمص بطحينة»، وصنعته كالمسبحة ، غير أنه خال من السمن ومن الحمص الصحيح . ومن أنواعه أكلة يقال لها « تَسْقِيَة » بضم التاء وسكون السين وكسر القاف وفتح الياء مع سكون الهاء ، وصنعتها : أن يفت الخبز قطعاً صغاراً كالدراهم ، ويسقى بماء الحمص المذكور المطبوخ بالقلي ، ثم يضع عليه حمصاً صحيحاً (مطبوخاً) ويضع عليه اللبن الحامض مخلوطاً بالطحينة ، ثم يصب) على ذلك السمن المحمي مع الصنوبر والفستق ، ويؤكل ، فانها لذيذة . ومن خواص هذه الأكلة أنها تهضم سريعاً ، بسبب مرقتها الممزوجة بماء القلي . وتارة يجعلون عوضاً عن السمن زيتاً وثوماً بلا لبن ، وتسمى « تسقية بالزيت » وهي أكلة غالب الفقراء . وتارة يجعل الحمص صحيحاً مع الحمض والزيت ، والحمص/كالفول . ٧٧

وبالجملة فهي صنعة رائجة جداً ، ولاتروج كثيراً الا أيام الشتاء ، وهي بهذه الانواع المذكورة من خصوص بلدتنا دمشق ، كما سمعت من غير واحد ، بل لم أرها في بعض البلاد ، كالحجاز والسواحل .

٧٨- حمّرجي

اسم لمن يطبخ الحمّر بعكر الزيت، ويبيعه لمن عنده كروم العنب ، فيدهن به الكرم، بعد زبره، في أصل الشجرة ، وعند عيون الحمل • وخاصته منع دودة مخصوصة من الصعود لشجرة الكرم ، تأكل عيون حملها • فهذا الحمّر يمنعها عنها ، ولا ينجب الكرم الا به • وهذه الصنعة من ضروريات الكروم ، وصاحبها يتعيش منها طول سنته •

و « الحمّر » بضم الحاء والميم المشددة : اسم للعلك الأسود المشهور ، وله خواص كثيرها وأشهرها الخاصية التي ذكرناها • والله الرزاق والملهم ، لااله سواه ••

٧٩- حواصلي

اسم لمن يبيع آلات النجارة ، من خشب ودف وطبق وأساطين ، وجميع مايحتاجه النجار من أصناف الخشب•

والمحل الذي تباع فيه هذه الاشياء يسمى بـ « الحاصل » وقد يجعل الحواصلي بحاصله أتوناً لبيع الكلس والآجر ، زيادة على بيع الاخشاب، كما هو غالب الحواصل • وفي الحاصل جهة مخصوصة لنشر الدفوف والطبق والأساطين وغير ذلك على حسب الطلب ــ ويأتي ذلك في حرف النون عند ذكر النشار مفصلاً ــ •

وبالجملة فهذه الحرفة تثري كثيراً ، غالباً لأنها مجهولة ، لكون الحواصلي يشتري الغيضة بما فيها من الاخشاب والجسورة (الكثيرة) ، فيخرج له منها جسورة ، يخرج منها مقادير تنشر دفوفاً وطبقاً وغير ذلك،

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

مغشوشة فيظهر الرمل بين أصابعه ، وان كانت غير مغشوشة فتظهر نعومتها .

وعلى كل فهي حرفة يتعيش منها. فسبحان من لا ينسى من فضله أحداً.

٨٢ - حوّار

اسم لمن يحوّر ، أي يبيض الجدران بالحواري. وهو في صنعته كالقصّار — الآتي ذكره في حرف القاف ، الذي يبيض الثياب — وهذا يبيض الجدران . وصنعة التحوير : أن يؤتى بكلس بعد أن تنقع الكثيرة بالماء ، حتى تذوب (ويمزجه به) ، ويحرك حتى يغلظ نوعاً ما ، ويأتي بعصا طويلة ، على رأسها فرشاة من شعر ، فيغمسها في ذلك الماء ، ويدهن به الجدار مرات . فاذا جف يرى وجه الحائط كأنه مكلس . وهذه الصنعة يشتغل بها بعض المسلمين ، وفقراء اليهود .

والتحوير يقوم مقام التكليس في الجملة ، لان التكليس يحتاج الى/ كلف ومصروف زائد . فمن لم يستطع كالفقراء ، فيبيّضون بيوتهم بالحواري ، (الا أن الذي يتقن عمل التحوير هم غالب أهل القرى . وذلك أنهم يذهبون الى محافر الحواري ، كالتي في ناحية قرية ضمير وعذرا ، فيأتون من تلك المحافر بالحواري النقية الذكية الرائحة ، ويحورون بيوتهم بأنفسهم تحويراً بالغاً النهاية في الحسن ، والاستمساك على الجدار ، بحيث تشبه هيأة الجدر عندهم هيأة جدران المدن المكلسة ، ولا تلوث ثياب المستند اليها بخلاف تحوير الصناع في الشام ، فانه لا يثبت على الحيطان كثيراً ، ولا يكسبها بهاءً ، ويلوث الثياب ، فيؤلم المستند اليه . ومنهم من يستأجر الدهان الآتي لعمل التحوير ، كي يخرج متقناً) .

٧٩

وبالجملة فهي صنعة يكتسب منها ، ويتعيش بها . والله ولي الألباب .

حرف الخاء

٨٣ - خاناتي

اسم لمن يكون قيّماً على خان من الخانات . أي : بنحو استئجار أو ملك . وذلك كخان الدواب ، وخان البطيخ، وخان الدبس، وأضرابها . وذلك كمن يستأجر خان الدواب مثلاً بأجرة معلومة . والخان قد اشتمل على ساحة ، ورواق ، ومعالف للدواب ، وحجرات ـ أي : أوَد ـ فيؤجر الحجر لمن يريد أن ينام بها ، من نحو غريبٍ جاء من محل بعيد ، من فلاح ومسافر ، فيربط دابته عنده ، وله على كل دابة شيء معلوم ، وأجرة كل حجرة في كل ليلة شيء معلوم . وهكذا خان الدبس والبطيخ ، وغيرهما ، له على كل من يأتي بدبسه في خانه ، ومن يضع البطيخ في الخان كذلك شيء معلوم .

٨٤ - خدّام

بفتح الخاء وتشديد الدال . وهو الخادم الذي يتعاطى قضاء حوائج الكبراء ، من السلطان فما دونه ، ممن يخدم لصلاح مخدومه ، لخدمةٍ خاصة ، أو خدمته وخدمة عياله وأولاده ، ومايحتاجونه . ويجعل له مخدومه ، بسبب خدمته له ، معاشاً كافياً له ولعياله ، في كل شهر ، على حسب حال المخدوم .

والخادم ، وبعض خَدَمَة الكبراء ، كالأمراء ، سيما الموظفون في الحكومة ، تنتفع خَدَمَتهم ممن له حاجة عند مخدومهم ، على حسبها. وفي أيام المواسم كالاعياد ، ممن يأتون للتبريك . ومن هدايا وغير ذلك ، عدا معاشهم .

وقد يوجد من الخدم بزيٍّ كزيِّ مخدومه في ملبسه وهيأته ، بل يرى نفسه أعظم من مخدومه .

وبالجملة هي حرفة كثيرة بكثرة المخدومين ، وان كانت حرفةً غير شريفة/لكنها يتعيش منها ، وهي من تمام نظام العالم . ٨٠

قال تعالى[1] : « لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً »

وقال تعالى[1] : « وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ »

وقال الشيخ بهاء الدين العاملي يصف الصفات المحمودة بالخدم : « خير الخدام من كان كاتم السر ، عادم الشر ، قليل المؤنة ، كثير المعونة، صموت اللسان ، شكور الاحسان ، حلو العبارة ، دراك الإشارة ، عفيف الأطراف ، عديم الإتراف » انتهى .

وللمعمار :

وخادم قبلت مشروطه	في خده لكنْ رأيت العجب
من ناعم حلو فناديته	ما أنت يامشروط الاّ رطب

ولـه :

تملك قلبي خادم قد هويته	من الهندمعسول اللمى أهيف القد
أقول لصحبي حين يرنو بطرفه	خذوا حذركم قدسل صارمه الهندي

(1) ٤٣ ـ الزخرف ـ ٣٢.

٨٥- خبّـــاز اسم مشترك في عرف أهــل الشام بينه وبين الفران ــ الآتي في حرف الفاء ــ . والخباز بمنطوقه اسم لمن يخبز الخبز بالنار ، وهو المسمى بـ « الرئيس » . والمصطلح عليــه في العرف هو من يستأجر فرنـــاً ، ويهيء له مايحتاجه مــن وقيد وعملة : كرئيس ، ومقرّص ، وعجان ، ومبشكر ، وغير ذلك . ويستجلب طحيناً من الطحانة ، ويقف على الميزان للوزن والبيـــع وقبض الدراهم مـــن المشترين ، وتسمى بـ « الغلّة » .

ثم من الخبازين من يخبز سوقياً ، وهو ما تقدم ذكره ، ومنهم مـــن يخبز بيتياً ، وهو مايعجن في البيوت ، بمعاجن من نحاس ، فتأتي أجراؤه فتأخذها من البيوت الى الفرن ، فيخبزها لهم ، وله على كل مئة رغيف شيء معلوم من الدراهم (والغالب قرشان ونصف) . والرئيس الذي يخبزها له على كل عجنة ، المسماة بـ « الخَبزة » ، رغيف . والأجير الذي يأخذها ويردها له على كل عجنة رغيف أيضاً . وهذا هو المصطلح عليه عندنا . وهذا الخباز يسمى في اصطلاح أهل الشام بـ «الخباز البيتي» .

٨١ وبالجملة/فهي صنعة رائجة ، لابأس بها ، تستر صاحبها ، سيما اذا أُتبعت بالتقوى . وقد يوجد من الخبازين من لاتقوى عندهم ، سيما أيام القحط والغلاء ــ لا كان ــ فيضيفون لطحين الحنطة من طحين الفول والحمص والكرسنة ، مما تأكله البهائم ، كما شاهدنا ذلك ، وسمعت من غير واحد من الصادقين أنه اذا اشتد الأمر ، وكثر الزحام على الافران ، لايقنعون بهذا ، بل يخلطون هذا الطحين ــ أي طحين البهائم ــ تراباً

وصفوة وغير ذلك . فنسأل الله تعالى أن لايرينا هذا الحال ، بجاه محمد وأصحابه والآل ، فان من فعل تلك الأفعال ، خسر الدين والدنيا في الحال والمآل . والتوفيق منه سبحانه وهو الكبير المتعال .

ولأبي نواس في مليح خباز :

ان خبازَنا المليح المفدّى في حَشا الصّبِّ مِنْ جَفاه كُلومُ
خِلْتُ دُكّانَهُ البديعَ سماءً وهو بَدْرٌ والخُبْزُ فيه نجومُ

٨٦ - خـرّاط

اسم لمن يحترف بـ « الخراطة » . تقول: خرط العودَ قَشَرَهُ وسوّاهُ — كما في اللغة — . والمصطلح عليه هو من يخرط العود أو الخشب بسائر أنواعه ، بآلة مخصوصة معلومة ، فيخرج العود بعد خرطه نظيفاً ناعماً ، متساوياً من جميع جهاته . ويتأنقون في بعض المخروط بالنقش والتخريم ، على حسب رغبة المشتري له ، كبرامق الدرابزين ، وقلوب الأراكيل ، على أنواع لطيفة الشكل . ويخرطون آلات الشطرنج ، والبرجيس ، وغير ذلك ، مما لايكاد يحصى ولاينحصر . ويصنعون الكراسي المنوعة ، من كبار وصغار ، وغير ذلك ، كخرط أيدي الكبة من خشب مخصوص ، وحفر أجران الثوم ، وأنواع شتى .

وبالجملة فهي حرفة شهيرة رائجة ، ولها سوق مخصوص عندنا بدمشق ، يسمى بـ « الخراطين » ، أول جادة الدرويشية ، أشهر من نار على علم . والله المدبر المسهل لاغيره .

٨٧- خرضجي هو اسم لمن يتجر ببيع أصناف كثيرة، وأنواع منوعة مخصوصة، باستجلابها من البلاد البعيدة ، كبلاد الفرنج والاسلانبول ، أو القريبة كبيروت . وهذا الاسم المخصوص مختص ببيع أنواع مخصوصة لايمكن حصرها . ثم منها ماهو من أشغال الفرنج — وهو أكثرها — ولاينحصر غالباً ، كأعمال الفابريقات والكراخين ، من سائر الاجناس المختصة بهذه الحرفة، من أنواع المالقي، وأصناف البللور، والحديد بجميع أجناسه، كمقص وموسى وإبر وغير ذلك. ومنها ما ينحصر غالباً كأشغال الاسلانبول بالعمل باليد وما والاها ، كأمشاط السن ، وأصناف الدواة ، والملاعق ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس التي تعمل باليد ، مما يتعسر ضبطها وضبط حِرَفها وصنائعها ، لأن القصد من جمع هذا الكتاب جمع صنائع وحرف بلدتنا دمشق الشام ، التي يتعيش بها ، لاغير .

وعلى كل فهي تجارة جليلة ، وحرفة لطيفة جميلة ، كثرت عندنا بدمشق وانتشرت ، بعدما كانت مختصة بسوق مخصوص ، يسمى بـ « العصرونية » ، وهو الى الآن باقٍ بحاله ، بل زاد واتصل بسوق الحميدية ، الذي جدد قبيل جمع هذا الكتاب . وهو من باب القلعة ، الى باب البريد ، بشكل بديع . وهو أجمل أسواق الشام على الاطلاق وأروجها . وقد اشتمل على أحاسن محاسن الملبوسات والمزينات والمأكولات . وبالجملة فهذا السوق قد أعدم صيت سوق العصرونية ، بعد أن كان في شهرته عديم النظر . فسبحان من لايعتريه تبديل ولاتغيير، وهو على كل شيء قدير .

٨٨- خزّان

اسم لمن يدّخر الأقوات من الحبوب، كالقمح ، وغيره كالسمن والفحم ، ليبيعه بربح مضاعف • وهو مذموم شرعاً ، ان اشتراه بزمن الغلاء والقحط ، لأنه يسبّبُ التضييق والشدة على خلق الله تعالى • لكنه/صار مذموماً مطلقاً في العرف ، سيما عند أهل الشام ، فهو يشار اليه بالأصابع بذمه ، سيما في أوقات الغلاء ــ لا كانت ــ أو في الشتاء ، عند قلة الغيث ، فان الفقراء وأولادهم الصغار يسبّون الخزّانة ويشتمونهم بألفاظ قبيحة جهاراً ، ويدعون عليهم سراً وجهاراً •

٨٣

وبالجملة فان أهل هذه الحرفة مذمومون جداً ، وان صادفوا ربحاً في بعض الأحيان ، فمآلهم الى الخسران، وأموالهم الى النقصان ، ومنشأ الذل الطمع ، وأصل الدين الورع •

٨٩- خشّاب (١)

(١) بياض في الأصل •

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطــاء اللغوية والنحوية والصــرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقــد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هــذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيهــا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلــع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفــات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتــاب لايرى النور الى عــام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التــاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصــر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثــم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعــات الشاميــة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

٩١- خضري

اسم لمن يبيع الخضراوات والبقول وغير ذلك ، مما هو معلوم . وهي تختلف باختلاف الأزمان . ففي الصيف أكثر رواجاً وربحاً ، وذلك لكثرتها ، وكثرة أنواعها : كالكوسا والباذنجان الأسود ، والافرنجي ، والبندورة ، والبقلة ، واللوبيا ، والفاصولية الخضراء ، والبامية ، والملوخية ، والهليون ، وغير ذلك. وفي الشتاء : كاللخنا ، والأنبيط ــ وهو الأرنبيط ــ واليقطين ، والكراث ، والسلق ، والسبانخ ، والبطاطا ، ولوازم ذلك : كالكزبرة ، والبقدونس، والبصل ، وغير ذلك .

وهذه الحرفة رائجة جداً ، ولايستغنى عنها غالباً ، لانها كادت أن تكون من الضروريات ، وقد رأينا من أثرى منها كثيراً . والله الموفق .

٩٢- خضّاض السمن

اسم يطلق على من يخض السمن عند العرب ، بأجرة معلومة مخصوصة في كل يوم . وكيفية استخراج السمن بالخض : أن يؤتى بظرف جلد ، فيملأ ثلثه من اللبن الحامض ، وثلثه من اللبن الحليب ، وينفخ ، ويربط ، ويُخَضُّ مقدار نصف ساعة، ثم يوضع له الثلث الباقي من الماء ، ويخضه ربع ساعة ، ويفرغه بقدر كبيرة ، فتعلو الزبدة ، ويرسب اللبن ، فتؤخذ الزبدة وتغلى على النار ، فتصير سمناً .

وانما ذكرنا هذه الصنعة لانها حرفة يتعيش بها . فسبحان من علم الانسان ما لم يعلم .

٩٣- خمّار

في اللغة : بائع الخمر . ويقال له في العرف « خمرجي » . ومحل بيعها يقال له « خمارة » . والوعاء الذي

٨٥

تخمر به يقال له « دَنّ » ، وجمعه « دنان » . / وسميت خمراً لأنها تخمر العقل ، أي تستره .

ثم الخمر شرعاً هي كل مسكر ، والآيات والأحاديث في تحريمها أشهر من أن تذكر .

وأنشد أبو الفضل عبد الله بن أحمد :

تركتُ النبيذَ وشُرّابَهُ وصرتُ صديقاً لمن عابَهُ
شَرابٌ يُضِلُّ طَريقَ الهُدى وَيفتَحُ للشرِّ أبوابَهُ

وأكثر من يتعاطى بيع المسكرات هم النصارى في الشام ، ويقال انه يوجد في بعض القهاوي ، نسأله تعالى السلامة .

والخمر أم الخبائث، وبائعها أخبث منها ، وحرفته من أخبث الحرف، ولايحترف بها ذو دين وشهامة .

٩٤- خوّام

بائع الخام المشهور الآتي معناه . و «الخام» في اللغة : الجلد لم يدبغ، والثوب لم يغسل ، جمع « خامة » .

و « الخامة » : الفجة .

والمصطلح عليه في بلدتنا أن « الخام » اذا أطلق ، فالمراد به بطانة لم تقصَر .

و « الخوّام » : هو بائع بطائن الثياب ، على اختلاف أجناسها ، من

مقصور وغير مقصور ، من غليظ ورقيــق • وأنواعه كثـيرة • وكذلك « المَنْضا » بسائر أنواعه الكثيرة ، وهو الخام المقصور المسحوب بالنشا على « مكنة » ، أي آلة من حديد ، لأجل أن يصير مثل الورق المصقول، ويختلف جودة وحسناً ، وغير ذلك •

والحاصل : ان الخوام بائع هذه الأجناس ، باختلاف أنواعها ، على حسب حاله وثروته • وهذه الحرفة تثري أكثر من البزازة ، أي : بائع اليمني ، لأن الخام قلم جيد ، لاتدخله خسارة ، بخلاف غيره ، كبائـع اليمني ، فانه لايثري — أي : ان كان يبيع بالذراع — لانه في برهة تأتي أشكال تبطل ما كان عنده سابقا ، وهلم جرا ، فيضطر أن يبيع القديم بأي وجه ، نظراً لبطلانه •

وبالجملة فحرفة الخوام أحسن حالاً مـن غيرها بكثير ، وأهلهـا كثيرون ، وهم مستورون جداً • وغالبهم قد أثرى منها ، ويحدِّث بكل خير عنها • والله الملهم ، لارب غيره •

٨٦ ٩٥- خولي

في اللغة : الحَسَنُ القيام على المال• هذا بطريق الاجمال • وفي العـرف تفصيل ما أُجمل في اللغة ، ومعناه : من يكون عند شدّاد الفلاحة ، أو مستأجرها ، وله خبرة تامة ، ومعرفة بسائر متعلقات الفلاحة • ووظيفته عنده : من ذكر ملاحظة مزروعـات سيده الشداد ، بالتفتيش على أشجاره خوفاً من التكسير ، وتدبير كَرْمه، ونظره الى المرابعين ، واستئجار فعلة أيام الكرم ، للزَّبْر ، والعَـزْق ، والتحمير ، والتعشيب ، والتكيش ، وملاحظة ذلك بذاته ، وأخذ أجرتهم

من سيده ، واعطائها لهم من يده ، ونظره الى البذار أيامه بذاته ، بوقوفه على بذر الغلة . وكذلك أيام البيدر ، يقف على قيام الغـلال بنفسه . وبالجملة فيتعاطى جميع مصالح الحانوت جميعه بالصدق والهمة والغيرة، وغير ذلك . ونظراً لأتعابه في ذلك ، يجعل له سيده الشداد أجرة تكفيه وتكفي عياله ، على حسب كبر الحانوت وصغره . والله المسهل .

٩٦- خـيامي

اسم لصانع الخيام، جمع خيمة : وهي المظلة التي يُستظَـلُّ بها مـن حر الشمس ، ومن نزول المطر . ثم هي تطلق على كل خيمة من شعر وغيره . ولكن مرادنا الحرفة والصنعة التي عندنا في الشام ، يصنعونها من خام غليظ ملون ، وينقشونها ، ويجعلونها كالقبة ، تقوم على خشبة طويلة تسمى بـ « الدريك » ، وتشد جوانبها بالحبال شداً قوياً محكماً ، وتربط الحبال بالأوتاد، وتدق بالارض بعد شدها ، كما ذكر . وتصنع كبيرة وصغيرة ، على حسب الراغب ، وتسمى الكبيرة « صيواناً » ، كالتي لأمير الحاج ؛ وسائرُ خيم ركب الحاج من صنعة هذه الحرفة ، التي تسمى بالخيمة ، ولها سترة من سائر جوانبها ، حفظاً لمن ينام بها من المسافرين كالحجاج ، تسمى « طظلقا » . ويشتغل أهل هذه الحرفة مظلات للمحامـل التي تسمى بمصطلح أهـل الشام بـ « المحاير » ، وبرادي لأبواب بيوت ، ومحلات الدور ، دفعاً للبرد من أن يدخل البيوت ، ويتقنون نقوشها على حسب المرغوب ــ كما هــو معلوم ــ . ولهم غير ذلك من الأشغال المعلومة المشهورة .

وبالجملة ، فأهل هذه الحرفة/رائجون جداً ، وغالبهم قـد أثرى ٨٧

بسببها ، وهي لابأس بها • وهم أشهر من أن يطنب في حقهم • والله المسهل ، لامسبب غيره •

٩٧- خيّاش

الخيش في اللغة : ثياب في نسجها رقة ، وخيوطها غلاظ ، من مشاقة الكتان ، ومن أغلظ القصب • وفي مصطلح الشام : اسم لما ينسج غالباً من شعر المعز ، خشناً جداً ، وقد ينسج من مشاقة القنب • ثم المنسوج من الشعر يقال له « خيش » ومن المشاقة يقال له « جنفاص » • واذا اطلق الخيش فيراد به المنسوج من شعر المعز • والخيش يعمل منه العدول لجلب الحبوب ، كالقمح ، من محلاته ، وغير ذلك توضع البطيخ فيه ، ووصوله الى محل بيعه محمولة على الجمال • ويعمل منه مخالي يوضع فيها عليق الدواب، وأخراج توضع على الدواب لوضع الحوائج • وينسج منه بيوت للعرب ينصبونها في البوادي ، تظلهم صيفاً من الشمس ، وشتاءً من المطر • وغالب بيوت العرب من نسج الشعر ، ولذا يقال لها : « بيوت من الشعر » •

وبالجملة فهذه الحرفة والصنعة رائجة، وصناعها مستورون، ويتعيش منها خلق كثير • والله الرزاق لاغيره •

٩٨- خيّاط

بتشديد الياء : اسم لمن يتفصّل المنسوج ، الذي يصنع ثياباً ، على اختلاف مرغوب الناس ، بقطعه بالمقراض ، مناسبة للأعضاء البدنية • ثم تلتحمُ تلك القطع بالخياطة المحكمة ، وصلاً ، وتبييتاً ، أو شلاً وكفاً بعد الدرز ، على حسب نوع

الصناعة . ثم ان الخياط يحتاج الى آلات لايستغني عنها غالباً : الاولى المقراض أي المقص . والثانية : الهنداسة . والثالثة : الأبرة . والرابعة : الكشتبان . والخامسة : دف أملس يفصّل عليه الثياب . السادسة : المكواة من حديد ، تحمى على النار ، ويكوى بها الثياب ، فتصير ملساً كقطعة واحدة . والسابعة : الخيوط ، من حرير أو قطن أو كتان على حسب الثوب المفصل .

٨٨ ثم من هذه الآلات ما هو طبيعي ، وأعني به ما يستعان ولا يستغنى/عنه ، كالمقراض والأبرة والخيوط . وغير طبيعي ، وهو ما يستعان ويستغنى عنه ، كغير الثلاثة المذكورة .

ثم من الآلات التي ظهرت في تلك المدة وانتشرت ، آلة تسمى «ماكينا» ، فصارت يستعان بها على الخياطة كثيراً . وهي من أشغال الفرنج ، ذات دولاب وآلات ، مما يبهر العقول ، لكنها يستغنى عنها بشغل اليد ، لكن تلك أسرع بكثير . فالآن جميع النصارى الخياطين ، سيما الذين يخيطون ثياب الحكومة ، من العسكرية والمالية ، وغير ذلك من البناطي وغيرها ، لايخيطون الا بها غالباً ، لانها تعينهم على الدرز والتنبيتة ، وغير ذلك ، كما هو معلوم . والخياطة بتلك الآلة قد تعلمها كثير من نساء المسلمين .

وبالجملة فهي صنعة قديمة شريفة ، وحرفة جليلة منيفة ، وبقدمها تنتسبُ الى ادريس عليه السلام ، وهو أقدم الأنبياء . وربما ينسبونها الى « هرمس » . وقد يقال ان « هرمس » هو ادريس .

وفي الحديث[1] : « عَمَلُ الأَبْرارِ مِنَ الرِّجالِ الخِياطَةُ ، ومِنَ النِّساءِ المِغْزَلُ » .

(١) رواه الخطيب وابن لال وابن عساكر . وهو من الموضوعات .

وعن ابن عباس : كان ادريس خياطاً . وكذا هود ولقمان عليهم السلام . ولو لم تكن حرفةٌ محمودة ، لما اختارها الله لبعض أنبيائه .

اذا علمت أن الخياطة حرفة محمودة ، فعلى صاحبها أن يتقي الله تعالى بثياب خلقه ، باتقان الصنعة ، وقوة المصنوع ، ويرد ما فضل بعد التفصيل لصاحب الثوب . فقد روي عن عليٍّ بن أبي طالب ، كرم الله وجهه ، أنه وقف على خياط ، فقال له : ياخياط ! ثكلتك الثواكل ، صَلِّبِ الخيطَ ، ورَقِّقِ الدروز ، وقارب الغروز ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول[1] : « يَحشُرُ الله الخَيَّاطَ الخَائِنَ وَعَلَيْهِ قَميصٌ وَرِداءٌ مِمَّا خاطَ وَخانَ فِيهِ » . واحذر السقاطات ، فان صاحب الثوب أحق بها ، ولاتتخذ بها الأيادي ، وتطلب المكافاة .

وقد وقع في كلام الشعراء مدح بعض الخياطين تغزلاً وغيره ، فمن ذلك لبعضهم :

خياطنا الفاتن المفدى بديعُ حُسْنٍ فريدُ شكل
فَصَّل للجمهور ثوبَ سقمٍ لَمّا جفاني وكفَّ وصلي

ولابن سنا الملك :

٨٩ أجفانُ عينيَّ ماخيطت على سِنَةٍ هذا وقد عُدَّتِ الأجفانُ كالإِبَرِ

ومما قيل أيضاً :

وخياطٍ تَمَزَّعَ ثوبُ نُسكي به والصَّبرُ محلولُ الرِّباطِ
وجسمي رَقَّ بالأسقامِ حتى كأني الخَيطُ في سَمِّ الخِيَاطِ

---

(١) لم اجد له اصلاً .

ولابن عبد الظاهر يمدح قوماً بالشجاعة :

لله دَرُّ فوارسٍ يومَ الوغى تَهوَى الخياطةَ لو اليهم تَنتمي
ذَرعوا الفوارسَ بالرِّماح وفصَّلوا بالمُرهَفاتِ وخيَّطوا بالأسهُمِ

وقال آخر :

كأني إبرةٌ أكسُو أناساً وجسمي مِنْ مَلابسهم سليبُ

وغيره :

ان خياطنا على ما حواه من كمالٍ قاد الهلالَ لِنَقصه
أبدَ الدهر مولعٌ بخلافي مائلُ السمعِ للعَذول وخَرْصه
أنا أمشي مَشْيَ الخياطِ دواماً وهو يمشي لكن كمشي مِقَصّه

أي : أنا أمشي في الوصل ، وهو يمشي في الفصل . والخرص : الكذب . ومنه « قُتِلَ الخَرّاصُونَ » .

ولبعضهم يهجو شخصاً :

وسفيهِ قومٍ قد تَحكَّكَ بي على ما فيه من عيبٍ يلوحُ اذا نَطَف
فَصَّلْتُ مجملَ مايرى من عيبه وشَلَلْتُ كفَّ أذاه مذ طالت فكَفّ

غيره أيضاً :

ربَّ شخصٍ يقصُّ ماخاط مما حاكه الزورُ من مشاقِ الخساسة
لستُ أُصغي لما يُفَصِّلُ علماً أن تفصيله بلا هنداسه

غيره :

فُتِنتُ بخياطٍ بديعٍ ملاحةً له طلعةٌ أبهى ضياءً من الشمس
تراه على الكرسيّ للثوب خائطاً فتُقسِمُ حقاً أنه آيةُ الكرسي

الى غير ذلك . وفي هذا القدر كفاية .

حرف الدال

٩٩- دايـــه هذه اللفظة في اصطلاح أهل الشام اسم لامرأة عندها/معرفة ومهــارة في صنعة التوليد . وتسمى في اللغة « القابلة » ــ الآتي ذكرها في حرف القاف ، إستعير فيها معنى الاعطاء والقبــول ، كأن النفساء تعطيها الجنين ، وكأنه تقبــله . والحاصل ان شهرتها عندنا بـ « الداية » ، أكثر من القابلة ، بل القابلة لايفهم معناها الا العالم اللغوي . ولا أعلم ما معنى « الداية » ، غير أني وجــدت في اللغة أن ابن الداية « الغراب » .

ثم ان الدايات عندنا في الشام كثيرات ، واللاتي لهن شهرة قليلات. وهن أخذن صنعة التوليد عن أمهاتهن بالتسلسل .

وهذه الصنعة مختصة بالنساء في غالب الأمر ، لما أنهن الظــاهرات بعضهن على عورات بعض .

وهي صنعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الآدمي من بطن أمه ، من الرفق في اخراجه من الرحم ، وتهيئة أسباب ذلك . ثم مايصلحه بعد الخروج . وذلك أن الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره ،

وبلغ الى غايته ، والمدة التي قدرها الله لمكثه، وهي تسعة أشهر في الغالب، فيطلب الخروج بما جعل الله في المولود من النزوع لذلـك ، فيبتدىء الألم والوجع المسمى بـ « الطلق » ، وهو تغير المزاج عند ارادة الوضع، ويبتدىء بنخس شديد ، ومغص تحت السرة ، حين يتحول الجنـين الى الأسافل ، ويمزق الأغشية . فاذا أحس أهل الحامل بألم الطلق ، فيرسلون وراء الداية ، وهي القابلة ، فتأتي بكل سرعة ، وذلك بعدما يهيئون كرسي الولادة ، من قبل شهر تقريباً . فان وجدت الداية اشتداد الألم ، وضعتها على الكرسي ، والا فتجلس عندهـا حتى يشتد الطلق . فـاذا اشتد ـ واشتداده بعلامات تعرفها الداية ـ تضعها على الكرسي المخصوص ، وتجلس أمامها ، وتدعو لها كثيراً بالخلاص ، وخلقة الناس ، وتقول لها الداية : يابنيتي أعيني ولدك ، واحذري على كبدك . ولاتزال تجعل لها أسباب الملاطفة ، حتى تلد باذن الله . ثم ان أتت بذكر ، أي صبي ، قامت الأفراح على ساق ، وأظهرت أنوارها الليالي الملاح بالاشراق ، وذهب البشير لأخذ البشارة ، واسمعت/الزراغيت أهل الحارة ، وافتخرت أم الغلام ، بكل كلام ، بل استوجبت المدح والثناء بين الأنام . وان أتت بأنثى ، ذات الخدر والستر ، استوجبت الهجر بلا أجر ، واستولى عليها الكرب في كل ليلة الى طلوع الفجر ، ولايزالون في العناء والحصر ، أكثر من مدة شهر .   ٩١

ثم اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة وهي التي تسمى بـ « الخلاص » ، حيث كان يتغذى منها ، متصلة من سرته بمعاه . وتلك الوصلة عضو فضلي ، لتغذية المولود خاصة ، فتقطعها القابـلة بحيث لاتتعدى مكان الفضلة ، ولاتضر بمعاه ، ولابرحم أمه . ثم تدمل مكان الجراحة بما تراه من وجوه الاندمال .

واعلم أن الجنين عند خروجه من ذلك المنفذ الضيق ، وهـو رطب العظام ، سهل الانعطاف والانثناء ، فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها، لقرب التكوين ، ورطوبة المواد ، فتتناوله الداية ــ وهي القابلة ــ بالغمز والاصلاح ، حتى يرجع كل عضو الى شكله الطبيعي ، ووضعه المقدرله، ويرتد خلقه سوياً •

ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها بالغمز والملاينة ، لخروج أغشية الجنين ، لأنها ربما تتأخر عن خروج الأغشية ، وهي فضـلات ، فتعفن ، ويسري عفنها الى الرحم ، فيقع الهلاك ، فتحاذر القابلة هذا ، وتحاول في اعانة الدفع الى أن تخرج تلك الأغشية ، ان كانت قد تأخرت •

ثم ترجع الى المولود فتمرخ أعضاءه بالأدهان والذرورات القابضة لتشتد ، وتحنكه لرفع لهاته ، وتسعطه لاستفراغ بطون دماغه ، وتغرغره باللعوق ، لدفع السدد من معاه ، وتجويفها عن الالتصاق •

ثم تداوي النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق ، ومالحق رحمها من ألم الانفصال •

وهذه كلها أدواء نجد الدايات ، أي القوابل ، أبصر بدوائها•وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء في بدنه ، الى حين الفصال ، أي الفطام ، تجدهن أبصر بها/من الطبيب البارع • وماذاك الا لأن بـدن الرضيع مدة الرضاع انما هو بدن انساني بالقـوة فقط ، فاذا جـاوز الفصال صار بدناً انسانياً بالفعل ، فكانت حاجة حينئذ الى الطبيب آشده

٩٢

ثم لم تزل الداية تتعاهد المولود كل يوم ، كما أسلفنا، من يوم الولادة الى يوم الأسبوع ، فتنزع عنه ثيابه ، وتدهن بدنه ، بما تقدم ، وتلبسه

ثياباً جديدة ، ثم تضعه في المهد ، وتهزّ المهد هزات ، حتى يألف الهز • ثم يصنعون وليمة يوم الأسبوع ، ويدعون الأهل والاحباب ، ويجعلون بها حلواء ، وتسمى « كراوية » في مصطلح أهل الشام • وهي الكراوية المعلومة ، تدق وتغلى بماء السكر ، وتضاف اليها القلوبات من الجـوز واللوز والفستق والبندق وجوز الهند والصنوبر • وهذه الكراوية من لوازم أسبوع المولود غالباً ، فمن لم تصنع له ، لايعتني به غالباً ، وينسب الى الشح ، سيما ان كان غنياً • وغالب الفقراء مع فقرهم يصنعونها يوم الاسبوع ، فان لها صيتاً وشهرة • وهذه الوليمة غير المشروعة • وأما الوليمة المسنونة المشروعة فهي « العقيقة » التي سنها نبينا صلى اللهعليه وسلم : وهي أن يولم — أي يعق — عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة ، وأن تطبخ بشيء من الحلو كالسكر ، وأن يدعى اليها الفقـراء والأرحام • وفائدتها حفظ المولود من العاهات•فهذه السنة الآن متروكة الا عند المتشرعين من أهل السنة • فاذا انقضت الوليمة يوم الاسبوع ، وانصرف الناس ، يعطي أبو المولود وأمه الداية شيئاً من الدراهـم ، على حسب حالها ، فقد بلغنا عن بعض الأغنياء أنها تخرج من عندهـم بواسطة « النقوط » بأكثر من خمسمئة غرش •

ثم لاتزال تتعاهد المولود بعد الأسبوع ، في كـل خميس واثنين ، بالتفتيش عليه ، كما تقدم ، الى يوم الأربعين، فتذهب الداية بالنفساء يوم الأربعين/الى الحمام ، وتدلكها ، وتضع عليها — أي : على بدنهـا — ذروراً المسمى بـ « الشداد » المشتمل على كثير من الاشياء البهارية ؛ ولها يوم الحمام اكرام مخصوص •

٩٣

ثم لاتزال تتردد عليهم بعد الأربعين الى نحو من أربعة أشهر . ثم في كل مدة تمر عليهم لتطمئن علي سلامة المولود ، لأن لها عليهم عوائد كثيرة بسبب المولود : فمنها عند ختانه ، ان كان ذكراً ، لها اكرام . وعند ختم قراءته لكلام الله لها اكرام . وعند زفافه لها اكرام . حتى اذا كبر وتزوج وعاشت حتى رأت أولاده ، فكذلك عوائدها عليهم ، وان لم تكن ، فالتي تقوم مقامها من أولادها ، أو من قرابتها .

ثم علاوة على صنعتها هذه ، وهي صنعة التوليد ، لها صفة ثانيــة ، وهي «التمشيط» ويقال لها « ماشطة » ـ وسيأتي ان شاء الله تعــالى تفصيلها في حرف الميم من هذا الكتاب ـ لأن القاعدة غالباً ان البنت اذا كبرت وتزوجت ، فدايتها التي ولدتها تكون ماشطتها . وكذلك المولود اذا كبر وتزوج ، فعند زفافه تكون دايته ليلتئذ . ولها على كليهما اكرام وعوائد يأتي في حرف الميم كما تقدم .

وبالجملة فهذه الصناعة من الصنائع الضرورية في العمران . وغالب أهل هذه الحرفة من الدايات ، وهن القوابل ، يوجد عندهن من الأمتعة النفيسة ، كالمجوهر ، والشال ، وغــير ذلك شيء كثير . فسبحان مــن أتقن وأحسن كل شيء خلقه ، لا اله الا هو ، وهو المدبر .

١٠٠- دبّاس — بتشديد الباء مع فتح الدال : اسم لمن يبيع الدبس المعــلوم ، ويطلق الدبس على العسل المعلوم ، عسل التمر ، وعسل العنب الأحمر . والثــاني هو الدبس المعهود عنــدنا ، المستجلب من القرايا الشهيرة ، كقرية دوما ، فان جميع كرومها من العنب الأحمر . والعنب الاحمر يكون منه الدبس والزبيب ، وقد يعصر للنبيذ .

وأجود الدبس : هـو أن يجفف العنب ويدرس ، ويصب عليه مـاء ، ويرشح ــ وسيأتي الكلام عليه في حرفة المعصراني ــ فيؤخذ ذلك المزيج /المرشح ، فيغلى غليات خفيفة ويبرد ، فيخرج على وجهه من فضلات القشر ونحوها شيء كالدق ، فينزع ويعاد الى الطبخ . فان اقتصر طبخه على ذهاب ثلثيه فهو الرائق ، وان اشتد طبخه بحيث بعد أن يقتصر فيه على النحو الربع ، فهو المعروف عندهم بـ « القديد » . ثم يرفع في أوانيه ، ويحرك بشيء من حطب التين ، فينعم ويشتد بياضه ، فيباع بالأثمـان الحاضرة ، ويباع في بعض الأزمنة عند محل الكروم ، وعند تتاجها بأكثر من ثمن السكر .

٩٤

وبالجملة فهي حرفة كثيرة شهيرة عندنا في الشام . وأكثر المعاصـر التي يعصر فيها الدبس غالبـاً في قرية دوما . وعندنا في الشام خـان مخصوص يسمى باسمه ، وهو « خان الدبس » مشهور يباع الدبس فيه في ظروفه للبقالين ، وهم السمانة ، أو للمدخرين .

وبالجملة فهذه حرفة عظيمة ، ولها شهرة ، ويتعيش منها ، ويثري غالباً ، سيما لمن يملك كروماً كثيرة ، ويدبس لنفسه .

والدبس يطبخ عندنا أنواعاً من الحلوى ، فمن أعظمها ما يصنع حلاوة طحينية دبسية ، وصناعها الحلوانية . وهي حرفة كثيرة ، وتقدمت في الحاء .

والدبس حار رطب . فمن خواصه ، كما ذكره بعض معتمدي الأطباء ، أنه يولد الدم الجيد ، ويسمن سمناً جيداً ، ويحمر اللون ، ويفتح السدد . ثم قال : ومن أعجزه الهزال ، والخفقان ، وضعف الأحشاء ، ولازمـه باللبن الحليب ، ويسير اللوز ، رؤي منه العجب . انتهى والله أعلم .

١٠١- دبّــاغ

في اللغة والعرف ، اسم لمن يتعاطى حرفة الدباغة : وهي تنظيف الجلود، وازالة الشعر عنهابما يزيلها ، اما بآلة كما يأتي ، واما بوضع شيء حرّيف ، كعفص وشبّ ، ومحلها يقال له مدبغة ، وفي اصطلاح أهل الشام يقال له « دباغة » ، ومكانها في الشام مشهور ، والنهر الذي ينقع به قذر جداً .

وكيفية الدبغ في المدابغ المعدة للدبغ : أن يؤتى بالجلد القريب العهد بالسلخ ، وينقع بالماء يومين أو ثلاثة أيام فقط ، وان كان بعيد عهد منذ زمان طويل ، أو مملحاً ، / أو مجففاً ، أو معللاً تعليلاً آخر ، ينقع من ثمانية أيام الى عشرة . فان أمكن نقعه في نهر ، كما عندنا في الشام ، كان خيراً ، والا فتصنع له أحواض كبيرة ، وتملأ ماء ، فينقع فيها . ثم لابد من رفعه من الماء كل يوم مرتين ، مادام منقوعاً ، وحينئذ يكون قد لان ، فيوضع على لوح من خشب ، على شكل نصف الدائرة ، ويركز الطرف الواحد من اللوح على الأرض ، والطرف الآخر على سيبة ، بحيث يكون مائلاً ، ويدار باطن الجلد مما يلي اللحم الى الاعلى ، والذي يلي الشعر الى الأسفل ، ثم يأخذ الدباغ سكيناً مخصوصة ، ذات نصابين ، تعرف بـ « سكين الدباغة » ، ويكشط بها عن باطن الجلد ما التصق به من الأغشية ، والمواد الدهنية . وفي خلال ذلك ينعصر جانب عظيم من الماء الذي تتشرّبه الجلد عند نقعه . وبعد الفراغ من تنظيفه ، كما تقدم ، يرده الى الماء ، ويبقيه أربعاً وعشرين ساعة . ثم يعيد العمل المذكور آنفاً ، ويغسله غسلاً جيداً ، وينشره على السيبة حتى يجف . ومنهم من يستغني عن هذه الأتعاب كلها بآلات مخصوصة حدثت في بلاد

٩٥

الغرب ، فيتم أمر دبغ الجلود لها بيومين أو ثلاثة ، بدلاً عـن الثمانية أيام أو العشرة .

وأما كيفية ازالة الشعر عن الجلد ، فيكون بواحدة من عمليات ثلاث، وذلك بعد تنظيف باطن الجلد كما ذكر : الاولى ــ التعريق . والثانية ــ المعالجة بالكلس . والثالثة ــ المعالجة بالنورة .

فالاولى ــ وهي **المعالجـة بالتعـريق** مخصوصة لازالة الشعور عن الجلود السميكة . وذلك بأن تدلك بواطن الجلود ، ويوضع بعضها فوق بعض ، وبواطنها الى الداخل ، وتوضع في صندوق ، ويغلق عليها ، حتى تصعد رائحة النتن ، فحينئذ ترفع من الصندوق ، ويزال عنها بسكـين الدباغة بكل سهولة .

ومنهم من يضعها في حياض ، ويدير عليها ماءً بارداً من ست ساعات الى اثنتي عشرة ساعة ، حتى تلين ، فيزول الشعر عنها بدون أن يلحقهـا الفساد والنتن .

وأما **المعـالجة بالكلس** : فهي أن يحفر حفرة صغيرة ، ويوضع فيها ماء الكلس/ ، ثم تنقع الجلود فيه من ثلاثة أسابيع الى أربعة . ولا بـد من تحريكها اذ ذاك .

وأما **النـورة** : وهي أخلاط من كبريت الزرنيخ والكلس ، على نسبة جزء واحد من الزرنيخ ، الى ثلاثة أجزاء من الكلس ، فتعالج بهـا الجلود الرقيقة التي لاتحمل التعريق ولا الكلس ، واستعمالها يكـون بدلك الشعر بها حتى يلين ، ويسهل نزعه . وبعدما يتم ذلك يغسـل الجلد ، وينقع بالماء ، ثم يسوى وتقص منه الزعانف ــ أي الأطراف ــ

كالرأس والرجلين وغيرهما ، فلا يبقى اذ ذاك للدبغ غير شيء واحد ، وهو توريم الجلد لازالة الكلس عنه ، وجعله بحيث يسهل قبوله للدبغ ، ويتم ذلك بنقع الجلود في ماء النخالة والشعير ، وبغسلها جيداً بالماء بعد ذلك، فتنفلظ .

وقد يغسلون الجلود التي تعالج بالتعريق بالماء فقط ، لِتَتَرَمّ وتغلظ . والأحسن أن تنقع في ماء النخالة والشعير . وقد يستعمل عوضاً عن ماء النخالة والشعير محلول قشر السنديان في ماء كثير ، حتى يحفظ، فينقع الجلد فيه ، ثم ينقل الى محلول آخر أقوى منه . وذلك يقتضي من اثني عشر يوماً الى أربعة عشر يوماً . ويستعمل براز الكلاب لذلك ، ولاسيما لتوريم جلود الغنم والمعزى والعجول . وبراز الكلاب تأخذه أناس مخصوصون عندنا في الشام ، فيلبس الواحد منهم — أعني الذي يريد له وأخذه — ثياباً خلقة قذرة ، ويحمل بيده سلتين ، ويفتش في آخر الليل ، وبيده قنديل ، أو فانوس صغير ، ويدور أحدهم في طرقات الشام التي تكثر فيها الكلاب ، فيلتقطه من الأرض ، حتى يملأ السلتين ، ويبيع كل سلة بأربعة أو خمسة قروش. وقد تباع بأكثر، سيما في أوقات الشتاء . فقد أخبرني ثقة أن امرأة من السائلات ماتت ، ووجد عندها مال كثير من ذهب وفضة وأمتعة وغير ذلك ، ووجد في بيتها محل كبير مملوء من براز الكلاب ، من أرضه الى قريب سقفه ، فبيع للدباغين بنحو من عشرين ألف قرش . وهذا من أغرب ما سمع من الحرص ، والطمع ، وطول الأمل. وكثيراً مايوجد أشخاص كما قال تعالى فيهم[1]: «يَحْسَبُهُمُ

(١) ٢ — البقرة — ٢٧٣

٩٧ النجاهلُ أغنياءَ مِنَ التعَفّفِ تَعرفهُم/ بِسيماهُم لا يَسألونَ النّاسَ إلحافاً » . فتجد أحدهم حسن الهيأة ، حسن الثياب ، نظيفها ، يطوف في الأسواق ، وليس معه درهم ولا أقل منه . ومثل هذه المرأة تسأل الناس صدقاتهم ليلاً نهاراً بهيأة محتقرة ، فتشحذ وتشحن دارها ؛ حتى خرء الكلاب ماتركته ! فنسأل المولى تعالى الغنى من فضله .

وعلى كل حال فهذه الصنعة حرفة رائجة جداً ، لايعتريها كساد ، وتثري ، لكنها مكروهة ، لمخامرة صانعها للنجاسة ، ولاستقذارها . والله المغني ، لارب غيره ، ولامعبود سواه .

١٠٢- درّاس اسم لمن يدرس الحنطة وغيرها، أي: يدرسها على لوح مخصوص يعمل للدراسة، وذلك بعد ماتحصد الغلة، وتوضع في البيدر ، يستأجر الشداد أو المستأجر دراسين يدرسون الغلة ، يدوسونها بمبلغ معلوم من الدراهم ، أو من الغلة ، على حسب الشرط . فحينئذ يأتي الدراس ، فيجلس على لوح الدراسة المعلوم ، بعد ربطه بين دابتين ، كثورين ، أو بقرتين ، وبيده عصا يسوقها بها ، فيجر اللوح الجالس عليه الدراس ، وتداس الغلة هكذا كل يوم ، من الصباح الى المساء ، الى أن يتم أمر الدراسة .

فعلى كل هذه الحرفة من الضروريات ، ويتعيش منها خلق كثير . فسبحان مسبب الأسباب . لااله الا هو ، خالق كل شيء ورازقه .

١٠٣- دقاق

اسم لمن يدق أثواب الحرير المسماة بـ «صايات الألاجا» ، وأثواب القطن التي تسمى بـ « صايات الديما » في اصطلاح أهل بلدتنا دمشق •

وكيفية دق ثوب الحرير الذي يسمى بصاية الألاجا : أن تغسل الصاية من أثر النشا ، بعد نسجها ، ويأخذها الدقاق فَيَبْخُّها بالماء ، فينزل الماء من فمه عليها مثل الغبار ، ثم يثنيها شيئاً فشيئاً ، ويدقها قليلاً بآلة من خشب ثقيلة مخصوصة تسمى بـ « المدقة » ، ثم تطوى طياً مخصوصاً ، وتدق في آخر طية دقاً محكماً ، بلا عنف شديد ، فيحسن لونها ، ويظهر تموجها ، مع البريق واللمعان •

٩٨ ولهذه الحرفة السوق / الكائن برأس البزورية من بلدة دمشق المسمى بـ «الدقاقين» وقد أزيل منذ سنوات ، وصار مكانه قهوة • وسبب ازالته أن الجيرة تضجرت من كثرة الدق وزعم رؤساء البنائين بمجلس البلدية أن هذا الدق يضر بالبنيان والجدر ، فأزيل بهذا السبب • ثم تفرقت أهل هذه الحرفة الى خانات مخصوصة •

وبالجملة فهي حرفة رائجة جداً ، ويتعيش منها خلق كثير • وهي من الحرف الشهيرة • والله خلقكم وما تعملون •

١٠٤- دكاك

اسم لمن يصنع «الدك» ، الذي هو الحائط المبني من التراب • وكيفية بناء الدك : أن يتخذ لوحان من الخشب مقدران طولاً وعرضاً وعمقاً ، فينصبان على أساس ويوصل بينهما بخشب يربط عليها بالحبال ، وتسد الجهتان بلوحين صغيرين ، ثم

يوضع فيه التراب المبتل بالماء القليل ، ويدق بمدقة من خشب ، ثم يزاد التراب ثانياً وثالثاً حتى يمتليء ذلك الخلاء بين اللوحين ، ويصير جسماً واحداً . ثم يعاد نصب اللوحين على الصورة التي ذكرناها ، ويركز كذلك سطراً فوق سطر ، أي لوحاً فوق لوح ، الى أن ينتظم الحائط كله ملتحماً ، كأنه قطعة واحدة .

وغالب أبنية الدكوك انما تبنى حول البساتين ، وأبنية غالب فقراء الفلاحين من الدك .

وهذه الحرفة لها معلمون وصناع مخصوصون ، غير معلمي وصناع البنائين ، وهم رابحون جداً ، نظراً لكثرة بساتين بلدة دمشق[1] التي جدرانها من الدكوك ، التي لم تزل كل سنة في سقوط وانهدام ، سيما من كثرة الثلوج والأمطار والأهوية أيام الشتاء ، فتجد صناع هذه الحرفة لايفترون عن الشغل . والله سبحانه الخلاق والرزاق والمسهل لارب غيره .

١٠٥ - دلّاك اسم لمن يتعاطى الدلك وازالة الأوساخ بكيس أو صابون داخل الحمام لمن يريد ذلك . وأما الذي ينظف البدن بالليف والصابون ، يقال له «مصوبن» .

99

وهذه الصنعة من ضروريات الحمامات . وذلك لأن من يريد دخول الحمام ، لابد له من (دلاك) ينظف بدنه . ويسمى «المصوبن» . والذي يتعاطى هذه الصنعة لايحتاج الى كبير عدة ورأس مال ، بل يحتاج الى

(١) كاد الدك ينقرض لسببين : احدهما ـ ان الفرنسيين هدموا معظم الدكوك خلال الثورة السورية ١٩٢٥ لانها كانت حصونا طبيعية للثائرين . وثانيهما ـ ان الدك يحجب مناظر البساتين الجميلة ، فاستعيض عن معظمها بالشريط الشائك .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لا يمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

ولا ينظر في مقدار الأجرة الى قدر قيمة الثوب بل ينبغي أن ينظر الى قدر التعب • فلو أخذ أجرة على قدر قيمة الثوب / لأخذ على كل قرش مثلاً شيئاً معلوماً ، كما هـو العادة ، لكان ظلماً محضاً • ولأن العمل في هذه الحرفة لايتقدر • ثم من خصال الدلالين المذمومة شرعاً وعرفاً اذا أخذ أحدهم السلعة ليبيعها ، يزيد بها لنفسه ، وينادي بأعلى صوته أنها بكذا ، فاذا جاء شخص ممن لامعرفة له بأحوالهم يزيـد بها ، ويجعلها عليـه بتلك الزيادة وتارة يزيد بها صاحبها ، وهي من أعظـم المنكرات • وتارة تكون هذه السلعة قابلة للزيادة ، فيرتشي عليها مـن شخص ، فيجعلها عليه ، ولا يقبل زيادة أحد • وهكذا لهم فعال خبيثة ، بل أعظم من ذلك • والحاصل كأن الأمر بيدهم فان شاؤوا زادوا وحسنوا السلعة وان شاؤوا بخسوا •

١٠٠

وبالجملة فالمتقي منهم قليل جداً ، وأكثرهم يبيع دينه بأقل قيمة من دنياه • والتوفيق من الله • ولا معبود سواه •

١٠٧- ديمـجي

اسم لمن يتجر ببيـع الديما : وهي أثواب تنسج من قطن معلومة عند أهل الشام ، لاتحتاج الى توضيح • وكيفية عملها كصنعة الألاجا ، بل هي تقليدها • فتلك من حرير وقطن ، وهذه من قطن فقط •

ثم ان هذا الديمجي ، اما أن يكون معلماً ، أي مهيئاً لجميع ماتحتاجه هذه الصنعة من تدوير الأنوال ولوازمها ، كالألاجاتي المتقدم في حرف الهمزة ، فيكون تاجراً أو معلماً • واما أن يكون متجراً في بيع الديما ،

بأن يشتري من معلمه ، أي مهيئه ، ويبيعه في دكانه ، وهو الكثير عندنا ، فيكون من قسم التاجر أو البزاز المتقدمين ٠

وعلى كل فهي صنعة رائجة جداً ، لأنها كسوة أهل بلدتنا وغيرها من الفقراء ، وحرفة شريفة لابأس بها، ويتجر بجانب عظيم منها الى غير الشام، من السواحل وبلاد الأتراك ، ولها القبول الزائد هناك ٠

ويقال له «المرّاش» بالتشديد ٠

١٠٨- دهّان

حرفة عندنا كثيرة الوجود ٠ يطلق على من يزين ويزخرف وجوه الجدران والحيطان بالصبغ والنقوش / بالألوان التي يستحسنها من يريد تزيين جدره وحيطانه وسقفه ومحلاته ٠ ١٠١

وتختلف صناعه مهارة واتقاناً ، على حسب استعداده وذكائه ، كغالب صنائع اليد ٠ وصنعته معلومة لاتحتاج الى كبير توضيح : وذلك بأن يؤتى بالصمغ المسمى «الكثيرا» فينقع زمناً قليلاً حتى يتحلل بنحو خرقة ، ويؤتى بالبيض النيء ، فيصب عليه ، ويحرك بالخفق كثيراً ٠ ثم يوضع عليه من ألوان الأصبغة التي يريدها ويمزجها ببعضها ، وذلك بعد وضع كمية من الجبسين الناعم الممزوج بما ذكر ٠ فان كان الدهن والمرش زياتياً لزيادة البهجة ، من بريق ولمعان ، فيضاف لذلك نفض وثم يأخذ الصانع ريشة رأسها من شعر ، فيغمسها منه ، ويصور مايريد من النقوش المحكمة الوضع ، كرسم بلاد بديعة ، وأمكنة جميلة ، أو بحر

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائلاستخدامهما لأغراضالانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

١١٠- ذهبي

هو اسم لمن يبيــع ويتجر بالذهب البسيط الســاذج بسائر أنواعه ، كالمحلول والمسحوق ، وغير ذلك ، من كل مايصلح للدهان والنقش به ، كتحسين الجدر والخشب ، بالنقش به ، والكتابة ، وغير ذلك من سائر أنواع التزيين .

وهذه الصنعة كانت قديماً بيد عائلة مخصوصة في الشام ، يقال لهم « بيت الذهبي » ، وأنسالهم وفروعهم موجودة ، وهي الى الآن كنيتهم هذه باقية ، ولايحترفون بهذه الصنعة ، لان هذه الصنعة صارت تأتي من بلاد الافرنج بسائر أنواعها . وبائعها غالباً من يبيع آلات الدهان عندنا في الشام . وغالبهم في سوق البزورية . فسبحان من يغير ولايتغير .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وحرفة الراعي كثيرة ، يتعيش منها قبائل من الأكراد . فسبحان مدبر الكون ، وبه الاغاثة والعون .

ومما قيل في مليح راعٍ :

أفــديه من راعٍ كبدر الدّجــى ... قَوامُه فــاق الغصون الرّشـاق
ضيّفني بالجَدي نــاديتُـهُ ... ما القصدُ يا مولاي الا العنــاق

١١٢- رتّـــا[1] بالتاء الفوقانية ، على لغــة العامة ، وصوابه « رفّاء » بالفاء : وهـــو الذي يخيط شقوق الأثواب المتهرية، من نحو عث أو حرق أو غير ذلك ، بخيوط من جنس الثوب المرتي . ثم أن الرتا يرتي الشال والسجاد والثياب من الجوخ وغيرها ، الا أن غالب مايرتيه الناس هو الشال . فقد يتفق أن تتمزق قطعة من الشال السليمي أو الفرماش ، أو يلحقهــا العث ، فيأسف صاحبها لنفاستها وندرتهــا ، فيعطيها للرتا المذكور ، فيلحم شقوقها ، ويعيدها كما كانت،كأن لم يصبها شيء ، بحيث لو رآها الرائي ، لم يعلم موضع الشق ، لاحكام الصنعة وضبطها . وهو يأخذ أجرته بحسب قيمة الثوب .

وبالجملة فهي حرفة شريفة ، وهي أيسر من الخياطة ، لكنهــا أدق لاحتياجها الى تأمل وتفكر .

---

(١) هذا البحث بخط المرحوم ضياء الدين القاسمي حفيد المؤلف .

١١٣- رزّاز اسم لمن يتجر بالأرز، ويقال له «رز» الحب المعلوم، وهو أصناف، وأجوده الهندي، وهو عزيز في بلادنا، ثم الذواتي. وغالب مقر تجاره الخان المسمى به، ومحله عندنا في الشام بسوق الصقالين الآخذ الى سوق البزورية. ويباع عند كثير من العطارين وغيرهم.

ثم التجارة في الأرز أشرف من تجارة سائر الحبوب وأبرك، لأن باقي الحبوب كالبُرّ والشعير والفول والحمص والذرة وغيرها تباع بالكيل، وغالب الكيالين غير محافظين على التقوى والورع.

وبالجملة فالتجارة في الأرز تجارة رابحة، والمتجرون به غالبهم من أهل الثروة والستر.

١١٤- رسّام اسم لمن يرسم القماش المنسوج، رقيقاً كان أو غير رقيق، أي يطبعه بطابع، أي بقالب من خشب محفور بنقش مختلف الاشكال، على حسب رغبة طالب الرسم، على نحو منديل وسجادة ولحاف وبقجة وغير ذلك. ويشغل على الرسم بالحرير الملون، وهو المسمى بـ « التطريز »، أو القصب المسمى بـ « الصرما »، أو بالصوف الملون ويسمى « كناويشا »، الى غير ذلك من أنواع التطريز.

وغالب هذه الأشغال الآن هي من حرف النساء المخرجات من المدارس الرسمية. وهي حرفة رائجة جداً، يشترك فيها الرجال والنساء.

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

الحصيدة ، فمتى حصدت الغلة يرجدها ، أي ينقلها على دوابه من محل الحصد الى البيدر . ثم بعد فراغ المحصود ووضعه في البيدر ، وأخذه أجرته التي شرطت له ، يذهب فيشتغل عند الضمانة في نقل نحو البطيخ والقنب وغيرهما من أنواع الفاكهة على دوابه ، لأجل البيع على الوجه المذكور . وهذه يتعيش منها كثير . والله ميسر كل عسير .

١٠٦

١١٧ - رشّاش

هو من يرش الماء في الأسواق التي أرضها من التراب ، لئلا يصعد الغبار الخارج من الأرض ، بسبب المشي، من كثرة المارين ، فيشوه البضائع . وذلك بأن يتخذ قربة ، ويملؤها من أحد السبلان التي في السوق، ويرش الماء يمنة ويسرة من جهة الدكاكين. ثم ان كان الوقت صيفاً ، يرش السوق مرتين ، مرة عند الصباح قبل فتح الدكاكين ، ومرة في وقت الظهر ، وذلك لكثرة الغبار أيام الصيف . وان كان الوقت شتاءً ، فيرش مرة واحدة ، وذلك بعد كنس الأسواق عند الصباح ، لقلة الغبار أيام الشتاء . وله على كل دكان شيء معلوم يجمعه في كل شهر ، ويتعيش به . ثم ان كل سوق له رشاش فأكثر ، على حسب كبر السوق وصغره . فسبحان من ألهم كل شخص من خلقه سبباً لتحصيل رزقه .

١١٨ - ركّاب

يطلق في اصطلاح أهل بلدتنا على من يؤجر حميره من مكان الى مكان بأجرة معلومة ، على حسب بعد المحل وقربه . ويطلق أيضاً « الركاب » على الأجير الذي يمشي خلف الحمير ليردها الى معلمه الذي يرسله معها ، بدليل قول الراكب للأجير : « يا ركاب » تارة ، وتارة « يا حمّار » بتشديد الكاف والميم .

وقد كانت هذه الحرفة كثيرة ورائجة ، ومقرها غالباً بسوق الخيل، قريب من جامع يَلْبُغا ، يأتي اليهم من يريد الذهاب مثلاً لنحو قريةٍ ، أو زيارة وليٍّ نحو الصالحية ، أو غير ذلك، مما لا فتور فيه . فلما حدثت العربات وكثرت في بلدتنا جداً ، كغيرهامن المدنالشهيرة ، بطلت وتعطلت هذه الحرفة ، الا ما قل .

وبالجمله فقد كانت هذه الحرفة رائجة ، لكنه تعالى لاينسى منرزقه أحـــداً .

١١٩- رمّـــال اسم لمن يعاني ضـــرب الرمـــل أي الخط فيه .

١٠٧ واعلم أن بعض الناس يدعون معرفة الطالع والسعود ـــ دعوى كذب وبهتان ـــ فيأتيهم أرباب العقولالقاصرة من العوام والنساء ، ومَنْ فقد ضالة ، أو من يريد من الحمقى أن يختبر سعده ، فيكذبون عليهم ، ويموهون على الناس بكلامهم ، مـــع أنهـــم لايدرون سعدهم أو حظهم ، فضلاً عن علمهم بسعد غيرهم أو نحسه .

ثم هم على أقسام : فمنهم من يجلس في الطريق الآخـــذ الى مقبرة باب الصغير ، يمد خرقة يفرش عليها الرمل ، وبجانبه امرأة أو فلاح ، ويقول له : اضرب لي رملاً على بختي ، فيخط باصبعه في الرملالمفروش على الخرقة ، ثم يذكر كلمات قد رتبها ، بعد أنيأخذ قليلاً من الدراهم .

ومنهم من يجلس في داره ، وتأتيه الاشخاص الذين لهم حوائـــج ، فيضمرونها ، فيخط لهم هذا الرمال خطوطاً في الورق ، ثم يظهر لهـــم

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

من مَلْبَس ومشرب ، كالبن الذي يباع فيه قناطير مقنطرة ، ومفرش كالسجاد ، وأسلحة ومن جملتها الرماح . فيباع هناك كثير منها ، عدا ما يباع في البلدة ، كلما ورد العرب اليها ، لأن العرب لاينقطع ورودها الى الشام . فَعُلِم من ذلك أنها صنعة رائجة ، وتجارة غير كاسدة . والله سبحانه وتعالى مسبب الأسباب ، بلا شك ولا ارتياب .

١٢١- رَوّاس

اسم لبائع رؤوس الغنم المطبوخة . وحقها « رءّاس » كشدّاد ، لكن شهرته عندنا كذلك. والخطأ المشهور — كما قيل — خير من الصواب المهجور .

وهذه الحرفة كثيرة الوجود عندنا ، سيما في الأسواق الشهيرة ، فلا تخلو من رواسين أو ثلاثة ، يبيعون الرؤوس وغيرها من الكروش والأيدي والأرجل التي تسمى بـ « المقادم » ، مطبوخة في حلة كبيرة ، يضرب المثل فيها فيقال : مثل حلة الرواس . وذلك لكبرها ، وعمقها ، واستقذارها غالباً ، لكونها توضع في محل ، ويبنى حولها ، بحيث تمكث سنين لاتقام ، ولاتجلى ، ولاتبيّض ، بل تبقى ظلمات بعضها فوق بعض . ولذا ترى المترفهين لايأكلون من عند الرواسين . وفي الغالب يوجد عند بعض الطباخين في الاسواق المنتظمة الرؤوس والأيدي والأرجل مطبوخة طبخاً جيداً . وذلك بعد قشط الجلود ، وتنظيفها بالغسل الكثير ، يضعها في طاجن نظيف مبيّض ، أو يضع لمن يريد الأكل عنده في صحائف/ أي صحون بيض نظيفة ، بحيث يشتهي الأكل في محله ، بخلاف أولئك ، فانهم يأخذون الرؤوس والأكارع — أي المقادم — من المسلخ ، ويضعونها في

١١٠

دكاكينهم ، فتأتي الصناع والأجراءالوسخو الثياب، القذرو الرائحة ، من كثرة الدماء والاوساخ التي على ثيابهم الزرقـاء ، ولامعرفة بطهـارة ولانجاسة ، حتى اذا نظفت بهذا الماء القذر أخرجوه ، ووضعوه في الحلة التي ذكرناها ، ويوقدون العظـم الذي استخرجوه من الرؤوس ، مـع الأمخاخ التي يلتقطونها غالباً من دكاكين الجزارين ، فتخرج رائحة الوقيد خبيثة جداً ، بحيث تشتمُ من مسافة بعيدة . ثم بعد الاستواء ، يعـلو الحلة دهن ، فيقيمونه ويجعلونه في وعاء مخصوص قريب من الحلة .

واعلم أن الرواسة لايعرفون السمن ، فضلاً عن شرائه ، الا ان كانوا يأكلونه من غير أهل حرفتهم ، لان الدهن الذي يزيد عندهم في دكاكينهم يدخرونه في بيوتهم ، لأكلهم وأكل عيالهم ، فجميع الأكل الذي يدخله السمن يجعلون عوضه من دهن الرؤوس الذي شرحناه . كذلك مايزيد عند هؤلاء من الكروش وغيرها ، يقتاتون به غالباً .

وبالجملة فهـذه حرفة رائجة لدى الفقراء والفلاحـين ، وأربابهـا غالبهم أغنياء . والله يرزق من يشاء .

حرف الزاي

١٢٢- زبّـــار اسم لمن يتقلّمُ أغصان الكروم ، يستأجره أصحاب الحوانيت ، الذين عندهم كروم عنب ، ولقطع أطراف عروق الدوالي ، بمنجـل صغير يعرف بـ « القطفة » . وذلك في أواخر الشتاء فيشتغل الزبار عند أحدهم كل يوم ، مـن الصباح الى /المساء بأجرة ، ويتعيش بها ، فاذا فرغ منها اشتغل عنـده بغيرهـا كالعـذق والتصويل والشوار ، وغير ذلك مما يأتي ذكره .

والذين يشتغلون بهذه الحرفة كثيرون ، لكثرة الكروم في جهـات الشام ، حتى ان بعضهم يدور في أزقة الشـام ومنعطفاتها وينـادي : زبار الدوالي ويكررها ، فيأخذه من عنده دالية ليزبرها ويحمرّها بأجرة معلومة لأنه ندر أن تخلو دار في دمشق من شجرة عنب .

فسبحان من جعل رزق من شاء ، بما شاء ، لا اله الا هو ذو الآلاء والنعماء .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون – على ما يظهر – يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

(وقد حدثنا رئيس هذا المعمل : أن معدن الزجاج الدمشقي مغارات في جبل عذرا ، احدى قرى دمشق ، تبعد عنها نحو أربع ساعات ، يجلب منها ، ثم يوضع في تنور هو والقلي ، فيشرب بعضه من بعض ، ويمتزج، ثم ينقل الى تنور آخر ، فيسبك بعضه بعضاً ، حتى يصير كالعجين ، ثم يسحب وينقل الى تنور آخر ، حيث أعدت آلة الشغل والصناعة في تنويع ما يراد منه) .

ثم الزجاج المعمول عندنا هو دون البللور الذي يرد من بلاد اوربا لان الزجاج الذي يعمل عندنا يضرب لونه الى الخضرة ، وذاك أبيض نقي ، بحسب جودة المعدن ورداءته . ومن الجيد تصنع الزجاجات النفيسة المعروفة بالكؤوس ، والزبادي وغيرها .

قال الشاعر :

ثَقُلت زجاجاتٌ أتتنا فُرَّغاً   حتى اذا مُلِئَتْ بِصِرْفِ الرَّاحِ
خفَّت فكادت أن تطير بما حَوَت   وكذا الجُسومُ تَخِفُّ بالأرواحِ

وقال غيره :

رَقَّ الزجاجُ ورقَّتِ الخمرُ   فتشابها فتشاكل الأمرُ
فكأنَّما خمرٌ ولا قدحٌ   وكأنما قدحٌ ولا خمرُ

وهذه الصنعة من بقايا الصنائع المدروسة في دمشق ، كالقيشاني الذي أعجزت صنعته الأوربيين ، مع اختراعهم الأشياء المدهشة التي تحير العقول . فسياحهم يشترون قطعه المعروفة عند مجيئهم الى بلادنا بأغلى ثمن ، كغيره من القطع القديمة المعروفة بالأنتيكة .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

جحة في ثمرات الاوراق ، وحيث أنها أعجوبة في بابها ، أذكرها ملخصة، قال ابن حجة :

حكي أنه كان شخص في بغداد ، يعرف بأبي قاسم الطنبوري ، صاحب نوادر وحكايات، وله مداس له عدةسنين ، كلما انقطع من موضع جعل عليه رقعة ، الى أن صار في غاية الثقل ، وصار يضرب به المثل ، فيقال : أثقل من مداس أبي قاسم الطنبوري . فاتفق أنه دخل سوق الزجاج ، فقال له سمسار : يا أبا القاسم ! قد وصل تاجر من حلب ، ومعه حمل زجاج مذهب ، وقد كسد ، فابتعه منه وأنا أبيعه لك بعد مدة بمكسب المثل مثلين . فابتاعه بستين ديناراً . ثم دخل سوق العطارين ، فقال سمسار آخر : قد ورد تاجر من نصيبين بماء ورد ، في غاية الحسن والرخص ، ابتعه منه ، وأنا أبيعه لك بفائدة كثيرة ، فابتاعه بستين ديناراً أخرى . ثم جعله في الزجاج المذهب ، ووضعه على رف في صدر بيته. ثم دخل الحمام بغَلَس ، فقال له بعض أصدقائه : يا أبا القاسم ! أشتهي أن تغير مداسك ، فانه في غاية الوحاشة ، وأنت ذو مال . فقال : السمع والطاعة . فلما خرج من الحمام ، ولبس ثيابه ، وجد الى جانب مداسه مداساً جديداً ، فلبسه ، ومضى الى بيته . وكان القاضي دخل الحمام يغتسل ، ففقد مداسه ، فقال : الذي أخذ مداسي ماترك عوضه شيئاً ، فوجدوا مداس أبي القاسم الطنبوري ، لكونه معروفاً ، فعلموا أنه هو أخذه ، فكبسوا بيته، فوجدوا مداس القاضي عنده، فأُخذ منه ، وضرب وحبس ، وغُرِّم جملةً من المال ، حتى خرج من الحبس ، فأخذ المداس وألقاه في الدجلة ، فغاص في الماء ، فرمى بعض الصيادين شبكة ، فطلع فيها ، فقال : هذا مداس أبي القاسم الطنبوري ، والظاهر أنه سقط منه، فحمله الى بيت أبي القاسم فلم يجده ، فرماه من الطاق الى بيته ، فسقط

١١٤

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وهو المزارع الآتي في حرف الميم .

١٢٦- زرّاع وهو اسم لشخص يطلب من صاحب حانوت أو مستأجره قطعة أرض ، أو كامل أرضه ، على أن يخدم الارض ويحرثها ويزرعها ويحصدها ويدرسها ويدريها ، ومهما خرج من الحب يقسم ثلاثة أثلاث ، فيعطى صاحب الارض أو مستأجرها الثلثين بمقابلة الارض وسقيها ، ويأخذ الزراع الثلث بمقابلة أتعابه ، من جلب بقر للحرث ، ومعاش أجراء ، وغير ذلك من لوازم الزراعة .

وهذه الحرفة يتعيش منها كثير من الناس ، سيما من لاصنعة بيده .

١١٨

١٢٨- زمّار في اللغة : من يغني بالقصب . والمصطلح عليه عندنا نوعان :

الأول – من يسترزق بالتزمير بالقصب ، ويطوف في الأسواق على الدكاكين ، فيزمر اما بشبابة واحدة ، أو بشبابتين ، أي بقصبتين ، شدت احداهما بالأخرى ، بخيط أو وتر قد ربط على فم قربة ، لها فم آخر ، الى جهة فمه ، فينفخ القربة حتى تعظم ، ويسدّ فم النفخ في صدره ، ويطلق هواءها على الزمر المربوط ، ويحرك أصابعه بأثقاب القصب بحركات مخصوصة ، على حسب ارادته ، بأي نغم يشتهي ، ويطوف على القهاوي والأسواق ، كما قدمنا ، وهذه الفرقة تسمى بـ « الجعيدية » ، والزامر يقال له « جعيدي » ، وأهل تلك الحرفة كسبهم ومعاشهم من ذلك .

والنوع الثاني – يطلق على الزمار ، على من يصنع الزمامير من القصب ، كالشبابة ، وهي حرفة مخصوصة ، بمحلات مخصوصة ، كسوق

السنانية عندنا ، مما يكثر فيه اجتماع العرب ، كالحوارنة ، لأن غالب بيعهم وتَسَبُّبِهِمْ على/العرب والفلاحين . فسبحان مجري الفلك ، ومتمم الملك ، لارب سواه .

١١٩

ومما قيل في زمار :

وزامرٍ يبعثُ في زَمْرِهِ الى قلوب الناس أفراحا
كأن اسرافيلَ في نابِهِ يَنْفُخُ في الأموات أرْواحا

وقيل في زامرة :

وناطقةٍ بالنفخ عن روح ربِّها تعبِّر عما دوننا وتترجُم
سكتنا وقالت للقلوب وأطربت فنحن سكوت" والهوى يتكلم

وقال بعضهم يهجو زامرَة :

ولرب زامرة يهيج زمرها ريح البطون فليتها لم تزمر
شبهت أنملها على ضرباتها وقبيح مبسمها القبيح الأبخر
بخنافس قصدت كنيفاً واغتدت تسعى اليه على خيار الشنبر

١٢٧- زهوراتي

اسم لمن يبيع عروق أنواع الزهور ذات الألوان البديعة ، والروائح الذكية ، كالورد والنسرين والمضعف والقرنفل والمنثور والسيسبان والعنبر والليلك وغيرها من الأشكال الغريبة .

وهذه الحرفة كثيرة الوجود ، وغالبهم من الصالحية ، لأن أهل الصالحية يعتنون بذلك كثيراً . ثم منهم من يبيع هذه الزهور/بمحل ، كدكان ، وهم قليلون ، بل لا أعرف الا واحداً دكانته مشهورة معلومة داخل باب الجابية ، بسوق عندنا يعرف بسوق المرادنية ، يبيع هذه

١١٦

الاشكال ، حتى يبيع عنده الآس الذي يوضع على القبور • وغالب بيعه على النساء • وهذه الدكان من قديم الزمان معدة لذلك • ومنهم من يبيع تلك الزهور مغروسة بعروقها بالتراب ، بأوعيتها من الفخار التي تسمى « شقف الزريعة » فيشتريها بترابها وشروشها من يريد أن يزرعها بداره ، أو يبقيها بشقفتها وترابها عنده • وهم كثيرون جداً ، سيما بأوقات الربيع والصيف ، فينزلون من الصالحية • وعلى رؤوسهم فروش من خشب ، مملوءة من أوعية زرع ، بها من أشكال وألوان الزهور مما يدهش ، ومركزهم في جادة الدرويشية• وبعضهم قد يدور في الأسواق، طمعاً بمن يرغب في شراء تلك البضاعة ، التي يرغبها أرباب الصفا والنشاط •

وبالجملة فهي حرفة رائجة ، ويتعيش منها أشخاص كثيرون ممن ذكرناهم •

ولما كانت هذه الحرفة من الحرف اللطيفة ، ولا يرغب في شراء بضاعتهم الا أرباب الشمائل الظريفة ، استطردت لذكر طرف من الاشعار مما قيل في وصف بعض الأزهار • من ذلك ما قيل في الورد والبنفسج والشقائق:

هذا الربيع وهذه أزهاره ... متجاوبٌ في أيكه أطيارُهُ

وبدا البنفسج والشقائق مونقٌ ... والورد يضحك بينها وبَهارُهُ

فاشرب على وجه الحبيب وغَنِّ لي ... هذا هواك وهذه آثارُهُ

وفي الورد والبنفسج :

للورد فضل على زهر الربيع سوى ... أن البنفسج أذكى منه في المُهَجِ

كأنه وعيون الناس تَرْمُقُه ... آثارُ قَرْصٍ بِيَدٍ في خَدِّ ذي غَنَجِ

١١٧ وقيل : كتب مجير الدين محمد بن غيم على وردة هذه الأبيات ، وأرسلها الى معشوقه :

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وفي الياسمين :

والأرض تبسم عن ثغور رياضها ... والأفق يسفر تارة ويقطب
وكأن مخضرّ الرياض ملاءة ... والياسمين لها طراز مذهب

وفي السوسن :

سقيا لأرض اذا ما نمت نبهني ... بعد الهدوء بها قرع النواقيس
١١٨ كأن سوسنها في كل شارقة ... على الميادين أذناب الطواويس

وفي الجلنار :

وجلنار مشرق ... على أعالي شجرة
كأنه في غصنه ... أحمره وأصفره
قراضة من ذهب ... في خرقة معصفرة

وفي الآس :

أهديت شبه قدك المياس ... غصناً نضيراً ناعماً من آس
فكأنما يحكيك في حركاته ... وكأنما تحكيه في الأنفاس

وفي الريحان :

وريحان يميس بحسن قدٍّ ... يلذ بشمه شرب الكؤوس
كسودان لبسن ثياب خزٍّ ... وقد قاموا مكاشيف الرؤوس

وفيه أيضاً :

قضيب من الريحان شاكل لونه ... اذا ما بدا للعين لون الزبرجد
فشبهته لما بدا متجعداً ... عذاراً تبدى في سوالف أغيد

١٢٩- زيّـات

اسم لمن يبيع الزيت المستخرج مـن الزيتون ، على دابـة مخصوصة ، بأوعية مخصوصة كالخوابي من جلد، يضعها على الدابة ، ويدور في الأسواق على زبوناته ، كالبقالين وغيرهم ممن يدخر الزيت وغيره • وأصحاب هـذه الحرفة تشتري الزيت مـن أصحابه أربات الزيتون والمعاصر ، ويدخرونه في آبار مخصوصة محكمة، وأوعية كبيرة ، فيأتي أحد أهل هذه الحرفة ـ وهو الزيات ـ فيشتري منهم بالسعر الحاضر ، ويبيعه على دابته بربح ماتيسر ، والله تعالى يجعل البركة للجميع ، حيث أنه من شجرة مباركة أقسم الله بها في أم الكتاب • والله يرزق من يشاء بغير حساب •

حرف السين

١٣٠- ساعاتي اسم لمن عنده معرفة بتصليح وترميم الساعة ، ذات العقربين ، اذا اختل شيء من آلاتها ، كمسحها بعد فكها، وارجاعها كأحسن ما كانت ، وغير ذلك • وشرطه أن يكون عنده خبرة ومهارة ، ودقة نظر ، ونصح ، وأمانة ، وقناعة ، وأن يتلقى هذه الصنعة عن أستاذ ماهر ، مع الحذق والذكاء • فان فقد شرط من هذه/الشروط، لايجوز وضع الساعة عنده للاصلاح ، فانه يعكسها • فقد وجدنا كثيرا ممن تعدى على هذه الصنعة ، بلا أستاذ ولا خبرة ، وأوهم أنه من معلمي هذه الصنعة ، بفتح دكان ، وتعليق ساعات ، وقد عطل ساعات كثيرة لأناس غرّهم ظاهر أمره • كالطبيب الذي يأخذ الطب من الكتب ، ثم يفتح محلاً يشهر نفسه به بأنه من الأطباء ، بوضع علب العقاقير ، وقناني للأشربة ، وغير ذلك من أمارات أهل الطب ، فهذا لايجوز التداوي عنده بحال ، وكيف نسلم أرواحنا لجاهل غاشٍّ لنا ، يزعم أنه طبيب يتصرف فيها برأيه ، فيكون ما يعكس ، أكثر مما يصيب • فكذلك الساعاتي كالطبيب ، فعلى من اختلّت ساعته ، وأراد اصلاحها أن يسأل أهل الرأي عن ساعاتي نصوح ، له معرفة ودقة نظر ، مخافة أن تذهب ساعته شَذَرَ مَذَرْ •

١٢٠

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وتهيئتها للركوب ، بوضع سرجها وعدتها ، اذا أراد سيده الركوب عليها ، ومشيه خلفها ، وغير ذلك مما تقتضي اليه الحاجة لسياسة الخيل .

وهذه الحرفة كثيرة الوجود ، وقد كان غالبهم مصريين ، فلما كثرت العربات عندنا صار غالب السياس عربجية . وأعني بالعربجية هم الذين يحسنون سوق خيل العربات ، وتعديل مشيها الى أي محل أراد راكبها — كما يأتي في العين ان شاء الله تعالى —

وذكر السبكي في معيد النعم : ان من حق سائس الدواب أن ينصح في خدمته، وتنقية العليق لها، وتأدية الأمانة فيه، فانه لا لسان لها تشكوه، الا الى الله تعالى .

وقد كثر من السواس تعليق حِرْزٍ يشتمل على بعض آيات القرآن على الخيل ، رجاء الحراسة ، مع أنها تتمرغ في النجاسة . وأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بأن ذلك لايجوز ، وهو بدعة ، وتعريض الكتاب العزيز للاهانة .

١٢٣- ساعي

اسم يطلق على من يرسل بكتاب أو غيره من بلد الى بلد . ويسمى باللغة « البريد » . وذلك فيما اذا احتاج أحد لأمر مهم من متعلقات التجارة أو غيرها ، وخاف عدم وصول كتابه لغريمه ، مع البوسطة مثلاً ، أو كانت قضية سر وكتمان ، يخشى اذاعتها وافشاءها ، فيرسل هذا الساعي ، ويجعل له جعلاً معلوماً ، وأجرة وافية، على أن يوصل كتابه الى البلد الفلاني ، ويأتيه بجوابه ، / فيذهب الساعي ١٢٢ سراً ، ويأتيه بالجواب من غير شعور أحد .

وقد رأيت ليلة ، ما بعد العشاء ، رجلاً مسناً ، ذا شيبة ، اشترى تتناً من عند تتنجي ، وكنت واقفاً عنده . فنظرت لهذا الرجل ، فاذا هو مسودٌ وجهه من آثار الشمس ، شعث ، أغبر ، يلهث من شدة التعب. فقلت له : أمسافراً كنت ؟ قال : نعم. قلت : أين كنت ؟ قال : فيطرابلس. قلت : ماتصنع هناك ؟ قال : صنعتي ساعيٌ منذ ثلاثين سنة ، وقد أخذت كتاباً من الشام الى طرابلس ، وجئته بجوابه الساعة.. وأظن قال لي : أخذت أجرته نحو ثلاثة أرباع المجيدي . فتأملته ، وكدت أبكي أسفاً عليه ، وحزناً لكبر سنه ، ومشقة صنعته . فسبحان من أقام العباد ، فيما أراد ، لا اله سواه .

١٣٤- سائل

اسم للفقير الذي يطوف بالأسواق و الأزقة ، ويسأل الناس من دكاكينهم ، وأبواب بيوتهم . ويقال له : « الطَّلاَّب » بفتح الطاء ، لأنه يطلب من الناس شيئاً من صدقاتهم. ويسمى « شحاذاً » بفتح الشين ، أي مُلِحّاً في السؤال ، من الشحذ ، الذي هو الإِلحاح في السؤال — كما في اللغة — .

ثم ان السَّألة — وهم الشحاذون — ينقسمون الى أقسام :

فمنهم البسيطة : وهم الذين يقنعون بالعطاء أو بالدعاء .

ومنهم أهل الحبائل الشيطانية، والحيل الإِبليسية ، وشبكاتهم لصيد الأموال مختلفة ، وقلوبهم على الطمع بما في أيدي الناس مؤتلفة :

فمنهم من يظهر المشيخة والتلبيس ، ويأخذ مالهم بحيلة التكبيس ؛

ومنهم من يدعي الافلاس ، ويظهر ورقة تحكي أنه كان من أبناء الناس ؛

ومنهم من يدخل على الكبار بمجمع تَمْرٍ أو مجمعين ، ويدعي أنه من أكابر أهل الحرمين ؛

ومنهم من يأخذ بالسفه والفجور ، وهي من أفظع الأمور ؛

ومنهم من يأخذ بتنكيس رأسه ، وبتصعيد أنفاسه ؛

ومنهم من يأخذ بالخشوع والخضوع ، وكثرة البكاء والدموع ؛

ومنهم من يأخذ بالتخليط والرجف ، ويظهر أنه من أهل الولاية والكشف ؛

١٢٣ /ومنهم من يأخذ بدعوى الأباطيل ، وبمعرفة السباسب والتهاطيل ؛

ومنهم من يحتال على كثير من الناس ، بكشف البدن والراس ؛

ومنهم من تراه كالعلوج ، يظهر للناس أنه مقعد أو مفلوج ؛

ومنهم من يحتال بتعصيب الأعضاء ، ويظهر أنه أصيب بمعضل الداء ؛

ومنهم من يحتال بالمشي على الأربع ، وهو أقوى من القرد وأشنع ؛

ومنهم من يحتال بالبوظية وهو حافي ، ويزعم أنه كبِشْر الحافي ؛

ومنهم من يحتال بالمسبحة والهمهمة ، وتحريك الرأس والدمدمة ؛

ومنهم من يحتال بغناء المواليا ، وأشعار العشاق ، في الطرقات على الدكاكين وفي الأسواق ؛

ومنهم من يحتال بحمل الكشكول ، حتى يملأه من سائر أنواع المأكول ؛

ومنهم من يجلس في الطرقات ، وفي الأزقة والحارات ؛

ومنهم من يحمل أولاده الصغار ، ويدور بهم طول النهار ...

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

يغضب عند السؤال ، وأعرضوا عن الخالق الذي يغضب على ترك السؤال . قال الشاعر :

لاتسألن بنيّ آدم حاجةً   وسَلِ الذي أبوابه لا تحجبُ
ألله يغضب حين ترك سؤاله   وبنيّ آدم حين يسأل يغضب

ولذلك استوجب الشحاذون والسألة المقت ، وبغض الناس لهم ، لإعراضهم عن الله ، وتمسكهم بعباد الله . ولذا قال فخر العالم ، رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من الصحابة ، لما قال له ، دلني على عمل اذا عملته أحبني الله ، وأحبني الناس ، فقال له عليه السلام[1] : «ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما بين أيدي الناس ، يحبك الناس » .

ثم الذي ألجأهم لذلك السؤال ، طمعهم في الدنيا ، وعدم يقينهم بأن الرزق مقسوم في الأزل ، والآيات في ذلك كثيرة ، وبعدم تسليمهم بقوله عليه الصلاة والسلام[2] : « ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك فلن تناله بقوتك » .

فنسأل الله الكفاية من فضله ، والغنى عن الناس . وسيأتي زيادة في حرف الشين ، في الشحاذ ، وفي حرف الكاف ، في الكلاّب ، ان شاء الله تعالى .

١٢٤ ويقال له « سرّاج » بتشديد الراء :

١٣٥- سروجي اسم لمن يشتغل السروج التي توضع على الخيل للركوب فوقها . والسرج للخيل ، كالجلال لنحو الحمير . وقد تقدم ذكره في صنعة الجليلاتي ، في حرف الجيم ، وهذه الصنعة ـ أعني صنعة السراجة ـ حرفة لطيفة ،

---

(١) اخرجه الحاكم في صحيحه ، والبيهقي في الشعب ، وابن ماجه بسند حسن .
(٢) لم أهتد اليه .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانسـاني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وينبغي لكل شخص من تاجر أو سوقي أو مارّ أو متَّصَل أن يكون يقظاً على ماله وحاله ، خوفاً من لص أو مغتال ، حتى اذا كان في مسجد وأراد الوضوء مثلاً فخلع جبته أو ثوبه أو عمامته ، لأجل الوضوء ، أن يضع حوائجه أمامه ، حتى نعله ، ولو في الصلاة ، فكم من لصوص مخصوصة في الجوامع والمساجد ، اذا غفل أحد المصلين عن نعله سرق ، أو غفل عن عمامته أو ثوبه عند وضوئه مثلاً ، أخذ في الحال ، فقد رأينا ذلك كثيراً ، وشاهدناه . ولا حول ولاقوة الا بالله .

١٣٩- سكّري

اسم لمن يعقد السكر،ويعمل بهأنواعاً من الحلويات ، من المعاقيد والمعاجين والمربايات وما يتنقل به من الحلو كالملبس ومن الفستق والبندق واللوز والصنوبر وجوز الهند ومربّى الكباد والبرتقال والدراقن الزهري والتفاح وغير ذلك من الفواكه أيضاً، وراحة الحلقوم بسائر أنواعها ، وكالقناييب والجوارش وغزل البنات . ويصنع السكر النبات أيضاً . وينوعون السكر أنواعاً ، ويربون فيه المشمش المحشو بالفستق ، العجيب ، اللذيذ الطعم ، ويجعلون منه كأشكال الورد والزهر والصور والمشجر والمشبك بجوز الهند والفستق، وغير ذلك مما يدهش ، ويسر الناظر ، ويجلب الشاهية .

وصاحب هذه الصنعة — أعني السكري — يشتغل تلك الأشغال للتجار من العطارين ، بأجرة معلومة ، له على كل رطل من كل نوع على حسبه شيء معلوم من الدراهم . وغالب عمله للأغنياء العطارين المشاهير عندنا بسوق البزورية ، الذي لانظير له في بلدتنا ، حيث يوجد به

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الإجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

واليها حينئذ بسعيه الحثيث لجلب هذا الماء ، وكانت هذه الخدمة من جملة خدماته ، بل حسناته ، أثابه الله عليها ، وتجاوز عن سيئاته[١]) .

وعلى كل فالمتعيش بتلك الصنعة قنوع جداً ، راض بما قسمه له مولاه ، فنسأله تعالى القناعة والغنى عن الناس .

١٤١- سنبوسكاني هو والبغاجاتي المتقدم في حرف الباء بمعنى واحد في اصطلاح أهل الشام . وتقدم بيان كيفية صنعته ، فلا عَوْدَ ولا اعادة ، غير أن اللفظ يطلق من حيث المعنى على بائع «السنبوسك» : وهو ، كما في التذكرة ، عجين يحكم عجنه بالأدهان ، كالسمن ، ويحشى بلحم قد نُعِّمَتْ قطعه ، وفُوِّه ، وبُزِّر ، ويطوى عليه ، ويقلى في الدهن ، أو يخبز . اهـ

وقد يقال للمعمول بهذا في اصطلاح أهل الشام « بريكات » . وتارة يعمل به ، الا أنه يحشى باللوز والفستق مع السكر . وقد تقدم في حرف الباء أن هذه الحرفة كثيرة الوجود بدمشق جداً ، ويتعيش بها أمم كثيرة ، وهي رائجة في بلدتنا ، لتبذير أهلها . والله المسهل .

(١) الراجح أن ما بين هلالين بخط المرحوم الدكتور صلاح الدين القاسمي ولد المؤلف

tables médecins [1], préconise l'oculiste de préférence au kahhâl, etc. : il fait ainsi preuve d'une grande avance sur son siècle.

Il s'émerveille de certains outillages nouveaux, apparus à Damas depuis quelques quatre-vingts ans : ainsi la machine à coudre qui :

« Se nomme makina, fabriquée par les Européens, munie d'une roue et d'agrès, ce qui éblouit les esprits; beaucoup de musulmanes ont appris à s'en servir » (2) .

L'une des contributions les plus intéressantes du livre consiste dans la description des penchants artistiques qui caractérisent les Damascains : dans leurs soirées à tour de rôle (dhôr) comme dans leurs parties de campagne, ils se régalent de musique. Leur adoration pour le théâtre, qui apparait en 1295/1877, a dépassé toute attente :

« Quiconque arrivait en retard ne trouvait plus de place. Les ouvriers dépensaient pour aller au théâtre tout leur salaire, laissant femmes et enfants sans nourriture » (3) .

Le livre que nous présentons ici mérite d'être l'objet d'une étude méthodique, approfondie et sérieuse. Il soulève le voile sur la vie religieuse, économique, financière, artistique, intellectuelle et sociale du pays, ainsi que sur les moeurs de l'époque à laquelle il se rapporte. L'historien et le sociologue y trouveront, chacun, l'intérêt qu'ils y escomptent.

ZAFER QASIMI

---

(1) P. 289 .
(2) P. 131 .
(3) P. 470

la curiosité du lecteur. Il exalte la musique et les musiciens, et donne de celle-ci une définition très heureuse.(1) .

D'autres détails constituent un manuel utile à l'intention des ménagères.

Il s'agit donc d'un document historique précieux. Outre une description des industries damascaines vivantes, il sauvegarde les noms et les traits de beaucoup de celles que menaçait la disparition, ou même qui étaient effectivement disparues. Il y a aussi des essais de dénombrement. Chaque métier est défini, avec ses techniques et procédés. Tout cela réclamait un grand soin. Il fallait posséder à fond tout ce qui concerne ces métiers, leurs méthodes, leurs outillages, leur vocabulaire, leurs mouvements saisonniers. Et cela n'était possible que par la fréquentation des intéressés, l'enquête directe, la visite des ateliers, la recherche technologique.

Certains chapitres sont vraiment d'histoire sociale, et donnent mille détails introuvables ailleurs: les premiers usages de la chaussure moderne (2), la photographie 3) le métier de tambourinaire(4) qui consiste à réveiller les dormeurs à coup de tam-tam pour qu'ils prennent leur collation d'avant l'aube pendant le mois de Ramâdhân, la construction de la voie ferrée du Hedjaz(5) les débuts de l'art dramatique et du théâtre (6) les contributions fiscales de l'époque (7)

Le livre fait l'apologie de la civilisation et des sciences modernes. Il s'attaque à la magie et aux us de l'époque, il combat la charlatanerie des guérisseurs, conseille le recours aux véri-

(1) P. 459 .
(2) P. 394 .
(3) P. 445 .
(4) P. 440 .
(5) P. 466 .
(6) P. 470 .
(7) P. 255, 310 .

la vie sociale, que l'on chercherait vainement ailleurs: psalmodies funéraires, (1) et à ce propos, rites de deuil, parties de campagne (2), cérémonies nuptiales, fêtes, etc. : le livre regorge là-dessus de renseignements.

Un des buts primordiaux de l'auteur, - on le voit bien à propos de presque tous les métiers passés en revue, - est à la fois religieux et moral (3) : il vise à réformer les croyances erronnées et les imaginations faussement rattachées à la religion. Toute coutume vicieuse ou immorale, toute tradition néfaste est ardemment combattue et interdite avec la passion du moraliste et la chaleur du croyant. Ainsi, le tableau de la mendicité, (4), de ses pratiques répréhensibles, de ses stratagèmes, reflète, malgré la gentillesse littéraire, une indignation qui révèle l'objectif profond du livre: non pas seulement servir l'histoire sociale, mais servir la société et l'épurer de ses turpitudes.

Voilà encore des détails sur des modes de coiffure déjà tombés en désuétude du temps des auteurs, et dont nous ne connaissons plus aujourd'hui que les noms, sans savoir à quoi ils correspondent: sans cette source nous ne saurions plus comment se coiffaient nos aïeux (5). Et encore la mention de certaines industries propres aux chrétiens et aux Juifs (6). Et, en ornement de l'exposé, maintes citations poétiques, des traits littéraires, bien qu'aujourd'hui démodés, constituant un document sur le goût littéraire de l'auteur. Et d'autre part, dans le but de rectifier la langue parlée et de la ramener au classicisme, l'auteur nous donne maintes trouvailles philologiques (7). Des contes amusants, et des histoires agréables de l'ouvrage, entretiennent

(1) P. 292
(2) P. 305
(3) P. 376, 391.
(4) P. 71, 273, 276, 299, 320.
(5) P. 373.
(6) P. 230, 274, 276, 280, 382, 486.
(7) P. 236, 257, 280, 370.

de l'Islam, et étayé d'arguments rationnels, moraux et historiques. Le troisième chapitre se réfère à certaines industries-clés. Enfin, un exposé sur la différence entre « industrie» et «métier».

Une telle analyse dénote que l'auteur n'était pas seulement homme de compilation, d'énumération et d'inventaire, comme c'était le genre de l'époque, mais aussi homme de pensée et de création, compte tenu du retard de son temps. Il s'inspirait d'Ibn Khaldûn à un moment où l'on ne connaissait que les ouvrages traditionalistes, aux feuillets jaunes. Il composait cette Introduction d'études originales, où il ne suivait aucun de ses prédécesseurs, mais dont il assumait pleinement la nouveauté : figure d'esprit productif et ardent.

Après cette Introduction, l'auteur s'attaque à son sujet, et donne des industries damascaines, au stade où elles étaint vers la fin du siècle dernier, un portrait minutieux et fidèle, d'importance capitale. Cette description des industries de Damas recouvrait aussi bien celles qui sont périmées, ou sur le point de l'être, que celles subsistant encore de nos jours.

L'ouvrage a tenté de faire une statistique des métiers existants à l'époque. Il a par ailleurs établi une définition de chaque métier, en décrivant les moyens et procédés employés dans l'exécution de chaque travail. Etrangers à ces sortes d'activités, les auteurs devaient s'informer de tout ce qui touchait de près ou de loin aux métiers et artisanats permanents ou saisonniers, alors en vogue, ce qui a nécessité courses, contacts personnels, recherches et études.

On trouve dans l'ouvrage des indications sur les prix, énoncés en monnaie du temps, et sur les salaires : source d'histoire économique irremplaçable. On y trouve aussi des informations sur une agriculture dont le progrès moderne a fait disparaître les usages. Mieux encore, on y trouve une description de

signé par le capitaine, mais étant donné qu'il ne sait pas écrire, il a chargé une tierce personne de signer pour lui.

Nous demandons à Dieu d'accompagner cette marchandise et de la faire arriver saine et sauve.

Signature.

Relevé :

33 balles. Je dis 33 balles de filés et tissus, en très bon état.
3 balles. Je dis 3 balles, de soie, en très bon état.
11 gallons. Je dis 11 gallons ayant comme poids brut 713 retls.
217 pièces de cuivre pesant 947 retls et 2-3 de retl.
7 boites. Je dis 7 boites de nourriture et une dinde tuée et cuite, sans frais de port.

De même, la Syrie a connu les industries agricoles, dont la plus importante était l'huilerie, l'olivier ayant été naguère très répandu dans le pays, dans les régions côtières comme à l'intérieur. Témoins les vestiges d'antiques huileries disséminées à travers le pays, et dont certaines remontent à l'époque phénicienne. (1).

* * *

Le tome I du livre contient une introduction, où l'auteur met en relief l'importance de l'industrie et son rôle dominant dans le monde, ainsi qu'un exposé sur le sens du travail rémunérateur, emprunté à Ibn Khaldûn, l'éminent sociologue arabe. Suivent trois chapitres : le premier traite des bienfaits du gain licite, obtenu au prix du labeur, tel qu'y incitent les textes coraniques et la Tradition du Prophète. Le second chapitre constitue presque un manuel de savoir-vivre et un guide de conduite dans les relations d'échanges, le tout emprunté aux principes

(1) E. Bathiche, Les plantes et l'huilerie à la Ghûta et à Damas, P. 3. (Bibliothèque de l'Université de Damas).

Les pays européens ont été, des siècles durant, les clients de l'industrie syrienne, et l'époque écoulée entre le Xe et le XIVe siècle est désignée sous le nom d'«Epoque arabe», et connut de notables progrès dans le tissage.(1)

Les marchés européens appréciaient particulièrement les étoffes de Syrie. (2) La preuve en est donnée par un document historique, propriété actuellement de la Société de filature d'Alep, document qui remonte à l'année 1798. Il s'agit d'un connaissement, ou feuille de route, relatif à une fourniture de filés et de tissus de coton, d'étoffe de soie, de cuivres... En raison de l'importance du document, nous en donnons ci-dessous un fac-similé. (2)

Connaissement en date de... 1798, à Alexandrette.

Au nom de Dieu, et avec l'espoir d'une bonne traversée, M. Andrea Fernandi a chargé en ce port d'Alexandrette, pour ordre de M. Yousef Gantûs Koelbé ' ressortissant ottoman d'Alep, pour le compte et à l'ordre de M. Antûn Gantûs Koelbé & fils, ressortissant ottoman, résidant à Livourne sur le paquebot Lakikid appelé le De gente, ayant pour capitaine Michaël De Nicolas Marco Manitch Racusco, et ce pour transporter au cours de son voyage, vers 1798, au-dit sieur Antûn Gantûs Koelbé & fils, ressortissants ottomans les marchandises mentionnées et détaillées ci-après. Ces marchandises sont sèches, complètes et en bon état, portant la marque indiquée ci-après. Le-dit capitaine promet, en arrivant à bon port, de livrer la. sus-dite marchandise; pour le prix de transport, il lui est versé 12 tabriz pour chaque colis contenant des filés, et 4 pesetas 1-2, ainsi que 8-1000 de chaque gallon indemne pesant 60 retls, et 4 pesetas avec 8-1000 pour chaque qantar de cuivre pesant 100 retls. Le tout payé en une seule fois.

En foi de quoi le présent connaissement est établi avec un exemplaire

(1) M. Dahan, L'industrie du tissage en Syrie. P. 3. (Bibliothèque de l'Université de Damas).
2) Ibid. P. 2.

PRESENTATION DU LIVRE

Les industries syriennes, surtout celles de Damas, ont tenu une place remarquable au cours des siècles. C'est à notre ville que l'on attribue l'étoffe connue sous le nom de «damas». Au musée du Louvre, à Paris, se trouve exposée une pièce de soie sur laquelle est inscrit le mot «Damas», pièce qui était, paraît-il, particulièrement chère à la reine de France, femme de Louis XIV.

Il serait utile de rappeler ici que Charnay, qui a traité de « l'Industrie» dans la Grande Encyclopédie française, a inscrit à l'actif des Croisades le contact des idées qui se produisit alors à la faveur de cette rencontre Orient-Occident :

« *Nous devons à la civilisation arabe un grand nombre de progrès, notamment la fonte du fer, les premiers principes de chimie, la numération. De grandes cités industrielles se formaient, les inventions se multipliaient ; la serrurerie, l'ébénisterie renouvelaient leurs procédés à la faveur de l'architecture religieuse; tous les arts manuels prenaient un essor considérable.* »

Les Croisades ayant eu pour principal théâtre la Syrie, il est à présumer que les profits acquis par l'Occident avaient pour origine ce pays.

- Ce serait pour moi une grande joie, répondit Massignon.

Puis, se retournant vers moi :

- Et vous, donnez-vous votre autorisation ?

- Avec joie, répondis-je.

- A vous de faire le nécessaire pour commencer, dit alors Louis Massignon à Jacques Berque.

Sur la suggestion de ce dernier, M. Fernand Braudel, président de la VIème Section de l'Ecole Pratique des Hautes Etudes, nous adressa une lettre datée du 24 juin 1958, par laquelle il requerrait notre accord officiel, que je donnais, en y joignant mes remerciements.

Après un échange de correspondance avec cette Ecole, relatif à la réalisation du projet, nous reçûmes une lettre de notre ministre de l'Orientation Nationale, dans la province Nord de la République Arabe Unie, lettre datée du 6. VIII.59, où il nous était proposé d'aviser aux moyens de publier ce livre. Nous avons dû décliner l'offre, étant déjà lié avec l'Ecole des Hautes Etudes.

Au mois de février 1960, Massignon était de passage à Damas. Nous lui rendîmes visite avant son départ, notre entretien dura presque une heure. Massignon nous demanda si nous avions l'intention de publier un album d'illustrations sur les industries encore existantes à l'heure actuelle, et expliqua l'intérêt que présentait ce travail qui contribuerait à pérenniser la valeur du livre, nous engageant vivement à nous y employer. Nous nous rendîmes à son avis, et chargeâmes notre ami et confrère Me Robert Mulky de l'éxécution de ce travail. Nous espérons que les efforts déployés par Me Mulky seront couronnés de succès.

jeunesse à sa mort, existent toujours dans sa bibliothèque. Mais il ne subsiste aucun original de ce livre, ni de la main du père, ni de celle du fils, ou de Khalîl al-'Azm. Les deux manuscrits de la bibliothèque Qâsimiyya ont été copiés l'un par le chaykh Hamed al-Tâqî, l'autre par le chaykh Muh'ammad al-Majzûb. Où sont les originaux? Nous l'ignorons.

L'ouvrage est donc resté enfermé à la bibliothèque Qâsimiyya jusqu'en 1928, quand eut lieu la visite du Professeur Louis Massignon, qui, lors d'un premier passage à Damas en 1919, avait eu connaissance de l'éxistence du livre dans cette bibliothèque. Il avait fait la connaissance des Qâsimî, leur avait rendu visite en leur domicile, et avait compulsé certaines des oeuvres de Jamâl al-Dîn, dont ce dictionnaire. Lorsqu'il revint à Damas, en 1928, il demanda une copie, laquelle lui fut très volontiers remise. Mais l'ouvrage ne fut exhumé qu'en 1958. Au mois de juin de cette année, nous nous trouvions à Paris, où nous rencontrions notre grand ami Jacques Berque, Professeur d'Histoire sociale de l'Islam contemporain au Collège de France. Tous deux, nous rendîmes visite à Massignon. La conversation roula sur différents sujets. Les deux éminents professeurs portent à l'Islam et aux Arabes amitié et considération. Ils faisaient preuve d'une objectivité et d'une indépendance admirables, lorsque l'entretien portait sur des questions d'actualité internationale, notamment en ce qui concerne le droit des Arabes en Palestine et en Algérie. Massignon évoqua le souvenir de Jamâl al-Qâsimî, se déclara fier de posséder en sa bibliothèque une copie du **Dictionnaire des Métiers damascains**. Alors, s'adressant à Berque:

- Vous êtes un spécialiste de l'histoire sociale : que ne vous occupez-vous d'éditer ce livre?

- Bien sûr, dit Berque, qui feuilletait le manuscrit. Mais voudriez-vous en rédiger la préface?

Il est à présumer que la première partie de l'ouvrage a été achevée en1317/1900, année du décès de l'auteur. Ainsi donc, ce dernier se serait dépensé en efforts continus durant dix années consécutives, pour collecter, classifier, vérifier les matières du tome 1er. C'était là des efforts dont seul celui qui les a pratiqués peut mesurer l'étendue!

Jamâl Qâsimî s'est senti d'autant plus tenu de parachever l'oeuvre de son père, qu'il en avait été l'instigateur. Mais ses occupations étaient multiples: l'année même du décès de son père, il avait entrepris des annotations sur le Coran, Mahâsin al-ta'wîl, ajoutant une activité supplémentaire à celles qu'il assumait quant à la société musulmane et arabe, à sa réforme, à son redressement. Le temps dont il pouvait disposer ne lui permettait donc pas de se consacrer entièrement à ce travail qui exigeait de lui seul des recherches patientes et des efforts continus. Aussi se fit-il seconder par son beau-frère, Khalîl al-'Azm, en lui confiant le soin de recueillir et d'ordonner la documentation de son père, et d'en rédiger certains articles. Le lecteur pourra certainement constater qu'au courant du livre le style varie. Notre conviction est que Jamâl al-Dîn n'avait pas le temps de revoir, ni même de jeter un coup d'oeil rapide sur certaines matières. Sinon, comment expliquer certaines fautes voyantes d'arabe dans le texte ?Mais, nous avons conservé le texte tel qu'il avait été admis par Jamâl al-Dîn-Qâsimî. Nos corrections et retouches n'ont porté que sur les mutilations imputables à ceux qui ont transcrit l'ouvrage initial. Les deux manuscrits qui se trouvent à la bibliothèque Qâsimiyya n'étant pas toujours en concordance, il a fallu opter pour le texte qui semblait le plus judicieux.

Nous avons connu Jamâl al-Dîn écrivant lui-même d'une belle calligraphie persane. Les originaux de ses oeuvres, de sa

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

M. Bazantay a aussi publié en 1936 une **Enquête sur l'artisanat à Antioche,** (1) dans laquelle il étudie les modes de construction et de propriété d'ateliers et boutiques. Il en donne une description minutieuse et classifie et analyse des industries telles que : boiserie, tissage, travail du cuir, etc... Il décrit de façon intéressante le milieu social de l'ouvrier, son foyer, sa famille, les fêtes et réunions professionnelles... L'ouvrage énumère les mets locaux et les cris des marchands. Tout cela vaut pour les villes syriennes en général. Le livre est d'une centaine de pages, comportant quelques photographies.

Au cours de nos recherches, nous avons trouvé un livre publié à Beyrouth en 1313/1896, intitulé **Muntaha' l-manâfi' fi anwâ' al-çanâ'i'** L'auteur, Rachîd Ghâzî b. 'Ubayd Ahmad, y présente au lecteur bon nombre d'industries européennes, et, incidemment, quelques industries locales, dont l'élevage du ver à soie, la manufacture de la soie, la teinturerie, etc...

Quant à l'ouvrage que nous présentons, il est sans doute unique en son genre, comme le constate l'auteur lorsqu'il écrit:

« Le sujet que nous traitons ici et la manière dont il est traité, n'ont, à aucune époque, effleuré aucune pensée ».(2)

Le chaykh Hâmed al-Taqi, disciple inséparable de Jamâl al-dîn al-Qâsimî, témoin des circonstances qui ont présidé à la composition de cet ouvrage, m'a fait le récit suivant:

Jamâl al-dîn voulant inciter son père à produire une oeuvre originale, lui suggéra d'élaborer un **Dictionnaire des métiers de Damas.**

- «Comment et par où commencer?», demanda le vieillard.
- Loue une monture, et commence par Bawwâbé, à l'extrémité Sud de la ville. Muni d'un calepin et d'un crayon, tu

(1) Imprimerie catholique, Beyrouth 1936.
(2) P. 4.

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

فم چو بینی در کنارش کشر بعشق
از سر ربوه نظر کن در دمشق

El QASIMI a été, lui aussi, un de ces amoureux de sa ville natale, de la vie humble de la masse de ses travailleurs manuels, entre le Qasiyun et la Ghûta.

Louis Massignon



Et c'est aussi la marque d'une psychologie du travailleur spéciale aux corporations en Islam : le travail est «fini», loyal, car il est placé sous le signe d'un pacte entre compagnons, d'un «destûr» دستور avec de justes prix, rendant licite la bouchée de pain gagnée pour le foyer«luqmeï kasb halâl kerden».لقمهٔ كسب حلال كردن

Ayant à analyser suivant XI grandes catégories les 437 corporations damascaines de Qâsimi, j'ai mis en tête celle de **l'Eau.**

Non pas seulement parce que«**min al-mâ Kulla shay' hayy**» (Cor.), mais parce qu'à Damas, la vie sociale est entretenue par les eaux du Barada, leurs «talé» طالع surveillés par le **Faradi** فرضي réparés par les **Qasâtiliya** قساطلية, et les **Shâwiya** شاوية, pour le fonctionnement de 8 autres corporations dont Qâsimi expose ici l'outillage et la technique.

Et cette eau descend, depuis toujours, de Rabwé, où elle se divise suivant huit canaux, le proverbe damascain nous le rappelle:

«Il faut monter jusqu'à Rabwé, si tu veux comtempler Damas»,

«Monte sur les flancs de Qassiyûn, où s'embranchent les divers canaux qui aboutiront à la Ghûta, si tu veux comprendre comment les travailleurs s'agglomèrent autour du Barada».

C'est ce que Jalâluddin Rûmi orchestra un jour, ainsi :

«Quand la douleur surgit
Monte jusqu'à elle, avec désir.
Il faut monter jusqu'à Rabwé,
Si tu veux contempler Damas.»

Car Rûmi disait, avec Shemsé Tabriz :

nous sommes des amoureux fous, éperdus de Damas.

Des liasses de documents fournis à mon enquête de 1927-29, je pus grâce au Dictionnaire QASIMI, extraire une «Note sur la structure du travail à Damas, type d'enquête sociographique » contenant seulement deux des recherches que je viens d'énumérer.

D'abord un tableau statistique,- corporations organisées, nombre de leurs ouvriers, noms de leurs syndics, en 1927, puis des données topographiques sur les emplacements des boutiques et des marchés (étude pressentie par J. Sauvaget, et reprise par N. Elisséef).

Pour la statistique, la liste de Qâsimi (437 corporations) fut à la base de la publication comparative que je fis dans les «Cahiers Internationaux de Sociologie» en 1953 (p. 33 - 52), combinant la liste des Waqfs qu'avait établie Mr. Ahmad Qasimi (114 p.) , avec celles de la Direction de l'Agriculture et des Services Economiques (49) et de la Chambre de Commerce(42), du Temettu' (207); pour aboutir à la liste des «corporations réellement autonomes» (35 dont 16 déjà devenues syndicats, niqâbât), étudiées par le professeur Jamil Saliba.

L'étude comparée des métropoles musulmanes, que j'ai poursuivie depuis plus de 40 ans sur le terrain, à Fès, le Caire, Bagdad, Istanbul, Ispahan, Delhi, Damas, a fait ressortir devant mes yeux l'originalité exceptionnelle de Damas. C'est là où l'imagination créatrice des artisans s'est développée et diversifiée avec le plus de nuances et de délicatesse. GHANDI remarquait en 1947 combien les villes de l'Inde, spécialement Delhi, avaient acquis de raffinement artistique, précisément grâce au «fini» de l'artisanat musulman. Ce désir de perfection dans des détails légers, dans des formes à peine creusées, ne cherchant pas à «singer» la vie, mais à en suggérer le reflet, l'irisation comme avec les arabesques de la calligraphie neskhi, cela qui est le propre de l'art musulman, apparaît surtout à Damas.

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمستفيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانسـاني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ؛ فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك



جمال الدين القاسمي

جمال الدين القاسمي (١)

١ — ولادته :

« ولد ضحوة يوم الاثنين لثمان خلت من شهر جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانين ومئتين والف ١٧ ايلول ١٨٦٦ في دمشق (٢) . »

٢ — نسبه :

« هو محمـــد جمال الدين أبو الفرج بن محمـــد سعيد بن قاسم ابن صالح بن اسماعيل بن ابي بكر ، المعروف بالقاسمي ، نسبة الى جده المذكور ، وهو الإمام فقيه الشام وصالحها في عصره ، الشيخ قاسم المعروف بالحلاق . ولا يعرف من أجداده من خدم العلم حق الخدمة الا جده المنوه به » (٢) .

٣ — نشأته وشيوخه :

نشأ القاسمي في بيت عرف بالتقوى والعلم . وكان ابوه فقيها غلب عليه الأدب ، كما عرفت من ترجمته في الجزء الاول من هذا الكتاب ، ميالا الى الموسيقى ، وله معرفة بانغامها ، حلو الصوت . ففي جو من حرمـة

---

(١) ملخص من كتاب « ابي جمال الدين القاسمي » قيد الوضع .

(٢) ما وضع بين نمنمتين من كلام القاسمي في ترجمته لنفسه .

الدين وجلاله ، وهداه وسلطانه ، ورقة الادب وروائه ، وتهذيبه وصفائه ، وطلاوة الموسيقى وحلاوتها ، وعذوبتها ونشوتها ، فتح عينيه على النور . فأعانه هذا كله ، كما أعانه تشجيع ابيه على ان ينشأ نشأة صحيحة صالحة. فضلا عما فطر عليه من عناصر الحق والخير .

اخذ العلم على طريقة القدماء « فقرأ القرآن اولا على الشيخ عبد الرحمن المصري ، ثم تعلم الكتابة ، على الشيخ محمود القوصي ، نزيل دمشق ، من صلحاء الاتراك ، ثم انتقل الى مكتب في المدرسة الظاهرية ، وكان معلمه الشيخ رشيد قزيها ، أخذ عنه مبادىء التوحيد والصرف والنحو والمنطق والبيان والعروض وغيرها » .

« ثم جوّد القرآن على شيخ القراء الشيخ احمد الحلواني » .

« وكان مواظباً على دروس الشيخ سليم العطار لقراءة حصة من الكتب المعينة كشرح الشذور ، وابن عقيل، وشرط القطر، ومختصر السعد، وجمع الجوامع ، وتفسير البيضاوي ... » .

« وسمع منه مجالس من البخاري دراية ، وحضر دروسه في الموطأ ، والشفاء ، ومصابيح السنة ، والجامع الصغير ، والطريقة المحمدية وغيرها » .

وذكر من مشايخه كلاً من الشيخ بكري العطار ، والشيخ محمد الخاني، وخال والده الشيخ حسن جبينة الشهير بالدسوقي .

واجازه كثير من علماء عصره .

٤ — اقراؤه وامامته للناس :

بدأ في اقراء الطلاب مبادىء العلوم ، وله من العمر اربعة عشر عاماً . وكان معيداً لوالده بدرسه العام في جامع السنانية حتى عام ١٣٠٣ — ١٨٨٧، وانتدب من عام ١٣٠٩ — ١٣١٢ هـ (١٨٩٣ — ١٨٩٦ م) لالقاء دروس عامة خلال شهر رمضان في وادي العجم والنبك وبعلبك . وقام مقام ابيه في

الدرس العام بعد وفاته عام ١٣١٧ — ١٩٠١ . وبقي يؤم الناس في جامع السنانية ، ويلقي الدرس العام فيه ، الى أن لقي وجه ربه .

٥ — عصره :

عاش القاسمي معظم حياته في أشد أيام الظلم والظلام . ولد ونظام الحكم المطلق قائم في الدولة العثمانية — وكانت البلاد الشامية جزءاً منها — فالحريات مفقودة ، والاقلام مغلولة ، والعقول مقيدة ، والصحافة على ضعفها وقلتها مكبلة ، والأحرار مطاردون ، والدستور معلق ، والمجالس النيابية معطلة ، والناس يحاسبون على الهمسة والنبسة ، والجاسوسية تفتك بالأبرياء .

أما العدالة فمفقودة ، لفساد النظام القضائي ، وشراء مراكز القضاء ، وانتشار الرشوة علناً بين موظفي السلطة العامة والمواطنين .

وأما الحياة الثقافية ، فكانت مفقودة أو بالمفقودة أشبه ، فلا مدارس ولا معاهد ، ولا جامعات ، والطباعة والصحافة ضعيفتان ، ليس فيهما أي غناء . واعتماد القلة من الناس على الكتاتيب ، وحلقات الجوامع ، والدروس الخاصة في البيوت . والأمية منتشرة ، لأن الدولة فرضت الجهل المطبق على الناس ، ليعيشوا في جو من الظلام والغباء ، وليسهل على الحكام والمستغلين اضطراد الأمور في سلك من الظلم والبطش والخضوع .

وكان حال الحياة الدينية نتيجة طبعية للحياة الثقافية : جمود على القديم ، وكتب صفراء يتداولها الطلاب ، ومتون كثيراً ما يحفظونها بدون فهم ، وحواش وشروح وتقريرات وتعليقات تزيد في اضطراب عقول الطلاب وتشويشها .

وتقليد أعمى غلت معه العقول ، فكتب الحديث لا تقرأ الا للتبرك ، وكتب التفسير ممتنعة عن الخاصة بله العامة . ولا يقرأ الناس الا كتب

الفقه التي وضعها المتاخرون . اما كتب اللغة والنحو والصرف والادب وما اليها فيقرؤها بعض الطلاب على انها اداة لفهم الكتاب والسنة ، لا لذاتها.

وكانت الطرق ، في ذلك العصر ، في اوج انتشارها ، يعتنقها بعض رجال الدين ، ويجمعون العامة حولهم ، ويشغلونهم عن العمل النافع لاقامة المجتمع الاسلامي الصالح .

والحياة الاجتماعية كانت مفقودة ، فلا ندوات ، ولا جمعيات اصلاحية، ولا حلقات اجتماعية ، حتى ولا جمعيات خيرية .

والمراة التي هي نصف المجتمع غائبة عنه ، فليس لها في خدمته الا نصيب قعيد البيت .

في هذا الجو الخانق العجيب ، المتخلف في جميع مرافق الحياة ، نشأ القاسمي ، فكان كالطائر المغني في غير سربه ، غريباً عن اهل الزمان . ولعل هذا كله كان ادعى لإقدامه ، والاقتناع بقدسية رسالته ، وضرورة العمل لها ، والسعي لنشرها ، والمضي في تبليغها .

٦ — ثقافته العامة :

اخذ القاسمي معارفه الاولى على الطريقة المالوفة في عصره . ثم اخذت الآفاق تتسع امامه ، فعكف على مكتبته الخاصة ، التي اسسها جده وابوه، ينهل من معينها ، ثم اخذ يتابع تطور الحركة العلمية في جميع نواحيها ، راغباً في الإحاطة بجميع أنواع المعرفة ، لو أن الإحاطة ممكنة .

وعنوان ثقافته العامة مكتبته الخاصة ، والكتب التي الفها .

فاما مكتبته الخاصة ، التي تنوف على الفي مجلد ، فلم يخل كتاب فيها من تصحيح أو تعليق وترى فيها الى جانب كتب التفسير والحديث والفقه واللغة والتصوف والأدب والتاريخ والاصول وغيرها ، كتب الفلسفة القديمة والحديثة ، والاجتماع ، والرياضيات ، والقانون المقارن ، وكتب الفرق

الإسلامية ، كالمعتزلة والظاهرية والشيعة والزيدية وغيرها . كما انها ضمت مجموعة قاربت مئة كتاب من كتب الديانات الاخرى كاليهودية والنصرانية.

واما الكتب التي الفها ، فترى فيها الى جانب كتب التفسير والحديث والأصول ، كتاباً في تاريخ دمشق ، ورسالة في الجن ، وكتيباً في الشاي والقهوة والدخان ، ومقالة عن القلب ، وسفراً في دلائل التوحيد ، وكتاباً في الآداب والأخلاق ، الى غير ذلك مما تراه واضحاً في أسماء كتبه .

وتقرا هذه الكتب ، فترى انه عرف الاشتراكية قبل اكثر من نصف قرن ، وما مدلولها ، وما معناها ، في وقت كان الذين سمعوا بها في العالم العربي أفراداً معدودين (١) .

وتلحظ فيها حصيلة حسنة من علوم الفلك والجغرافيا والحيوان والنبات والجيولوجيا(٢) .

وينقل عن الفارابي بحثاً ، فيرى انه استعمل كلمة (اثولوجيا) ، فيصححها في الهامش ويقول : كذا في الأصل ، وصوابه (ته ثولوجيا) (٣)

ويضع رسالته الشهيرة عن الجن ، فيترجم له طلابه ما جاء في معجم لاروس وفي دائرة المعارف البريطانية تحت كلمة « جن » (٤) .

وترى في كتابه « إرشاد الخلق الى العمل بخبر البرق » بحثاً عن « التلغراف » ومعناه ، واشتقاقه من اللغة اليونانية ، واول من استعمل الكهرباء في المخابرة عن بعد . وكذلك « التلفون » . ثم يشير الى (التلغراف اللاسلكي) الذي كان حديث العهد بالظهور (٥) .

---

(١) الفتوى في الاسلام ص ٦٦

(٢) دلائل التوحيد ص ٤٨

(٣) دلائل التوحيد ص ٦٤

(٤) مذاهب الاعراب وفلاسفة الاسلام في الجن ص ٤٧ — ٤٨

(٥) ص ٧٥

ويصاب بالبواسير ، فيؤلف كتاباً يسميه « ما قاله الأطباء المشاهير في علاج البواسير » (١) . قال عنه عميـد كلية الطب الاستاذ الدكتور عزة مريدن : « رسالة جامعة لكل ما يريد الباحث معرفته مما قيل عن هـذا المرض قديماً وحديثاً » .

ويشير الى ما قاله علماء البيولوجيا من موافقة الاولاد لوالديهم في بعض الاوضاع الجسدية والصفات النفسية (٢) .

ويبحث في ذرائع إصلاح الزراعة ، فينبه الى السمادات الكيماوية وانواعها : الفوسفورية ، والبوتاسية ، والى ضرورة استعمال الآلات الميكانيكية في الحرث والحصاد ، والى الآفات والأمراض والحشرات الزراعية ، وطرق مكافحتها ... (٣) .

ويتناول الحياة الدستورية ، ويعقد فصلا عن ادب النائب في مجلس المبعوثين ، وعن شروطه فيقول : « لا يطلب النائب بين خزائن النقود ، ولا من وراء سجوف النعمة ، ورغد العيش ، فان من ترفع عنك لا يهبط اليك » ولا يفوته أن يشترط على النائب تضلعه في علم الحقوق ، ومعرفته لحركة المجالس النيابية عند الامم الراقية ، وإدراكه علائق حكومته بحكومات أوربا، وما نالته من الامتيازات ، وأن يكون قادراً على الاستخراج من كتب السياسة والادارة والقضاء باحدى اللغات الاجنبية (٤) .

واستشهد بشروح قانون التجارة ، وقوة المراسلات — ومنها البرق — في الاثبات بين الخصوم (٥) .

ويدعو المفتين الى ضرورة التضلع في العلوم الرياضية (٦) .

(١) ما زال مخطوطا .
(٢) شرف الاسباط ص ٥)
(٣) تعطير المشام ج ٢ (مخطوط)
(٤) جوامع الآداب ص ١١٢
(٥) ارشاد الخلق ٥٧.
(٦) الفتوى في الاسلام ص ٥٠.

ويبحث مشكلة من مشاكل هذا القرن الكبرى وهي التمييز بسبب العنصر او العرق أو اللون عام ١٣٢١ — ١٩٠٤ فقرر أن « منشأ هذه الخرافة استعباد الزنوج ، وان من أحنى قامة الذل والهوان ، نهض يطالب بحقوقه المهضومة ، ويناقش ظلاّمه الحساب (١) » .

واولع عام ١٣٢٤ — ١٩٠٧ بفقه اللغات (الفيلولوجيا) ، واخذ يبحث عن أصول بعض الألفاظ المعرّبة من لغاتها الاصلية : اليونانية ، والسريانية ، والعبرية ، والفارسية ، والقبطية ، والالمانية ، والايطالية ، والفرنسية ، وغيرها (٢) .

لقد كان آخذاً بأطراف المعرفة من كل سبب ، لم يمنعه عن ذلك مخالفة في الدين أو المذهب أو العقيدة أو الطريقة ، واتاحت له حريته الفكرية ان يجول في آثار عقول الأمم ، على اختلاف مللهم ونحلهم .

٧ — حريته واضطهاده :

آمن القاسمي بالحرية وقدسها ، وأحب رجالها ، وعشق ابطالها ، وسعى اليها ، وقضى حياته كلها ، وهو يرى ان الإنسانية ملازمة للحرية .

ولقد كان هذا واضحاً منذ طفولته المبكرة ، فعرف بين أقرانه بالتحرر من الأوهام ، وتقديسه لسلطان العقل ، وحرية الفكر .

ولم يكن هذا خافياً على حكام ذلك الزمان ، فلفقوا له في مطلع شبابه تهمة خطيرة هي « الاجتهاد » ، والفوا لذلك محكمة خاصة ، دعي للمثول امامها مع لفيف من العلماء فاستجوبوا جميعاً ، واطلق سراحهم ، إلا القاسمي ، فقد أوقف ليلة واحدة في دائرة الشرطة ، ثم اخلي سبيله في الصباح .

---

(١) دفتر أواخر شوال (مخطوط) — الورقة ٣٩

(٢) الفكرة اليومية لعام ١٣٢٤ — ١٣٠٦ (مخطوط)

كان هذا في عام ١٣١٢ ــ ١٨٩٧ ، وله من العمر ثلاثون عاماً .

لقد دون القاسمي وقائع المحاكمة في ترجمته لنفسه . ويغلب على ظني أن هذه الحادثة هي الحادثة الكبرى التي وقعت في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ــ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ــ في البلاد الشامية .

فلم يكن في البلاد احزاب سياسية ، ولا حركات قومية ، وانما كان قوام الدولة على الخلافة ، ومذهب الدولة الرسمي هو المذهب الحنفي . فاتهام القاسمي بالاجتهاد وباحداث مذهب خامس في الإسلام هو « المذهب الجمالي » ، كان ممكناً أن يودي به الى أعماق السجون أو الى ابعد المنافي .

اضف الى ذلك أن الاجتهاد يعني الحرية ، وكلمة « الحرية » بمختلف اشكالها والوانها ، بما في ذلك الحرية الدينية ، كانت تأباها سياسة الدولة، وتحاربها دون هوادة أو رحمة .

ولئن كانت هذه الحادثة قد مرت دون أن تؤثر على حياة القاسمي ، إلا انها تركت آثاراً كبرى في طرائقــه في الإصلاح ، والتاليف والدعوة والإرشاد .

ووقعت حادثة أخرى كانت اخف من الاولى وقعاً : ذلك أنه في ٨ صفر ١٣٢٦ ــ ١١ آذار ١٩٠٨ فتشت كتبه بالسدة في الجامع ، وفي حجرته بالدار . وبقيت الكتب التي اشتبه بها وصودرت حتى ١٨ ربيع الثـاني ١٣٢٦ ــ ١٩ ايار ١٩٠٨ ، واعيدت (١) .

ثم يعلن استئناف الحياة الدستورية في المملكة العثمانية ، فيبتهج مع الأحرار ، ويرى أن فجر عصر جديد قد آذن بالانبلاج .

ولكن الواقع يكذب هذه الآمال ، ويتضح أن الاتراك قبل الدستور كانوا ارحم من الاتراك بعد الدستور ، فلم تكد تمضي سنة وبعض السنة ، على إعلان الحرية ، حتى يدعى القاسمي أمام قاضي التحقيق بدمشق ليستجوب

---

(١) المفكرة اليومية ١٣٢٦ ــ ١٩٠٨ (مخطوط) .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

العقل حجة الله القاطعة البالغة ، والنقل لا ياتي بما يناقض العقل (١) . وان العلماء اتفقوا على انه اذا تعارض العقل والنقل ، أول النقل بالعقل (٢) .

ان باب التناظر والتحاور في المسائل مفتوح ، حتى في مثل اخبار الصحيحين ، وهي ما هي ، وان غل الفكر عن النظر والتامل هو اعظم هادم لصرح التحقيق ، فان الحقيقة بنت البحث (٣) .

وان حرية العلم والتاليف قضت ان لا يبخل بفكر ، ولا يضن براي ، لا على أن يهمس به همساً ، بل على ان يبث وينشر ، ويصدع به في المجامع والجوامع ، ويجهر به على المسامع (٤) .

ان تبين وجه الحق انما هو بالوقوف على تفصيل المتنازع فيه وتحليله، وطرح كل ما سبق الى القلب وغرس فيه ، من تقليد أو تحزب أو تقية، او حمية (٥) . . .

وان الحق ليس منحصراً في قول ولا مذهب ، وقد انعم الله على الأمة بكثرة مجتهديها (٦) .

وان مراد الاصلاح العلمي بالاجتهاد ليس القيام بمذهب خاص، والدعوة له على انفراده ، وإنما المراد انهاض همم رواد العلم ، لتعرف المسائل بادلتها (٧) . . .

إنا في الراي مستقلون ، ولسنا بمقلدين ولا متحزبين (٨) .

(١) دلائل التوحيد ص ١٢٩
(٢) دلائل التوحيد ص ٢١
(٣) الاجوبة المرضية ص ٦
(٤) نقد النصائح الكافية ص ٧
(٥) نقد النصائح الكافية ص ٢٤
(٦) الاستئناس ص ٤٤
(٧) ارشاد الخلق ص ٤
(٨) الجرح والتعديل ص ١٤

ظهر لي ان قول بعض الفقهاء : « هو تعبدي لا يعقل معناه » فيه حجر على العقول والافهام أن تنظر وتتأمل وتتدبر . فهو مناف لقاعدة اعمال الفكر لاستنباط المعاني (١) .

وله آراء في الدولة وقوتها والوطن والسياسة والعرب وغيرها جاء في بعضها :

ان القرآن قد امر بوجوب إعداد القوة الحربية ، وانه لما ترك المسلمون العمل بهذا الأمر، اهملوا فرضاً من فروض الكفاية، واصبحت جميع الأمة آثمة. وأن طمع العدو في البلاد الإسلامية ، لأنه ليس فيها معامل للأسلحة ، بل كلها مما يشترى من بلاد العدو . ولقد آن للأمة ان تنتبه من غفلتها قبل ان يداهم العدو ما بقي منها ، فيقضي على الاسلام وممالك المسلمين ، لاستعمار الأمصار، واستعباد الأحرار، ونزع الاستقلال المؤذن بالدمار (٢).

وان حب الوطن من امهات الفضائل ، وهو ان يبذل المرء ما يقدر عليه ، مما أعطاه الله من العلم والمال والخبرة والنصح في عامة الأحوال والأزمان لمنفعة وطنه ومواطنيه (٣) .

وحض على الجهاد لان العدو يريد أن يقضي على الدين ، وأن ينهب الأموال والمقتنيات ، ويهتك الحرم ، ويمحو تاريخ المجد ، ويفني اللغة والعلوم (٤) .

وهلل للدستور بكثير من الفرح (٥) .

ودعا لتولية الأكفياء، وإعطاء كل ذي حق حقه، ووضع الأشياء في مواضعها،

---

(١) السوانح ص ٣ (مخطوط)
(٢) محاسن التاويل ج ٨ — ص ٣٠٢٥
(٣) جوامع الاداب ص ١١١
(٤) جوامع الاداب ص ١١٠
(٥) دلائل التوحيد ص ٢٠٥

وتفويض الاعمال للقادرين عليها .... لأن كل من تتبع تواريخ الأمم ، علم انه ما انقلب عرش مجدها ، إلا لتفويض الاعمال لمن لا يحسن القيام عليها ، ويضع الاشياء في غير موضعها (١) .

وكان يحترم آراء الفرق ، لأن الخطأ من شان غير المعصوم (٢) .

وقد ترك دفتراً تاريخه أواخر شوال ١٣٢١ — ١٩٠٤ ، قيد فيه من أوابد أفكاره مما يدعو الى كثير من الاعجاب والتقدير : (٣) .

فهو يسرّ للانتقاد ، ويعتبر الانتحار هرباً من القيام بالفروض ، وأن القدر الذي يجب الايمان به لا ينطوي على شيء يميته العزم أو يخمده ، وان العرب قد إختارهم الله لتهذيب الأمم ، لأنه أنزل القرآن بلغتهم . وان قصص القرآن ليست إلا آيات وعبراً . وان وظيفة الاستاذ والرئيس أن ينظر في أمور جماعته ، ويمهد لها سبيل المجد والارتقاء . وان المناظرة في الامور المذهبية التي توجب الضغائن ، وتولد التعصب آفــة العمران . وان الكسل من النقائص التي تولد الخسائس والشرور . وان من اشتهر بالبخل من الناس مرفوض . وكذلك من اشتهر بالنميمة والثلب والسفه والكبرياء .... وان أعمال المتقين تفقأ حصرماً في اعين الحاسدين . وان المتعصبين يستعملون تعاليمهم الفاسدة في تفريق الناس بعضهم عن بعض. وان الحق يصرع اذا عمد الى إظهاره بالسباب والشتائم .

وان الحياة معترك هائل ، يموج بالرزايا موجاً ، وان الانسان فيهــا بمثابة المخاطر في معترك الحرب ، إن فاتته ضربة سيف ، لا تفوته طعنة رمح ، أو رمية سهم .

وان الإسلام لا يبيح الحرب لذاتها ، وقد حرم الاعتداء . وإنما يوجب تعميم الدعوة ، فمن عارضها وجب جهاده عند القدرة ، حتى يقبلها ، أو

---

(١) الفتوى في الاسلام ص ٥٤

(٢) الجرح والتعديل ص ٧

(٣) ستنشر نصوص هذا الدفتر الكاملة في الكتاب .

يكون لأهلها السلطان الذي يتمكنون به من نشرها بدون معارض . وان اللباس من الامور العادية . والدين لا يذم لباساً إلا إذا كان في لبسه ضرر في الأخلاق .

وان السياسة مصابرة المكاره ، ومسايرة الأهوال والمصاعب ، وركوب الأسنة في سبيل المداراة والمجاراة ، وتحين الفرص والظروف .

وانه لا ينبغي للانسان أن تكون وظيفته في الحياة دون النبات : ذاك يتطاول ، وهم يتقاصرون .

وان العاقل لا ينتصر لرايه الذاتي ، ولا يصر عليه ، فربما كان صواباً أو خطأً .

وان عثمان كان محقاً في نفي أبي ذر الغفاري لأن الحث على الزهد في الدنيا ، والقناعة باليسير والكفاف من الرزق ، وإماتة المطالب النفسية ، والتباعد عن الزينة والمفاخرة .... كل هذه الأصول فقرات مخدرات ، لا يرتضيها عقل ، ولم يأت بها شرع .

وان حال الأمة لا يستقيم ولا تثبت على أساس مكين مالم يتفق الكبراء بعضهم مع بعض ، ويتصافوا مع الذين دونهم ، ويفصلوا كل خلاف وخصومة بالتحكيم .

وان الجبان يموت مراراً قبل وفاته ، والشجاع لا يذوق مرارة الموت إلا مرة واحدة .

* * *

وبعد فهذا قليل من كثير مما ترك القاسمي . عرضنا منه عناوين ، وتركنا التفصيل الى كتابنا الذي نعده عنه .

٩ — أسلوبه ومؤلفاته :

كان الكتاب في العصر الذي عاش فيه القاسمي يعتبرون السجع المثل الأعلى في الإنشاء . وكانت « مقامات الحريري » القدوة التي يحتذيها الكتاب فيما يكتبون . ولقد درجوا على تحفيظها للطلاب ، لتنمية الملكة الأدبية ، وللنسج على منوالها .

ولقد كان والده اديبا ، الى جانب تعمقه بالفقه ، فنشاه نشاة ادبية ، على الطريقة المالوفة في عصره ، فلما اخذ في الكتابة والتاليف جرى على الأسلوب الذي لقن إليه . فالتزم السجع في اكثر ماكتب في مطلع حياته، ثم استمر على التزامه في أكثر مقدمات كتبه حتى آخر حياته ، وفي بعض رسائله الخاصة . على ان سجعه في أوائل ايامه أقرب الى سجع المبتدئين ، وكان في أواخرها أقرب الى سجع ائمة الكتاب المتقدمين (١) .

ثم شاعت طريقة الترسل ، وكان الأستاذ الإمام محمد عبده ، من الذين استعملوها ، ودعوا الى نشرها . وكان القاسمي معجباً بالأستاذ الإمام ، فعدل عن السجع الى الترسل ، في أكثر ما كتب بعد تعرفه عليه عام ١٣٢١ — ١٩٠٤ ، فجاء اسلوبه فيه عربياً صافياً ، رائعاً في قوة التركيب، وجزالة الألفاظ ، ودقة الأداء ، دليلاً على تمكنه من لغة العرب ، وصفاء ذهنه ، وغوصه على المعاني (٢) .

اما كتبه التي الفها فقد قاربت المئة . واقدم ما عثرت عليه من مؤلفاته، مجموعة سماها « السفينة » ، يرجع تاريخها الى عام ١٢٩٩ — ١٨٨٣ ، ضم فيها طرائف من مطالعاته في الأدب والأخلاق والتصوف والتاريخ والشعر وغير ذلك وله من العمر ستة عشر عاماً . ومضى يكتب ويكتب الى

---

(١) راجع ص ٧٥ من الجزء الثاني من محاسن التاويل واكثر مقدمات كتبه .

(٢) راجع ص ٣٠٢٥ من الجزء الثامن من محاسن التاويل ، والمقتطفات التي اوردناها في بحث « آرائه وافكاره » .

أن عجب الناس من بعده ، كيف اتسع وقته ـ ولم يعيش إلا تسعة وأربعين عاماً ـ لهذا الانتاج الضخم ، فضلاً عن تحمل مسؤولية الرأي ، وترجيح الأقوال ومناقشتها ، والرجوع الى المصادر ، وفضلاً عن أعبائه العائلية ، فلقد كان له زوج وسبعة أولاد ، وفضلاً عن إمامتـــه للناس في الأوقات الخمسة دون انقطاع ، ودروسه العامة والخاصة، وتفقده للرحم، ورحلاته، وزياراته لأصدقائه ، وغير ذلك من المشاغل .

وليس من شأن هذه المقدمة أن تعد لك مؤلفات القاسمي وقد قاربت المئة ، ولا أن تعرفك بمواضيعها ، فارجع الى هذا البحث ، إن شئت ، في الكتاب الذي لخصنا عنه هذا الفصل .

١٠ ـــ أسلوبه في الدعوة

عرف عن القاسمي إنه كان عف اللسان والقلم ، لم يتعرض بالأذى لأحد من خصومه ، سواء أكان ذلك فيدروسه الخاصة أو العامة، أو في مجالسه وندواته . وإنما كان يناقش بالبرهان والدليل ، من الكتاب والسنة ، وأقوال الأئمة والمراجع المعتمدة .

وكانت له طريقة في مناقشة خصومه لم يعرف أهدأ منها ، ولا أجمل من صبرها . وكثيراً ما قصده بعض المتقحمين في داره ، لا مستفيداً ، ولا مستوضحاً، ولا مناقشاً، بل محرجاً . فكان يستقبلهم بصدره الواسع، وعلمه العميق ، فلا يخرج المتقحم من داره إلا وقد أفحم ، وامتلأ إعجاباً وتقديراً .

ولم تتضمن كتبه ، على كثرتها ، وبعضها إنما وضع للرد على مخالفيه، لفظاً نابياً ، وإنما اعتصم بالنقاش العلمي الأدبي .

ومن الواضح لمن يطلع على هذه الكتب ، أن القاسمي لم يكن يريد من الرد على مخالفيه ، إفحام خصومه ، أو تصغير أقـــدارهم ، أو الحط من

مكانتهم ، وإنما كان يهدف الى الهدى والرشاد ، وسواء السبيل ، والدعوة الى الصراط المستقيم ، حتى ينقلب المخطيء مصيباً ، وحتى يعود المنحرف الى الحق .

« إدفع بالتي هي أحسن » طريقته الوحيدة في الدعوة الى الحق ، فلم تعرف عنه رغبة في لجاجة ، ولا الحاح مع معاند ، ولا استمرار مع مكابر او مغرض .

١١ — وفاته :

وافاه أجله مساء السبت ٢٣ جمادى الاولى ١٣٣٢ — ١٨ نيسان ١٩١٤ ودفن في مقبرة الباب الصغير بدمشق .

الخاتمة :

هذه لمحة عن سيرة هذا الرجل الذي عاش للعلم والحق والخير . ترك اعمق الأثر في معاصريه واقرانه وتلاميذه ، وفي العصر الذي عاش فيه ، وفي العصور التي أتت من بعده ، سواء أكان في النهضة الدينية ، أم في النهضة الاسلامية والعربية بوجه عام . لقد كان حلقة في سلسلة الهدى والإصلاح التي لم ينقطع نورها عن العالم الإسلامي خلال القرون ، فجددت للناس حقائق الدين ، وجلت عنها ما علق بها من الخرافات والأوهام .

ظافر القاسمي



خليل العظم

خليل العظم

وجيه دمشقي ، ينتمي الى اسرة عريقــــة ، عرف بالورع والتقوى والأمانة ، وتحلى بمكـــارم الأخلاق . كان محباً للعلم والعلمـــاء ، يانس بمجالسهم ، ويحب معاشرة ومخالطة النابهين منهم . تزوج بنت محمـد سعيد القاسمي الوحيدة ، ونشأت بينه وبين آل القاسمي صلات النسابة والمودة .

ولد عام ١٢٨٦ ـ ١٨٧٠ ، واشتغل بالزراعة والتجارة . ثم عين قبل الحرب العامة الأولى رئيساً لمحاسبة بلدية دمشق . وقد ابدى فيها كثيراً من الحرص والأمانة على أموال البلدية ، مما دعا لأن يكلف خلال الحرب برئاسة محاسبة دائرة المحروقات ، وكانت من اهم الأعمال . ثم ترك أعمال الدولة بنهاية الحرب، وتفرغ للزراعة الى ان وافاه اجله في أواخر عام ١٩٢٦ .

دلت الفصول التي كتبها في الجزء الثاني من هذا الكتــاب على فكر تحلى بالتنظيم والاستقصاء . وإذا كان في أسلوبها شيء من الضعف ، فان ما حوت من المعلومات التي لا تجدها في أي كتاب آخر، يكاد ينسيك ضعف الأسلوب . والجزء الثاني من القاموس مدين له بنحو نصف مواده . واكبر ظني انه لولا ان عهد إليه بجمع المواد التي جمعها ، لبقي الكتــاب ناقصاً ابتر حتى اليوم ، لما كان فيه جمال الدين القاسمي من شغل شاغل فيما هو أهم من موضوع الكتاب . فاليه يرجع كثير من الفضل في كمـال الكتاب وإتمامه .

إن هذا الأثر الوحيد الذي خلفه ، وخدم به المدينــة التي ولد ونشأ ومات فيها ، ، خليق بأن يدخله في سجل المذكورين من ابنائها .

ظ . ق

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على نعمائه ، ونصلي ونسلّم على خاتم أنبيائه ، وعلى كل من اصطفاه ، ومن دعا إلى شرعته المرتضاة .

أما بعد فغير خافٍ أنّ الصناعة من الأمور الضرورية ، للهيأة الاجتماعية ، وعليها تتوقف حياة الأمم ، وعلوّ الهمم ، وهي السبب في تعليم الشعوب حب الاستقلال بالأعمال ، وحب شرف النفس والاعتماد عليها بعد التوكّل على الكريم المتعال ، وهي العامل في تنبيه المرء أن يكون في الأمة جسماً عاملاً ، بدل أن يكون جسماً مؤوفاً أو خاملاً ، وأن يكون مهتماً بمصالح الجمهور ، ليدرك ماقُدّر له من الرزق بطريق الكدّ والكدح المبرور ، ويرفض ما ألفه من حبّ الكسل ، وايثار الراحة وفتور الهمّة عن العمل ، فينهض من خموله وقد زاحم أهل الأعمال ، وأقدم

على لجة الأشغال ، مقدراً أن ينال من اجتهاده وكسبه أعظم الآمال .

ولما كانت الناس في حاجة إلى بيان الصناعات ، وتعرف ماحوته من الحسنات والسيئات ، فان اكتناه الشيء يرفع عنه الاشتباه ، ويمثله للمشاعر بأجلى حلاه ، ولم يكن لدينا قاموس لمفرداتها ، ولا كشاف لاصطلاحاتها ، لذلك انتدب العالم الكامل ، والأديب الفاضل ، نادرة زمانه ، وزهرة أقرانه ، سيدي الامام المرحوم المبرور الوالد الشيخ محمد سعيد افندي القاسمي ، أحله مولاه في غرف الجنان المقام السمي ، فألف في صناعات الشام، كتاباً لم يسبقه إليه أحد من الأعلام ،مثل الصناعة العصرية فيها في ألطف مرآها ، وزخر من عبابها أمنية طال التشوف لمناها ، بيد أنه حال الأجل ، عن اتمام العمل ، ولما يضنا ما جمعه من مسوداته ، رأينا من المهم تكميل مشروعه وأن نحذو حذوه في مفرداته ، فبدأنا أولاً بفوات بعض الحروف المتقدمة ، ثم في إكمال حرف السين الذي وقف في خلاله عليه الرحمة والرضوان، ثم في سرد بقية الحروف إلى آخرها ، فشرعنا في ذلك عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف وساعدنا فيه الشهم الوجيه ، واللبيب النبيه،

سعادة خليل بك بن أسعد باشا بن عبد الله بك المظم ، ولما التزم الوالد المرحوم سهولة التعبير ، جاريناه في الأسلوب وجانبنا التأنق في التحرير ، فان الكتاب لكونه لصناعات العامة ، يقتضي إيضاحه باللهجة العامة ، فليعذر الواقف التحرير ، فالكريم خير عذير . وهذا أول الكلام ، بعون الله العلاّم .

المحلية ، بعد اعطائهم الكفالة المالية أن يكون القطع ـ في الغالب ـ في الثامن عشر من شهر شباط وتركه في الخامس من شهر مارت ، يقطعون ماء النهرين ، ويأتون بأصحاب هذه الحرفة فيكرونهم . وهم عدد كثير ، يأتون بمرور وفؤوس ومجارف وقفف . فكل ما تجمع من أوساخ وأحجار وغيره في دور السنة يرفعونه من أرض تلك الانهار . وغبّ مضيّ المدة وترك النهرين المذكورين تأخذ أصحاب نهري « المزة » و « الديراني » أيضاً في كراء نهريهما ، والعملية واحدة . وغبّ ذلك يقطع « نهر قنوات » ، وبعده « نهر بانياس » . وفي زمن الصيف ـ حيث يقل الماء ـ يعزّل أيضاً نهر بردى . وهذا في ظرف العام لا بدّ ولا غنى عن اجراء هذه العملية لكافة تلك الانهار .

وبالجملة : فهي حرفة يتعيش من قليل ربحها ـ البالغ يومياً خمسة غروش ـ اناس كثيرون بتلك / الايام المار ذكرها . والله المسبب .

٤

فوات حرف الباء

١٤٥- بـــرازقي

بائع « البرازق » وهي ما عملت من الطحين المعجون بالسكر ، غب ان يخمر ، يقرص أقراصاً صغاراً وكباراً وترق تلك الاقراص وتبسط ويلت وجهها بالسمسم بكثرة . توضع في صواني من نحاس ، ثم يخبزونها في الفرن ، حتى اذا نضجت يخرجونها ويبيعونها . وهي لذيذة الطعم اذا كانت خالية من الغش . وقد تغشّ بالشيرج والدهن بدل السمن . وكثير من المترفين يعملونها في الافران على حسابهم ولا يشترونها من السوق .

وتروج هذه الحرفة في شهر رمضان رواجاً زائداً . يضعها المتعيّشة بالصواني ، ويدورون بها بالاسواق ومجتمعات الناس فيبيعونها عــلى من يرغب في شرائها .

وبالجملة فهي حرفة يتعيّش منها أناس كثيرون .

١٤٦- برّالـــك

هو من المحترفين في عمــل خاص بالطاحون ، ويعرف بـ «البرّالك» . وذلك انه يقف بحذاء حجر الطاحون

ـ وقت دورانه ـ فيلاحظ أمر الطحين ، فاذا رآه ناعماً ، وهو يريده خشناً ، فللحجر حركة ترفعه وتنزله ، فيرجع الحجر فينزل الطحين خشناً، والا فينزل ناعماً . واذا تعطلت أحجار الطاحون من كثرة الدوران ـ ان اخذت تتآكل ـ فلا تصلح للطحن ، فينقرها ، وله على ذلك اجرة يومياً ثمانية غروش يتعيّش بها .

١٤٧ - بستاني هو صاحب بستان ، أو مستأجره . يشتغل بنفسه ، فيزرع أصناف الخضر في زمن الصيف : كالباذنجان والبندورة والفليفلة والبامية واللوبية والفاصولية والكوسا ... وما ماثلها من خضر الصيف . وفي الشتاء من خضر الشتاء / كاللفت واليخنا والقرنبيط والكرنب والشوندر والجزر ... وما ماثلها من خضر الشتاء . وعند نضج تلك الخضر يقطعها ويأتي بها الى البلدة فيبيعها على الخضرية. والبعض ـ ممن لا يكون عنده بستان ولا قدرة له على الاستئجار ـ فيأخذ أرضاً عند أصحاب الحوانيت ، ويعرف عندهم أيضاً بالبستاني. ويزرع من تلك المزروعات التي ذكرناها . وعند نضجها تباع أو تضمن لمن يرغب في ضمانها ، فما يبلغ من قيمتها يقسم الى شطرين : شطر لصاحب الأرض في مقابلة أرضه ومائه مع ما يعطيه من نصف ما يصرف على تلك المزروعات من بذر وحرث الارض ، والنصف الى البستاني في مقابلة اتعابه وحفظ تلك المزروعات وحراستها مع ما ينفقه من نصف المزروع وقيمة « العمارة » .

وهي حرفة مهمة تنتج ربحاً طيباً .

١٤٨- بسطاطي هو من ليس له دكان ، فيبسّط في أطراف الطرق العموميـــة ، وغالبهم عند باب « سراية العسكرية » وفي « سوق الدرويشية » . ومن يكون عنده رأس مال يضع ما يبيعه في « جام » من بلور : كأمواس وسكاكين وعلب سيكارة وخواتم وأساور ودبابيس وكساتبين وغيرها . ومن كان فقيراً يضع ما يبيعه على خرقة على الأرض ، وهي أشياء حقيرة جداً ــ كقطع حديد وغالات ومفاتيح ــ لو تبصّر الانسان بها لم يجدها كلها تساوي ثلاثة أو خمسة غروش ! ولكنها ستر" عن سؤال الناس . وترى أكثرهم حامداً لمولاه شاكراً ، يتعيش من ذلك الربح القليل جداً العيشة الضرورية .

١٤٩- بويه‌جي هو من يمسح ويطلي أصناف النعال بأنواع البويه والزيوت . وغـــالب أصحاب هذه الحرفة من فقراء اليهود الشبان ، يدورون في الاسواق ومجتمعات الناس حاملين صندوقاً من خشب ضمنه أنواع الفرشايات والبويه المتنوعة الألوان / كأسود وأصفر وأبيض ، وأنواع الزيوت كزيت السمك واللوز ، ويمسحون النعال لمن أراد فيعطيهم كل" على قدره . يتعيشون بهذا الكسب القليل ، ويتعيش منها أناس كثيرون .

٦

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

١٥١- تهللجي

عنوان لرئيس الذاكرين في«التهليلة» ولمن تحت يـده أيضاً ، ويقال لهم « الدّخّل » بضم الـدال وتشديد الخاء المعجمة .

و « التهليلة » في دمشق عنوان على الاجتماع على قراءة القرآن والاذكار التي تقام بعد وفاة المتوفّى : إما في الليلة الثالثة ، أو ليلة أول خميس من وفاته ، أو ليلة الأربعين منها ، أو ليلة وفاء عدة زوجته ، أو ليلة تمام السنة . فان هذه المواعيد يتحين اقامة التهاليل فيها ان كان المتوفى مثرياً أو موصياً ، أو في بعضها ان كان متوسطاً .

٧ وكيفية ترتيبها : أنه بعد وفاة المتوفى يذهب وصيّه / أو وارثه الى من يعمل التهاليل ، من بعض العلماء ، أو مشايخ الطريق ، ويعطيه من المال حسبما وصى بمقداره ، أو ما يتبرع به الورثة ، وذلك من الخمسمائة قرش الى عشر ليرات ، وربما زادوا عليها ان كان المتوفى تاجراً كبيراً ، أو وجيهاً خطيراً ، وذلك نادر . فيأخذ شيخ التهليلة هذا المقدار ، ويشتري سمناً لقلي العوامة ، وطحيناً من الجنس العالي ، وقزيزة زيت الغاز ، وخشباً يابساً يسمى « نقضاً » لسرعة اشتعاله تحت مقلاة العوامة ، وسكراً ، ودخاناً . ويرسل وراء قلاّ العوامة ، ويشترط معه على العجين والطحين وعمله ، فيحضر ويعجن من النهار في أطباق ، ويبني كانونه ، وتهيّأ له تنكة سمن ، ويكون بيت الشيخ تهيأ بفرشه وترتيب امكنته لجلوس الضيفان والمدعوين ، وتعلق المصابيح ، كما انه يكون دعا رئيس الذكر مع جماعته ، وهم نحو ستة أو أكثر ، وقد يدعى لها جماعة من المولوية . حتى اذا اذن العشاء أخذ المدعوون وأهل الذكر ومن يدعوه

الشيخ من جيرانه وأهله يفدون لدار الشيخ والمتطفلون بها كثيرون لأجل العوامة ! • فبعد ان يلبث الجميع حصة يتناولون بها القهوة ، تفرّق أجزاء الربعة ، فبعد أن يقرأ منها ما يقرأ ، تمدّ لرئيس الذكر وجماعته فرش يجلسون عليها ، ويبتدئون بعملهم ، وتسمى « المسبحة الأولى » ، ويبقى الذكر نحو ساعة ونصف ، والمنشدون من ورائهم ستة الى عشرة، بنسبة أهمية التهليلة ، ويضيفون الى الاذكار كثيراً من «أناشيد الششتري» ويقرأون « الأكرامية » ومنظومة الدردير أو البكري بتمامها • وترى ضجة المنشدين والذاكرين تسمع من مسافة عشرين بيتاً أيام الصيف ! فبعد انقضاء العمل ، يستريحون برهة يشربون فيها القهوة • ثم يقومون الى اعادة العمل السابق بعمل أخفّ يستمر نحو ساعة ثم يستريحون ← ٨ أيضاً ويقومون بعد للوقوف ، / فيذكرون قياماً أقل من ساعة بأنواع من الاناشيد والهيام والتواجد • وهناك تلبس جماعة المولوية — وهم عشرة أو أقل — لباسها الابيض ، وتدور على الذكر ثلاث مرات في ثلاث ترويحات ، ثم ينصرفون • ويختم رئيس الذكر وجماعته بعدهم بالذكر — المعروف بذكر الخمارى — الذي هو الآمدية ، ثم يختمون • ويدعو شيخ التهليلة ، ويؤمن الحاضرون على هذا الدعاء ، ثم يجلسون • ويكون أهل دار الشيخ هيؤوا سفرة الطعام من بعد المسبحة الأولى ، ودعوا لها من حضر تدريجاً على حسب مقامهم ، ولا يفرغ الذكر بتمامه حتى يكون أكل كثير من الحاضرين وانصرف • ثم يفرق الشيخ الجوائز على الذاكرين والمنشدين والمولوية ومن خدم ، وما بقي فيأخذه •

فوات حرف الثاء

١٥٢- ثعباني هو من يجترىء على أخذ الثعبان ــ وهو الحية العظيمة ــ فيجمع كمية منها ، ويقلع أضراسها ، ويضعها ضمن كيس من « جنفاص » ، ويطوف بها على القرى ، وفي بعض الحارات والأزقة المتطرفة بدمشق . وتارة يتطوق منها كبراها . فيتبعونه الاولاد والبسطاء من الرجال والنساء ، فيظهرها لهم ، ويلعب بها أمامهم . وعند الانتهاء من تلك الفرجة الخبيثة ، يدور المعدّ عليهم ، فمنهم من يعطيه ومنهم من لا يعطيه ، فيتعيش بما يجمعه في نهاره .

وكان يوجد قديماً عائلة بدمشق لها اعتناء عظيم بهذه الحرفة . ومن ليس له جسارة على مسّ ونظر هذه الافاعي الهائلة لا يمكنه الدخول لدار تلك العائلة ، حيث انها لا تخلو دائما من مئة ثعبان وحيّة ! وكانوا يطعمونها ــ في غالب الاوقات ــ البيض وغيره . حتى كانت تلك الحيوانات تشاركهم في طعامهم ، وتأنس بهم كثيراً .

ويقصد هؤلاء دائماً لـلـتّـقـنـطـ حيّة ، اذا ظهرت في بيت كبير ، وخاف المقيمون فيه من ظهورها ثانيةً عليهم . واذا حضروا يأتون / بقضيب من

رمان ، ويقرؤون « ياود ود » مئات . فاذا خرجت الحية من جحرها ، يهجم عليها هذا الثعباني ، ويأخذها بدقة صنعة وجسارة . ثم يكرمه أهل المنزل على حالهم . وبلغ من كرم أحد الأمراء الأخيار أن أعطى في مقابلة ذلك خمس ليرات ، ما على المحسنين من سبيل !

وحدثني بعض الاساتذة : ان أحداً — ممن كان يعتني باقتنائها — كان كلما فرغ جيبه من الدراهم ، ملأ منها كيساً وذهب الى خارج الباب الشرقي ، وأرسلها الى حيطان دار اليهود ، فتدخل اليهم ، فيضطرون الى الاتيان به ، فاذا جاء ، يعطونه على كل واحدة أجرةً كافية ، فتأمل ! ولا حول ولا قوة الا بالله .

ويسمي كل واحدة باسم خاص . وكثيراً ما انتشرت من أكياسها أو صناديقها ، فزحفت الى جيرانه فأفزعتهم . ويتفق أن لا يكون في البيت الا نساء ، فيصعدن الى السطوح ويصرخن بالويل ، فيجتمع الجيران . فما أوحش هذا الحال واشنعها !

وحدثني أحد الاساتذة : ان شخصاًمن هؤلاء كان يربي حنشاً هائلاً ، وله ولع به كولع لاعب الحمام بها . فاتفق انه لاعبه يوماً ، فكأنه تهجم نحوه — خلاف عادته — فغضب عليه ، وحلف ليذبحنه . ثم ذبحه وسلخه وأخذه للحام ليعملْ عليه صفيحة — اكلة معروفة — فلما تم نضج الصفيحة منه دعا اليها أحد أخوانه ، وهو لا يعلم انه لحم ثعبان أصلاً فاستطاب عملها . ثم اتفق ان قابله رفيقه ودعاه لمثل تلك الأكلة ، ثم قال له رفيقه : لقد جهدت أن تكون كثيرة الدهن ، مثل أكلتك ، فما قدر لي! فقال له الثعباني : ومن أين لك محاكاتها ؟ تلك لا تحاكى ، لقد صرفت عليها أكثر من خمس ليرات ! فقال : لأ يشيء ؟ فقال : هي لحم كذا !

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب . ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب . وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون - على ما يظهر - يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

١٥٤- جعيدي هو من يرقّص القـرد ــ المعروف بالسعـدان ــ أو الدب . وهؤلاء من القبط ، المعروفـين بالنـور ، المخيّمين بأطراف قرى دمشق . ولهم دراية تامة بتلقين تلك الحيوانات أنواع الرقص واللعب ، مع الحركات الغريبة المضحكة . فيستحصلون عليهم صغاراً ، ويأخذون في تربيتهم ، وتعليمهم بواسطة الضرب المؤلم للقرد .

أما الدب فيثقبون انفـه ، ويضعون به خزامـاً من نحاس مربوط بسلسلة من حديد ، فكلما خرج عن طاعتهم يسحبونه بتلك السلسلة ، فينقاد . حتى اذا تعلمت تلك الوحوش، يأتون بها ، فيدورون بالاسواق، ومجتمعات الناس ، حاملين بأيـديهم دفوفاً كباراً ، يضربون عليهـا ، ويتغنّون ، ويرقصون تلك الحيوانـات ، فيجمعون من الناس بعض دريهمات .

وفي الغالب ، تروج حرفتهم في زمن الربيع ، ويكثرون بدمشق ، يذهبون لجهات متنزهات البلدة ، كالمرجة والصوفانية . وسيأتي في حرفة « القرّاد » زيادة على ذلك .

١١ ومن الجعيدية / من يحمل دفه يوم عيد ، أو احتفال بموكب حج ، يرصد المارة فيستقبلهم بأبيات . وقد يمدح من بينهم من يراه وسيماً ، فيذكر حسن حاجبيه ، وملاحة عينيه ... إلاّ انه لا يتم البيت الاول حتى يعطى ما تيسّر .

فوات حرف الحاء

١٥٥ـ حميماتي هو من يلعب بالحمام . يطيّره في الجو ، يحدّق في كيفية طيرانه ، وتحلّقه ، وقربه ، وبعده ؛ وينفّره بشبكة في يده ، تسمى « الكشاشة » ، وكلما اراد الهبوط صعّده حتى يعيى .

وهؤلاء اللاهون به ، كثير منهم اتخذ بيعه وشراءه حرفـةً لهم ، يتعيّشون من ربحها . وتراهم كما قيل في شأنهم : «لا دين ولا دنيا» !

ولهم مركز لبيع الحمـام ، يعرف بـ « قهوة الحمـام » في سوق السنانية العريض ، فيأتيهم من يرغب في اللعب بالحمام ، فيتفرج على ذلك الحمام الموجود عنده ، ويشتري ما يرغبه . ومن أراد بيع شيء ، من الذي عنده ، يشتريه صاحب تلك القهوة ، ويبيعـه لمن يرغب في مشتراه ، فيربح بذلك . والبعض يجعل مركزه في داره .

وكثير ممن جعل هذه الحرفة الدنيئة حرفته ، يتعيّش من ربحهـا الوخيم !

فوات حرف الخاء

١٥٥ مكرر - خرقي

هو من يحترف بلقط الخرق من المزابل ، وأفنية البيوت والحارات ، فيأخذها ، ويغسلها ، وبعد ذلك يفرقها ، فما صلح لأن يخاط بعضه ببعض ، فانه يخاط ويعمل أكياساً ، تباع للعطارين لصرّ الأرزّ والسكر والملح ونحوها . ومالم يصلح للخياطة يباع للصرماياتية ، فيجعلونه حشواً للصرامي .

والممتهن نفسه بهذه الحرفة القذرة ، هم اليهود خاصة عندنا ، فترى فقراءهم — ممن يحترف هذه الحرفة — يدورون في الازقة والحارات من الصباح .

ولهم — عدا لقط هذه الخرق — اهتمام باشتراء كلّ عتيق في البيوت ، من ثوب ونعل ومست . حتى ان احدهم ينادي بالحارات : « مست العتيق للبيع » برطانة عبرانية معروفة . فمن سمع صوته ، واراد بيع شيء عتيق عنده ، ناداه وباعه واحياناً يعطون في المقابل صحوناً صغيرة ونحوها .

فوات حرف الراء

١٥٦ - راقي

هو من يحترف بـ « الرقية » وهي القراءة والنفث على المريض والمصروع ، وتعليق « التميمة » ، وهي الحجاب ، ويقال له في الشام : مكبّس — بضمّ الميم وفتح الكاف وتشديد الباء المكسورة — .

والمحترفون بهذه الحرفة في غاية من الكثرة . وبعضهم أكثر رواجاً من بعض . يأتي اليهم النساء — وهم أكثر زبائنهم — ثم البسطاء من الرجال ، ويشكون اليهم مرضاً عسر برؤه ، أو وسواساً ، أو أحلاماً مخيفة ، أو سرقة دراهم ، أو حليّ ، أو دابة ، أو نكاية عدوّ ، أو ضرة ؛ ويطلبون منهم حجباً . فعند ذلك ، يقرأ الراقي على المرقى ، وينفث عليه ، ويعده / بتميمة يعلقها ، أو ورقة كذلك . ولكن بعدأن يشترط عليه من الدراهم مقداراً ، ومن البخورات ، ومن أدوات الحجاب ما شاء هواه ، وقلة دينه وتقواه ، واكله اموال الناس بالباطل الذي ما انزل الله به من سلطان !

١٢

كثر في هذه الحرفة ، الدجالون ، والمتكهنون ، والجهلة ، كثرة

عجيبة ، نساءً ورجالاً . ولم يزل الاعتقاد فيهم قوياً ، رغماً عن أخذ الكون بالتنبه وترقي الافكار ! ولكن لا عجب ، فهل يخلو الكون من الحمقى والاغرار والمغفلين ؟ هيهات ! فما دام هؤلاء في هذا الوجود ، كانت معيشة أولئك عليهم ! ماذا يعد المرء من مخازي كثير من الأشقياء — المحترفين بهذه الحرفة — الأبالسة ؟ وكم كانوا سبباً في هتك اعراض، وفراق ازواج ! وكم ارتكبوا الفواحش في مخدّرات . يـأتين اليهم ، ويلقين اليهم القياد تخلصاً مما ألمّ بهن ، ويعتقدن الشفاء أو النجاح في الأمل عندهم !

وقد حكى لي أحد الثقات ، عن دجّال سكن ظاهر البلدة : انه كان يكتب للمرأة على بطنها ويقول لها : لا يؤثر إلاّ هنا . وكان — كلما كتب — يلحس ، كأنه غلط ، ليستأنف الكتابة ، قبّحه الله !

وقال آخر مرة لامرأة : هذه التميمة لا تكتب إلاّ بماءين ماء رجل وماء امرأة ! حتى اضطرها بخداعه إلى أن سلّمته نفسها ، وأوهمها انه يأخذ ماءها وماءه — عليه لعنة الله ! فنمي إلى وجيه في قرب من محله ، فذهب اليه ، وجلده مالايعدّ ، وطرده من محلّه .

دع عنك تكشّفهن أمامهم ، والعشرة اللعينة ، والتكسّر ، والتخنث، مما هو منكر باجماع الملل والنحل . نعم ، يوجد منهم من ظاهره الكمال، ولكن من حام حول الحمى ...

وحدثني أحد صالحيهم : انه — بالرغم عنه — يؤتى ليرقي ، وانه ما كلمته امرأة إلاّ وأمذى ! فتأمّل ، وهذا صالحهم ، فكيف بغيره ؟!

ولهم عجائب في اقتراح الخيوط ، والحرير ، والاوعية ، والحبر ، والاتيان بعصفور أو صرصور ، ووضعه حياً في « قزّيرة » على حجمه،

١٣　ولحمها وسدّها عليه . وكذلك الكتابة على / أسفل القدم ، أو بالدم ، وغير ذلك ..!

وأقل احوال هذه الحرفة الدنيئة ان يدخلها الكذب والخداع رغماً عن كل احتياط وتورّع ! أليس يقول للمرقي : ائتنى بوعاء لأكتب عليه، وهاته في الوقت الفلاني ، واياك أن تتأخر .. ، تدليساً وتلبيساً ! ولو أنّ هؤلاء الراقين درسوا علم النجوم ومطالعها ، لكان يقال : هؤلاء يريدون ان ينهجوا منهج الفلاسفة المنجمين ، فينتقل الكلام معهم الى بحث التنجيم واعتماد المطالع ، فحينئذ يقال : رجعوا الى علم ، ومشوا مع قواعد الفن . وأما هؤلاء ، فلا علم ولا عمل ، ولا دين ولا تقوى !

يقول بعضهم ـ مستدلاً بجواز الرقية ـ بانه عليه السلام أقرّ ابن مسعود على رقيته من لُدِغَ بعقرب ، واقره وجماعته على أخذ الشياه في مقابلتها .

فاولاً ، يقال له : ذهب كثير من العلماء الى ان ذلك خصوصية لابن مسعود وجماعته ، لحالة اضطروا اليها ، والعصر عصر النبوّة ، وهي قضية عين لم يسمع بنظيرها في عهده ـ عليه السلام ـ من غير ابن مسعود ، وكان الشفاء بالرقية بها معجزةً له صلى الله عليه وسلم ، وكرامةً لأصحابه !

وثانياً ، لو تنزلنا وقلنا : انها ليست بخصوصية ، فاذا كان الرقي يقتصر على الفاتحة لا يتعدّاها ويأخذ اجرة في مقابلتها ، فلا بأس ! وإن كان يزيد عليها من عندياته، ليطيل ذيل القضية بالبَهْلَلَة، والخزعبلات، فأنّى يحلّ اكل اموال الناس بالباطل والخداع والتلبيس ؟

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

في يده حلقة من صفر ، فقال : ما هذه ؟ قال : من الواهنـــة • قال : « انزعها فانها لا تزيدك إلاّ وهناً ، فانك لو متّ وهي عليك ما افلحت أبداً » ! رواه الامام أحمد •

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من تعلق تميمة فلا أتم له » !

١٥٧- رهونجي اسم لكل من يروض الفرس الصغيرة على مشي « الرهونة » وهي مشية مخصوصة تطبع عليها خلاف مشيتها الخلقيـــة • فاذا أراد من له فرس أن يرهونها ، أعطاها لمن له معرفـــة بترويضها المـــذكور بأجرة مخصوصة ، فلا يزال يروضها حتى تصير « رهوانة » • والماهرون بهذا ، من قسم من يتعاطى التجارة بالخيل •

ويطلق الرهونجي على كل من يركب فرساً عمرها نحو أربع سنين •

قال الزبيدي في تاج العروس شرح القاموس : « الرهوان » المطمئن من الأرض ، وبـــه سمي البرذون ــ اذا كان ليّن الظهر في السير ــ رهوان • وهي عربية صحيحة • وفي القاموس وشرحه المذكور أيضاً : فرس مِرهاة ــ بالكسر ــ أي سريعة السير • قال الشاعر :

اذا مادعا داعي الصباح أجابـــه بنوالحرب منا والمراهي الضوائع!

وهي الخيل السراع ، واحدها مره •• وقال أيضاً : « الرهو » السير السهل • يقال : جاءت الخيل رهواً • قال القطامي :

يمشين رهواً ، فلا الاعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل !

وقيل : الرهو ــ في السير ــ اللين مع دوام • انتهى •

فوات حرف السين

١٦

١٥٨- سفرهجي

هو من يخدم في اللوكندات أو عند الأكابر •

وصنعته : ترتيب موائد الطعام ، من تنظيم المائدة ، وتنظيفها ومسح ما يتعلق بها ، من ملاعق وشوكات وسكاكين وصحون ؛ وطيّ البشاكير بصورة هندسية ؛ مع اتقان عمل اصناف السلاطات المتنوعة ، اللطيفة المنظر ، اللذيذة الطعم ، وصفّها على المائدة بغاية الترتيب ؛ وتقديم اصناف الطعام بغاية الرشاقة •

وهي — بالحقيقة — صنعة قائمة بذاتها ، لا يتقنها إلاّ كلّ من تعاناها • يتعيّش منها من أتقنها • والله تعالى المسبب ، لا ربّ غيره •

١٥٩- سكّاب

اسم لمن يسكب النحاس بقوالب مخصوصة —كالاجراس، والهواون، والأواني الرملية من النحاس — حسب طلب المشتري •

ويستعد صاحب هذه الصنعة بحانوته ، لوجود أصناف القوالب

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

الحصر الذي يستعمل للحصر بدمشق، المتقدم ذكرها في حرفة الحصري. يضمنه صاحب هذه الحرفة من اصحاب المروج . وعند دخول فصل الصيف يجفّ ، ويصلح قطعه ، فيذهب السلّي المذكور الى تلك المروج، ويباشر في قطع ما كان صالحاً ، ويجعله حزماً ، ويهيّء احمالاً ، فتنقله الجمالة الى دمشق ، وتورده الى الحصرية ، حسبما يجري عليه الاتفاق فيما بين السلي والحصري .

وهي حرفة يتعيش منها البعض من أهل القرى .

١٦٢- سمكري

هذه الصنعة في صنف التنك وقزازير الغاز . وصاحبها يكون مستعداً في دكانه الى «كانون» لأجل شعل النار بالفحم بها ، والى الآلة المقتضية لها — من مقراض وكاوي وخلافه — لأجل لحم التنك في بعضه ، والقصدير الذي لا يضبط اللحام من دونه ، وما يلزم لتلك الصنعة من الآلة .

وهذه الصنعة رائجة جداً في شامنا . واذ هي ليست بشريفة ، فغالب أصحابها من اليهود .

وهي تنطوي على عمل أشياء متعددة ضرورية : من عمل كيلات ، واباريق ، وممالح ، وفوانيس ، ودولات قهوة، وسماورات الى الشاهي، وعلب ... وما أشبه ذلك .

وبالجملة فهي صنعة تنتج ربحاً عظيماً بلا كبير رأس مال . فسبحان مسهّل الأسباب .

١٨ ١٦٣- سمسار

هذه الحرفة تنقسم الى قسمين: منها وضيعة ، ومنها غير وضيعة .

فالوضيعة : هو السمسار الذي يوجد في سوق الخيل والحمير والجمال . والقليل من صاحب هذه الحرفة الذي عنده نوع من الذمة ، وهذا في النادر ، ولا حكم له ، حيث لا يخلو أحدهم من الزور والبهتان والكذب ، فيدخل بين البائع والشاري ، فلا يخلو أحدهما من الغباوة ، فيعود الخسران : فاما ان يكون بائعاً فانه يبيع بالخسارة، واما أن يكون مشترياً فيشتري بالزيادة، وما ذلك إلا بتلك الواسطة التعيسة ــ وهي السمسار ــ لأجل حظ نفسه ، وأمر معاشه ! يغش الناس ، فيحسن بالثمن للبائع ولو ما حصّلت دابته قيمتها ، ويحسن للمشتري ولو كانت الدابة لا تساوي تلك القيمة، حتى اذا تمّ البيع لا يرتضي من الجهتين لا بقليل ولا بكثير ..!

وبالجملة ، فهي حرفة وضيعة ، ولكنها تنتج ربحاً كثيراً ! وكنت أرى ذوى البيوت الطماعين من يتعاناها بصورة خفية . وحيث انها منطوية على الغش ما كنت أرى ــ من نعم ربحها ــ آثاراً على كل من يتعاطاها !

وأما القسم الثاني ــ الغير الوضيع ــ فهو حرفة سمسار بيع العقارات والبيوت ، أو أجيورها لمن يرغب ان يستأجر داراً أو حانوتاً أو مزرعة أو بطريق المشترى . فيدخل ذلك السمسار بين البائع والمشتري ، أو المستأجر والمؤجر ، خالياً من الغش والطمع .

وما تنتجه هذه الحرفة فهو مبارك ، كما هو مشاهد ووجدنا ممن أثرى جداً وتحسنت احواله . فسبحان المعطي الوهاب .

١٦٤- سمّان

هو من يبيع السمن ، والزيت، والجبن وأصناف متعددة : كالارز والبرغل واللبن والبيض والعدس والخل والزيتون ... وما شابه هذه المأكولات .

وهذه الحرفة كثيرة في شامنا ، ورائجة جداً ، ولا يخلو كل شارع من جملة دكاكين ، حتى في اغلب الازقة ، وهي متوسطة غير دنيئة ، وتنتج ربحاً وافراً وكسباً مباركاً .

فائدة مجربة لحفظ السمن من التغير :

لا يخفى أن السمن اذا طال زمانه زنخ — أي يصير طعمه بشعاً — / ورائحته كريهة، فلازالة هذا الطعم وهذه الرائحة يذوب من٢٥ الى ٣٠ قمحة كلورور الكلس لكل اقة للسمن في ماء ، واخفق السمن خفقاً مستديماً برهةً من الزمان ، واتركه ساعة أو ساعتين ، ثم ارق عنه الماء واخفقه ثانية بماء . فمهما كان السمن زنخاً فانه يحسن ريحه ، ويصلح أيضاً بذلك رائحة السمن المحضر حديثاً . والله أعلم .

١٩

١٦٥- سوّاس

هي حرفة من حرف الفلاحين يدور محترفوها في القرى التي يوجد في أرضها عرق السوس، ويسمى بالغار ، وهو عشب طويل يطول على نحو نصف ذراع . وشرشه هو عرق السوس ، ينبت كل سنة في أول الربيع ، حتى اذا دخل عليه فصل الخريف يجف ورقه ويسقط ، وحينئذ يصلح الشرش . فيدور أصحاب هذه الحرفة عليه ، ويقلبون أرضه بالمرّ ، ويخرجون ذلك الشرش ، ويأخذونه الى البلد فيبيعونه تجارة .

وبالجملة هي حرفة يتعيش بها محترفوها . والله أعلم .

١٦٦- سيوري

هو من يبيع السيورة المعـدة الى القباقيب . فيشترى من الجلدالذي يصلح الى السيورة ، ويفصلها على شكل معلوم ، ويجعل لها بطانة ، يفصلها أيضاً على ذلك الشكل المذكور من جلد خفيف ، ثم يخيطهما معاً ويبيعهما على القباقبية .

وهي ــ بالجملة ــ صنعة يتعيش بها ، وهي رائجة جداً بشامنا ، نظراً لرواج وطلب القبقاب . ولكنها لا تكسب ربحاً كثيراً ، بل انما محترفوها يكسبون منها القوت الضروري . والله المسبب لا رب غيره .

١٦٧- سواري

هو من يدور في الأزقة ، ومعه دابة عليها سريجةوقفة منخوص ، ومجرفة من حديد يملأبالقفة ما جمعه الكناس

٢٠ من القمامة ــ كما سيأتي في حرفة الكناس بيانه ــ / ويضعه فيالسريجة على الدابة ، حتى اذا امتلأت السريجة يذهب بهـا الى البستان الذي يخدم فيه . وأصحاب البساتين والفلاحة المجاورة لدمشق ، لكثرة الماء عندهم ، يزرعون أراضيهم في دور السنة مرتين ، فيحتاج ذلك لكثرة «العمارة» فيرسلون خدمتهم، هؤلاءالذين يعرفون بدمشق بـ «السوادية» ومعهم الدواب ، فيدورون كما وصفنا ، ويجمعون ما يجدونه من تلك القمامات ، يصفّونها فوق بعضها ، فتصلح لما يزرعونه أصحاب البساتين في بساتينهم ، وينمو بها الزرع ويطيب .

وأصحاب هذه الحرفة دائماً هذا ديدنهم وشغلهم ، صيفاً وشتاءً ، يتعيشون مما يحصلونه من أجرتهم . والله يرزق من يشاء .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

والآن المرغوب السيوف اللينة الفرنجية ، وهي على أصناف : الالمانية، والفرنساوية ، والانكليزية ، وغير ذلك .

ومن علامات السيوف اليمانية العتق التي طبعت في الجاهلية : ثقبان في سنبل السيلان ، وثقب السنبل من احدى جهتيه أوسع ، أو متساويان ووسطه أضيق . ومنها المحفورة ، وهي التي شطبها شبيه بالانهار ، وقد حفر بمبرد مدور . ومنها ذات حفر مربع . ومنها ذات شطب . وقلما تسلم اليمانية من العروق المفتوحة . وقد يوضع عليها تماثيل ، أو يكتب عليها ، أو يصور عليها صورة ، وقد يخفى ذلك .

وهذه السيوف نادرة جداً ، وأكثر قطعها في اللين ، فاذا صادفت الحديد أو اليابس تقصفت . بخلاف السيوف الافرنجية ، فانها تقطع الصلابات من العظام ، وتبري الحديد على قدر جودتها وجودة سقايتها .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش أناس قليل في دمشق من عملها ، والله المسبب لا رب غيره .

وللسيف اسماء كثيرة مما تنوف عن الألف ، كما ذكره صاحب القاموس . وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى غالباً . فمن اسمائه : الجليل ، والقضيب ، والقرضاب ، والذكر ، والمذكر . وما ألطف ما قاله بعض الفضلاء في ذلك :

ولا عيب فيهم غير أن أكفهم ... تغرق آمال العفاة بحورها
وان سيوف الهند في كل معرك ... بأيمانهم حاضت دماءذكورها!

وقال آخر :

لحاظك أسياف ذكور فمالها ... اذا نظرت مثل الأرامل تغزل !

ومن اسمائه : الغدارة ، وهو سيف طويل ذو حدين ، وما ألطف قول النواجي فيه :

لا تأمن الألحاظ ان خادعت   فكم سبت في الحرب نظاره   ٢٢
ولا تثق ان اغمدت سيفها   في الجفن يوماً فهي غدارة

لطيفة — كان صمصام عمرو أشهر سيوف العرب ، وهو ممن تمثل به نهشل فقال :

أخٌ ماجد ما خانني يوم مَشهَد   كما سيفُ عمرو لم تَخُنهُ مضاربه!

وكان مكتوباً عليه هذا البيت :

ذكر على ذكر يصول بصارم   ذكر يمان في يمين يماني!

وقال ابن الرومي :

لم أر شيئاً حاضراً نفعه   للمرء كالدرهم والسيف
يقضي له الدرهم حاجاته   والسيف يحميه من الحيف !

وقال عبد الله بن طاهر :

يبيت ضجيعي السيف طوراً ، وتارةً   تعض بهامات الرجال مضاربه
أخو ثقة ، أرضاه في الروع صاحباً ،   وفوق رضاه أنني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلاّ فتى ، له   بها كلفٌ ، ما تستقر ركائبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبدالله فطلب سيف الزبير وقال له : ردّه علي فانه السيف الذي أعطاه رسول

الله صلى الله عليه وسلم له يوم حنين ! فقال له عبد الملك : أوَ تعرفه ؟ قال : نعم ! قال : بماذا ؟ قال : أعرفه بمالا تعرف به سيف أبيك ، أعرفه بقول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　　بهنّ فلولٌ من قراع الكتائب !

حرف الشين

١٧٠- شــاعر الشاعر هو من يحترف بواسطة أدبه وشعره ، فينظم شعراً يمدح به الأمراء والاغنياء فينعمون عليه بما تسمح به أنفسهم .

وهذه الحرفة في زماننا هذا كاسدة جداً ، وذلك لعدم إجازة الشاعر، ولو بالقليل ، حيث لا يخفى تمسك الاغنياء بأذيال الإمساك ، والقليل من يجيز الشاعر على مدحه بشيء لا يذكر، لذلك كسدت / هذه الحرفة. ٢٣

وفي بلدتنا محترفوها قليلون لما ذكرنا ، ويحق لهم أن يتمثلوا :

زففت الى الأمراء من صفو فكرتي عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا
فقبّلهــا عشراً وهــام بحبّهــا فلما ذكرتُ المهر طلّقهــا عشرا !

وكانت هذه الحرفة في العصر السابق رائجة جداً ، وذلك لما كانوا يجيزون الشاعر عليه من الأموال الوافرة ، التي تكاد تغني كثيراً من الناس ، كما هو مشهور ومسطور في كتب التواريخ والأدبيات . ومنها ما تنقل ان بعض الشعراء وفد على خالد بن عبد الله ـــ ورجله في الركاب

يريد الغزو — فقال : إني قلت فيك بيتين من الشعر . فقال : في مثل هذا الحال ؟ قال : نعم ! قال : هاتهما ! فأنشد يقول :

يا واحدالعرب الذي ما في الأنام لـه نظير
لو كان مثـلك آخر ما كان في الدنيا فقير !

فقال : يا غلام ! أعطه عشرين ألف دينار ٠٠! فأخذها وانصرف .

فلذلك ، كان سوق الشعر رائجاً جداً في هاتيك الايام . هكـذا والا فلا لا ً !

واستدعى بعض الأمراء شعراء مصر ، فصادفهم رجل فقير كان بيده جرة فارغة ذاهباً الى البحر ليملأها ماءً ، فتبعهم الى أن دخلوا دار الامير، فبالغ الامير في إكرامهم والانعام عليهم ، ورأى ذلك الرجل والجرة على كتفه ، ونظر الى ثيابه الرثة وقال : من أنت وما حاجتك ؟ فأنشد :

ولما رأيت القوم شدّوا رحالهم الى بحرك الطامي ، أتيت بجرتي !

فقال : املؤوا له جرته ذهباً وفضه ! فحسده بعض الأشخاص الحاضرين وقال : هذا فقير مجنون لا يعرف قيمة هذا المال ، وربما أتلفه وضيّعه ! فقال الامير : هو ماله يفعل به كيف شاء ! فملئت له . وخرج الى الباب ففرق الجميع ، وبلغ الامير ذلك ، فاستدعاه فعاتبه على ذلك ، فقال :

يجود علينا الخيّرون بمالهم ونحن بمال الخيّرين نجود !

فأعجبه ذلك ، وأمر أن تملأ له عشر مرات ، وقال : الحسنة بعشر أمثالها !!

٢٤ ١٧١- شـالاتي هو من يبيـع الشـال ، المعـروف بالغراماش والسليمي والخراساني وما شاكله من الشال الفاخر .

وهذه الصنعة قديماً كانت رائجة جداً في شامنا ، نظراً لكثرة الرغبة في الشال . لكن في هذا الزمن قل راغبوه ، سيما وقد قلدوه بالشال المعروف بالشام « شغل الشام » وهو بالنسبة للشال القديم بخس جداً ، والذراع على حسب طيبته يباع من الستين قرشاً الى المئة . والغالب من التجار يتجرون به . وهي حرفة شريفة ، والله أعلم .

١٧٢- شاوي

هذه الحرفة من الفلاحة . وصاحبها يقال له : شاوي . فالغالب من قرى دمشق ماؤها من نهر دمشق المعروف بـ « نهر بردى » ، ثم ينقسم ذلك النهر قبل دخوله دمشق أقساماً : فالقسم الأول يتفرق من قرية « الهامة » يعرف بـ « نهر يزيد » ، ثم ينقسم من قرية « دمّر » قسم يعرف بـ « قناة المزة » ، ثم هو بعد قرية دمر أقسام : منها « نهر الداراني » ثم « نهر ثورى » ، وفي الربوة « نهر قنوات » و « بانياس » ، وما يبقى يعرف ببردى أيضاً . ثم تفيض عليه مجاري متعددة داخل البلدة وينقسم في أرض الغوطة لاقسام متعددة : منها « نهر العقرباني » و « الداعياني » و « المليحي » و « الزبديني » و « الزابون » و « البيلاني » و « الملك » و «الشيداني» و « الابيض » . وكل من تلك الانهار يسقي جهة من ضواحي دمشق . اذ قسم قديماً لكل نهر جملة من القرى ، فلكل قرية أيام مخصوصة ، وتعرف بـ « العدّان » . وكل قرية — لأجل محافظة عدانها — تعيّن جملة أشخاص ، يقال لأحدهم : « شاوي » وجمعهم « شوى » ، بأجرة معلومة سنوياً لاجل أن يحافظوا على الماء بالايام المختصة بتلك القرية ويسوقه لها ، ويمنعوا كل من أراد أخذ شيء من ذلك الماء ، حتى اذا

انتهى حق تلك القرية يستلم من له الدور ، وهلمّ جرّاً ... وهذا حقيقة الشاوي .

وفي اصطلاح أهل دمشق : هو المحافظ على طوالـع الماء ، وسير الدمن ، وهو « القنواتي » الآتي في حرف القاف .

٢٥ وبالجملة فهي حرفة يتعيش / منها ، والله المسبب لا رب غيره .

١٧٣- شحّاذ

هذه الحرفة لا يضاهيها في الدناءة حرفة أبداً ! وهي بذل ماليس لـه عوض وهو الحياء ، ماء الوجـه ، لنيل ماله عوض ، وهو الرزق المضمون من الرزاق سبحانه القوي المتين ! وسمّاها الحريري رحمه الله تعالى « بالحرفة الساسانية » ، ولا يخفى مافي تركيب حروفها من « ساء ساء النية » ، وقيامها بسبعة أشياء :

١ ــ الشرك الخفي بتعويله على من يغضب لسؤاله ، والإعراض عمّن لا يتبرم بالحاح الملحين ، كما قيل :

الله يغضب إن تركت سؤاله — وبنيُّ آدم حين يُسأل يغضب !

٢ ــ عدم الحياء ، قال الشاعر :

اذا قل مـاء الوجه قل حياؤه — فلا خير في وجه اذا قل ماؤه !

٣ ــ عدم التوكل على الله تعالى ، لقول النبي صلى الله عليه وسلم[1] « لو توكلتم على الله حق توكلكم ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً » .

٤ ــ والأمل بغير الله تعالى ، وهو الكريم الذي لا يبخل !

---

(١) رواه احمد والطيالسي في مسنديهما ، والترمذي وابن ماجة عن عمر مرفوعا . وصححه ابن خزيمة ، وابن حبان والحاكم . وحسنه الترمذي .

لا تؤمّل من سواه أملاً   انما يسقيك من قد زرعك !

٥ ــ والتذلل لغير الله تعالى ،

٦ ــ والوقاحة ،

٧ ــ واظهار الفاقة .

ولما كانت هذه المهنة مكسباً من دون رأس مال ، فقد كثر أهلها في دمشق وغيرها لحد يتضجّر منه !

وصاحب هذه الحرفة يدور في الأسواق والأزقة من الصباح الى المساء ، ويطلب من المارة وأصحاب الحوانيت والبيوت صدقةً . فما يعطى من المأكول يضعه وحده ، وما يعطى من الدراهم أيضاً وحدها . حتى اذا طوى نهاره فيأخذ من المأكول كفايته ، وما يبقى يبيعه بالدراهم. والغالب من الشحّاذين على هذه الحالة ، وهذا ديدنهم ، حتى اذا هلك أحدهم ــ لا رده الله ــ يخلف مبلغاً كان يصيّره في حياته تاجراً كريماً !

وقد تقدم في حرفة « السائل » بعض كلام بهذا الموضوع .

٢٦ وفي سنة ثلاثة / وعشرين هلك أحد الشحاذين في محلّة الصالحية، وكان دائماً يشكو ألماً ، ويضطجع على قارعة الطريق يطلب من الناس ، فعبّ دفنه والتفتيش على محل بيته ، وجدوا عنده صندوقاً من صناديق الكاز مملوءاً من نوع النحاسات فقط ، بلغ وزنه ثمانين رطلاً مما تنوف قيمتها على عشرين الف قرش ! هذا ، ما عدا عن أصناف العملة الفضية والذهبية ! أما كان هذا المبلغ يجعله تاجراً موقراً ؟ ولكنهم طابت لهم المعيشة بهذه الحرفة التعيسة ! كما قيل لجحا : لم اشتغلت بكل الحرف يوماً يوماً ، وبحرفة الشحاذة ثلاثة أيام ؟ فأجاب : ان هذه الحرفة : أول شيء كسب من دون رأس مال ، ثانياً : لاتحتاج لمشقة وعناء ، ثالثاً : من

لم يعطني يدعو لي بقوله : الله يعطيك ، الله يكن لك ، الله يحسن إليك..!
وهكذا ، فما أحسن هذه الحرفة ! ولمَ لا أشتغل بها أكثر من جميع الحرف ..؟! فقاتل الله أمثاله ، وقلل أشكاله .. !

١٧٤- شربـاتي
هو صانع الشربات . والشربة : إناء للماء معروف بدمشق ، يصنـع من التراب .

فأصحاب هذه الحرفة يأخذون التراب ـ الذي هو للسواد أقرب ـ فيدقونه ، وينخلونه ، وغبّ ذلك يخمرونه بالماء ، حتى اذا بلغ حده من التخمّر يعملون منه الشربات بواسطة قوالب معدة لذلك ، ثم يشوونها في فرن لها ، ويعرضونها لدخان ورق الاشجار الذي يشعلونه بفرنهـا حتى تسودّ ويحتدم لونها ، ثم اذا يبست تباع للسمانة والبقالة ، وتارة يبيعها أصحابها في الاسواق في بعض الجهات .

وهذه الصنعة ، أهلها من محلة « الصالحية » من دمشق ، ومحـل عملهم هناك أيضاً ، وتعرف بـ « الفاخورة » .

وهي حرفة رائجة جداً ، حيث الغالب من اهالي دمشق يرغبون في وضع ماء الشرب في تلك الشربات غبّ غسلها وتنظيفها ، فانها مبرِّدة للماء في زمن الصيف .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها محترفوها ، والله المسبب لا رب غيره.

١٧٥- شربتجي
هذه الحرفة تنقسم الى قسمين : قسم صاحب حانوت ، والحانوت : هـو الدكان لغة ، وفي اصطلاح أهـل

دمشق : الحانوت هو الأرض الكبيرة المعدة للزراعة • وقسم يدور في الاسواق •

فصاحب الدكان مستعد في دكانه للمشروبات المباحة — كشراب الورد ، والتوت، والتمرهندي، والليموناضه المركبة من السكر والليمون، والبرتقان — في أواني الزجاج مع وجود الثلج • ودكانه في غاية النظافة مزينة بأصناف الاواني الزجاجية ، مع وجود كاسات من البلور اللطيف، والكراسي لاجل الجلوس عليها لتناول المشروبات •

وهذه الحرفة تروج في أيام الصيف وشدة الحر ، فتتوارد الناس لدكان الشربتجي ليلاً ونهاراً يرتشفون من تلك الكؤوس المرطبة •

وأما الذي يدور : فهو من ليس له حانوت ، وهو الذي يصطنع في داره نوعاً من تلك المشروبات ويضعه في « حق » من بلور لطيف المنظر ، ويضيف اليه الثلج ، ويحمله تحت إبطه بواسطة « كمر » من جلد يحزمه بوسطه على كتفه ، ويأخذ بيده كمية من الكاسات ، ويدور في الاسواق والأزقة يبيع المارة •

وهي صنعة يتعيش منها أناس كثيرون ، لاسيما في زمن الصيف ، تنتج ربحاً قليلاً ، حتى في زمن الشتاء منهم من يدور ولا يترك مهنته ، عوضاً عن تلك المشروبات المنوه عنها في زمن الصيف ، يجعلها في الشتاء من الجلاب ، والجلاّب قد تقدم الكلام عليه بحرفة « الجلبجي » ، واذا كان متقناً كان شراباً حسناً •

فائدة مهمة لاصحاب هذه الحرفة

وهي حفظ عصير الليمون الحامض أو البرتقال لغير أوانه

البرتقال : يؤخذ البرتقال الكبير الناضج جيداً ويدلك على سطح مستو حتى يزداد عصيره ، ثم تقطع كل برتقالة قطعتين ، ويعصر في مصفاة حتى ينزل العصير من المصفاة الى الوعاء الذي تحتها نقياً ، ويضاف الى كل اوقية من العصير اوقية من سكر / القوالب مكسراً كسراً صغيرة ، ويغطى ويترك على ما هو عليه ليلة كاملة . وفي الصباح ينزع عن وجهه كل ما يطفو عليه من الزبد ، ويصب الباقي في قناني ناشفة جيداً ، بعدما يضع في كل قنينة منها ملءملعقة صغيرة من أحسن أنواع « البرندي » الأبيض ثم تسدّ كل قنينة بفلينة سداً محكماً ، ويربط على كل سدادة جلدة بيضاء رقيقة ، وتوضع القناني في محل جاف .

٢٨

فهذا « المُرَبّى » يغني عن البرتقال حينما تمس الحاجة اليـه ولا يتيسر استحضاره .

الليمون الحامض : يؤخذ أحسن الليمون وأجده ، ويحـذر المضروب المتهري لانه يتلف البقية ولو كانت الضربة خفيفة جداً ، ثم يدلك على بلاطة أو نحوها حتى يزيد عصره ، ويعصر في مرشحة ، ويضاف الى كل اثني عشرة أوقية منه اوقية واحدة من زبدة الطرطير ، وتبقى ثلاثة أيام وهو يحرك كثيراً ، ثم يركب قطعة من « المصلينا » في منخل ناعم ويصب العصير فيـه من خلال المصلينا نقيـاً ، ثم يوضع في قنـاني ويصب على وجهه قليل من أجود أنواع زيت الزيتون ، وتسد القناني سداً جيداً محكماً بفلينة ، وتختم بالشمع الاحمر ونحوه . وعندما تفتح

القنينة ينبغي أن لا تهتز حتى يصب الزيت عن وجه العصير الذي فيها • وبهذا القدر كفاية ، والله أعلم •

١٧٦- شــدّاد

الشدّاد ــ عند أهل الفلاحة ــ يطلق على رجل يملك أرضاً صغيرةً كانت أو كبـيرة ، ويقال لهـا في دمشق « ضيعة » أو « حانوت » •

وصاحب هذه الحرفة يشغل ذلك الحانوت على حسابه ، وهو أن يضع له مـا يلزم من اصحـاب الحرف كـ « الوقّاف » و « المرّابع » و « الأجير » و « الناطور » وخلافهم ••• بأجرة معلومة ، وكلّ منهم مذكور في بابه • ويضع قيمة ما يحتاجه ذلك الحانوت من المصارفات : كثمن البقر والبذر ، وما يحتاج من الاجورات لحصد زرعه عند استوائه الى الحصّادين ، ورجادة الى الرجّادين ، ودراسة الدراسين ، وزبارة كرومه وعزاقه اذا كان موجوداً به كروم العنب ؛ وكل من أصحاب هذه / الحرف أيضاً مذكور في محله • ٢٩

حتى اذا خرج جميع المحصولات لا يشاركه بها أحد سوى « عشر الميرى » يؤخذ منه في المئة ثلاثة عشر الا ربعاً من الدراهم والحبوب • وجميع ما يحصله من الواردات مع مبلغ معلوم أيضاً يدفعه الى الحكومة، ويقال له عندهم « ويركو » عن قيمة ذلك الحانوت الجاري بملكه ، عن كل ألف غرش أربعة غروش ، حتى اذا بلغ مثلاً قيمة حانوت مائة الف يدفع أربعمائة قرش •

وهذه حرفة شريفة في بلدتنا ، ولا يتعاطاها الا الوجوه •

والبعض من الأغنياء ــ ممن ليس لهم ملك ــ يستأجرون من أصحاب

الملك ، ويطلق عليه اسم « مستأجر » ، وسيأتي في حرف الميم بيانه .

وفي الغالب ــ اذا كان صاحب الشغل يباشر عمله بيده ــ فتنتج هذه الحرفة ربحاً وافراً . ووجدنا ممن أثرى كثيراً من هذه الحرفة ، وكان في أول أمره لا يملك قطميراً ! فسبحان المعطي الوهاب !

١٧٧- شعّــار — هو اسم لمن يضـع الأخصاص من الشريط ، ويقال لها : « شعرية » تضفر من الشريط على شكل مربع شطرنجي على قدر النافذة المطلوب قياسها ، فتارةً يكون حجمها مستطيلا وتارةً مربعاً ، يستدير بأربعة أطرافها إطار ويسمى « بروازاً » وقد يكون من الخشب وذلك من ضبط النجارة مع الاتقان . وتوضع على النوافذ حرصاً لئلا يصيب البلور ــ الذي بتلك النافذة ــ ما يكسره .

وهذه الصنعة كانت في السابق رائجة جداً لكثرة طلبها ، ولكن الآن قل طلبها لعدم الاعتناء بها ، وقليل من يستعملها .

وهي بالجملة صنعة يتعيش منها من يتعاطاها . والله المسبب لا رب غـــيره .

١٧٨- شعّــال — صاحب هذه الحرفة يستخـدم في الجوامع : كجامع بني أمية الشهير ، وجامع سنـان باشا ، وغـيرهما .

وأكثرهم يستخدم في الدائرة المختصة في البلدة ، وهي « دائرة البلدية» بأجرة معلومة . يسلم / كمية وافرة من القناديل التي تستعمل بزيت الزيتون ، ومن الفوانيس التي تستعمل بزيت الغاز . فعند الصباح يتفقدها

٣٠

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

اللحم — بالكلس ، ويطبق كل جلد نصفين ، ويضع بعضها فوق بعض يومين ، وغب ذلك يغسلها ثانياً ، ويعلقها على « السيبة » — كما تقدم الكلام على ذلك في حرفة الدباغ — ويكشطها بواسطة سكين ، تعرف بـ « سكين الدباغة » ، كما مر .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها من يتعاطاها . والله المسبب لارب غيره .

١٨١- شمّاع

هو صانع الشمع والشمع نوعان :
نوع يعرف بـ « المقاصيري » وهو الأبيض القاصر . ونوع بـ «العسلي»

٣١ وكلا النوعين يصنعان في الشام . والغالب / من الشمع المعروف بـ «من السمك » يأتي من البلاد الغربية . والرغبة فيه أكثر . والذي يصنع في دمشق منه ما يصحبه الحجّاج ، ومنه ما هو مجرد للأعراس .

فان العادة في البلدة ليلة العرس أن يحضر أهل الزوج شمعة لاتقل عن ثلاثة أذرع ، مقصورة ، بيضاء مزيّنة بأصناف النقوش والفاكهة — من : رمّان ، واجاص ، وتفاح ، وغيرها — المعمولة من الشمع ، والملصق ذلك بالشمعة . وهذه على طبقات أصحاب العريس : فمن كان غنياً يأخذ من ذلك الشمع المذكور ، ولا تقل قيمة الشمعة عن الليرتين ، ومن كان حاله متوسطاً أو فقيراً كل منهما على قدر حاله . وأهل القرى جميعها بدمشق لهم عادة بأعراسهم حين يلبسون « العريس » بين العشائين يدورون به حول القرية ، وكل من الحاضرين يعطى بيده شمعة من قبل أصحاب العريس مشعولة ، والنساء أيضاً عند زفّ

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

١٨٣ - شوّار

هذه الحرفة لا تختص بالرجال فقط، بل بالرجال والنساء • وهي حرفة مؤقتة بأيام معلومة ، وهي أيام سقوط ثمر المشمش ، وفرط ثمر الزيتون • فمن كان عنده من هذه الأثمار المذكورة ، أو كان ضامناً من أصحاب الأشجار المنوّه عنها ، فيحضر الشوّارين والشوّارات من النساء ، وذلك لأجل جمع هذه الأثمار الساقطة من أشجارها ، ووضعها في قفة من خوص • فان كان مشمشاً فيؤخذ الى معك « القمردين » ، وسيأتي الكلام عليه عند ذكر حرفة « المعّاك » • وان كان زيتوناً يجمع في عدول ، حتى اذا امتلأت العدول يؤخذ الى معصرة الزيت، وذلك لأجل عصره واخراج الزيت منه•

وبالجملة فهي حرفة يتعيّش منها كثير من الفلاحين •

١٨٤ - شوّاء اللحم

هو من يشوي اللحم في الاسواق داخل دكان أعدّ بها ما يلزم من : طاولة توضع عليها أطباق اللحم ، مع أواني للماء زجاجية تعرف بـ « المدقة » و « الصرّاحية » ، وكاسات بلور للشرب ، مع وجود كراسي للجلوس عليها لتناول الطعام ، مع كافة ما يلزم له من سكاكين محدّدة ، واسياخ لنظم اللحم ، مع وجود « وجاق » مملوء بالنار لشواء اللحم ، وانواع سلطات من لبن ومخلل ، وكذا خبز ، وما أشبه ذلك •

وهذه الحرفة رائجة في دمشق • والغالب ان دكاكين أهل هذه الحرفة توجد في كبار الاسواق عند اجتماع الناس ؛ فيتوارد عليها الغريب الذي ليس له أهل ولا دار في دمشق ، والفلاح ، والبعض من

التجار الذين دورهم بعيدة عن محل اشغالهم ، وذلك لأجل تناول الغداء أو العشاء . فبحسب ما يشتهي الانسان يشوي له صاحب هذه الحرفة: / إما اللحم المعروف بـ « الشقف » فهي قطع صغيرة بقدر « رأس العصفور » وتعرف به أيضاً ، تنظّم بالاسياخ ، والبعض يضع معها قطع بصل . وإمّا اللحم المعروف بـ « الكباب » فهو تقطيع اللحم قطعاً صغيرة جداً أصغر من العدسة ، والبعض يدقّ الجوز أو الصنوبر ويخلطه معه مع البقدونس ، وهو لذيذ للغاية .

٣٣

وهي حرفة رائجة تنتج ربحاً موافقاً . ولقد رؤي من أثرى منها وكان لا يملك شيئاً . ويتعيّش منها أناس كثيرون .

وللصلاح الصفدي :

قلت لمّا شوى أوزاً حبيبي ... واكتسى باللهيب ثوب ثناء
لو يعيش الجزار ، مات غراماً ... في معاني محاسن الشواء

وله أيضاً :

شوى الاوز فأضحت ... في حمرة الخدّ بسطه
فقلت : تشوي اوزاً ... أم كنت تشرب بطه ؟

وللبارزي :

وشواء بديع الحسن يزهى ... بطلعته على كل البرايا
فوا شوقاه للافخاذ منه ... يشمّرها ويقطع لي اللوايا!

١٨٥- شوّا الذرا

هذه الحرفة لا تختص بالرجال فقط، بل بالرجال والنساء . وهي حرفة مؤقتة في أيام الصيف عند وجود الذرة بدمشق .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـــة وانتشارها ، ولرغبـــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـــدم أمة عرف عنها أنهـــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـــالم ، كما يدل على ذلك

١٨٧- شـــيّال هذه الحرفة تطلق على من كان عنده بعض من الجمـال يحمل عليها من اراد الحج في موسمه ، فيشترط مع من يريد الحج مبلغاً من الدراهم معلوماً على ان يقدم له جملاً ليركبه ، والى مشال ما عنده من تجارة أو عفش أو ما أشبه ذلك ، وخدمة تلك الجمال ، وعلفها اثناء الطريق يكون على صاحبها ، والمستأجر يقدم له ما يرغب ان يركب ، اما المحارة ، أو الشبرية ، على حسبه مـع أجرة العكام أيضاً •

وفي موسم الحجّ تروج هذه الحرفة رواجاً زائداً •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها في تلك الموسم كثير من الناس • والله تعالى أعلم •

حرف الصاد

١٨٨ - صائغ هو من يعمل في الذهب والفضة وأصناف المعامل ، ويغيّره من صفة الى صفة على حسب رغبة الطالب .

وصاحب هذه الصنعة مستعد لكافة ما يلزم لصنعته من : مكاوي ، وبوتقة ، ومنفاخ ، وفرشايات ، وما يلزم لأجل لحام الفضة والذهب .

وهذه الصنعة ليست بدنيئة ، ولا يتعاناها في شامنا سوى النصارى في محل مختص بهم ، يطلق عليه اسم « الصاغة » لصيق جامع بني أمية الشهير . فيصنعون من انواع الخواتم الفضية والذهبية مركبة عليها أنواع الفصوص ، حسب رغبة المشتري ؛ ويصيغون الأساور المشكلة ، والملاعق ، وظروف / فناجين القهوة ، وكاسات ، وزنانير ، وحلق ، وأغمدة للسيوف والخناجر ، وجميع ما يحتاجه الانسان من الحلي الفضية والذهبية .

٣٥

وهي صنعة لطيفة جميلة جداً ، وربحها جسيم .

وللصلاح الصفدي :

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

١٩٠- صبّاراتي

بائــع « الصبّــارة » وهو الصبّر — بكسر الموحدة — نوع من أنواع الفاكهة الموجودة بدمشق ، وتعرف بالصبارة ، وتسمى في الكتب القديمة « تين الجبل » . لا ينمو شجرها عندنا إلا في « محلة الصالحية » و « قرية المزّة » لازدياد حرارتهما عن غيرهما . وأضلاعها أعرض من أضلاع « القنبيط » ، وعلى أطرافهـا شوك صغير يكتفي بالهواء عن الماء . تحمل تلك الاضلاع ثمر الصبارة ، وهي كالكرة إلا انها مستطيلة ذات شوك / كثير ، تبلغ في شهر حزيران . ٣٦

فصاحب هذه الحرفة يضمن الصبارة ممن عنده ، وعنــد الصباح يقطفها بواسطة عصاة طويلة ، برأسها مركب حديد معوجّ ، لابساً بيده كفوفاً من جلد خوفاً من شوكها . حتى اذا اكتفى من القطف يغسلهـا بالماء في النهر مراراً ، لأجل أن يضمحلّ شوكها ويلين ، وبذلك يكون ضرره خفيفاً ؛ ويضعها في « فرش » من خشب مصفوفةً بغاية الضبط والاتقان ، ويدخل بها البلدة فيجلس في مجتمعات الناس ، فيشترون منه في العدد على قدر حجم الصبارة : اذا كانت كبيرة الحجم كل واحدة بخمس بــارات ، أو صغيرةً كل خمسة أو ستــة ... وهلمّ جرا . فبحسب اشتهاء المشتري من أي صنف أراد ، يشير الى البائع فيقطع له بسكين ، ويقشر القشرة ، ويخرج اللب ، ويناوله للمشتري ؛ ويتوقى ملامسة الشوك ، وبيده ملقط من حديد ، ويعرف بـ « ملقط الشعرة » ، دائماً ينقي الشوك الذي يدخل بيده من قطعه للمشتري .

والصبارة لذيذة الطعم ، لا يملّ الانسان من أكلها أبداً ، خصوصاً في وقت الصباح وهي باردة .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون عند استوائها . والله تعالى المسبب لا ربّ غيره .

١٩١- صبّاغ

هو من يصبغ القماش على أشكال متعددة :

فمنه ما يعرف بـ « صبّاغ النيل »

الذي يصبغ أصناف الخام بلون أزرق لا غير . وهذا الخام المصبوغ ترعبه كافة أهل القرى على الاطلاق ، وكذا البعض من أهالي دمشق القليل المعيشة أو الصناعية .

ومنه ما يعرف بـ « صبّاغ الملوّن » وهو من يصبغ ألوان الحرير والغزل على أشكال : فمنها الأحمر ، والأصفر ، والكوازي ، والأبيض ، والذهبي ، والبردقاني ، والكحلي ، واللازوردي ... وما شاكلها من الأشكال حسب طلب معلم الحرير . فانه غب ان تخلص شقق الحرير من عند المسدي يؤخذ للصباغ ، فحسب طلب المعلم يصبغها كل شقة بلون .

ومنه ما يعرف بـ « صبّاغ الأسود » فانـه يصبغ شكل الأسود لا غير .

وهي حرفة رائجة بدمشق ، تنتج ربحاً موافقاً ، إلا انها غير شريفة لغير أهلها .

ومما قيل في صبّاغ النيل :

زرقة النيل في يدَيْ مَنْ سباني بقوام يفوق سُمْرَ الرماح
مثل فيروزج السماءِ تبدّى بسَنَا الفجر في عمود الصباح !

ومما قيل في صباغ الملوّن :

انظر لصبــــاغ بليت بحبّــه ، وبهجره ، وبصدّه ، وبعــده !
نقض البنفسج لونــه في كفّــه لما رأى لون الشقيق بخــدّه

وقيل أيضاً في صباغ :

شُغفت بصبّاغ يلوّن قولــه ، ويخلففيوعدي، ويبدياعتذاره
فقلت: ومااالتلوين؟ يوماً، فقاللي: فديتك ! كيف المرء يترك كاره ؟!

١٩٢- صبّـــان

صانع الصابون ، وبائعــه . وهذه الصنعة من الصناعات القديمــة .

قيل : وجدت في « كتب هرمس »،

وقيل : من صناعة « ابقراط وجالينوس » جعله في المركبات ، وغيره في المفردات ، وهو بها أشبه .

وأجوده : المعمول بالزيت الخالص ، والقلي النقي ، والجير الطيب، المحكم الطبخ والتجفيف والقطع على أوضاع مخصوصة .

ومحل عمله يعرف بـ « المصبنة » .

وصنعته : أن يؤخذ من القلي جزء ، ومن الجير نصف جزء ، فيحكم سحقهما ، ويُجعلان في حوض ويصبّ عليهما من الماء قدرهما خمس مرات ، ويحرك قــدر ساعتين ، ويكون للحوض خرق مسدود ، فاذا سكن من التحريك وصَفَا فتح الخرق ، فاذا نزل الماء سده ، ووضع عليهما الماء ، وحرك ، واستبدل هكذا حتى لم يبق في الماء طعم ؛ هذا مع عزل كل ماء على حدة . ثم يؤخذ من الزيت الخالص قدر الماء الأول عشر مرات ، ويجعل على النار ، فاذا أشرب الماء الأخير شيئاً فشيئاً ، ثم الذي قبله ، حتى يكون سقيه بالماء الأول آخراً ، فحينئذ يصير كالعجين، فيغرف ويوضع على الحصير ، حتى اذا جفّ بعض الجفاف فيقطـع

ويبسط على نورة . هذا هو الخالص . ولا حاجة الى تبريده وغسله بالماء البارد أثناء الطبخ .

وبعض من يكون غشاشاً يجعل مع الجير والقلي ملحاً كنصف الجير ، ويمزجه ـ بدل زيت الزيتون الخالص ـ بالأدهان كدهن القرطم وخلافه ، أو بقليل من الزيت المعكر مع كثرة الجير والقلي / وهذا الصنف يعرف في شامنا بـ « البلدي » .

٣٨

وقليل من أهل دمشق من يستعمله ، نظراً لعدم طيبته . بل الأكثر يستعملون الصابون المعروف بـ « النابلسي » وهو يأتي من بلدة نابلس، و « الجعفري » وهو عمل دمشق . ولا يستعمل « البلدي » سوى اهل القرى ، ومن كان فقيراً أو قريب التوسط من أمر المعيشة من أهالي دمشق .

وتارةً يتقنون عمل الصابون « البلدي » ويقرب من « النابلسي » وهذا نادر .

فيبيع الصبّانة الصابون لأصحاب الحوانيت : كالعطّارين ، والسّمانة ، والبقالة ، وما شابههم . وهم يبيعون على الناس .

وهي حرفة ليست بدنيئة ، تنتج ربحاً موافقاً . وكثير من أثرى من هذه الصنعة . وكانت في الزمن السابق رائجة أكثر من هذا الزمن ، وذلك لورود أصناف الصابون بهذا الزمن من البلاد ، ورواجه أكثر من البلدي . والله تعالى مهيىء الأسباب ، لارب غيره .

١٩٣- صحّاف

هو بائع الكتب على أصنافها : خطاً وطبعاً . ولبائعي الكتب بدمشق سوى سوق مخصوص يعرف

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

وصنّاعها كثيرون : فمنهم من يكون عنده رأس مال ، فيصنع لنفسه وعلى حسابه ويبيعه لمن أراد مشتراه .

ومنهم من يصنع بالأجرة لحساب القوافين . وسيأتي بيان ذلك في حرفة القواف .

وبالجملة فهي صنعة غير دنيئة ، تنتج ربحاً متوسطاً . والله تعالى أعلم .

١٩٦- صمّاغ

هي حرفة من حرف الفلاحين . يدور صاحبها في القرى ذات الأشجار والبساتين ، ويلتقط ما خرج على الأشجار من « الصمغ » ، حتى اذا جمع كمية وافرة يأتي بها البلدة ، فيبيعها على العطارين ومن يرغب في شرائها .

وبالجملة فهي حرفة تكسب صاحبها القوت الضروري والله تعالى المسهّل ، لا ربّ سواه .

١٩٧- صناديقي

اسم لمن يعمل صناديق الخشب من خشب الجوز وغيره ، ولمن يصنع مثل « البيريات » و « السكملات » وأمثالها . ويطلق الصناديقي أيضاً على من يشتغل في الصدف — والصدف معلوم — يرصعون به : البيريات ، والخزائن ، والصناديق ، وبراويز المرايا ، والكنبات ، والكراسي ، والسكملات ، وسكماجايات . مع جميع ما يستعمل من الأصناف الخشبية .

فضبّ اتمام تجارتها ، يحفرها الصناديقي بآلة حديدية — وهي الريشة — على مقتضى اتقان الشغل المطلوب . ويوفّق على مقتضى

الحفر صدفة بواسطة مبرد حديد ، و"يغر"ي تلك الحفر ، ويلصق به
٤٠ الصدفة المذكورة ، وهلم" / جر"ا ... حتى اذا تم ذلك المشروع به
يطلون بـ « البرادخ » ـ وهو الكمليكة والسبيرتو ـ ويتركونه ، حتى
اذا جف يقشرون ذلك الطلاء ، ويمسحونه ، فيظهر بغايـة من الاتقان
واللطف والبهجة .

وهذه الحرفة رائجة جداً بشامنا ، وذلك لكثرة طلب الأخشاب
الصدفية من أهالي البلدة ، واغنياء أهل القرى . فان" الغالب من الناس
في هذا الزمن يرغبون في تجهيز العرائس أخذ ما يلزم من تلك الأصناف
الصدفية : كـ « الخزانة » لتعليق الأثواب التي يخشى فسادها من الطي ،
و « البيريات » لوضع الثياب التي تطوى ، و « المرايا الكبار » لوضعها
على البيريات ، مع « السكملة » لوضع ما يلزم عليها ، و « سكماجايه »
لاتمام جهـاز العروس . حيث هذه العوائـد مما لا يستغنى عن ترك
البعض منها .

وفي الغالب يرغبه الأجانب من الافرنج وغيرهم ، فانه يسافرون به
تجارة لكافة البلاد .

وحيث ان هذه الصنعة في غير دمشق قليل جداً من يعلمها ، فلذلك
أصبحت رائجة جداً ، تكسب ربحاً جيداً ، وهي صنعة لطيفة . والله
تعالى أعلم .

١٩٨- صوّال العنب هذه الحرفة من حرف الفلاحـين ،
يتعاطونها اذا دخل عيد الصليب في
النصف من شهر ايلول ، حينمايصلح
العنب أن يصير زبيباً .

فمن كان عنده كرم عنب ، أو كان ضمّان عنب ، فيستأجر أشخاصاً يقال لهم « صوّالين » بأجرة معلومة •

فغبّ قطع العنب يضعونه في « مصول » كبير خشب كالمعجن ، ويصولونه في « رائق ماء القلي » و « الزيت » مدةً جزئية ، ثم يخرجونه من ذلك المصول ، وينشرونه على أرض ممهدة ، فينقون منه العيدان حتى تبقى الزبيبة فقط لا غير ، وينزل به صاحبه الى الشام يبيعه •

وهي حرفة يتعيش بها أناس كثيرون / من الفلاحين في ذلك الوقت والله المهيء والمسبب • ٤١

١٩٩- صوجي

الصوجي : كلمة تركية تعريبها «بائع الماء » حيث ان التعارف في الغالب بدمشق عن بائع الماء بـ «الصوجي» ذكرناه هنا على ما هو متعارف عليه •

وصاحب هذه الحرفة فقير جداً ، لا يقدر على قليل رأس مال يحترف به ، فيأتي بـ « جرّة من فخار » أو « سمر » ، والسمر هو مصنوع من الجلد ، يملأه من الماء المستطاب الرائق في البلدة ، ويحمل معه«طاسات» للصب بها ، ويدور في الشوارع يسقي من أراد الشرب ، وكل من شرب منه يعطيه ما تسمح به نفسه ، فيتعيّش من ذلك الكسب الجزئي ، ويصون نفسه من حرفة « الشحاذة » الدنيّة •

وحصول الكسب بأي حرفة حرفة كانت ، أو صنعة ، لا بأس به ، ولو تحصل على قليل كسب ــ كحرفة بائع الماء ـــ فهي عند الله والناس أفضل وأحسن من البطالة وبذل ماء الوجه للسؤال لطلب العطاء ! فقد جاء في

تفسير قوله تعالى « وعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ [١] » أي : دروع من الحديد . وذلك ان داود ــ عليه الصلاة والسلام ــ كان يدور في الصحاري ، فاذا رأى من لايعرف تحدث معه في أمر داود ، فاذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه . فسمع يوماً من يقول : اني لا أجد في داود عيباً الا انه يأكل من غير كسبه ! فعند ذلك صلّى داود ــ عليه الصلاة والسلام ــ في محرابه ، وتضرّع بين يدي الله تعالى ، وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته ، فعلّمه الله تعالى صنعة الحديد ، وجعله في يده كالشمع ، فاحترفها ، واستعان بها على أمره ، وصار يحكم منها الدروع .

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب العبد المحترف ، ويبغض العبد الصحيح الفارغ [٢] » .

وقال عليه الصلاة والسلام ــ لما سأل رجل رجلاً شيئاً وهو يجد قوت يومه ــ : « وليس عند الله احب من / عبد يأكل من كسب يده ، إن الله يبغض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة [٣] » . ٤٢

٢٠٠- صوفاناتي

بائع الصوفان . و « الصوفان » مشهور يأتي به التجار من البلاد الاجنبية . فالبعض من الأولاد الاسرائيليين يحملون صندوقاً مستطيلاً من خشب بطول ذراع ونصف وبعرض ذراع ، غطاؤه من بلور يعرف بـ « الجام » يملؤونه من ذلك الصوفان ، وفي جانبي الصندوق موجود حلق من حديد مربوط بها

---

(١) ٢١ ــ سورة الانبياء ــ ٨٠.

(٢) رواه الطبراني والبيهقي ، والحكيم الترمذي عن ابن عمر .

(٣) رواه احمد وابن المبارك والبيهقي وابن شيبة عن ابن مسعود .

« قشاط » من حديد ، يعلقها الشخص في رقبته ، ويسند ذلك الصندوق على أعلا بطنه ، ويدور في الأسواق ينادي على الصوفان .

فالغالب من الفلاحين يشترون من الصوفان ، ويرغبونه أكثر من الكبريت ، وذلك أولاً لرخصه ، وثانياً لعدم انطفائه في البريّة عند الاحتياج اليه ، خصوصاً اذا كان موجوداً هواء .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها محترفوها . والله أعلم .

٢٠١ - صوّاف

هو الذي يتجر بالصوف . فمنهم من يرسل أناساً مخصوصين بأجرة معلومة من قبله ، في زمن الربيع ، حين قص الغنم بجهة مساكن العربان ، فيشترون له الصوف بـ « الجزّات » . و « الجزة » عبارة عن صوف نعجة واحدة . وثمنها على مقتضى رواجه وكساده ، وطلبه وعدمه ؛ فتارةً يبلغ ثمنها اثنى عشر غرشاً ، وذلك اذا كانت مرغوبة جداً ، وتارة تبلغ سبعة غروش . والجزة يبلغ وزنها قبل الغسل من العشرة أواق الى الرطل ، وغبّ غسلها تبلغ من خمسة أواق الى النصف رطل ؛ و « الرطل الشامي » ثمانمائة درهم .

فيشتري التجار المقادير الوافرة ، ويأتون به فيغسلونه وينظفونه ، ويرسلونه الى البلاد الاجنبية ، وذلك لشدة طلبه ، يعملون منه أصناف الاثواب الصوفية : كالقماشات ، والاجواخ ، والقمصان واللباسات ـ المعروفة بالفانيلة ـ والجرابات ، وغيرها .

ومنهم من يتجر بالصوف العتيق أو القليل / من الجديد يشتريه من القرى ، ويبيعه في سوق به يعرف بدمشق بـ « سوق الصوف » على من أراد شراءه ، يستعملونه حشواً الى الفرش واللحف .

٤٣

ومنهم من يعطيه للغزّالة تغزله فيعملون من الجرابات المعروفة بـ « شغل الشام » ، وهي امتن من الذي تأتي به من غيرها ، يلبس منه كثير من أهالي دمشق ، وجرابات أيضاً تعرف بـ « الكرادية » يصنعها كثير من الاكراد في الصالحية ، ويصفونها في « سوق العصرونية » على قارعة الطريق ، وهي متينة جداً الا انها غليظة المنظر ، يلبسها الفقراء والبعض من المتوسطين وأهل القرى عامة .

ويعملون منه أيضاً العبي المعروفة بـ « المدقّقة » .

وبالجملة فحرفة الصواف حرفة شريفة وتجارة رائجة . وكثير أثرى منها وتحسنت أحواله . والله تعالى أعلم .

٢٠٢ - صيّـاد

هو من يحترف بالصيد . هذه الحرفة تنقسم الى قسمين : منها صياد السمك، ومنها صياد الطير والوحش .

فصياد السمك يذهب بشبكته الى الانهار الكثيرة ــ كنهر بردى وثورى وقنوات وغيرها من أنهر دمشق ــ ويصطاد من السمك . وما قدر له يأتي به البلدة فيبيعه على من أراد شراءه ، فيتعيش من ثمنه .

وصياد الوحش والطير أيضاً يذهب الى البرية ببندقيته فيصطاد ما يصادف في طريقه من طائر أو وحش ، ويأتي به الى البلدة فيبيعه على أصحاب « اللوكندات » وعلى طائفة المسيحيين فقط .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها كل من القسمين المشروحين . ولكن صيد الوحش والطير يغلب على كثير من المترفهين ممن ليس له شغل يشغله ، وذلك لأجل رياضة النفس والتنقل من محل الى محل .

وقد أباح الله تعالى الصيد حيث قال جلّ جلاله : « وَإِذَا حَلَلْتُمْ

فَٱصْطَادُوا[1] » وقال عزّ من قائل : « وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ[2] » .

وفي الحديث الصحيح عن عدي بن حاتم قال : سألت النبي صلى الله / عليه وسلم فقلت : إنا قوم نصيد بهذه الكلاب ، فقال : « اذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكُلْ مِمّا امسكن عليك وإن قتلن ، إلا أن يأكل الكلب ، فان أكل فلا تأكل ، فاني أخاف أن يكون أمسك على نفسه ، وان خالطها كلاب غيرها فلا تأكل فانما سميت على كلبك ولم تسمّ على غيره » .

٤٤

وفي الترمذي عن عدي بن حاتم قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن صيد البازي ، فقال : « ما أمسك عليك فكُلْ » .

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : قلت : إني أرمي بالمعراض فأصيب ، فقال عليه السلام : « اذا رميت بالمعراض فخَرقَ فَكُلْهُ ، وإن أصابه بعرضه فلا تأكله » . في الشرح : ان المعراض سهم كبير لا ريش له ، والعصا في معناه .

وفي صحيح مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا رميت سهمك فاذكر اسم الله عليه فان وجدته قد قتل فكُلْ ، إلا ان تجده قد وقع في ماء فانك لا تدري الماء قتله أم سهمك » .

وكانت الملوك الاول والامراء والوجهاء يعتنون بالصيد ، ويربون الكلاب ويرفهونها مع أصناف الطيور الجارحة ــ كالصقر والبازي والعقاب والشاهين ــ وذلك لأجل صيد الوحش مع الطير ، كالملك بهرام

---

(١) ٥ / المائدة / ٢ . (٢) ٥ / المائدة / ٤

جور ، والأشرف ، وقطز ، وأمثالهم من الملوك الذين كانوا لا يفترون عن الصيد أبداً .

وبالحقيقة ان الصيد نزهة الملوك وقناعة الصعلوك .

أما الملوك : فانها تتدرب على الفروسية ، وتتمرن على الصبر في السفر والجوع والعطش ، وتقوى على شدة التعب ، وتسير بحلاوة الظفر . ومن كانت قوته العصبية خاملة تحركت ، أو ناقصة تكملت . فان أرباب السياسة يحتاجون الى تعهد القوة العصبية حتى يستقيم الامر .

وأما الصعلوك : فيخرج من منزله وقد ترك أطفاله جياعاً يتصارخون الى الصحراء بكلبه ، فيرجع وقد حصل لهم ما يقوتهم . ولعله يحصل أكثر من ذلك وفيه من النشاط ، والانبساط ، وحسن التصرف في ركوب الخيل ، ورياضة البدن على التعب مالا يخفى ! ولا ينبغي ان يواظب على ذلك / ، ولا يكثر منه ، ولا يفسد بسببه الزرع ، اذ كثيراً ما يطرأ عليه السقوط والجراح وغيرهما . والتوسط في ذلك خير من الافراط . ٤٥

ومما قيل في مليح صياد :

ومولع بفخاخ يمدّها وشراك
قالت له العين : ماذا تصيد ؟ قال : كراكي !

وقيل أيضاً في مليح رامي بندق :

وأهيف القدّ ذي دلال طائر قلبي عليه واجب
كالشمس في كفه هلال يرمي الى البدر بالكواكب

ومما قيل في وصف باز الصيد :

وباز غريب الشكل قد فاق منظراً بحمرته قد فاق أبناء جنسه
له حدق كالنار ترمي لهيبها على جسمه ، فاحمرّ منها بلمسه
وما أحرقته النار لكن تحرست بهاءٌ بمسود على ثوب لبسه

له الفخر في إطلاقه ودعـائه ولا غرو أن يأتي الفَخّار بنفسه
يطير فيصطـاد الطيور وينثني فوا عجباً من عوده نحو حبسـه
فآنس بالاحسان،فالجود لم يزل بـه يسترقّ الحرّ كلّ بأنسه أ

٢٠٣- صيـدلاني الصيدلاني هو بائع أصناف الأجزاء الاصلية التي تدخل في العلاجات : كالحشـائش ، والزهورات ، والبذورات ، وما أشبه ذلك •

وهذه الحرفة سابقاً — قبل وجود « الأجزاجي » المذكورة في حرف الألف — كانت في غـاية الرواج ؛ ولكن الآن نظراً لوجود تلك الصنعة اللطيفة ، واستحضار صاحبها الأجزاء الخلاصية السهلة الاستعمال ، مع تركيبها اللطيف ، أصبحت صنعة الصيدلاني في غاية الكساد •

ولعمري إن ما بين الصنعتين لَبَوْناً عظيماً ! فأين ما كان يعانيـه المريض في استعمال العلاجات الأصلية — كمغلي خشب الكينا والراوند والخيار شنبر والختيت وزيت الخروع وأمثالهـا — مما تأبى النفس مشاهدته فضلاً عن استعماله ، من لطافة صنعـة « البرشان » لما كان كريهاً من العلاج أو مرّاً فيضعونه به ويلحمونه ، وكذا الأشياء / المائعة — كزيت الخروع الموضوع في « الكبسونة » يأخذه المريض بغايـة القبول من دون كراهة ولا انزعاج ، مع وجود الحبوبات اللطيفة الملبسة بالسكر ، المسهلة الاستعمال ، القليلة الكمية ، الكثيرة الفعل ؛ وإن يكن في القيمة تفاوت كلي ، ولكن في الراحة أعظم ! ٤٦

وفي بلدتنا أصبح من يتعاطى حرفة الصيدلاني قيلاً جداً •

وهي بالجملة حرفة يتعيش منها • والله تعالى أعلم •

٢٠٤- صيرفي ويقال له : « صرّاف » ، وهو من يبدّل أصناف العملة حسب رغبة الطالب . وهذه الحرفة لايتعاطاها في بلدتنا الا اليهود ، ويقال لهم : « الصيارف » ، يجلسون في دكاكينهم وكل منهم مستعد لكمية وافرة من أصناف العملة الفضية والذهبية والنحاسية ، فيأتي اليه من يرغب في تبديل العملة الذهبية بالفضية أو بالعكس أو بالنحاسية ، فيعطيه مطلوبه ، ويأخذ منه تقريباً في المائة عشرين بارة أو ثلاثين حسب الاتفاق بينهما .

وهذه الحرفة رائجة ، نظراً لربحها بدون كبير رأس مال ، ولسلامة تجارتها من الخسارة . ويربحون تارةً من فرق العملة .

وهي بالجملة حرفة يتعيش منها كثير من اليهود الذين يتعاطونها .

ومما يحتاج اليه الصراف معرفة النقد ، و « النقد » : تمييز رديء الدراهم والدنانير من جيدها .

ولبعض العارفين من مشايخ الصوفية يخاطب بعض تلامذته بقوله :

ألَمْ تعلم بأني صيرفيٌّ أحكّ الاصدقاء على محكّي
فمنهم من يقابلني بزَيف فأنفي زيفه منه بسبكي
ومنهم بهرج لا خير فيه فأبعده وأهمله بتَركي
وأنت وجدتك الذهب المصفى بتزكيتي ومثلي من يزكّي !

وقيل في صيرفي :

وصيرفيٌّ رآني عنه منصرفاً فقلت : أسمع من بالفضل يعرفني
لو لم أكن عنده نقداً بلا زغل ما كان مع علمه بالنقد يصرفني!

وقيل في مليح صيرفي :

يا سائلاً عن حالتي ! ما حال مَن أمسى بعيد الدار فاقدَ إلفهِ ٤٧
لي صيرفيّ لا يرق لحالتي قد متُّ من جور الزمان وصرفه !

وقيل أيضاً :

لي صيرفي لم يلقَ بالا بغضاء إلا من أحبّه
قيراط عنبر خاله لم يُبقِ مني وزن حبّة !

ومنه قول بعض الفضلاء يهجو بعض الناس بقوله :

مضى في الصرف نقد العمر منه وما عرف النحاس من الرصاص !

حرف الضاد

٢٠٥- ضرضرمجي لفظة تركية معناها « بائع الحليب المحلى المجمّد بالثلج » . وهذه الصنعة تروج في زمن الصيف وشدة الحر . فيباشر أصحابها بعملها من أول دخول فصل الربيع الى منتصف فصل الخريف ، فيزخرفون دكاكينهم بأصناف القطع والاواني الجميلة المنظر ، وينوعون « الضرضرمة » : يعملونها بالحليب والسحلب ، وعند تقديمها للمشتري يضعون عليها القشطة مع أصناف اللباب مثل لب اللوز والفستق المقشور .

ونوع يعملونها بالليمون والبرتقال : يضعون عليها أيضاً ما تقدم .

وكل من الانواع ، سواء كان بالحليب عند طبخه على النار وحلّ السكر والسحلب به حتى يختر يرفع ويصب بـ « الطلنبه » . والنوع الذي بالليمون أو البرتقال أيضاً غبّ حل السكر بالماء يضاف اليه مقدار كاف من عصير الليمون الحامض ، أو عصير البرتقال مع ماء الزهر ووضعه بـ « الطلنبة » : وهي من النحاس الابيض مستديرة بطول ما يرغب الصانع ، ثم يغطيها بغطاء محكم ، وعلى الغطاء مسكة لليد يضعها ،

ويضع تلك « الطلنبة » ضمن علبة خشبية كبيرة تزيد عن تلك الطلنبة ثخناً وارتفاعاً ، ثم يملأ من الثلج ما بقى فارغاً في العلبة بجوانب الطلنبة وبأسفلها أيضاً ، وكلما وضع شيء من الثلج يوضع فوقه من الملح ، حتى اذا امتلأت جوانبها الفارغة غطى تلك العلبة بغطاء / مثقوب من وسطه على قدر الطلنبة ، ثم يأخذ بيده مساكة غطاء الطلنبة يديرها ، ولا تمضي برهة جزئية على ذلك حتى تأخذ بالجمود ، فيرفع عن الطلنبة الغطاء ، ويحرك مافي ضمنها ، ويمزجه ببعضه ، ثم يعود الى تدويرها حتى تجمد وتصير قطعة واحدة ، فحينئذ يطيب أكلها ، فيباشر في بيعها .

٤٨

وهذه الصنعة في زمن الصيف ـ كما أشرنا ـ تروج رواجاً زائداً فتتوارد النـــاس أفواجاً أفواجاً لـــدكان الضرضرمجي يأكلون حسبما يشتهون من أصنافها ، ويتلذذون بطعمها اللطيف ، ويسرحون النظر بما انطوى عليه الغالب من الدكاكين من الزخرفة والمفروشات .

وبعض أصحاب هذه الحرفة يعملونها بطلنبات صغيرة تأخذ مقداراً يمكن للانسان حمله . فعب استوائها يحملها ويدور بها في الاسواق والازقة وعلى البيوت ومكاتب الاولاد ، ويبيع لمن أراد شراءها .

وينوف ما يباع بدمشق من أصناف الضرضرمة على الخمسين قنطاراً فما كان متقنامنها تباع الاوقية ـ وهي ستة وستون درهماً ـ بثلاثين بارة. وما كان غير متقن بعشر وخمس عشرة بارة .

وبالجملة فهي حرفة لطيفة تنتج ربحاً مباركاً من غير كبير رأس مال ؛ يتعيش منها أناس كثيرون . والله تعالى المسبب ، لا رب غيره .

بائع الضفادع • والضفادع شهيرة،

٢٠٦- ضفادعي وهي من الحيوانات التي لا عظام لها، ومنها ماينق ومالا ينق • وتوصف بحدة السمع اذا تركت النقيق وكانت خارج الماء • واذا ارادت أن تنق أدخلت فكّها الاسفل في الماء ، ومتى دخل الماء في فيها لا تنق •

وما أظرف قول بعض الشعراء وقد عوتب على قلة كلامه :

قالت الضفـدع قولاً فسّرتـه الحكماءُ :
في فمي ماء ، وهل يَنـــطق من في فيه ماءٌ ؟!

وقيل أيضاً في ذلك :

ضفادعُ في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حيّة البحر !

والنصارى يستطيبونها ، فمن كان منهم صنعته بيع الضفادع فانه يذهب الى المحلات ذات المياه التي توجد بها الضفادع بكثرة فيلتقط منها ما شاء ، وغب ذبحها يسلخ جلدها ، ويرفع حشوتها ، وينظفها بالماء ، ويضعها في فرش من خشب ، ويبيعها على من أراد شراءها فيشترون منها بثمن وافر يزيد على قيمة لحم الضأن •

وتارةً يبيع معها من السرطان ، فيلتقط منه ويعمل به ما عمل في الضفادع ، ولكنهم لايرغبونه كثيراً كرغبة الضفادع •

وبالجملة فهذه الحرفة يتعيش منها من يتعاناها ، والله أعلم •

٢٠٧- ضمّـان الضمان : من يضمن أصناف الفاكهة وثمر الزيتون من أصحاب الفلاحـة والأشجار ، وذلك عند ظهور الثمار، يضمنها الضمان من أصحابها بمبلغ يتفق عليه الطرفان • والغالب ـــ اذا

كان ذلك الثمر كثيراً ــ ان يجتمع الناس كثيرون من أصحاب هذه الحرفة ــ وهم الضمانــة ــ ويتزايدون بذلك الثمر ، حتى اذا تم المــزاد على شخص وبارك له الجميع يلزمه الضمان بذلك المبلغ الذي وقع عليه مزاده، فحينئذ يدفع ذلك المبلغ الذي لزمه لصاحب الثمر ، ويستلمه . وعنــد استوائه يباشر في جمعه .

وهي حرفة ليست بدنيئة ، تنتج ربحاً وافراً . وكثير ممن يتعانى هذه الحرفة أصبح بنعمة جزيلة . والبعض يحصل له خسارة عظيمــة ربما كان سببها عمله السيء ، وذلك انه حينما يجتمع أصحاب هذه الحرفة لاجل المزايدة يتشاركون جميعهم باشارة من الذي يضمن ، حيث يتفق معهم على مبلغ يدفعه لهم سراً ، بشرط أن يزايدوه لدرجة النهاية ، ولكنهم يجعلون ذلك ظاهراً على أعين أصحاب الرزق ، ويتزايدون مزيداً جزئياً لا يبلغ ثلثي قيمة الثمر ، ويبارك لذلك الضمان الموجودون ــ الجــاري بينهم الشرط الذي ذكرناه ــ وخصوصاً اذا كان صاحب الرزق عنــده نوع من الغباوة فيضمن لمن لزمه المزاد بذلك / المبلغ وذلك الضمان . ٥٠ فيتأمل أن يربح ربحاً عظيماً فتعود عليه بالخسارة ، ولا يكاد يحصل على رأس ماله . ونعوذ بالله من الغش ، فقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منّا [١] » ، والله أعلم .

---

(١) رواه مسلم عن ابي هريرة .

حرف الطاء

٢٠٨ - طابع الكتب

هو من يطبع الكتب . وقلّ من يعتني بهذه الحرفة بدمشق . والقائم بهـا أكثر ما يطبع ما يلزم التجـار من : « بوالس » ، ودفاتر ، واعلانات ، مع اوراق الزيارات المعروفة بالـ« كارت فيزيت » ، بواسطة المطبعة الحجرية .

ومطبعة الحكومة السنية تطبع جريدتي : « سورية » و « الشام » مع جميع ما يلزم للحكومة من المطبوعات .

فهي حرفة لطيفة ، يتعيش بها من يتعاناها . والله المسبب ، لا رب غيره .

٢٠٩ - طبّـاخ

الطباخ هو صانع الطبخ ، وباصطلاح أهل دمشق هو العشي ، وسيـأتي الكلام عليه بحرفة « العشي » .

ومما قيل فيه :

وطباخ سبى الألبـاب منـا | بعين قـد حكت عين المهـاةِ
لها غزل لطيف بات أحـلا | لروح الصبّ من غزل البناتِ !

ولابن الوردي :

هويت طباخاً لـه نصبة نيرانهـا للقلب جنات
يكسر أجفاناً ـ اذا ما رنا ـ لها على الأرواح نصبات !

وله أيضاً :

كلّفي بطبـاخ تنوع حسنه ، ومزاجـه للعاشقين يوافق
لكن مخافي من جفاه ، وكم غـدت منه قلوب في الصدور خوافق

ولابن العفيف :

ربّ طبّـاخ مليح فاتر الطرف غرير
مالكي أصبح لكن شغلوه بالقدور !

٢١٠ ـ طبّـاع هو من يطبع أصناف الالوان عـلى الأقمشة بواسطة قوالب ، / حسبما يختار صاحب القماش . والقوالب ٥١ إما أن تكون من خشب صلب محفورة بالرسم المرغوب ، أو صفـائح نحاسية محفورة أيضاً ، تغط إما بصمغ عربي ، أو محلول النشا . وتطبع على القماش ، وغب جفافه يغمس في اللون المراد .

وهذه الحرفة كانت بدمشق رائجة جـداً . والآن ، نظراً لورود الأقمشة المتنوعة بالنقوش والاشكال من البلاد الاجنبية ، أصبحت هذه الحرفة على غاية من الكساد . ومحترفوها قليلون في دمشق . ولا يرغب في تلك الأقمشة المطبوعة إلا القليل من نساء الفلاحين الباقين على الزي القديم .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها ويحترف من صناعها من يتعاناهـا . والله المسهل والمسبب .

٢١٠ مكرر - طبّال وقد يقال له : « المطبّل » ، وهو من يضرب على الطبل بكيفية معروفة يتوارثها أهلها بالتعلم من المهرة فيها.

وهي حرفة رائجة في قرى دمشق . وقد كان بدمشق من يعتني بها ، ويعرف بـ « المرفعجي » ندر وجوده الآن لكراهة أهلها لهم . ولكنها لم تزل رائجة في القرى كما ذكرنا .

والبعض من أهالي القرى يتقنون الضرب على الطبل . ولكن الذين تفرّدوا باتقانه هم « القبط » ـ المعروفين بـ « النَوَر » بفتح النون والواو ـ يضربون على الطبل بغاية الرشاقة ، مع نقرات متواليات متفرقات لا تخلو من طرب ، خصوصاً اذا كان موجوداً مع الطبال «زمار» وهو الذي ينفخ في الزمر ، وقد مر في باب الزاي . وقد اتخذوها حرفة يتعيشون بها ، يدعون في الاعراس والختان لأجل الدق في الطبل طرباً وجمعاً لأهالي القرى وما جاورها . فلا يزال الطبال يضرب على طبله في غالب أوقات النهار ، والرجال والاولاد آخذة في اللعب بالسيف والعصا . وأوقات السرور المصطلح عليها عندهم ثلاثة أيام يمرحون ويلعبون ، و « أبو ناعسه » ـ وهو احد النور ـ يلقي لهم أصناف السخريات المضحكة والألاعيب ، حتى اذا دخل اليوم الرابع يزفون العروس لعريسها ، وتتفرق تلك الجموع مع الطبال غب أن يأخذ جائزته / من العريس .

٥٢

وأيضاً في أيام الاعياد يدورون في القرى يطبلون ويعايدون أهاليها، فكل شخص يعطيهم على قدره .

وفي أيام جمع ثمر الزيتون ، وثمر الزبيب ، وقيام الاغلال من البيادر

أيضاً يدورون يطبلون ويغنون ، فيعطيهم أصحاب الرزق كلٌ على قدره. وبالجملة هي حرفة دنيئة قبيحة إلا عند أهلها !

٢١١ - طبيب — اسم لمن يطبب المرضى ويداوي داءاتهم ومن الواجب في حقه أن يكون متخرجاً من احدى الكليات المهمة ، حائزاً للشهادات العالية بفنه ، فيصبح حينئذ ذا شعور ، يفحص المريض بغاية الدقة ، ويشخص المرض بواسطة دلائل وأمارات مثبتة ، ويعطيه علاجاً موافقاً .

وقد أصبحت شامنا مملوءة بالاطباء من كافة الملل والنحل ، يتعاطون أمر الطب في بيوتهم بالصباح ، وفي النهار يتعاطون أمر الطب في مراكز لهم ضمن الأسواق ، ويذهبون بالنهار والليل الى دور مرضى الأغنياء حسب طلبهم . وقد أصبح فقيرهم غنياً ، وغنيهم قاروناً !

قلنا قبل : ان الواجب في حقه أن يكون حائزاً على الشهادات العالية. فأما من يتشبث بما تلقّفه من علاجات النساء والأطباء المتطفلين قبله ، ولا يعرف تشخيص الداء ، فهذا يحرم عليه شرعاً أن ينصب نفسه مطبباً ، فهو مثل الخمر إثمه أكبر من نفعه ! وقد يقول بعضهم : ان وصفات هؤلاء المتطفلين أكثرها لا يضر لانها عقاقير معروفة . فيقال له : ما كل مرة تسلم الجرّة ! وهذه الأرواح عزيزة ، ومن ذا يسمح بروحه لجاهل يلعب بها ؟ كما قيل في مثله :

لنا طبيب من النصارى أمسى له في العلاج صيت
لكن رأيناه ضدّ عيسى ، فذاك يحيى ، وذا يميت ..!

٢١٢- طحّـان

هو من يستأجر الطواحين لأجل طحن الحنطة وخلافها من الحبوبات . والمطاحن في شامنا كثرت جداً، وذلك لكثرة وجود المياه . فيستأجرها أهل هذه الحرفة من أصحابها . والبعض منهم تكون ملكاً / له ، يشغلها لنفسه على حسابه بأن يضع لها صناعاً كل منهم يأتي في حرفته .

٥٣

والطواحين منها ما يطحن الطحين ــ على اصطلاح أهل دمشق ــ « الطحين السوقي » ، ومنها ما يطحن « الطحين البيتي » .

أما « السوقي » فهو ما اختص في الطحان . فيرسل الدواب الموجودة عنده مع أحد الصناع ، المعروف بـ « السوّاق » المار ذكره بحرف السين، الى « البوايكي » فيأتي بالحنطة الى الطاحون . فعب ان يصولوهـا وينظفوها ، يطحنونها ويفرقونها أصنافاً : منها « الكماجة » و «الدقاقه» و « الناعمة » وما يخرج من النخالة . فعب تفريقها يملؤونها في«العدول» ويذهب بهـا السواق يفرقها على الفرّانـة على حسب طلبهم من أي صنف كان .

وهي حرفة مهمة ، تنتج ربحاً وافراً مهماً . لكن ندر من استمرت ثروتهم منهم الى آخر حياته ، وذلك لما انطوى عليه أصحاب هذه الحرفة من الغش الواضح البيّن : وهو طحن أصناف الحبوب التي قيمتها دون الحنطة ــ كالذرة ، والناعم من طحين البرغل ، وما يبس من البطاطا ــ وادخالها مع طحين الحنطة ، وبيعها على الفرّانة . وغالب الفرانة ليس لهم رأس مال ، فما يجمعونه في الاسبوع من بيع الخبز يعطونه ثمن الطحين الى الطحّان ، فكأنهم يأخذون الطحين من الطحان جبراً على أي

صفة كانت وبأي ثمن قوّموه ! ومن هذه الأفاعيل لا يثرون ولا يبارك لهم! وفيهم جاء المثل العامي بدمشق : « أوله بحّات ، وآخره شحّات » يعنون بـ « بالبحّات » من يبحت بالدراهم لكثرتها ، و « شحّات » تصحيف شحاذ .

نعم ، يخالف هؤلاء « طحّانة الخبز البيتي » . وذلك أن الغالب من أهالي دمشق يستعملون الخبز البيتي . وهو أنهم يشترون الحنطة مؤنة عام أو نصفه ، كل على حسبه ، ويعتنون في تنظيفها بدورهم ، وتصويلها ـ أي غسلها بالماء النظيف ـ ويرسلونها الى «الطحّان البيتي» فيأتي الى الدار ويأخذ كمية من الحنطة ضمن عدل من الجنفاص الى طاحونته ، فيطحنها ويعيدها لصاحبها ، فينقده على كل مد / مبلغاً من الدراهم ٥٤ على حسب الوقت ، حيث اذا كان الماء غزيراً فيبلغ أجرة طحن المد من العشرين بارةً الى الثلاثين ، واذا لم يكن الماء غزيراً فيبلغ أجرة طحن المد الى القرشين . و « المدّ » عبارة عن ستة أرطال شامية .

وأكثر هذا الصنف الثاني مستورون يكتفون بهذه الاجرة المشروعة، وغالبهم أصحاب أمانة ، يبارك الله لهم في معيشتهم . والله تعالى أعلم .

ومما قيل في طحّان :

حسن طحّان سباني . بلحاظ وبقامة
خافَ من واش ، فأضحى يجعل الغمز علامة !

ولآخر :

طحّانكم قد زها جمالا فما يطاق السلوّ عنه
ورق خصراً ، فليت شعري بكم يباع الدقيق منه ؟!

ومما ألغز في طاحون :

ومسرعة في سيرها طول دهرها تراها مدى الأيام تمشي ولا تتعب

وفي سيرها ما تقطع الأكل ساعة   وتأكل مع طول المدى وهي لا تشرب
وما قطعت في السير خمسة أذرع   ولا ثلث ثمن من ذراع ولا أقرب!

٢١٣- طرابيشي

بائع « الطرابيش » الملونة ٠ يستجلبها بائعها من البلاد التي تعمل بها ٠

وهي أصناف : منها الطربوش المعتاد ، ثم المصري ، والمغربي ٠ وكل منها له طرة على حسبه ــ و « الطرة » على اصطلاح أهل دمشق وبعض البلدان يسمّونها « شرابة » ــ فمنها الطرر المصطلح عليها بـ «الملكية»، ومنها « العسكرية » ، ومنها «العباسية» ، وكل منها على صفة مخصوصة٠

وهذه الحرفة في شامنا رائجة جداً لعدم الاستغناء عن لبس الطربوش٠ فالغالب من أهالي دمشق يلبسون الطربوش العادي ، وما بقي من أطراف البلدة وكافة أهل القرى يلبسون الطربوش العباسي ٠

وهي حرفة شريفة تنتج ربحاً طيباً ٠ والله تعالى المسبب ، لا رب غيره٠

٢١٤- طـرّاز

ويقال له : « طرزي » و « مطرِّز »، هو من ينقش الاقمشة من أصناف الحرير / يطبع أولاً بواسطة قوالب مرسومة على القماش حسب الرغبة من أصناف الرسومات ، فمنها رسوم عروق ، وبحيرات ، وماء ، وأشكال متعددة من طيور ، وورود ، وحيوانات وخلافها ٠ وبعده يباشر في تطريزه بالحرير الملون على مقتضى الرسم الذي على القماش ٠

٥٥

وهذه الحرفة كانت رائجة جداً بدمشق ٠ منها اللفّات ــ المعروفة

بـ « الشكّم » ـ والسجّادات للصلاة ، واللحف ، والبقج ، وكثير من الأثواب . والآن قل من يتعانى هذه الحرفة لكثرة ورود الأثواب وغيرها مطرزةً من معاملها بالبلاد الأجنبية بغاية الاتقان ، ورخص الثمن .

والبعض الآن بدمشق يتعاطون هذه الحرفة بواسطة الماكنات .

وهي بالجملة حرفة يتعيّش منها القليل . والله المسبب ، لا رب سواه .

٢١٥ ـ طفيلي

الطفيلي معلوم ، وهو من يتتبع الولائم ، ويسعى لدورها بلا دعوة . ولا يفعل ذلك الا الذين أراقوا ماء الحياء من وجوههم ، فجعلوا ذلك ديدنهم ، فيدخلون دور الناس بلا دعوة . وبعضهم يخوض بالامر والنهي على الخدم . ومنهم من يستقبلون الضيوف بالترحيب ، حتى يظن أنهم من المقربين عند صاحب الدار ، ويفرقون المناصب عليهم . ومنهم من يرقى الى صدر المجلس ويأخذ في التشويش على الضيوف ، مما يلقيه من الاحاديث المختلفة والحكايات السمجة التي يمجّها الطبع ، وتتكدر معها الخواطر ، لأنها من رجل مسلوب الذوق والمروءة واللطف !

ومما ينسب لرئيس الطفيلية يوصي ابنه في علة هلك فيها ، قوله :

لاتجزعنّ من الغريب	ولا من الرجل البعيدْ
وادخل كأنك طابخ	بيديك مغرفة الحديد
متدلياً فوق الطعا	مِ تدلّيَ الباز الصيّود
لتَلفّ ما فوق الموا	ئدِ كلّها لفّ الفهود
واطرَح حياءك ، إنما	وجهُ الطفيلي مِن حديد
لا تلتفت ـ نحو البقو	لِ ولا الى غرف الثريد

٥٦ حتى اذا جاء الطعام ، ضربتَ فيه كالشديد
وعليكَ بالفالوذجات ، فانها عين القصيد !

نسأل الله السلامة بمنه وكرمه !

٢١٦- طنبرجي هو سائق الطنبر . و «الطنبر» عربة على عجلتين بطول ذراعين ، تسحبه دابة . تستعمله الأتونية بدمشق لجلب الأحجار من مقاطعها ، ولتحميلها كلساً لمن يشتريها للبناء ، فيستخدمون عندهم أصحاب هذه الحرفة ، فيسحبون على الطنبر يومياً . ولهم أجرة معلومة مقدار خمسة أو ستة قروش يومياً ، يتعيشون منها .

وهي حرفة ذات عناء .

٢١٧- طوّاب الطوّاب عند أهل الشام ضرّاب «اللبن» ، وهو من مخمّر التراب مع التبن . يضع الطوّاب في التراب مقداراً كافياً من التبن والماء ، ويعجنه غبّ تخميره ، حتى اذا صلح عمله يقطع منه بيده ، ويضعه على أرض منكوسة خالية من الأحجار ضمن قالب من خشب مربع ، طوله وعرضه ثلث ذراع وعمقه خمسة قراريط ، ويرصّ ذلك الطين ضمن القالب حتى يملأه ، فيرفع القالب ثم يضعه بجانب الأول ، ويملأه ويضبطه ، ثم يرفعه ، ويملأه ، وهلمّ جرّا ...
وقد يعمل الطوّاب في يومه ألفي لبنة أو أكثر ، بحسب مهارته وخفته ، ويتركها معرضة للشمس ، حتى اذا جفّت صلحت لعمارة الحيطان وغيرها .

ويستعمل هذا اللبن في كافة دمشق مع « الدك » ـ المارّ ذكره

في حرفة « الدكاك » يعمرون بهما الحيطان . ولكن اللبن أقوى من الدك وأمتن . والبعض من أهالي دمشق الفقراء ــ الذين لا يقدرون على عمارة بيوتهم من الحجارة ــ يعمرونها باللبن ، اذا كان البنّاء بارعاً ماهراً .

واللبن متقن الصنعة ، فان ما يعمر اذا طلي وجهه بالكلس وحفظ من الماء فانه يبقى مائتي سنة فأكثر !

وهذه الحرفة رائجة في قرى دمشق رواجاً تاماً . وفي البلدة قليل محترفوها ، وهم غالباً / من الفلاحين ، يأخذون أجرة على عمل آلاف عشرين قرشاً فيتعيّشون منها . ٥٧

ومن الأمثال العامة : « كضرّابين اللبن ، يعدّون الألوف وينامون على الحصير ! » .

ومما قيل ملغزاً في قالب الطوب :

وما آكل في قعدة ألف لقمة	ولقمته أضعاف أضعاف وزنه ؟
اذا نزل المأكول جنبيه لم يقم	سوى لحظة أو لحظتين ببطنه !

٢١٨ - طيّان

هو من يعمل في الطين ، ويحترف بصنعته المعروفة . وهي من الحرف المهمة في شامناه ولها :«معلّمون» و « صنّاع » و « مجارفيّة » و « فعالة » . يروج سوقها فيقرب دخول فصل الشتاء . وذلك ان من اراد أن يطين أسطحة داره ، أو يزرقها ، أو يدق « عدسة » ، يخابر المعلم ، فيأتي بجماعته ، وكلّ منهم مذكور في حرفته .

ومزيّة « الطيّان » ــ وهو المصطلح عليه في شامنا بـ « المعلّم »ــ

أو من هو أدنى منه ــ وهو « الصانع » ــ أن يمدّ بيده « الطين » على السطح • أو « الزريقة » بواسطة ملعقة من حديد •

و « **الطين** » : هو من « التراب الأحمر » الخالص الغير المستعمل و « التبن » •

واما «**الزريقة**» : فمن « القصرمل » و «الكلس» و « قشر القنب»•

فغبّ ان يحضر الطين أو الزريقة، ويصلحها أحد أصحاب هذهالحرفة ــ وهو « المجارفي » ــ يضعها في علبة من خشب أو قفة من خوص ويسلمها الى أحد الفعالة ، فيعلّقها في « كلوب » من حديد مربوط بحبل ، وذلك الحبل معلّق على بكرة معلقة على « سيبة » مؤلفة من ثلاث عصيّ ، مربوط طرفاها الأعلى والأدنى ، مركوز على السطح ، وطرف الحبل الثاني بيد الفاعل يسحبه الى الأعلى ، فيأخذها أحد الفعالة الموجودين بطرف أعلا السطح ، والواقف على جانب السيبة يناولها لفاعل آخر يفرغها على السطح ابتداءً من أحد أطرافه العالية : اذا كان السطح جديداً غبّ أن يوضع الخشب يمدّ فوقه ماعتق من الحصر والقفف ، واذا كان عتيقاً يقشرون ذلك الطين العتيق ويزيلونه الى أن يصلوا للخشب ، فيضعون فوقه تراباً مرشوشاً بماء قليل ــ ويعرف بـ « البلّة » ــ ويرصّون ذلك التراب على ذلك السطح ، ويعلّونه من طرف ويحدرونه من طرف لأجل أن يكون السطح مائلاً ، بحيث لو نزل قليل من / المطر يسيل في الحال بكل سهولة للطرف المائل ، ويكون لطرف ذلك الانحدار « ميزاب » من خشب أو توتياء فينزل منه المطر الى وجه الأرض • وهكذا كلما صعد شيء من الطين أو الزريقة بواسطة

٥٧

السية — كما شرحنا — يفرغ على السطح ، ويأخذ الطيان في مدّهـا بصورة لا يمكن أن يأتي بها غيره ، وذلك مع الضبط والاتقان •

والقصد هو الحفظ على البيوت من أن يخرق ماء المطر سقفهـا فيفسد الخشب والجدران وما يصيبه الماء • وما عمل من الزريقة فهو أحسن وأقوى ، بحيث يمكن الانسان كل عشر سنوات أن يطين داره مرة فوق تلك الزريقة خشيةً عليها من الصقيع • ولكن اذا كان السقف من مجرد طينة فانه لا يقدر أكثر من سنتين أن يترك داره بدون طين جديد • ولكن الزريقـة تحوج الى دراهم قد لا يطيقهـا المتوسطون — فضلاً عن الفقراء ! — ولذلك يحتاج الفقراء وأصحاب الدور — الغير المزرّقة أسطحة دراهم — كل عامين الى طينة جديدة •

ومن أمثال العامة : « تخرجه بالقفة وينزل بالميزاب » ! وهذه الحالة لم تزل في دور شامنا على عهدها الأول عكس غالب البلاد الذين أخذوا في استعمال « القرميد » وهو في غاية اللطف وعدم الكلفة الدائمة• ولكن! « إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مقتدون » ! أو هو الفقر قاتله الله !

و « **العدسة** » هي من « القصرمل » و « الكلس » ، يستعملهـا أوساط الناس والفقراء في بيوتهم عوضاً من فرش الرخام أو البلاط • فعب أن يحفرها المجارفي يمدها الطيان ، وعند مدّها في كافة انحاء الدار يضربونها في مخابيط ، وذلك لأجل ان تربص وتشتد • والعدسة اذا لاحظها أصحابها تعمر عشرين سنة فأكثر •

و « **وطلي الكلس** » أيضاً هوُ من جملة صنعة الطيان ، ويستعمل اذا عمر الحيطان باللبن والدك • فعب انتهائها يطينون وجهها ، بالطين

ـ المذكور آنفاً ـ بغاية الضبط والاتقان ، وبعد أن يجف يمدّ عليه الطيان الكلس ويطليه . وهو مطفي الكلس وقشر القنب . غبّ ان يحفره المجارفي يقدمه للطيان ، فيطلى به / الحائط ، ويختمه بغايـة الضبط . فبعد أن يجف يكون منظره جميلاً .

٥٩

وبالجملة فان صنعة الطيان ليست بدنيئة . وهي رائجة في شامنا ، تنتج ربحاً حسناً . وربما تبلغ أجرة المعلم الماهر يومياً عشرين قرشاً ، والصانع خمسة عشر قرشاً . فسبحان مسبب الاسباب .

٢١٩ - طيوراتي

هو بائع «الطيور» : وهي العصافير المتنوعة الاشكال والحمام الأهلي . والمعتنى به من العصافير والمرغوب كثيراً هو الطائر المعروف في شامنا بـ « القنايرة » وهو طير صغير الحجم، أصفر اللون ، جميل الصورة ، لطيف الصوت . يضعون لكل خمسة من اناثها فحلاً ، ويلاحظون أمر مأكلها ومنامها ، فان القليل من الحرّ والبرد يضرّها ، ويحافظون عليها كثيراً من القمّل ، فانه اذا تعلّق بها قتلها ، حتى اذا تناسلت يأخذون في تربيتها ، فيطعمونها البيض المسلوق الى أن تشتد اعضاؤها يطعمونها حب « القنبس » ، ومتى تكامل خروج ريشها وانطلق صوتها يبيعونها لمن يرغب . والفحل منها أجمل شكلاً وأجمل صوتاً .

والبعض من أصحاب هذه الحرفة يعتنون بتربية الطائر المعروف بـ « الشحرور » يأخذونه صغيراً من الصحراء أبرش اللون لا ريش عليه، فيطعمونه قطع اللحم الصغيرة ، ويسقونه قليلا من الماء ، ويتعاهدونه دائمـا بالأكل والشرب ، حتى اذا اشتدت اعضاؤه يطعمونـه مدقوق

القضامة الصفراء ــ وهو الحمّص ــ مجبولاً بالدبس فيسودّ ريشه ، ويحمر منقاره وعيونه ، وينطلق صوته ، وصوته جميل مطرب جداً ، فيبيعونه على من يرغب ذلك .

وأما طائر الحمام المعروف بـ « الأهلي » فان الرغبـة به في شامنا زائدة .

وللمحترفين مكان يعرف بـ « قهوة الحمام » يقصده من له رغبة بتربية الحمام ، ويطلق عليهم اسم « حميماتية » . وهم مذمومو السيرة لما يرتكبونه من الآثام بسبب اللعب بالحمام وتطييره ، حيث لا يتسنى لهم ذلك إلا بأعلى سطح موجود بدورهم يشيدون عليه محلات لتلك الطيور تعرف بـ «الحفران» يضعونها بها في الصباح، والظهر، / والمساء ٦٠ يخرجون تلك الطيور المتشكلة الألوان ويطيرونها بالفضاء ، ويتعاهدون في أكثر الأوقات اكلها وشربها وخدمتها ، وهم متقطعون غالباً لذلك . ومن سيرتهم السيئة : تطالّهم على عيال النـاس لارتفاعهم في أعلى الأسطحة ؛ وتسلّقهم تارة جدران الناس اذا وقف عليه طائر ولم يحضر اليهم ، وضربه بالأحجار ، فتصيب بيوت الجيران ؛ وتارة يقتنصون طيور بعضهم البعض ، فيقع بينهم القيل والقال .

وهي مهنة رذيلة جداً ، لا يتعاطاها في شامنا إلا الأراذل والاوباش من الناس البطالين .

والبعض منأهالي دمشق يحترفون في بيع الطيور الصفر، المذكورة أولاً ، وعليها مدار معيشتهم ، وينتج ربحاً قليلاً .

ولكن من يعتني في بيع الحمام المذكور تراه ــ والعيـاذ بالله ــ كفقراء اليهود لا ديناً ولا دنيا ! نسأل الله العافية وحسن العاقبة !..

حرف الظاء

٢٢٠- ظرّاف

بائع ظروف المكاتيب ، والأوراق المعدّة لها أيضاً ، مع كافة ما يلزم للكتابة : من أقلام ، وريش حديد، واقلام الرصاص ، وانواع الورق ، واشكال الحبر •

وهي حرفة ليست دنيئة ، تكسب ربحاً حسناً ، يتعيش منها كثيرون• ولها رواج تام ، وحوانيتها عديدة •

حرف العين

٢٢١ - عبجي

هو بائع « العباءة » وتاجرها .
وكثير منها يأتي من غير الشام .
وكما يوجد صنّاع لها بدمشق ،
وهم من أصناف الحياكة ، ويعرف بـ « صانع العبي » .

وكيفية عملها : ان يمدّ سدى على النول من غزل يبرمه « الفتال » ، واللحمة من صوف افرنجي ، فيحيكها ذلك الصانع شقتين ، وعند اتمامها تؤخذ الى « الخياطة » فتخيطها وتشغل « قبّتها » بالحرير أو القصب و « مرَدّاتها » أيضاً .

وهي أصناف :

فمنها تعرف بـ « المقصّبة » وصوفها من شال ، يلبسها الأغنياء يوم خروجهم الى ظاهر البلد .

ومنها « المدفّقة » يلبسها البعض من المتوسطين والفقراء بدمشق وكافة أهل القرى . /

ومنها أصناف حريرية تلبس بزمن الصيف .

وحرفة العبجي من الحرف الشريفة ، تنتج ربحاً كثيراً موافقاً ،

خصوصاً لمن كان عنده كبير رأس مال ، ويشغل « الصناعيـة » على حسابه ، ويتجر لجهة بغداد والموصل وهاتيك البلاد من أصناف «العبي» و « الكفافي » و « الملايا » للنساء وخلافه .

وكثير من أصحاب هذه الحرفة أثروا جداً ، وأضحوا بنعمة وافية من كرمه تعالى عزّ شأنه .

٢٢٢- عتّـال هو من يحمل البضائـع على ظهره لايصالهـا الى الأمكنة المشروطـة عليه . وغالب خانات دمشق معدة لحفظ بضائع التجار ضمن مخازن بها ، كخان المرحوم أسعد باشا العظم الذي عزّ نظيره في دمشق ، وأمثاله من الخانات الجسيمة . وكثير من التجار يتخذون لهم مراكز في تلك الخانات التي لا تخلو من جملـة « عتّالة » ، وذلك لنقل البضاعة على ظهورهم ، حيث لما تأتي التجار ببضائعهم للخان يأتون بها على عربات تعرف بـ « الكميونات » لتجاه باب الخان ، فينقلها العتالة لداخل الخان . ومن اشترى من التجار من تلك البضاعة فيحمّلونه للعتالة على ظهورهم فيوصلونه للمحل المقصود ، ولهم على كل طرد ــ اذا كان الموضع قريباً ــ عشرون بارة أو أكثر على مقتضى بعد المحل .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون ، ولكنه قلّ من يسلم من محترفيها من علة « الفتق » . نرجو الله السلامة والستر بمنّه وكرمه .

٢٢٣- عجائبك عجائب يحترف صاحب هذه الحرفـة بأمر معاشه بواسطـة صندوق مستطيل مزخرف ظاهره بأنواع الدهـان :

وبأحد وجوهه ثلاثة أو أربعة أثقاب متقاربة لبعضها يفصل بين كل واحدة مقدار ربع ذراع ، والأثقاب مستديرة على حجم دائرة العين ، مركب عليها بلور من الذي يستعملونه للمنظار لأجل تجسيم المنظور إليـه ، وبطرفيّ الصندوق من الداخل لولبان ، بكل طرف لولب ، خارجـة رؤوسهما من أعلى الصندوق ، ملصوق بهما طرفا / قطعة من الورق القوي الشديد المصور بالصور المشكلة ، طولها عشرة أذرع بعرض الصندوق ، تلتف على أحد اللولبين ، فاذا أدار اللولب الثـاني يدور الأول وتلتف تلك الصور على الثاني ، وهلمّ جرا ...

٦٢

فيحمل صاحب هذه الحرفة صندوقـه ــ الذي هو رأس ماله ــ ويجلس به في مجتمع العامة ، فيهرع اليه الأولاد الصغار والبعض من العوام والفلاحين يتفرجون على هذه الصور من الأثقاب المارّ ذكرها ، وهو يدير أحد اللولبين الفارغ ، حتى اذا مرت تلك الصور بأجمعهـا والتفّت على اللولب الثاني انتهت الفرجة، حينئذ يلقّي ستائر على الأثقاب من داخل الصندوق فتحجب به الأثقاب والصور ، فمن رغب أن يعيد النظر أو ينظر يدفع له الأجرة سلفاً ، ومن اكتفى ذهب لسبيله . والاجرة لا تزيد على خمس بارات .

وقليلٌ من يتعاطى هذه الحرفة ، ولا يتعاطاها إلا من ليس له حرفة يتعيش من كسبها . والله المسبب لا ربّ غيره .

٢٢٤ـ عجـان

صاحب هـذه الحرفـة يستأجره « الفرّان » فيعجن العجين ، حتى اذا صلح يقدمـه الى « المقرّص » لأجل أن يقرصه ، وذلك بشرط أن يكون ذلك العجين مستوفي الشروط: من أمر تخميره ، وعركه ، وكفاية ملحه .

وللعجان في مقابلة عجن كل « وزنـة » ـ وهي اثنا عشر رطلاً ونصف من الأرطال الشامية ـ من الطحين ثلاثون بارة ورغيفـان من الفرن وقرش زائد فوق ذلك كله مقدار ما يعجن قليلاً أو كثيراً ، فيعجن حسب ما يلزم لذلك الفرن يومياً ، وقد يعجن عشرين وزنةً فتبلغ أجرته اثني عشر قرشاً ونصفاً وأربعين رغيفاً .

والأغلب في « العجّانة » الانتباه لصنعتهم من أنصاف الليل لأجل أن يصبح العجين صالحاً لخبزه ، والأفران في الشام كثيرة ، والعجّانون بها على نسبتهم .

ولابن تميم في عجّانة :

كَلِفَ الفؤاد بظبيـة عجّانـة	ماكنت يوماً آمناً من هجرهـا
عجنت فؤادي بالغرام فماؤهـا	من أدمعي ، ودقيقها من خصرها !

٦٣

٢٢٥- عـراف

« العرّاف » من يتظاهر معرفـة الشيء المسروق أو مكان الضالـة وغيرهما من الأمور الخفية ، وهي نوع من الكهانة ، وكانت فاشية في الجاهلية ، حتى جاء الاسلام فنهى عنها وجعلها من الشرك وتوعّد المصدّق بها ، وللكهنة والعرّافين أخبار مملوءة بها الكتب ، فمن أراد ذلك فليراجعها .

و « العرافة » على ما كان يتعاطاها أهل الجاهلية لا وجود لها ، غير ان البعض من الكاذبين الدجّالين يتشبهون بأولئك العرّافين الضالين ، فيزعمون أن لديهم معرفة الغائب والضمير ، وقد تأتيهم النساء والحمقى من الرجال فيسلبون أموالهم بالحيل والأكاذيب والأماني والمواعيد .

وقد اتفق أنني رأيت شخصاً من هؤلاء المحتـالين ماراً في بعض

الطرق فاعترضتــه امرأة وقالت له : هــل يأتي ؟ فأجــابها حــالاً : نعم ! سوف يأتي مجبور الخاطر وهو بغاية السرور إلا انه يحتاج الأمر لثمن بخور ! فأعطته شيئاً بيده • فلما فطن أنني مراقبه التفت إليّ قائلاً غبّ ان مضت المرأة : « قاتلها الله ! هل تعلم أنني اعلــم الغيب حتى سألتني ما سألتني ؟ ولكن هكذا قدّر أمر معاشنا ... ! » ومضى •

ويوجد ممن يحترف بهذه الحرفة بدمشق من رجال ونساء عليهم ما يستحقّون • ويرحم الله القائل :

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبّحــه	إلاّ كواذب ما يجري به الفــال
والفال والزجر والكهّان كلهمُ	مضلّلون ، ودون الغيب أقفال !

٢٢٦- عــربجي

هو سائق « العجل » المسمّى الآن بـ « العربة » يستخدم عند المعلمين أصحاب العربات الذين يؤجرونها ، وعند كثير من الوجهاء الذين توجد عندهم العربات • وهذا يكون في راحة ما ، لقلة ركوبهم في العربة إلا للتنزّه أو لشغل ما ، ومقامه محفوظ تبعاً لسيده • وأما من يستخدم عند المعلمين فيكون دائماً في مشقــة وعناء ، وقد يمضي أغلب أوقات النهار وجانباً من الليل في مهنتــه • وقلما يوجد من أصحاب هذه الحرفة مَنْ له تقوى وعفة وخوف من الله تعالى ، ولذلك يستعملون أشدّ الضرب لخيل العربــة / وسوق العربات • ٦٤

ذكر السيارين في الشام

ورواجها بدمشق يكون في فصل الربيــع والصيف وجــانب من الخريف ، فتروج رواجاً تاماً ، وذلك لرغبة الكثير في تلك الأوقــات باستنشاق الهواء ، حيث لا يتم في فصل الشتاء إلا وتكتسي اشجــار

دمشق بحلل الزهور المدهشة بألوانها وأنواعها ، وتفيض الأنهار بالمياه المتدفقة ، فينطلق المتنزّهون الى متنزّهاتها الشهيرة : كدمرّ ، والربوة ، والوديان ، وجهات الغوطة •

وبالجملة : اينما توجّه الانسان بتلك الأوقات ، فانه لا يمكنه وصف ما يدخل عليه من النشاط والسرور واستنشاق الهواء الجيد مع روائح الزهور البديعة ومناظره المدهشة ، خصوصاً اذا صعد الى المحلات المرتفعة كـ : « سفح جبل قاسيون » أو «قبة السيار» في الجبل المذكور المطلة على دمشق ، أو « مسطبة الامبراطور » عاهل المانيا ــ التي عرفت به لما زار دمشق عام ١٣١٦ وبُنيب لأجلـه ــ أو ما ارتفع من التلال الموجودة بقرية المزة المطلة على دمشق وبساتينها ووديانها وغوطتها وقراها، فان الانسان يندهش جداً من تلك المناظر البهيـة • لذلك فالكثير من الناس ــ رجـالاً ونساءً وأولاداً ــ يعملون « السيارين » في تلك المتنزّهات الجميلة ، فيجتمعون جمعية مؤلفة من أصحاب وخلاّن ، ويأخذون معهم ماطاب من المآكول ، ويركبون العربات ويقصدون تلك الجهات •

وفي الصيف أيضاً عند اشتداد الحر يقصدون الرياض الوافرة المياه كـ : « دمّر » و « الهامـة » و « الربوة » و « الجديدة » و « عين الفيجة » و « الأشرفية » ••• ومنهم من يصطاف فيهـا ، وهم أهل الثروة والغنى الزائـد ، وأما أصحاب الأشغـال فينزلون في الصباح لأشغالهم ويخرجون في المساء لمحل مصيفهم • وفي كل يوم من الساعة العاشرة نهاراً يقصد كثير من الشاميين تلك الجهات راكبين العربات ، مصحوبين بطعام المساء ، يقعدون الى الساعة الرابعة ليلاً ، خصوصاً

في الليالي المقمرة ، ويأوون الى دورهم • والبعض يتناول طعام العشاء في داره ثم يسير اليها ويمكث الى نحو ثلث الليل • والعربات لا تفتر عن الذهاب والاياب •

وأما فصل الشتاء فيكون شغل العربات قليلاً جداً ، وذلك لعدم وجود ما ذكر •

والماهر / في هذه الحرفة تبلغ أجرته يومياً الى الثمانية غروش • ٦٥

وأما احتراف المعلمين أصحاب العربات فانـه متجر ليس بدنيء • ولكن لم نر مَنْ أثرى من كسب هذه الحرفة مع كون ربحها عظيمـاً وكسبها جسيماً ، ولم أدر ما الحكمة بذلك ؟ وكان يجول في فكري انّ الله تعالى لا يبارك لهم في كسبهم هذا ، وذلك لما يصدر منهم من عذاب الحيوانات • فان صاحب هذه الحرفة يشتري الدابة بغاية الصحة كأنها برج من حديد ، فلا تمضي عليها مدة قليلة إلا وتعود كالخلال ، وتذهب قواها ، وتتعطّل يداها ورجلاها أو صدرها ، كما هو مشاهد ••!

٢٢٧- عرضحالجي

هـو من يكتب العرضحـالات • و « العرضحـال » هو شكـوى لأوليـاء الأمور • فبحسب شكواه يكتب له العرضحالجي عريضته واستدعاءه •

وأصحاب هذه الحرفـة ، الغالب منهم ، يتقنون الكتابة العربيـة والتركية • يجلسون في حوانيت لهم مخصوصة قرب دوائر الحكومة ، وهم مستعدون لأدوات مهنتهم من اوراق ومحابر وأقلام وأمثالهـا • فيأتي اليهم من لم يحسن الكتابة أو الأصول القانونية في المعروضات ،

فيكتبون له ما يريد من عرضحال أو مكتوب أو ما يرغبه ، وعند الانتهاء يعطيه أجره على ذلك بحسب ما تسمح به نفسه وعلى مقتضى ما كتب .

وبالجملة فهي حرفة حسنة تكسب أجرة متوسطة ، وقد يرزق بعض أصحابها من الحظ مالا تنقطع قاصدوه . وربما بلغت أجرته يومياً أربعين قرشاً أو أكثر . وقد أثرى بعضهم من هذه الحرفة إثراءً حسناً وعدّ من المياسير ، فسبحان المسبب !

٢٢٨- عرقسوسي

هو بائع شراب نقيع عرق السوس. وهذه الحرفة تروج في زمن الصيف رواجاً جيداً . وكيفية صنعة هذا الشراب هو أن ينظف عرق السوس ، ويُزالَ قشره ، ويجفف في الشمس . وبعد ذلك يدقّ حتى ينعم ، فيوضع مقدار منه ضمن شبكة من الخيطان ، ويلفّ بها ، ويصبّ عليه قليل ماء ، ويترك برهة جزئية حتى يتخمر تحت ذلك الوعاء/إناء كبير من فخار ــ ويعرف بـ «الجسطر» ــ مملوء ماء ، فيؤخذ من ذلك الماء ويصبّ على ذلك المتخمر بشرط أن يعود ما صبّ من الماء الى الاناء المذكور ، ويتكرر هذا العمل مدةً طويلة تنوف عن الساعة ، فحينئذ يحصل على شراب « العرقسوس » لونه أحمر الى السواد ، حلو الطعم ، ولا يطيب إلا بدخول الثلج عليه مع جزء قليل من « التقطيرة » وهي نوع من أنواع الطيب يعمل في الشام مركب من عدة أجزاء .

فمعلم هذه الصنعة يجلس في حانوته وفيه كراس يجلس عليها من اراد الشرب مع وجود كاسات . والغالب من أصحاب هذه الصنعة يزينون حوانيتهم بأنواع الأواني الزجاجية .

٦٦

ويوجد عندهم صناع يحملون « القِرَب » من الجلد مملوءة من ذلك الشراب المذوب بـه الثلج ، فيأخذون الكاسات ويدورون ليلاً ونهاراً في الأسواق والأزقة يبيعون على المارة .

والغالب من أهالي دمشق في زمن الصيف يشترون العرقسوس مع الثلج يضعونه ضمن « سطل » من تنك أو نحاس ، يأتون به لبيوتهم .

وهذه الحرفة تنتج ربحاً متوسطاً .

٢٢٩- عـــزّاق

هذه الحرفـــة من حرف الفلاحـــة الموقتـــة ، وذلك حين دخول فصل الربيع تأخذ نباتاتالأرض بالخروج من بطن الأرض والنموّ . فذلك الوقت من كان عنده من كروم العنب يعزقها ، أي يقلب أرضها لأجل أن تبقى أرضها رخوةً لسريان «شرش» جذور الكرم ، وَقطعِ مافيه من النباتات المتنوعة المضرّة بشجر الكرم اذا بقيت ، وذلك أن بواسطـــة قلب التراب تجف التراب ، يقـــال له « عزّاق » .

فأصحاب الكروم بهذا الزمان يستأجرون العزّاقين ، فَيَعزقون كرومهم .

و « العِزَاق » قلب التراب بواسطة آلة تعرف بـ « المر » وهي عصاة بطول ثلاثة أذرع أو أربع ، مركب برأسها قطعة من حديد بعرض نصف ذراع مما يلي العصا ، آخذة بطرفها بالرقـــة حتى يبلغ رأسهـــا عرض قيراطين بطول نصف ذراع وكسور بعمق نصف قيراط مما يلي العصا ، محدد من رأس القطعة .

ويشتغل العزّاقون / من الصباح الى وقت الظهر ، وهكذا كلّ يوم

حتى يتم عملهم • وتبلغ اجرتهم يومياً خمسة قروش يتعيشون بها ، والله هو الرزاق العليم •

٢٣٠- عشّار

هو من يشتري اعشار القرى من الحكومة بمبلغ معلوم غب اجراء المزايدة ووقوع المزاد عليه ، فيقسط على ستة أقساط يدفعها الى الحكومة بوعد استحقاقها ، ويستلم من حاصلات تلك القرية التي اشترى عشرها على موجب حاصلاتها في المائة اثنا عشر قرشاً وخمس وعشرون بارة • فيضع على بيادر تلك القرية « قولجيه » للمحافظة على الحبوب، وعند اخراجها من التبن غب كيلها يأخذ ماخصه• ومحصولات الأشجار غب ضمانها، أو تقدّر بمبلغ معلوم ويأخذ ماخصه، وهو عشر ذلك المبلغ •

وهي حرفة تجارية ، تارة تربح ربحاً وافراً ، وتارة تعقبها خسارة كبرى •

والقليل من هؤلاء العشّارين الذين يتقون الله في أخذ العشر من الفلاحين • على الخصوص اذا كان الواحد منهم صاحب نفوذ ، فيأخذ نصف الحاصلات ولا تكفيه أيضاً ؛ ولكن الباري عزّ شأنه ينتقم منه • ولَمْ يُرَ ممن يتعاطى هذه الحرفة مَنْ حسنت نهايته ، وعلى الله حسابه !

وبالجملة فهي حرفة ذات بال اذا كان عمل محترفيها بوجه الحق والصدق فيربح منها ربحاً موافقاً • والله تعالى أعلم •

٢٣١- عشّا

هو الطبّاخ • والمصطلح على « العشي » بدمشق هو من يطبخ الطعام ويهيئه • فالبعض يخدم

عند الذوات الكبار • وأكثر أهالي دمشق يستخدمون « العشيات » من النساء •

وغالب « العشية » يصنعون الطعـام في الأسواق ضمن حوانيت كبار ، يستعدّون فيها لوجود طاولات للطعام مع جميع ما يلزم ، من كراس ، وممالح ، وسراحيات للماء ، وكاسات ، وصحون • فيدخل عنده من أراد الطعام فيجده مهيأً من كافة الألوان المتعددة من أصناف المأكولات ، فيطلب ماتشتهيه نفسه ، فيقدمه له العشي •

والنادر من أهالي دمشق الذين يأكلون عند العشي ، ولا يأكل إلا الغريب الذي ليس له دار ولا عيال ، ويكون مقره إمّا في « اللوكندة » واما في « الخان » كلٌ على حسب قدره •

٦٨ وبعض / « العشية » يستخدمون في اللوكندات الكبـار لأجل الطبخ ، حيث يوجد من الغرباء الأغنياء كـ « الأفرنج » و « السوّاح » وغيرهم •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها من يتعاطاها • وتبلغ أجرة العشي الماهر الذي يستخدم في اللوكندات أو عنـد الذوات في الشهر الى الثلاثة ليرات • والعشية أيضاً لحد الأربعة ريالات مجيدي • والله تعالى يرزق من يشاء •

٢٣٢- عطّـار

العطـار — في الأصل — اسم لمن يبيع العطر • وأما الآن : فهو اسم لمن يبيـع أصناف شتى من سكر ، وارزّ ، وملح وغيرها •••

ثم من العطارين من يتقن كيفية عمل السكر لانواع متعـددة ،

فيصنعها في داره ويبيعها بدكانه . ومن لم يعلم تلك الصنعة ينيط عملها لصانع مخصوص ، يعرف بـ « صانـع السكّر » ، ويعطيه عليها أجرة معلومة .

وأصناف السكّر هي :

مالبس من السكر على الفستق ، واللوز ، والصنوبر ، والجوزهند، والبندق ؛ وهو يطلق عليه اسم « الملبّس » .

وما يلبس على الحمص : فهي « القضامة على سكّر » .

وما كان عقيـداً : فهو « القصة » ، « القنابيب » ، « الكعك » ، « الجواريش » .

وما عمل من السكر والنشا : فهو « راحة الحلقوم » ، «الكوم» .

وما عقد مع السكر من الفستق ، واللوز ، والجوز هند ، والكبّاد ، والمشمش فهو « المشبّك » .

وما عمل من « المربايات » بقطر السكر : كالمشمش ، والجانرك ، والكبّاد ، والوشنه ، والدرّاق ، والتفاح ، والسفرجل ، والباذنجان ، واليقطين فهو « المقطّر » .

مع ما يوجد من أصناف « الشرابات » كـ : شراب التوت ، والورد، والتمر هندي ، والشلق ، واللجرات ، والوشنا ، والبرتقال ، والليمون، وغيرها ...

ويعتنون ببيع اللوز ، والفستق ، والبندق ، والجوز ، والصنوبر القلب ، واللوز والفستق المحمّص . ثم أصناف البهارات المتعددة . ومن أصناف الزهورات والبذورات التي تدخل للعلاجات وغيرهـا . وأصناف الشمع ، والكبريت ، والصوفان ، وورق الكتابـة وغيرها ،

وورق السيكاره ، والصابون ، والمسامير ، وماء الزهر والورد، والمسك وأشياء متعددة •

٦٩ ولهذه الحرف سوق مهم بدمشق ، يعرف بـ «سوق / البزورية» •
ويقرب منه في محلة باب الجابية سوق يسمى بـ « سوق السكّرية » •

وبالجملة فهي حرفة خطيرة تنتج ربحاً طيباً • وغالب أهلها من المياسير ، وكبارهم من التجار المثرين •

ولبدر الدين الدماميني :

قلت لعطار ، بـه صبوتي — محمودة ، والصبرُ لا يُستطاب:
أسقيتني كأس غرام بـه — زيت ، ومن فيك براني الشراب !

٢٣٣- عطري

هو مستخرج العطر كـ « عطر الورد» ، و«العنبر» و«العطرشان» وغيرها • وذلك بواسطة آلة نحاسية تعرف بـ « الكركة » •

وهذه الحرفة كانت رائجة جداً بدمشق• ولكن الآن نظراً لاستجلاب أصناف الطيب المعروفة بـ « اللاونده » من البلاد الأجنبية ـ أصبحت هذه الحرفة في غاية الكساد بدمشق • وقليل جداً من يتعاناها •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها من يتعاطاها • والله المسبب لا ربّ غيره •

٢٣٤- عقّاد

هو من يحترف في خيطان : الحرير، والصوف ، والقطن ، والشرايط ، وغيرها • ويطلق على المعلم والصانع اسم « عقّاد » •

فما يصنعه الصانع يقسم الى اقسام :

منهـا ما يصنع على النول : كانواع الشريط ، والسجق للبرادي للنوافذ والجهازات وعلى أغطية تعرف بـ « الشنابر » يستعملها نساء الفلاحين ، و « قماطات » للرأس يستعملها نساء العرب المجاورة لدمشق، ونساء فلاحين المرج الملاصق لغوطة دمشق ؛ يعلق بتلك الشنابر أنواع الذهب كـ « الجهادي » و « القرنيصات » وغيرها . وحبك « ملاية » النساء ، مع شرايط سرير الأولاد .

ومنهـا ما يشغل على دولاب السجق : وهو « سجق الكردون » يستعمل أيضاً للبرادي والجهازات ، وهو من خالص الحرير . و «بريم» للمخدّات وبدلات النساء . و « كساتك » لـ « غرّاء » و «النياطى» عوضاً عن الازرار .

ومنها ما يصنع باليد : كـ « البنود » للأسلحة كالسيف والطبنجات والمسدسات وغيرها ، وهي من الحرير الملون و « برامق » و «خروجة»، و « أزرار » للصداري ، و « وطرر » للمسابح ، و « عكل » للبرادي من نوع القصب والحرير والصوف ، / ويرغب بتلك « العكل » جداً السوّاح من الافرنج ويضعونه على رؤوسهم .

٧٠

ومنها ما يشتغل على دولاب الشغالات : وهو « القيطان » الحرير والقطن ، يستعمل للصداري الجوخ ، و «والدوامر» ، و «الشراويل».

وعند اتمام الصانع ما يصنعهُ — من هـذه الأصناف المذكورة — يسلمه الى المعلم يبيعها في دكانه لمن يرغب ذلك .

وقد يجلب معها أشياءتناسبها تأتي منالبلاد الأجنبية كـ : «الكراكر» و « الزنانير الحريرية » ، و « السيم المقصّب » ، و « شلل الخيطان » ، وأكياس حريرية ومقصّبة للدراهم ، وأمثالها ...

فهي حرفة مهمّة بدمشق تنتج ربحاً جسيماً وافراً لمعلّمها ، ومتوسطاً لصانعها . والله تعالى هو المسبب لا ربّ غيره .

٢٣٥- عقاربي

هو من يجترىء على أخذ العقارب من مكانها كالمقابر وغيرها ، وعلى إظهار الاغراب في الاقتدار على جمع عدة منها في عمامة أو جيب وهي حية تتحرك .

ولصاحب هذه الحرفة خفة ومهارة في كسر ابرة العقرب التي تلسع بها حين أخذها من محلها حتى تموت إبرتها . وبذلك يتيسر له وضعها في جيبه أو رأسه واخراجها بيده ووضعها عليها واللعب بها ، لأنه يدور في الأزقة والحارات فيلعب بها أمام الاولاد والنساء وغيرهن . وتارة يأكلها ـ قبّحه الله ـ وذلك لأخذ بعض فلوس قليلة يقتات بها .

وفي دمشق فقير هذه حرفته ومنها معيشته ، وكثيراً ما دخل مسجداً فخرجت عقرب من جيبه فأفزعت من يراها ، واذا شعر بفرارها تبعها كأنه عزيز فرّ منه .

٢٣٦- عكلجي

هو بائع العكل . و « العكل » ما يعصب به البدو وأهل القرى والفلاحون رؤوسهم فوق «حطّة» من قطن أو صوف أو حرير مقصبة .

وهذه العكل ـ ويقال لها : العكالات ـ بمثابة حبل كثيف ، فصانعه يهيء أولاً الشعر الذي يجلب من يبرود ويسمى « كنبك » ، وأهل يبرود يصنعونه ويحضرونه للشام ، ثم يركبه على « المسداية » من خشب فيسديه ويفرّقه بعد ان يكون « كبيًا » يعني مجموعاً بعضه

٧١ على بعض ، ثم يبرمه ، ثم يضع فوقه / من الصوف المسمى بـ «المرعز» الذي يجلب من بلدة ماردين خاصة ، ثم يحبكه ويلينه حتى يجعله مستديراً ، ثم يجعله على قالب مخصوص ، ثم يدقه عليه حتى يثبت ، ثم يربط طرفيه بعد أن يكون تمكّن على قالبه وخرج كالدائرة ٠

والعكالات أصناف : منها جنس عال من صوف الشال تساوي قيمته نصف ريال مجيدي اثنى عشر قرشاً ، ودونه أرخص قيمة ٠

والمشهور عند أرباب هذه الصنعة انّ أحسن العكل ما يرد من بلدة حماه ، ويزعمون أن اهلها هم أول من اصطنعها ٠

ويوجد من العكل التي تصنع في نواحي نابلس عكلاً تحشى بخروق تلبس بشعر وصوف ، وهي أغلى قيمة مما يصنع بدمشق لكثافتها وغلظها ٠

والذي يربح بتجارتها في الأكثر هم أهل حماة ، لأنهم يبيعونه بالعدد مع ربح وافر ٠ وأما أهل الشام فيبيعونه بالرطل ، وذلك ان قيمة الرطل من جنسه الأعلى نحو من ثمانية وأربعين قرشاً ، والأدنى نحو من ستة وثلاثين قرشاً إلى ستة وعشرين قرشاً الى عشرين قرشاً ٠ ويقول لي أحد تجاره : ان التاجر بدمشق متى ربح في العكال قرشاً يقنع به ويبيعه ، وقد لا يرضى بذلك تجارته في غيرها ٠

وعدد دكاكين هذه الحرفة بدمشق وتجّارها عشرة لهذا التاريخ وهو سنة ١٣٢٣ ٠

٢٣٧- علقي هو بائع « العلق » ٠ والعلق حيوان معلوم يأخذه باعته من الأنهار والبرك ، ويحضرونه الى الشام يبيعونه الى الحلاقين ٠ يستعمل لاخراج الدم ، فيشتريه منهم من

يلزمه . ولكثرته في زمن الصيف والربيع تبلغ قيمة الواحدة خمس بارات ، ولقلته زمن الشتاء تبلغ قيمة الواحدة أحياناً الى الثلاثين بارة .

وبالجملة فهي حرفة وضيعة يتعيش بها من يتعاناها .

فائدة – قال صاحب كتاب « كنوز الصحة » : العلق واسطة عظيمة في شفاء أغلب الأمراض لاسيما الالتهابات الموضعية والتهاب الاحشاء . وبالجملة فهو عظيم النفع في الطب . لكن ينبغي أن يعلم ان العلق انواع : منها ما هو نافع في الطب ، ومنها مالا نفع له . فالذي لا نفع له هو ما استعمل اولاً أو الذي يوجد في برك مصر لانه اسود ضعيف صغير رديء . وأجوده ما يوجد على ظهره خطوط صفر وخضر . ولكل علقة طرفان : طرف دقيق – وهو الرأس – وفيها الأسنان التي يفتح بها الجلد ، وطرف غليظ وهو الذنب . واذا علق بالطرف الغليظ المذكور كان ذلك العلق لأجل الاستناد لا للعض .

وكيفية وضعه : ان يغسل المحل بالماء الفاتر ، ويحلق إن كان فيه شعر ، ويجعل العلق في خرقة ويوضع بالخرقة على المحل ، أو يوضع / العلق في فنجان أو ظرف ، ويوضع على المحل الذي يراد أخذ الدم منه، فان كان المحل ضيقاً كالعينين أو الأنف أو الفم توضع علقة فعلقة بالأصبع ، ومتى عض يترك حتى يسقط من نفسه ، فان بقيت منه واحدة وطالت المدة ولم تسقط ينبغي ان يوضع عليها قليل من الملح أو النشوق. وبعد سقوطها يستعان على خروج الدم بغسل المحل بالماء الفاتر ، أو وضع « لبخة » من بزر الكتان أو لباب الخبز عليه ، وتغير بحسب الاحتياج . واذا أريد إيقاف الدم يوضع على المحل قطعة من الصوفان

أو القطن المندوف أو النسالة المبشورة ، وتوضع عليها « رفادة » وتثبت برباط مع الضغط، فان لم يكن ذلك يكوى المحل بـ «الحجر الجهنّمي».

واذا اريد حفظ العلق والانتفاع بها ينبغي ان توضع بعد سقوطها على رماد حتى تستفرغ ما في أجوافها من الدم ، ثم تغسل وتوضع في إناء ويوضع عليها ماء قراح ، ويغير كل يومين أو ثلاثة مرة . وان ماتت منها علقة ينبغي ان تؤخذ وترمى في الحال ، لأنها إن بقيت تفسد الماء ، وبفساده يموت ما فيه من العلق ، لأن ذلك يسرع بموتها . ا هـ

٧٣

٢٣٨ - علبي

هو صانع الأواني الخشبيّة : من علب ، ومجامع ، ومخامر، وكيلات، وغيرها . وهي حرفة رائجة جداً لطلبها المستمر، ولها سوق بدمشق مخصوص يعرف بـ «سوق العلبيّة» يصنع فيه أصنافها : فمنها علب لوضع الحلويات للسفر ، ومنها علب للعطّارين لوضع اصناف العطارة ، ومجامع تستعمل لوضع أصناف السكاكر بها للهدايا والأعراس والأولاد المختونين ، وعلب طوال الى اللبن ، ومكاييل للمدّ ونصفه و « الثمنيّة » ونصفها ، و « مخامر » ينقع فيها غذاء الجمال والبقر ، و « ومصاول » لتصويل العنب وأمثالها.

وبالجملة فهي حرفة مهمة يتعيش بها من يتعاطاها ، تنتج ربحاً مناسباً ، والله أعلم .

٢٣٩ - عكّام

هو رجل من أهل الجلَد والقوّة على المشي في القفار والأوعار ، يستخدم بأجرة معلومة عند «المقوم» — الآتي في حرف الميم ان شاء الله تعالى — في سفر الحاج ، يسلّمه

جملاً وعليه « المحارة » يركبها شخصان ، يسحب الجمل بهما في الطريق ، ويتولى خدمتهما وكل ما يلزم الراكبين المذكورين من طبخ وغيره في أثناء سفرهما ، وله أجرة معلومة • وقد يكون الحجاج الذين معه من الأغنياء المترفهين فيخدمهما الخدمة الصادقة وينال منهما الاكرام التام عدا عما يأخذه من المرتبات في الطرقات المعروفة ، وذلك ان الحاج كلما قطع من المراحل أربعاً يعطيه راكب المحارة أو « الشبرية » اكراماً على حسب غناه وتوسّطه •

٢٤٠ - علّاف

هو من يبيع أصناف الحبوب : كالحنطة ، والشعير ، والبيقية ، والكرسنة ، والجلبانة ، والعدس ، والحمّص ، والفول ، وغير ذلك من سمّاق ، وتبن وقفف ، وسلل ، وسرايج •

وحرفته هذه قريبة من حرفة « البوايكي » ، غير أن البوايكي يكون رأس ماله أوسع من العلافة بكثير ، ولا يعتني بغير الحبوب •

وهي حرفة تكسب ربحاً متوسطاً •

٢٤١ - عميل

هو من يحترف بـ « العمالة » • وهي وكالة عن بائع أو مشتر في أصناف البضائع والتجارات• وذلك ان من كان في قرية من قرى الفلاحين أو بلد صغيرة واراد ان يتعاطى تجارة ، فيأخذ دكاناً ويراسل من يثق به في المدن الكبيرة ، ويكتب له أصناف ما يريده من البضائع • فيأخذ هذا العميل في شراء ذلك على اسمه وتقييده وحزمه وارساله اليه ، / أو في بيعها اذا كانت مجلوبة • ٧٤

وأهل هذه الحرفة كثيرون ، وقد أثرى منها من لا يحصى ؛ إلا ان الإثراء منها لا يكون غالباً مع الصدق في القيام بها ، لأن الصادق في ذلك يكسب شهرياً نحواً من خمسمائة قرش ، وقد يزيد وقد ينقص ، وذلك لأن للعميل من موكله في مقابلة ما يبيعه أو يشتريه في كل مائة قرش قرشين ونصفاً على حسب الاتفاق .

إلا ّ ان للعملاء دسائس كبرى وخيانات عظمى ، والمو ّفق من عوفي منها !

منها : ان الموكل قد يطلب جملة أصناف ــ والعميل عنده البعض منها ــ فيرسلها اليه من عنده ويربح بها ماشاء ، ثم يأخذ عليها معلومه فوق ربحه ، فيتوهم الموكل أن هذه البضاعة مما اشتراه العميل وتعانى في جلبه !

ومنها قد يكون للعميل شركاء ، فيشتري منهم موهماً انه اشتراها من عند أجنبي عنه ، فيطلب ما يلزمه للموكل منهم ، فيقيد شركاؤه هذه البضاعة بالدفتر على حسب الاتفاق ، ويأخذ عليها المعلوم !

ومنها انه قد يستلم العميل الدراهم من موكله نقداً ، ويشتري البضاعة نسيئةً !

ومنها ان منهم من يقيد القيمة بأكثر مما اشتراه !

وكل هذا محظور . فعلى المتّقي ان يجتنب ما يمس شرف دينه ومروءته وتقواه ، وبالله التوفيق .

٢٤٢- عتّاب — هو من يحترف بنقل العنب زمن قطفه من محلّه الى البلدة ، وذلك في أواخر الصيف . فأصحاب كروم العنب ــ أو الضمّانة لها ــ ينظرون في العنب الذي لا يصلح أن يكون

زبيباً ، أو يكون ذا قيمة فيقطعونه عنباً ويوردونه الى الشام يبيعونــه الى « المتعيّشة » .

ولنقله من الكرم كيفية دقيقة ، بحيث لا يقدر كل احد أن ينقله من محلّه إلا « العنّاب » ، حيث أصبحت حرفته الخاصة به ، وذلك لان العنب يحتاج الى صف ضمن « سحّارات » من خشب بصورة لا يمكن غير العنّاب أن يصفّها أبداً . واذا تعدى أحد على تلك الحرفة بدون أن يكون عنده علم بصفّها ، فانها لا تصل الى دمشق إلا وهي تالفة ، ولا تباع بنصف قيمتها ، وباتقان صفّها من قبل أربابها تصل — عدا دمشق — بلاداً بعيدة — / كبيروت وحمص وحماه — كأنهـا قطعت ساعة وصولها ! فيأتي أصحاب العنب بـ « العنّابة » مصحوبين بدوابهم وسحاحيرهم ، فيملؤونها ويحملونها على دوابهم الى البلدة ، ويكون أصحابه متفقين مع المتعيّشة بأن يرسلوا لكل شخص منهم قدراً معلوماً، فيأخذ العنّابة لكلّ منهم ذلك القدر .

٧٥

وأصناف العنب كثيرة . المعروف منها بدمشق : الزيني ، أحمر ، أسود ، دربلي ، حلواني ، بيتموني ، برمقلي ، أصابيع زينب ، قشلميش. وكلّ من تلك الأصناف جميل الشكل لذيذ الطعم . فالمرغوب منه في أوانــه لا يتجاوز رطله الثلاثــة قروش ، وهو الحلواني والبيتموني والــدربلي . وأما الزيني والاسود فلا يتجـاوز القرشين . والأحمر لا يتجاوز القرش .

ومن جميع هذه الأصناف لا يصلح للزبيب إلا : الاحمر ، فالدربلي، فالقشلميش . وما عداها يباع عنباً طرياً . وما كان لا يصلح للأكل من العنب ولا الى الزبيب يبيعه أصحابه الى «الخمارات» ويعرف بـ«الكرت» يستخرجون منه الخمر .

وأحسن أنواع العنب وأطيبها بدمشق هو ما يأتي من قرية «دَارَيّا». وكافة أصناف العنب موجودة بتلك القرية . وهو على غاية من حسن المنظر وطيب الطعم . وكثير من أهلها يسافرون به الى مدينة بيروت ، فحمص ، وحماه وغيرها من المدن القريبة لدمشق ، يبيعونه بأثمان جيدة . وجميع عنب قرى دمشق لا يماثل عنب تلك القرية حتى ولا القرى المجاورة لها . فسبحان من جعل هذه الخاصية بها !

وقد يوجد عنب جيد في قرية « دوما » ولكنه لا يماثل عنب « داريا » . والغالب من كروم دوما — التي تبلغ ألوفاً من الفدادين — تقطع وتصنع زبيباً .

وبالجملة فهذه الحرفة من العنب تروج في موسمها رواجاً زائداً يتعيش الألوف ممن يتعاناها ، والله المسبب لا رب غيره .

ويرحم الله القائل :

يا صاح قد ولّى زمان الرّدي … والهمّ قد كشّر عن نابه
باكِرْ لكرم العنب المجتني … واستجنه من عند عنّابه
واعصره واستخرجْ لنا ماءهُ … لِكي يزول الهمّ عنّا به
ولا تُراعِ في الهوى عاذِلاً … أفرط في العذْلِ وعزّ به !

٢٤٣ـ عـوّاد

٧٦ هو من يضرب على العود بأصوله المعروفة مع اتقان الأنغام .

ويرى أهل الطرب : ان سماع العود هو أطرب من سماع كافة أنواع الموسيقى اذا كان الضارب عليه كما ذكرْ .

ويقال : ان أول من صنـع العود بطليموس صاحب « الموسيقى » وهو كتاب اللحون الثمانية .

وقد وجد في شامنا من تفوّق باتقان الضرب به . والمحترفون بها الآن كثيرون من الاسلام واليهود والمسيحيين ، يدعوهم من كان عنده وليمة للقيام بما يطرب المدعوّين . والآن كثير من الأكابر والمتوسطين تعلّموا الضرب على العود وأصبحوا يضربون عليه في بيوتهم .

ومما قيل في عوّاد :

فتن الانـام بعوده وبشدوه ِ شاد تجمعت المحاسن فيـه
حتى كأنّ لسانـه بيمينـه ِ وكأن ما بيمينـه في فيـه !

ولآخر :

وأغنّ قد أبدى لنا من عوده نغماً أصحّ بهالقلوب وأمرضا!
بيد اذا سخطت على أوتـاره نال الرفاق بسخطها يمن الرضى!

ولآخر :

غنّى على العود ظبي "سهم" ناظره ِ أمسى به قلبيَ المضنى على خطر
دنا إليّ وجسّت كفّـه وتراً فراحت الروح بين السهم والوتر!

وفيه تورية بالسهم والوتر المتنزّهين المحمودين على ألسنة شعراء دمشق في القرون الوسطى ، ولا يعرفان الآن .

ولبعضهم في هَجْوِ عوّاد :

واذا تربّع ــ لا تربّع َبعدها وغـدا يحرّك عوده متقاعسا
فكأن ُجرْذانَ المدينـة كلها في عوده يقرضْنَ خبزاًيابسا!

٢٤٤ عوّاماتي

هو بائع « العوّامة » ، ويقال له : « قلاّ العوّامة » . والعوّامـة : ما عملت مـن عجين متخمّر تكون

مائعاً لا جامداً كعجين الخبز ، يضعون لها عوضاً عن الملح « بورق » ، ويقطعون من ذلك العجين قطعاً صغيرة بواسطة ملعقة من خشب صغيرة معدّة لها ، ويقلونها بـ « مقلاة » كبيرة يضعون بها سمناً أو شيرجاً أو زيتاً مغلياً على النار حتى اذا امتلأت المقلاة يأخذون بتحريكهـا حتى تنضج ، ويحمرونها ، ثم يرفعونها من المقلاة ويضعونها / في إناء كبير مملوء قطراً مائعاً ، ويغطسونها حتى تمتلىء قطراً ، ثم يرفعونها الى وعاء كبير ــ وتعرف بالمغطسة ــ ويعملون أكبر قطع منها أيضاً ولا يغطسونها في القطر ، بل من أراد الشراء منها يضع بجانبها القطر ويلتّ منهـا بالقطر •

٧٧

وقليل من يتقن من الباعة عملها بأن يقليها بالسمن الخالص ويكون قطرها من السكر الناصح • ولو كانت على هذه الصنعة وأضيف الى العجين قبل القلي فستق فتكون في غاية اللذة • ولكن غالب العوّاماتية يضيفون الى السمن : الزيت والشيرج أو زيت المرّ ويقلون به •

ويكون صاحب هذه الحرفة مستعداً في دكانه لوجود طاولة لوضع صحون العوّامة عليها لمن أراد الأكل مع وجود كراس وسراحيات مع كاسات للماء • فيدخل من أراد الأكل فيأكل ما أحب •

ولا تبلغ قيمة الرطل منها أكثر من تسعة غروش • وفي زمن الشتاء في وقت الليل تروج رواجاً زائداً • فانّ الغالب من الناس الذين يرغبون السهر في الليل يشترون منها ويأتون بها لبيوتهم •

والمحترفون بهذه الحرفة قليلون ، ويغلب عليهم الفقر •

ومن العوائد في دمشق المتوارثة عن تلك القرون اتخاذ العوّامة طعاماً للّيلة الثالثة من ليالي المأتم ، وكذا لليلة الأربعين ، ولليلة ختام

السنة . وذلك ان غالب الأغنياء يوصون بعمل تهاليل ، كلها في هـذه الليالي أو في بعضها . فيذهب وليّ المتوفى وأقرباؤه الى شيخ اشتهر باقامة التهاليل في داره ، فيعطونه المقدار الموصى به للتهليلة ، أو المتبرع بها ؛ ويحضرون ليلة الميعاد غبّ اقامة الاذكار يضعون الطعام من عوامة ومعها غيرها — على حسب غنى المتوفى ، وشهرته ، والدراهم المعطاة في مقابلتها — كما تقدّم في « تهللجي » .

وبالجملة فلا بدّ من وجود العوامة في ذلك الطعام ولو وجدت سائر أنواع الحلوية — الدنيوية والأخروية — ولم توجد العوامـة ، فلا يقام للتهليلة وزن ، ولا ينوّه لها بذكر . فتأمّل ، وتعجّب !!

حرف الغين

٢٤٥ غالاتي

هو من يصنع المفاتيح ، المسمّاة بـ « السواقط » ، وانواعاً من الآلات الحديدية : كالغالات ، والمفاتيح ، والأقفال . ويكون مستعداً في دكانه / لكافة ما يلزم لحرفته من : « شواكيش » ، ومبارد ، وكمّاشات ، مع مفاتيح ، وأصناف الغالات والأقفال المصلّحة ، و « الرزز » و « الدقورة » ، وما شابه ذلك .

وبالجملة فهي حرفة قريبة من الحدادة .

٢٤٦ - غرابيلي

صانع الغربال والمنخل أيضاً .

و « الغربال » هو طار من خشب يثقبونه من أحد جانبيه أثقاباً متلاصقة لبعضها ، ثم يأتون بجلد الخيل فينقعونه في الماء ، وذلك بعد ازالة الشعر عنه ، حتى يلين جداً ، فيقطعونه سرائد ــ مثل الخيطان المعروف بـ « المصيص » ــ ويدخلون تلك السرائد بتلك الأثقاب التي بأحد طرفي الطار ويحبكونها في بعضها ، ويتركون مابين الحبكتين ثقباً

بقدر عين الديك أو أصغر على حسب الطلب ، حتى اذا تم عملها يضعونها في الشمس فتجف تلك السرائد وتيبس ، فحينئذ يصلح للعمل به •

ويستعمل في اخراج التراب من التبن والحبوب ، فيوضع به أي صنف كان من الحبوب أو التبن الذي خالطه التراب ويهزّ فينزل التراب من تلك الأثقاب ويبقى خالص الحب أو التبن •

و « المنخل » يصنع على هذه الحالة ــ الصنعة المذكورة ــ إلا انه عوضاً عن السرائد يصنع من شعر أذناب الخيل ، ويضيّقون أثقابهـا جداً • ويستعمل للطين والكشك وغيرها من المواد الدقيقة •

وكافة أصحاب الفلاحة والمغربلين لا يستغنون عن الغربال والمنخل أبداً •

وهذه الصنعة مختصة بصنف «النَوَر» ــ المعروفين بـ «القبط»ــ من العرب ، يتعيشون من عملها •

٢٤٧- غربواتي

هو صانع الغراء • و « الغراء » هو ما كان من جلود البقر المجاد طبخه حتى يذهب صورة الجلود، وتكبس حتى يصفو ماؤها ، ويعاد الطبخ على ما لم يذبْ من تلك الجلود حتى تذوب ، وتكبس ثانياً ، ثم تقطع قطعاً بقدر الكف ، وتجفف بالشمس والهواء ، وترفع ؛ ثم تباع غالباً للعطارين ينظمونه بالخيطان ، ويعلقونه على / حوانيتهم ، فيبيعونه على أصحاب الحرف الذين لا يستغنون عنه كـ : النجارين ، والصدفجية ، والقباقبية ، وغيرهم • ٧٩

وهي حرفة مهمة رائجة تنتج ربحاً متوسطاً •

٢٤٨- غـزّالة

هي من تغزل الصوف بـ «المِغزَل» ـ بكسر الميم ـ وهو مايغزَل به . وكيفة ذلك : ان تأتي المرأة بالصوف، غبّ غساله وتنظيفه ، فتنشفه وتسحب منه طاقاً ـ كالخيط وتلفه على دولاب المغزل ، وتبرم الدولاب حيث يكون ملصقاً به « مِرْدَن » من حديد ، وتتعهد الطاق بأن لا ينقطع ، وهكذا تبرم الدولاب وهو يلفّ على المردن . وعند تمامه تنقله من المردن الى « الشموط » وتعمله شللاً ؛ وتبيع تلك الشلل لأصحاب الصنائع . فيعمل منه الجرابات المعروفة بـ « الكرّادية » و « الشامية » . وتشتري الحكومة من تلك الشلل تصنعه العسكر « كليمات » لملابسها .

وهي حرفة يتعيش منها الكثير من النساء الفقراء .

٢٤٩- غـزولي

هو بائع الغزل وتاجره . و «الغزل» ما استخرج من القطن الخالص . وهو يأتي لدمشق من البلاد الأجنبية ربطات خالصة .

ويعمل أيضاً بدمشق ضمن « كرخانة » معدّة لذلك ، بنيت في آخر أرض « الدحداح » على نهر ثورا زمن ولاية مدحت باشا على الشام ، وجلبت لها الأدوات والآلات من البلاد ، ولم تزل تصدر من ذلك الغزل ربطات ، ولكنها أقلّ اتقاناً من التي ترد من البلاد .

وما يحضره الغزولي من البلاد ، وما يأخذه من تلك الكرخانة يبيعه على تجّار وصنّاع « الديما » يعملون منه الطاقات المعروفة بـ «صايات الديما» .

وهي حرفة شريفة تنتج ربحاً وافراً .

٢٥٠ - غسّال

هذه الحرفة متعلقة بحرفة «الدبّاغ» وهي غسل وتنظيف جلود الغنم والمعز وغيرها ، كما مرّ ذلك في حرفة « الدبّاغ » و « الشلاّح » .

٨٠

٢٥١ - غسّالة

هذه الحرفة مختصة بالنساء الفقيرات، تدعى لبيوت الأغنياء لأجل غسل وتنظيف الثياب ، فيأتين ويغسلن ما يكون لازماً غسله ، ثم يُعطَيْنَ أجرة على نسبة المغسول من ثلاثة قروش الى ستة قروش .

وهذه الحرفة رائجة بشامنا جداً ، حيث أن الغالب من التجار والأغنياء يستأجرون الغسّالات لأجل غسل الثياب ، كما شرحنا ، لذلك أصبحت هذه الحرفة رائجة .

ولا يتيسر — لرواجهنّ — الحصول عليهن في كل وقت ، والأغلب أن يتفقد قبل يوم أو يومين . لذلك أصبحت أجورهن مضاعفة بالنسبة لأجور النساء في القرى . فان المرأة في القرى تصرف يومها في شغل الفلاحة — وهو في غاية المشقة — بستين « بارة » وطعامها منها ؛ بخلاف الغسّالة في الشام فانها تأخذ يومياً ستة قروش — أو أقل — وتأكل عند من تشتغل عنده؛ ومع ذلك فاذا قيست بغسالات بعض البلاد — كمصر — فترى أجرتها أرخص ! إذ تأخذ الغسالة هناك على كل ثوب قرشاً ، عدا عن المنثورات — كطاقية وعمّة وجَوْرب ومنديل ونحوها — فانها ملحقة بالاجور بالثياب الكبيرة . نعم ! الصابون والحطب من الغسالة لأنها تغسل في دارها ؛ وأما في الشام فالمذكور يُهَيّأ في دار مستأجرها لأنها تغسل فيه .

هو صانع الغليون . و « الغليون »

٢٥٢- غلايني

هو من التراب المطحون المنخول ، يتخمّر في الماء ويعجن جامـداً ، حينئذ يعمل منه الغلايين بواسطة قالب يعدّ لذلك ، ثم تشوى في فرن معدّ لها ، وغبّ اخراجها من الفرن تدهن بالدهان المرغوب من أسود وأحمر وذهبي وغيره .

وهذه الحرفة كانت في الزمن السابق رائجة جداً ، نظراً لاستعمال أهل الشام للغليون يمتصون به « التبغ » وهو المعروف بـ « التتن » .

وصفة الغليون : كالزاوية القائمة بجوف لا يزيد عن الثلاثة أصابع من طرفيه ، وأعلى طرفيه ـ حيث يوضع التبـغ ـ يكون واسعـاً ، والطرف الثاني ضيّق . وكانوا يعتنون به كثيراً ، يعملون له «القصبات» الفاخرة التي كانت / تطول عن الثلاثة أذرع مرصعة بالصدف والنقوش اللطيفة . وهي مثقوبة يركّب بأحد طرفيها الغليون ، وبالطرف الثاني ـ مما يلي الفم ـ قطعة من « الكهرباء » النفيس . او ما صنع من الذهب او الفضة ، ويتفاخرون به .

٨١

ولكن الآن ـ بوجه الاجمـال ـ اهل دمشق لا يعتنون بـه . ولا يعتني به سوى البدو ، نظراً لعدم معرفتهم للفّ « السيكارات » ، فيشربون بالغليون .

وفي الغليون تشبيهات للشعراء غريبة ، ومقاطيع لهم كثيرة ، أورد عدةً منها العلامـة العارف النابلسي في « رسالة الدخان » . ومنه قول بعضهم :

يقولون : في الغليون أفرطت رغبةً ... وليس بشيء تقتنيه وتختارُ
فقلت لهم : ماذاك إلاّ لأنـه ... مضاهيَّ لا ينفك في قلبه النار !.

٢٥٢ مكرر - غنّام

هو من يتجّر في بيع الغنم • والتجار فيه أقسام :

منهم من يذهب لبلاد أرزروم وبغداد والموصل وحلب بنفسه أو مع شركائه ، أو ينيب أولاده أو من يستأجره على قدر رأس ماله ، ويأتي بالغنم الى الشام •

ومنهم من يكون له شركة مع أربابها في بلادها المذكورة ، فيحضرون له مطلوبه للشام فيتّجر بها •

ومنهم من يكون له غنم يعلفها في قرى الشام ، فيحضرها الراعي كل يوم ، ويرجع بها بعد انفضاض السوق •

ومنهم من يبلغه حضور أرباب الغنم من تلك البلاد ، ووصولهم الى أطراف الشام — كالمزة مثلاً — فيخرج تجار الغنم ويستقبلونها ، ويتساومون مع صاحبها الآتي بها إمّا شركة ، أو كلٌ يشتري مقداراً لنفسه ويبيعه •

ومنهم من له غنم في قرى الشام ، أو مع عربانها المخيّمين في ضواحيها •

وبالجملة فالغنم الكثيرة المورد انما هي من بلاد أرزروم وما جاورها، لكثرة عشائر الاكراد المخيّمة في تلك البلاد ، وما لها من مزيد العناية بها • ولذا كان غنم « المورة » لحمها أطيب من لحم غنم غيرها — كنَجْد — لبرودة تلك النواحي وخصب أرضها ، حتى أن شتاء ارزروم قد يدوم تسعة أشهر •

والمقصود أن هؤلاء التجار يتّجرون بالغنم في سوق مخصوص عندنا بالشام يقال له « سوق الغنم » ، يذهبون اليه قبيل الشمس ، حيث

تكونُ الغنم التي يراد بيعها أحضرها راعيها . ولكل تاجر مكان يقف فيه هو وشركاؤه ، فيبيعون الغنم على « اللحّامة » وغيرهم . والاسعار على حسب ظروف الوقت .

ومن تجار الغنم من يبيع لغريب قدمَ الشام بغنمه ، وله على كل رأس يباع قرش من مالكه وقرش من مشتريه . وهؤلاء فيهم كثرة .

وهي حرفة مهمة تحتاج لرأس مال كبير . وأهلوها من مشاهير المياسير . وأرباحها عظيمة .

حرف الفاء

٢٥٣ - فاعل

« الفاعل » هو اسم لمن يشتغل عند « المعلّم » أو « الصانع » من نقل ماء ، أو نقل أحجار ، أو رفع طين ، أو ما أشبه ذلك .

والغالب من الفعّالة في دمشق يشتغلون مع معلّمي « الطيّانة » و « المعامرية » و « القنياطية » من الصباح الى المساء .

وتبلغ أجرة الفاعل يومياً سبعة غروش ، يتعيّش بها ويستوفيها يومياً!

٢٥٤ - فاكهاني

هو من يبيع أصناف الفاكهة صيفاً وشتاءً . والفاكهة متعددة الانواع، ويدّخر الى الشتاء منها أصنافاً — كالتفاح والآجاص والسفرجل — بوضعها في الصيف على القش في محل مرتفع عن الرطوبة ، ويتعهدها بالتقليب ، فتبقى لزمن الشتاء ؛ وهي الفاكهة المعروفة بـ « الشتوية » ، وهي من أنواع أصناف مخصوصة من الفاكهة تدّخر بهذه الكيفية لزمن الشتاء .

وأما « الفاكهة الصيفية » فليست قابلة للادّخار مطلقاً — كأنواع

الدراق الزهري ، والغتمي ، والنيرباني ، والخوخ ، والمشمش المنوّع ، والآجاص ، والبطيخ ، والقراصيا ، وغيرها ... فهذه موسمها في زمن الصيف خاصة .

وفي زمن الشتاء يبيعُ الفاكهاني ما ادخره ـ مما قدّمنا ـ ومما يوجد في زمن الشتاء : كالبرتقال ، والليمون ، والرمان ، وغير الفاكهة كالكستناء ، والبلح ، والزبيب ، والتين ، وغيرها ...

٨٢ وغالب الفاكهانية / يرتّبون دكاكينهم ، ويضعون تلك الفاكهة مصفوفةً ضمن « جامات » من بلور ، مصفوفة تلك الجامات على رفوف فوق بعضها ، وبأرض الدكان يضعون في كل زمن من أصناف الفاكهة الذي يسرع فساده لأجل تعجيل بيعها . وكل صنف وحده بغاية الترتيب. وكل من رأى دكانة الفاكهاني يسرّ من منظرها جداً ، وتحدثه نفسه بأن يشتري منها شيئاً .

وبالجملة فهي حرفة رائجة بدمشق جداً ، تنتج ربحاً متوسطاً .

٢٥٥- فتّـال

هو من يفتل الحرير ، وذلك ان الحرير يبلّه أولاً بالماء ، ثم يضعه على « الكوفية » ، ويلف طاقة منه على ماسورة ـ والماسورة من خشب ـ ويتعاهده حين فتل الدولاب من قطع الطاق ، مع ضبط اللف على الماسورة ، حتى اذا أخذت الماسورة حدّها يقطع الطاق ويلفّه على ماسورة غيرها ... وهلمّ جرّا . وعند امتلاء جملة مواسير يضع تلك المواسير على محل يعرف بـ « شك الدولاب » ويعلق كل طاق من تلك المواسير على « جلخ » . والجلخ هو مركب من ستة أصابع خشب ، طول الاصبع ثلث ذراع ، يجمع تلك الأصابع

دائرتان من خشب : دائرة بأعلى الستة أصابع مستديرة بها بسعة ستة قراريط ، والثانية بالأسفل بسعة عشرة قراريط . فيعلق كل طاق من الماسورة على جلخ . وتتركب الجلوخة في محل يعرف بـ « الصندوق » ستة وعشرون جلخاً ، وتعرف جميع تلك الستة والعشرين جلخاً بـ « الدست » وحينئذ يدار دولاب كبير يشغل شك الدولاب المركبـة به المواسير ، والصندوق المركب عليه الدست ، فيلف ما على المواسير على الدست ، ويتعاهده الصانع أيضاً حين « برم » الدولاب من القطع مع غاية الضبط ، حتى اذا نفد ما على الماسورة من الحرير يعقد آخر الطاق بطاق ماسورة غيرها ، ويركبها محل الاولى ... وهكذا حتى يأخذ الدست حدّه ، فيرفعه من الصندوق ، ويسلم الى « المسدي » ، وهذه هي حرفة « الفتّالة » .

وهي حرفة أهلها كثيرون ، وتارة تكسد حتى تنزل أجرة الرطل الى الخمسة عشر قرشاً ، بحسب الطلب .

٨٣ وبالجملة فهي حرفة تنتج / ربحاً لسدّ القوت الضروري . فانه يلزم لادارة شغل الحرير ثلاثة أشخاص ، ولا يقدرون أن يشتغلوا في اليوم أكثر من رطل ؛ فاذا كان أجرة الرطل في زمن الكساد خمسة عشر قرشاً ، فتبلغ أجرة الشخص خمسة قروش لا تقوم بكفايته !

٢٥٦- فجّال

هو بائع الفجل . و « الفجل » هو نوع من الخضر معروف ، ينمو جداً في دمشق منه أنواع متعدّدة : فمنه « الاسلامبولي » وهو صغير الحجم مستدير . ونوع منه أيضاً مستدير ولكنه كبير الحجم . ومنه طويل يقرب طوله من ثلثي ذراع . ومنه أحمر وأسود القشر . ومنه أبيض اللون . ومنه

ما يكون حلواني المأكل . ومنه ما يكون حريفاً جداً يزرع في حزيران ويقلع في أيلول يباع للخضرية ومن أراد شراءه . وثمنه بخس جداً بدمشق ، فثمن « الجرزة » من الصغار بارتين ونصف ، والفجلة الكبيرة أيضاً بهذا الثمن .

٢٥٧ـ فحّام

الفحّام بائع الفحم .
و « الفحم » هو محروق شجر السنديان ، يقطعونه من أحراشه ومنابته ، ويضعونه في « وهدة » كبيرة يحرقونه بالنار ، حتى اذا شعل جميعه وتجمّر يهال عليه التراب ، ويترك حتى يطفأ ، ثم يأتون به ضمن أكياس من « جنفاص » الى دمشق ، ويبيعونه لمن يرغب شراءه .

ويروج جداً في زمن الخريف ، وذلك لقرب دخول فصل الشتاء ، فان جميع أهل دمشق يستعملون الفحم في زمن الشتاء لتدفئة بيوتهم . والبعض يستعملونه للطبخ .

وما يأتي من أرض البقاع يرغب فيه أكثر من الحوراني ، ويباع بثمن زائد . ويبلغ ثمن القنطار الخالي من الغش الى نحو مائة وخمسين قرشاً .

وهي حرفة تكسب ربحاً وافراً جداً .

والبعض من تجار الفحم ــ ممن لا يخاف الله تعالى ــ يغشه بادخال الاحجار عليه مع كثرة ناعمه المعروف بـ « الدقّ » ، وهم لا يفلحون مالم يتوبوا ، تاب الله عليهم .

٢٥٨- فرّام التتن

هو من يفرم « التتن » بواسطة آلة تعرف بـ « الهــاون » ، وذلك غب تخميره بالماء ساعتين أو أكثر يفرم بتلك الآلة .

والتتن أصناف : منه المعروف بدمشق بـ « البلدي » وهو يزرع في قرى دمشق . فمنه « الشبعاوي » و « الكوراني » وهو المرغــوب ، و « الكفرسوساني » و « الحسن كيف » وهو الأدنى .

ولا يباع التتن المفروم جهراً بل سراً ، لأنه يقدم من القرى بخلسة ، فيفرون به تجاره من وجه محتكريه واعوانهم ، ويخبئونه ، وكلما بيع القدر المفروم يعطون قدراً من الورق للفرام فيفرمه .

وهي حرفة كانت رائجة جداً قبل ضبط التتن من قبل الحكومة وذلك لاستعمال أهالي دمشق التتن المعروف بينهم بـ «البلدي» . ولكن الآن نظراً لاحتكاره ، وكثرة الضغط من قبل الحكومة على التتن المهرّب البلدي ، وكثرة جلب التتن المعروف بـ « الاسلامبولي » من قبل « الدائرة المشتركة بالمنفعة » فيما بينها وبين الحكومة المعروفة بـ « ادارة الرجه » ، فالأكثر من أهالي دمشق يميلون لاستعمال « الاسلامبولي » ، ولذلك أصبحت « حرفة الفرّام » في غاية الكساد .

والذي يحترف بها يختبىء في بيته كيلا يشعر به . اذ كثيراً مايوشى به الى الحكومة عن الفرّام وآلته فيضبط . والوقائع في ذلك لا تحصى .

وأما أجرته فانه يعطى عن كل رطل شامي يفرمه قرشاً واحداً ، وقد يفرم في النهار خمسين رطلاً .

٢٥٩- فـرّاط

هذه الحرفة من حرف الفـلاحة ، وليست دائمة بل موقتـه . وذلك شهر كانون حيث تنضج ثمرةالزيتون في قر ىدمشق ، ويصلح قطفها . فمن كان عنده زيتون ، أو كان ضامناً من أصحاب الحوانيت يأتون بأشخاص تعرف بـ « الفرّاطين » . وكل منهم بيده عصا طولها أربعـة أذرع تعرف بـ « المفراط » . ويأتي لهم بـ « سلالم » لكل منهم سلّم، فيضعونه على شجر الزيتون ، ويتسلقونه، ويأخذون بفرط الثمر ، فيسقط على الأرض ، فيجمعونه « الانفار » المعروفون بـ « الشوّارين » ــ وتقدمت « حرفة الشوار » في حرف الشين ــ ولا يزالون يفرطون من الصباح الى المساء . وكلما انتهوا من شجرة ينقلون السلالم الى غيرها . ويستوفون أجرتهم من صاحبالرزق ٨٥في المساء / ولا تزيد أجرة الشخص يومياً عن الأربعة قروش .

٢٦٠- فـرّاء

هو من يتجر بالفرو ، ويتقن خياطته، ولصقه ببعضه . والفرو أصناف متعددة :

فمنه المعروف بدمشق بـ «السمّور » و «الألما» ، وهو أعلى أنواعه. و « السمور الاحمر » و « السحاب » و « القاف » ، وهو الاوسط . و « الأبيض » و « السلوا » ، وهو الأدنى . وكل من تلك الاصناف يوجد منه أعلى وأوسط وأدنى . يسافر أصحاب هذه الصنعة في أواخر الشتاء للبلاد التي يوجد بها أصناف ذلك الفراء ، فيجمعون منه قطعـاً صغيرة من جلود وغيرها ، كل منهم على قدر ثروته . ثم يجمعونهـا ويضمون كل قطعة منجلودها الى ما يناسبألوانها وأجناسها ، ويخيطون

بعضها في بعض ، حتى يكمل من ذلك قطعة كبيرة ، تبلغ ذراعاً ونصفاً طولاً ، بعرض ذراع وربع ، وتارة تكون أكبر أو أصغر مما ذكر . ويطلق على هذه القطعة اسم « شقة » ، يوفقون من كل صنف شقات كثيرة ، كل شقتين متقاربتين في اللون والطول والعرض ، يلصقونهما في بعضهما ، فيدخل الجلد ، ويبقى الفرو للخارج ، ويجعلون لهما براوز من القماش ، يخيطونه على أطرافهما ، وحينئذ يعرف بـ « البدن » ، وأحد وجهيه أحسن من الثاني ، حيث يوضع على أطراف الفروة من الظاهر ، وما كان أدنى يدخل يوضع داخل الفردة من قبل الظهر . وهكذا جميع ما يجمعونه من الفرو ، يأتون به دمشق . وفي منتصف فصل الخريف يأخذون في بيعه على من يرغب . ولهم محل مخصوص بدمشق يعرف بـ « خان الفرو » ، وهو ضمن سوق الحرير .

ونظراً لشدة البرد بدمشق في فصل الشتاء ، تروج هذه الصنعة رواجاً جيداً ، فيتوارد الاغنياء والتجار والمتوسطون ، من رجال ونساء لشراء الفرو ، غب أن يفصلوا عند الخياطين وجها الى الفروة من أصناف الجوخ أو غيره ، يشترون ما يكفيه من الفرو ، ويعطونها الى الفراء ، فهو يفصل ذلك الفرو ويركبه على الوجه ويخيطه .

ولا يفتر من كان عنده فروة من إصلاحها وتجديدها ، لان ما كان ظاهراً من الفرو من أطراف الفرو ، كل مدة يحتاج الى تغيير ، فيأخذ لها قطعة ، ويصلحها الفراء .

وربما بلغت قيمة الفروة النفيسة ، التي هي من خالص « الألمـا » أو « السمور » خمسين ذهب . وكل شخص على حسب ثروته .

وللفراء أجرة التفرية ، على مقتضى أهمية العمل ، / من عشرة قروش

فصاعداً . ويوجد في دمشق بعض نساء يتقنَّ صنعة خياطة الفرو ولصقه على الوجه ، يتعيش من كسبه . ويقال للواحدة منهن « فراية » .

ومن أرباب هذه الحرفةمن يحدد الاجرةللتفرية بنصف ريالمجيدي.

وهي حرفة لتجارها مهمة ، تنتج ربحاً كثيراً ، خصوصاً اذا صادف عام شديد البرد ، واتفق شدة رغبة في طلب الفرو . وتارة يحصل كساد في تجارته لخفة البرد ، فينتج لذلك خسارة فادحة .

ولبعضهم موريّاً :

قلتُ لفرّاء فرى فؤادي — وزاد صداً وطال هجرا
قد فرَّ نومي وفرَّ صدي — فقال : لما عشقت فرا

٢٦١ - فرضي

اسم للعالم بالفرائض ، وما يتبعه من تقدير المقادير في الحقوق ، وتقسيم ما يقبل القسمة على سهامها ، بغاية من الدقة والضبط .

وهذه الحرفة أو الوظيفة مهمة جداً في دمشق ، وذلك لكثرة المياه في الدور ، وكذلك الاوقاف ، وتباين ما لاصحابها من الحقوق . وكل من أراد أن يعمر دمنَةً للماء ، سواء كانت قديمة وخرب طريقها ، أو حادثة ، فانه يحتاج لاحضار الفرضي وتقسيمه ، وفرضه الحقوقي . وغالب الدّمن لا تكون لشخص واحد ، بل لجملة من الناس ، فيكون لكل منهم جزء معلوم . فالبعض يكون له ربع الماء ، والبعض يكون له قيراطان ، أو قيراط ، أو ربع قيراط أو عشرة ، وهكذا ...

ولا يتقنها سوى من كانت هذه الحرفة حرفته .

وأيضاً لكثرة الماء في دمشق ، فله مجار تعرف بـ « سياقات » المالح

الى الماء القذر ، الذي هو مصب مجاري المياه القذرة • ويعرف بـ « نهر قليط » ــ بالتصغير ــ فتارة يخرب طريقها ، أو يحدث شيء جديد ، وهذه أيضاً لايتقن حسابها الا الفرضي •

والغالب أن لكل مخلة تشتمل على عدة دور ، من المئـة فأكثر ، سياقاً مخصوصاً بها ، فاذا صرف على اصلاحه مبلغ من الدراهم ، فان الفرضي يوزع ذلك المبلغ على أصحاب تلك الدور ، كل على حسبه ، على مقتضى قرب وبعد مجاري الدار من السياق •

وكذلك لما كان بدمشق أوقاف كثيرة ، فأصحابها يحتاجون كل عام الى أن يوزعوا ريع تلك الاوقاف على مستحقيها ، اذا كانوا كثيرين ، وكان الوقف متسلسلاً ، ومتفرعاً الى فروع ، حتى يفرض الحقوق ويوزعها على حسب أنصبائهم • وله في مقابلة / ذلك أجرة حسنة • ٨٧

ولدمشق فرضي رسمي ، ذو وظيفة في البلدية ، بمعاش معلوم • والغالب أنه هو الذي يحضر تقسيم المياه • وأمـا تقسيم الاوقاف ، فيتعاطاها هو ومن كان على شاكلته في اتقان هذا الفن الجليل •

٢٦٢- فـرواتي

هو من يصنع جلـود الغنم فراء • فتارة هو يشتري تلك الجلود ، وغب تنظيفها وتمشيط شعرها ، يصنع منها الفراء ، ويبيعها لمن يرغب لها • وتارة يأتي من يعتني بلبس تلك الفراء للفرواتي بجلود يصنعها له ويخيطها •

وفراء جلد الغنم صنفان :

صنف منها شعره صغير جداً ، وهو المعروف بجلد الخاروف الذي يذبح صغيراً ، قبل بلوغه العشرة الايام من ولادته ، بشرط أن يكون

أسود ، لا بياض فيه ، وهذا مرغوب ، وثمنه أغلى ، يصنعه الفرواتي فروة ، ويعتني بلبسها البعض من ذوي اليسار اذا خرجوا لقراهم ، وغالب المتوسطين يلبسونه داخل البلدة .

والصنف الثاني : ما كان شعره طويلاً ، من أي شكل كان ، أسود أو أحمر أو أبيض . وهذا لا يعتني بلبسه الا أهل القرى والعرب .

وهي حرفة رائجة جداً ، نظراً لكثرةطلب تلك الفراء ، في زمن الشتاء، وتنتج ربحاً متوسطاً .

٢٦٣- فطائري

هو صانع الفطائر . وهي ما كانت من ورق العجين المطوي المحشو باللحم أو القشطة بمقدار الكف . فاذا كان الصانع ماهراً فهي طعام لذيذ .

وباعة الفطاير كثيرون بدمشق ، ويبيعونها على المارة في مجتمعات الناس ، ومزدحمات الاسواق . ولكن لا يأكل من تلك الفطاير الا البائس الفقير ، ويأباها غيرهم ، لعدم اتقانها . والبعض يصنعونها ويبيعونها في دكاكينهم ، وهي متوسطة . نعم ! من اشتهر باتقانها جداً يبيع عند الصباح منها بكثرة ، اذ يتوارد عليهالمشترونمن كل فج . فمنهم من يأكل بدكانه ، كأنه حيث يكون مستعداً فيها لطاولات وكراسي ، وما يناسب ذلك . ومنهم من يشتري ويأخذ لداره .

وهي حرفة تنتج ربحاً متوسطاً .

٢٦٤- فـلاّح

الفلاح : هو من يعمل في الزراعة . وهي تهيئة الارض للزرع ، والقاء البذر / فيها .

وهي من الاعمال المهمة في العمران ، لأن قيام العباد بأقواتها ، وقيام الاقوات بالحرث ، وهي أبعد عن دخول الشبهة فيها ، لأنها لا تحتاج الى التخبير الكاذب ، أو الحلف ، أو ما تتسرب اليه الشبهات .

وقيام الحراثة بالأرض الطيبة ، والبذر ، والصانع ، والآلة ، والماء — وهو الذي عليه المعول — .

وقد أتينا في كل حرفة من حرف الفلاحة باسم محترفها ، وكيفية حرفته ، وادرجناه في بابه . ومما قيل في فلاح :

رب فلاح مليح قال : يا أهل الفتوة !
كَتَفَلّي أضعفَ خصري فأعينوني بقوة !

٢٦٥- فناراتي

هو من يصنع « الفنار » والفنار : ما كان مصنوعاً من خام أو ورق . يصنع بطول ثلثي ذراع ، باستدارة نصف ذراع ، يطبق وينشر ، أحد طرفيه الادنى مسدود بقطعة من نحاس اذا كان خاماً ، ومن جلد اذا كان ورقاً ، وبوسطه محل لوضع الشمعة ، وله من الطرف الاعلى المصنوع اما من نحاس أو جلد بابان مثقوبان من وسطه ، فتركيب الشمعة منه بطرفه الاعلى ، وبطرف الباب الاعلى علاقة من شريط للقبض عليها ، فتركب الشمعة وسطه وتشعل عند اللزوم وينشر .

وهذه الحرفة كسدت الآن ، وكانت رائجة في الزمن السابق قبل احداث الفوانيس وزيت الغاز ، وتنوير الطرقات والحارات .

٢٦٦- فوّال

هو بائع الفول المشهور بـ « المدمس » وهو الباقلاء . يضع محترفه كمية من الفول اليابس في جرة من فخار ، ويضع عليه ماء يغمره ، ويضيف الى ذلك الماء رائق ماء مسحوق القلي ، ويدفنه في تنور الحمام من المساء الى الصباح . ويشترط أن لا يكون التنور سخناً جداً . والمراد بـ « التنور » هو رماد الزبل الموقد في القميم . ويعرف ذلك الرماد بـ « القصرمل » وذلك الرماد حينما يخرج من الموقد يكون في غاية من الحرارة ، فتدفن فيه تلك الجرة المعروفة بـ « القدرة » ليلاً ، لينضج الفول المودع فيها . وعند الصباح تخرج تلك الجرة ، حيث يكون الفول قد نضج ، فيأخذه / لدكانه ، ويكون مستعداً بها ٨٩ لوجود اوان مملوءة من عصير الليمون الحامض ، أو الحصرم ، او الرمان أو الخل ، وماء مذاب به مسحوق الثوم ، والزيت ، والملح ، ومفروم البقدونس ، والبندورة ، مع وجود صحون فارغة ، وخبز ، وطاولة لوضع الصحون عليها ، وسراحيات للماء ، وكراسي للقعود عليها . فيدخل لدكانه من أراد الاكل ، فيضع له على قدر طلبه من الفول ، ويحمضه له من أي حمض أراد ، ويضع فوقه الزيت ، والبعض يأتي باناء ويشتري فولاً ، ويأخذه الى داره ، ويكفى عمله .

وهو طعام لذيذ اذا كان متقناً . وهو من أعظم المغذيات عند الاطباء .

وهي حرفة لا تنقطع في الشام في سائر فصول السنة ، وتروج في زمن الشتاء رواجاً كثيراً ، فتتوارد على باعتها غالب الفقراء والفلاحين ، وكثير من المتوسطين ومن الاغنياء يأتون به لبيوتهم ، ويأكلون منه .

وهي حرفة تنتج ربحاً متوسطاً ، ورؤي من أثرى من كسبها ، وحسن حـاله •

وما ألطف القائل على لسان ابن الفوال :

أنا ابن الذي لا ينزل الدهرَ قدرُهُ ... وان نزلت يوماً فسوف تعود

ترى الناس أفواجاً الى ضوء ناره ... فمنهم قيامٌ حولها وقعود

٢٦٧- فواخيري [1]

---

(١) في الاصل بياض صفحة •

حرف القاف

٩٠

٢٦٨- قانونجي

هو من يضرب على وتر القانون بمهارة تامة ، مع إتقان الانغام . والقانون من أعمال الموسيقى . ومتقنه يدعى للافراح مع الجماعة المسماة بـ « نوبة الآلات » . وكان قديماً يتولى الضرب به رئيس النوبة . وجماعة النوبة هم : الضارب على القانون ، وعلى العود ، وعلى الكمنجا ، وعلى الدف ، والنقارات ، والدربكة . ولهم في مقابلة حضورهم في ليالي الصفا ، وأيام الختان ، والسيارين ، أجرة تبلغ مئة قرش فأقل . والآن عظمت الرغبة في العود ، وقلت النوبة .

وما ألطف ما قال ابن المسجف من رجال فوات الوفيات :

لو أنت أبصرتَ الكمال وجَسَّهُ أوتار قانون له في المجلس

لرأيت مفتـــاح السرور بكفــه الـ يسرى وفي اليمنى حياة الانفس

٩١

/ وابن المسجف له قبة وضريح في بستانه ، في ناحية بساتين باب السريجة ، من محلات دمشق . وكان أديباً خليعاً ، من تجار دمشق . والآن نساء تلك المحلة وفلاحوها يعتقدون في ابن المسجف الولاية ،

وينذرون لتنوير ضريحه النذور ، ويجتمعون في بستانه حوله في بعض الايام ، فانا لله وإنا اليه راجعون .

٢٦٩- قابـلة

هي المصطلح عليها بدمشق بـ«الداية» وهي التي تولد المرأة عند وضعهـا حملهـا .

وللداية معرفة بالتوليد ، إما موروثة عن أمهاتها ، أو متلقـاة عن معلماتها . وبعد الوضع تتعاهد المولود بضعة أيام ، لتغيير ثيابه ، ودهنه بما يلزم من الزيت والآس ، مع البودرا ، فانها لا يتقن ذلك غيرها ــ كما مر بيان ذلك في باب الدال بحرفة الداية ــ .

وهي من الحرف المهمة في العمران .

وتعطى في مقابلة التوليد ، وتعهد الطفل في الاسبوع الاول يوم تمام السبعة الايام ، أجرة على حسب حال أهالي المواليد . فمن ليرة الى نصفها ، الى ريال مجيدي . وذلك من الفقير جداً . وكان قبل عشر سنين تكرم من أقرباء المولود بالإكرام المسمى بـ « النقوط » ، فربمـا بلغ ما تجمعه ألف قرش الى خمسمئة ، الى أقل ، على حسب البيوتات . وأما الآن فبطل هذا الرسم .

٢٧٠- قبّـاني

هو من يزن بـ « القبان » الاشياء الثقيلة التي لا يرفعها الميزان البلدي، البالغة لحد القنطار وزناً . فيوجدفي كل محلة بدمشق مركز لقباني يقبن لمن أراد من تلك المحلة ، ويأخذ منه الاجرة على حسب الوزن . الا ان منهم من لا تأخذه رأفة ولا رحمة ، فيأخذ ممن كان ضعيفاً مسكيناً أضعافاً مضاعفة .

والقبانية بأجمعهم يدفعون مبلغاً معلوماً لمن يلتزم رسم القبان من طرف دائرة البلدية ، حيث في كل عام يلتزم ذلك الرسم شخص بالمبلغ الذي يقع به المزاد عليه ، وهو يلزّم في كل محلة للقباني الموجود بها ، بمبلغ يتفق عليه الطرفان •

وهي حرفة مهمة تنتج ربحاً متوسطاً • وأهلوها كثيرون •

٩٢

٢٧١ - قباقيبي

هو صانع القبقاب • والقبقاب ماكان من صنف خشب الصفصاف والجوز، يقطعون كل قطعة بطول نصف ذراع فأقل ، بعرض ثمانية قراريط ، ويرسمونه على قدر قدم الانسان ، وينجرونه على مقتضى ذلك الرسم ، ويدقون به السير — المار ذكره في حرفة السيوري — •

والقبقاب منه ما كان مرغوباً في الزمن السابق، ويعرف بـ «الشبراوي» وهو يعمل له رجلان بمقدم ومؤخر القدم ، تطول عن نصف ذراع • ونوع يعرف بـ « نصف كرسي » أقصر من الاول • وفي زماننا هذا انتسخت هذه الانواع •

والرغبة الآن بالقبقاب المعروف بـ « قبقاب المهاجرين » • وذلك أنه لما قدم دمشق مهاجرون من الجراكسة ، أخذ بعضهم يحترف بهذه الحرفة، ويضع من ذلك الرسم المألوف عندهم • ثم أخذت أصحاب هذه الحرف بدمشق تقلد صنعته ، وترصعه بفصوص الصدف •

وأما شكله فمقدم قدمه لاصق بالارض ، ولمؤخره كعب بطول ثلاثة قراريط •

ومنها المعروف بـ « الكندرة » وصنعته قريب من قبقاب المهاجرين ،

إلا أنه لمقدمه ومؤخره أرجل بطول اربعة قراريط ، لاصقة بالقبقاب ، لأنها تنزل رؤوسها في تجويفتين من مقدم سطح القبقاب ومؤخره ، ثم تغرى بالغراء . وهذه ترغب لحمامات دمشق فقط ، يلبسها صناع الحمام وأتباعه في البراني ، وقد يلبسه أيام الشتاء كثير من الفقراء والموسويين تباعداً عن أوحال الشتاء .

وهي حرفة رائجة في شامنا ، نظراً لكثرة طلب القبقاب . فان كافة نساء دمشق يلبسن القبقاب في البيوت ، والاولاد الصغار ، والبعض من أهل القرى . وله سوق مخصوص بدمشق يعرف بـ « سوق القباقبية » ودكاكين متفرقة بجميع شوارع دمشق ، وتجار مخصوصون يتجرون به للبلاد التي لا يتقن بها صنعة القبقاب .

وكنت أرى كثيراً ممن يتجر به في مدينة بيروت واسلامبول وحماه وحمص وغيرها من البلاد القريبة والبعيدة . ولقد مررت على تلك البلاد ورأيت صنعة القبقاب بها ، ولكنها ليست كاتقان هذه الصنعة في دمشق، فان / هذه الصنعة في دمشق على غاية الاتقان والضبط ، على الخصوص صنعة الترصيع بالصدف ، إذ بغير دمشق لا يعرفونها أبداً ، فضلاً عن شغلها .

٩٣

وهي حرفة مهمة تنتج ربحاً متوسطاً ، وأهلوها كثيرون .

٢٧٢- قـرّاد

القراد : هو من يلاعب القرد المعروف بـ « السعدان » ، والمصطلح عليه بدمشق بـ « الجعيدي » . وقد مر ذكره في فوات حرف الجيم ، في هذا الجزء .

٢٧٣- قربي هو صانع القرب وغيرها . وهي ما كانت من جلود الغنم والمعز .فغب دبغها يخيطونها بصورة مضبوطة ، يعملون لها بطناً كبيراً ، ولها رقبة ضيقة ، وذلك لاملاء الماء بها ، يبيعونها على الرشاشين ــ المار ذكرهم في حرفة الرشاش ــ .

وتروج هذه الحرفة جداً في زمن سفر الحاج ، يأخذون منها كمية وافرة ، يملؤونها الماء في الطريق ، لقطع المفازات الخالية من الماء . وتباع على العربان المجاورة لدمشق وغيرها ، فتكون لهم اناء للماء ، حيث يكونون في رحيلهم أحياناً مقيمين في ربوع خالية من الماء ، كثيرةالعشب فيقيمون بها للمرعى ، ويردون الماء من مسافة خمس او ست ساعات ، فيملؤون القرب .

ويصنع أيضا نوع من ذلك الجلد ، يعرف بـ « المطرات » ، وهي بطول ثلثي ذراع ، مستديرة وبرأسها حلقة معلق بها سلسلة وكلاب من حديد ، وبطرفي رأس المطرة ثقبان يملأ منهما الماء ، ويصب أيضاً . ولها سدادات من خشب .

والمطرات مما لا يستغنى عنها في السفر للحجاج والمكارية وفي القرى ، حيث يأخذها العمال في الفلاحة ، حين لاماء بقربهم ، فيملؤون تلك المطرات ، ويشربون منها .

ويصنع أيضاً نوع يعرف بـ « السماء » : وهو كالمطرة ، إلا انيكون رأسه مكشوفاً ، وله بطرفيه حلقتان من حديد ، تجمع بينهما بسلسلة من حديد ، تستعمل في الجوامع والمساجد لشرب الماء / وهي تصنع من ٩٤

جلد مخصوص يعرف بـ « السرداقي » ، وهو ذكي الرائحة ، يلذ الشرب به ، ذو قيمة ، يباع بالدرهم .

ويصنع نوع يعرف بـ « الجراب » ، وصنعته قريبة من القربة ، إلا أنه صغير الحجم ، تستعمله العرب ، والبعض من أهالي القرى لوضع زادهم اليومي به .

وهي حرفة مهمة بدمشق ، أهلوها كثيرون ، تنتج ربحاً متوسطاً .

٢٧٤ - قساطلي

هو صانع القسطل . والقسطل : ما صنع من التراب الأحمر ، يعجن بماء كاف ، ويخمر ، ثم يعرك ، ويعمل منه أنواع القساطل ، بواسطة قالب لها مخصوص مجوف ، حتى إذا تم عملها يجففونها بالشمس حتى تجف ، ثم يشوونها بفرن مخصوص . وهي أنواع في الكبر والصغر :

فمنها — ما يعرف بـ « الزمر » ، وهو أصغر قياساً .

ثم « الشركس » أكبر من الأول ،

ثم أكبر يعرف بـ « الايراني » ،

ومنه « السبيلي » و « المجير » و « الزنجاري » وهو أكبرها قياساً.

وهي تعد لسحب الماء الحلو من الأنهر الى الحياض الموجودة في الدور وغيرها . وسنذكر إن شاء الله تتمة الكلام في حرفة القنواتي الآتية. وهذه الحرفة مهمة جداً بدمشق ، ولها محلة مخصوصة بها ، وتعرف بـ « القساطلية » رائجة ، تنتج ربحاً موافقاً .

٢٧٥- قشّاط [1]

بائع القشطة : وهي ما يستخرج من الحليب الخالص ، مما يتجمد على وعائه بالكيفية الآتية .

والقشطة أنواع :

منها — المعروفة بـ « الرغوة » : وهي أنه بعد حلب الحليب ، يبيت في إناء ، بعد أن يشرّع الحليب مراراً ، أي يعاد ويردّ ساعات مساءً . وفي الصباح يؤخذ ما يتجمع على وجه الإناء من خلاصة ذلك الحليب ، وهي الرغوة .

ومنها — أن يوضع الحليب في طبق ، ويشرّع كما ذكرنا ، ويوضع ذلك الطبق على ملال النار ، أي صفوته الحارة . وعند الصباح يجمع ما تجمد على وجه ذلك الطبق .

والبعض ممن يحترف بتلك الحرفة ، غب تشريع الحليب بالطبق ، يدق الأرز ناعماً ، أو النشا ، ويرش منه قليلاً على وجه الطبق ، وذلك لأجل أن تتجمع الرغوة بكثرة وتجمد .

وهي لا تصنع إلا في بعض قرى دمشق ، كقرية داريا ، والقدم ، وجرمانا ، والمليحة ، وجوبر ، وما جاورها من القرى .

وعند الصباح تخرج القشاطة من دمشق لتلك القرى ، وتجمع ما وجد بها من القشطة ، ويأتون بها الى دمشق .

ثم البعض منهم يكون مرتباً عند من يبيع القشطة بدمشق ، كالبغجاتية ، والكنيفاتية ، والبعض يدور لبيعها في الأسواق على من أراد شراءها . وتكثر في أيام الربيع حتى يبلغ تارة رطلها الى عشرة غروش . وفي

---

(١) هذه الصناعة والصناعات التالية حتى « القطيفاني » وجدت في أوراق مضافة ، ولهذا انقطع تسلسل الأرقام في الأصل .

الشتاء يبلغ أحياناً الرطل الى أربعين غرشاً • تعمل بها المآكل النفيسة ، كالقطائف العصافيري ، والكنافة المدلوقة، والبصمة المحشية، والمطبقات، مع أصناف الحلاوي المتنوعة ، التي تدخل بها القشطة • وهي إذا كانت خالصة من الغش ، تكون غاية في اللذة والطيب •

والبعض ممن لا يراقب الله تعالى يغشها ، بأن يغلي الحليب ، ويضع له كثيراً من الأرز الناعم ، أو النشا ، كما ذكرنا ، ويعمل منها المآكل المتنوعة ، فتكون على خلاف المرغوب •

وبالجملة فهي حرفة مهمة يحترف بها كثير من الناس ، يتعيشون من ربحها ، والله المسبب •

٢٧٥ مكرر - قشّاش

هو من يحترف بـ « القشاشة » • وهي حرفة من حرف الفلاحة ، موقتة في زمن حصد الغلال ، وتقلها الى البيادر ، فيسقط في أثناء نقلها كثير من السبّل في الأرض ، فيستأجر صاحب الفلاحة «القشاش»، ويسلمه آلة تعرف بـ «القاشوشة»، وهي عصا بطول أربعة أذرع ، مركب في رأسها عارضة بطول ذراع ونصف ، ذات أسنان من خشب ، يقش بها ما سقط من السبّل ، ويجمعه، ثم ينقل الى البيدر •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها بوقتها أناس كثيرون من الفلاحين •

٢٧٦- قصّار

هو من يقصر القماش ، أي ينقيه من الأوساخ والأدناس • وبدمشق محل مشهور من قديم ، يعرف بـ « عين القصارين » ، غربي دمشق ، بمحل يعرف بـ « المرجة » ، موجود

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

في ماء حلو ، حتى يلين الحمص ، فيضعه في المحمص ، وبأسفل الصاج موقد توضع النار فيه ، فيوقد بالنار اللينة ، ويشرع الصانع بتحريك الحمص بقطعة من خشب حتى يجف ويستوي •

والمحترف بها يحمص أيضاً أنواع البزر ، كبزر البطيخ الاخضر واليقطين والكوسا وفستق العبيد وغيره ، على هذه الصورة • وأيضاً يعمل « البشار » ، وهو من حب الذرة ، ينقعونها بالماء حتى يلين ، فيضعونها في المحمص ، ثم يرشون عليها الرمل الناعم ، ويحركونها بمقشة ، فينفش وهذا يباع في الشتاء على الاولاد الصغار ، يرغبونه جداً •

وأما القضامة ، فاذا كان حمصها كبيراً ، وتحميصها متقناً ، فانها لذيذة جداً ، ويرغب بها كثير من الناس ، من غني وفقير ، وترسل أحياناً هدايا الى البلاد التي لا توجد بها •

وهذه الحرفة رائجة جداً بدمشق ، ولا تخلو جادة من وجود محمص أو أكثر • والله تعالى المسبب •

٢٨٢ - قطيفاتي

هو صانع القطائف والكنافة ـ الآتي ذكرها في حرف الكنفاني ـ • وأما القطائف : فهو ما عجن من الطحين الخالص ، وأبقي مائعاً حتى يختمر جداً ، فيسكب على صينية من نحاس ، موضوعة على نار لينة ، حتى ينضج ، فيقلع من تلك الصينية ، ويصب غيره •

وهو نوعان : منه الكبير المعروف بـ « المطبق » ، وقرصه كبير مستدير • ومنه ما يعرف بـ « العصافيري » ، وقرصه بقدر الريال • وأجوده المخمر ، النقي البياض ، كالاسفنج •

ثم ان المطبق يحشى بالفستق المدقوق ، المضاف اليه السكر مع ماء الزهر ، أو بالقشطة ، ويقلي بالسمن ، وغب قليه يغرق بقطر السكر ، وهو لذيذ الطعم جداً .

ذكر صاحب التذكرة : أنه معدّل ، يخصب البدن ، ويولد الدم الجيد ، ويهضم سريعاً ، فيغذي ويقوي الاعضاء ، وهو خير من الكنافة ، وإن أكل قبل الطعام مَنَعَه أن يثقل ، وهو من أغذية الناقهين ، ومن عجزت قواهم . ومن أكثر من أكله ، واتبع بالسكنجبين ، سمن سمناً عظيماً ، خصوصاً بالجوز . اه

والمعروف بـ « العصافيري » يصفُ في صحن صفوفاً بعضها فوق بعض ، ويوضع فوق كل واحدة ملؤها من القشطة ، وكلما انتهى ختمُ صف على الصحن ، يوضع فوقه صف آخر ، حتى يمتلىء الصحن على شكل مخروطي ، ويعقد له من قطر السكر ، ويؤكل به . وهو أيضاً لذيذ جداً ، والبعض يستعمله بصورة تعرف بـ « المغطّس » ، لأنه يغطس في الدبس ، وذلك أن يوضع مقدار من الدبس والسمن في قدر من النحاس ، ويغلى على النار ، فاذا ذاب السمن ، وامتزج بالدبس ، يوضع من ذلك القطائف الصغير ما كان هيء حتى يأخذ في الاستواء ، ويتشرب السمن والدبس ، بدون أن يتحات . ثم يخرج لطبق ، ويرش فوقه جوز مدقوق غير ناعم . وهي أكلة لذيذة أيضاً .

وهذه الحرفة لم تزل رائجة في دمشق ، على الخصوص في زمن الشتاء والربيع ، تروج رواجاً زائداً ، وفي زمن الصيف نظراً لكثرة وجود الفاكهة يقل محترفوها .

وهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون . والله أعلم .

ومما ألغز في في قطائف :

ما اسم أبا نوا راسه[1] وعليــه دهري قــد سطا
فغــدا علينا طائفــاً وسعى هنــاك بلا ُخطى
وإذا قــلاه المرء وا صله وبالغ في العطا
هو في الحلاوة صادق إذ كان أكثره قطا

٢٨٣- **قطعجي** صانع القطع . والقطعة : لوح فيه حديث نبوي ذو حكمة ، أو شعر ، يجيد كتابته خطاط جميل الخط ، مع النقش الجميل ، إما على ورق ، وإما على بللور ، ويضعون له «بروازاً» من الخشب المذهب ، المعروف بـ « للقِـدّة » الرفيعة ، ويبيعونها على من يرغب شراءها . وغالب أصحاب حرفة الحلاقة ، والتتنجية ، والشربتجية ، والضوندرمهجيه ، ومن شاكلهم ، يرغبون في تلك القطع ، يعلقونها في بيوتهم[2] ، وهي تنتج ربحاً قليلاً . وأهلوها قليلون . وثمن القطعــة من ثلاثة قروش فصاعداً .

ورأيت من أحد مشاهير الخطاطين بدمشق ، عمل قطعة ، وأوسعها من النقوش ، وتغالى في ثمنها الى حد كبير جداً ، ثم بيعت بعد وفاته بثمن / قدره خمسون ذهباً . ٩٥

والآن صار يأتي من الآستانة أوراق قطع مطبوعة بماء الذهب ، ثمن الواحدة أقل من قرش ، وهي في غاية من حسن الخط ، وكثــير من

(١) كذا في الاصل . ولم أهتد الى معناه .

(٢) لعلها في دكاكينهم .

يشتريها ، ويجعل لها عند المراياتي « بروازاً » . وهذا مما قلل الرغبة في محل القطع بالشام ، وأوجب كسادها نوعاً ما .

٢٨٤ - قطّــان . هو بائــع القطن وتاجره . والقطن معروف . وهو نبت يزرع في نصف نيسان ، ويبلغ في تشرين الاول ، يخرج على ساق ، ثم يتفرغ ويزهر ، فيخلف ثمراً كالتفاح ، يفتــح عن القطن محشواً في خلاله ، يقلع في كل سنة ، يزرعونه بدمشق في بعض القرى ، كقرى : قبر الست وما جاورها ، فانه ينمو هناك . وقد جربت زراعته في غيرها فما نجحت . ولربما كان ذلك بخاصية في تلك القرى ، فينمو بها القطن دون غيرها ، اما بخاصية بالماء أو التراب ، كما شاهدناه بغيرها من القرى كزرع القنب والحور ، فانه لا ينمو ولا يصلح الا في قرية المليحة وما جاورها من القرى ، وكالبطيخ المعروف بـ « الأصفر » فأنه أيضاً لا ينمو وينجح الا في قرية دوما ومسرابا وحرستا ومديرة فقط وماء تلك القرى واحد . فسبحان من جعل في كل شيء خاصيّة ليست لغــيره .

فيأتي زراع القطن به غب قطعه الى دمشق ، ويبيعونه الى القطانة ، وهم يحلجونه ، ويخرجون البذر من القطن ــ وقد مر ذلك في باب الحاء في حرفة الحلاج ــ .

وهي حرفة مهمة بدمشق ، ولها سوق مخصوص ، يعرف بـ «سوق القطن » ، يباع به القطن على من يرغب شراءه .

وتبلغ قيمة القنطار الف غرش عند شدة طلبه ، والف وثلاثمئة عند كساده[1] . ويتراوح الثمن بين القيمتين في الحالة الوسطى .

---

(١) لعل العكس هو الصواب .

٢٨٥- **قفصجي** هو المحترف ببيع الاقفاص . وهي تصنع اما من القصب ، واما من الشريط .ومنها الكبير لوضع الدجاج وما شاكله . ومنها الصغير والمتوسط . وذلك لوضع أصناف الطيور وتربيتها ، كالقنايرة ، والشحرور / وغيرها . وتارة يؤتى بها من البلادِ الاجنبية ، وهي أقفاص نحاسية ، لطيفة المنظر .

٩٦

وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً ، وأهلوها فقراء قليلون . والله أعلم .

٢٨٦ **قفيلاتي** هو الغالاتي المتقدم في حرف الغين . ويعرف قديماً بـ « القفّال » . وتطلق بدمشق هذه الحرفة على كل من الصنفين . والمصطلح عليه عند الاكثر هو الغالاتي .

وللبها زهير ملغزاً في قفل :

وما أسودٌ قد أنحَلَ البَرْدُ جسمَهُ
وما زال من أوصافه الحرص والمنع
وأعجبُ شيء أنه الدهرَ حارسٌ
وليس له عين وليس له سمع

٢٨٧- **قففي** هو صانع « القفف » و « السرايج » وهي تصنع من قش يعرف بـ «الحلفا» وهو نبات بطول فوق ذراع ،وساقه رخوة هشة ، وعليها زهر أبيض ، ينبت في أرض المرج من دمشق ، وأرض حوران ، وغور بيسان ، يأتون به فيفتلونه ويعملون منه القفف والسرايج .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

٢٨٩- قمرجي معناه في الأصل : صانع القماري •
والقماري : هي النوافذ للمساكن من بللور ممسوك بجبصين محكم ، على قدر النافذة، يوجد في البيوت القديمة • والنافذة الواحدة تسمى «قمرية» وكأنها سميت بذلك لانه يوضع فيها « القـمري » ــ الطائر المعروف بـ « كريم » ــ •

والآن « القمرجي » : اسم لبائع البللور • والبللور يأتي من البلاد الاجنبية ، يستعمل للنوافذ والشبابيك • و « القمرجي » يكون مستعداً في دكانه الى أصناف من البللور من قطع صغيرة وكبيرة ومتوسطة وملونة مع ما يلزم من معجون وجبصين ، ومقطع الى البللور يعرف بـ «الألماسة» يقطع بها البللور إذا كان كبيراً يصغره ، أو غير مستو فيسويه • وهذه الألماسة مما لا يستغني عنها القمرجي ، ودائماً تكون معلقة في قيطانة في رقبته • وهي قطعة من الألماس مركبة على قطعة من عظم ، كمقطع الاقلام•

وهي حرفة رائجة ، مما لا يستغنى عنها خصوصاً قرب فصل الشتاء ، تروج رواجاً جيداً ، وتنتج ربحاً موافقاً •

٢٩٠ - قميمي هو قيّم قميم الحمام ، يجعل الزبل ويشتريه للوقد في تنور الحمام ، ويكون تحت يده « وقاد » ــ ويأتي إن شاء الله بيانه ــ وأجير • فأما الوقاد فلوقد التنور ، وذرّ الزبل فيه ، وأجرته يومياً من معلم الحمام•••[1] وأما الأجير فلنشر الزبل ، وجمع رماده وهو القصرمل ، وأجرته يومياً •••[1] وأما القميمي فأجرته •••[1] وقد تقدم ذكره في حرفة الزبال ، في باب الزاي •

---

(١) بياض في الاصل .

٩٨

٢٩١- قنّاب

بائع القنب . والقنب : هو نبت يزرع في نيسان ، وحبه يعرف بـ«القنبس» ويبلغ في أيلول ؛ ويخرج على ساق يعلو أربعة أو خمسة أذرع . وقد تقدم الكلام على قشر لحائه في حرفة الحبال . وغب قشره تبقى قضبانه ، ولا تصلح الا للوقد ، فيجمعها القنابة رزماً كبيرة ، ويأتون بها من القرى على دوابهم الى دمشق ، فيبيعونها على الخبازة لاصحاب الافران ، وتروج في زمن الشتاء رواجاً كثيراً .

٢٩٢- قنواتي

هو المحافظ على طوالع الماء ، وسير الدمنة . ويعرف في دمشق الشام بـ « الشاوي » ، يفتش على الطوالع التي تحت نظره ومراقبته ، ويتعهدها دائماً من الوسخ ، وورق الشجر ، كيلا يدخل في قساطلها فيسدّها ، فيأتي القنواتي المذكور ، فيعزلها جانباً ، ويمخضها بواسطة قصبة تطول عن خمسة أذرع ، ليسلك الماء . وكثير من الدمن تكون قديمة ، فيضيع بها الماء ، فيأتي بقصاصة الجلود ، ويضع منها واحدة فواحدة بفم الطالع ، مكان انحدار الماء ، وهكذا حتى يضع كفايته ، فيسوقها الماء للمحل الذي ضاع الماء منه ، فينسد بتلك القصاصة ، فيسلك الماء بمجراه . ولكل طالع مقاسم لعدة دور ، يذهب اليها الماء منه ، فيخدمها القنواتي دائماً أبداً ، حتى يكون الماء متواصلاً لمحلاته . وله اجرة معلومة على كل دار ، يأخذها إما شهرية أو سنوية .

وكانوا في الزمن السابق يستعملون عوضاً عن قصاصة الجلود زبل الدواب . وللشاوي المذكور مهارة في سحب الماء من الانهر والطوالع الى حياض الدور ، وذلك لمن رغب في ذلك .

وحيث كان الماء الموجود داخل البلدة ، والمختص للدور ، هوحقوق لاربابه ، فمن كان له حق في ماء ، أو تملكه حديثاً وأراد سحبه لداره ، أو تحويله لجهة أخرى ، أو تعطل طريقه ، فانه يأتي بالقنواتي المذكور ، فيشق له الطريق ، ويبحث عن سير دمنته القديمة . واذا كان حادثاً ، أي مشترياً جديداً ، أو أريد سوقه الى مكان جديد ، يشرع في عمل دمنة جديدة لا تمس دِمَنَ الغير ، ويشرع في ممر جديد ، مؤلف من أحجار وآجر ، حيث / يستغرق وضع القسطل فوقه ، ويدخل قسطلاً في قسطل ، حيث يكون رأس القسطل ضيقاً ، ومن جانبه اللذني مفتوحاً ، فينزل به رأس القسطل الثاني ، وهلمجرا ... تمد القساطل موصولة في بعضها ، والبناء تحتها ، ويلحم على تلك القساطل بقطع من اللاقونة ، وهي ما عملت من مدقوق القطن ، وقليل الكلس مع الزيت الخالص ، تدق في بعضها دقاً جيداً ، ويلحم بها تلك الوصولات ، فتضبطها ، وتمنعها من التنفس رأساً ، ويبنى بجانبي القسطل أيضاً بالآجر والمونة ، حتى إذا علا البناء على جانبي القسطل يُقَبَّى عليه بالآجر ، فيكون القسطل محفوظاً ضمن ذلك البناء ، ويسحب هكذا حتى يبلغ الحوض المسحوب اليه ذلك الماء .

٩٩

وتبلغ أجرة عمله يومياً خمسة عشر غرشاً فأكثر .

وهي حرفة مهمة بدمشق ، لا يتعاطاها الا المسيحيون ، ولهم بها مهارة تامة ، تنتج ربحاً جيداً .

٢٩٣- قنياطي

المصطلح على القنياطي بدمشق ، هو كاسح الأخلية . ويسمى قديماً بـ « السراباتي » . وتسميه العامة

معزل الخوارج ، وهي بيوت الأخلية ، ومحلات القذر ، حيث أن غالب دور دمشق لأخليتها سياقات ، ولكل محلة تحتوي على دور سياق كبير ، تجتمع عليه تلك السياقات ، ثم تصب تلك السياقات بأجمعها على النهر المعروف بنهر بردى ، ونهر قليط . ونظراً لكثرة الماء بدمشق لا تخلو دار من الماء . ويكون غب خروجه من الأحواض التي هي ضمن الدار الى أخليتها نزوله على السياق ، فيدفع ما تجمع من تلك الأقـذار الى السياق . ولكثرة تجمع الأقذار تنسدُّ السياقات المذكورة ، وتارة يتهدم طريقها .

وأما الدور التي لا ماء بها ، المتطرفة عن البلدة ، فان لبيوت أخليتها آباراً ، وكذلك قرى دمشق ، فتمتلىء تلك الآبار في كل حين ، فيؤتى بأصحاب هذه الحرفة ، يصلحون ما تهدم من السياقات ، وينظفونها من الأقذار ، ويسهلون مجراها .

وهذه الحرفة لا يحترف بها بدمشق إلا اليهود ، ولهم بها خبرة تامة، ١٠٠ وقد يعمل بها غيرهم . ونبه التاج السبكي / في « معين النعم » على أن من حق صاحب هذه الحرفة الاجتهاد في تنظيف الأسربة والقنى ، والإخبار عن ملئها وفراغها وتنظيفها بصدق ، لأنها مغيبة عن ملاكها ، ولا يمكنهم كشف ذلك وتعاطيه بأنفسهم غالباً .

وهي حرفة لا يستغنى عنها .

ولفظ « قنياطي » يشبه أن يكون محرفاً عن « قليطاتي » باللام ، فأبدلتها العامة نوناً ، نسبة الى نهر قليط ، النهر القـذر في الشام . ويطلق على كل ما ينساق اليه من المجاري ، وذلك لأن عمل صاحب هذه الحرفة فيه .

٢٩٤- قهوجي

هو قيم القهوة ومديرها من تحت إشارته، سواء أكان صاحبها ـ وهو النادر ـ أو مستأجرها ـ وهو الغالب عندنا في الشام ـ . ثم إن القهوجي يحتاج الى أشياء لا يتم أمر القهوة إلا بها ، وهي عدة القهوة ، مثل كنبات وكراس وطاولات ، مع أصناف الملاهي، من نرد وضومنا وشدة ورق ، وياردو [1] . وكذلك الى صناع ، منها لطبخ القهوة والشاهي . وأجراء لسقي الماء ، وتقديم قطعة نار لمن يستعمل السيكارة . وصناع لتهيئة الأراكيل وغسلها وتنظيفها ، مع فرك التنباك ، وتقديم الأراكيل لمن يرغب الشرب بها ، فيخرج الشخص للصانع التنباك من جيبه فيهيئه له ، ويأتي له بالأركيلة.

والقهاوي كثيرة بدمشق . فكل محلة لا تخلو من عدة قهاوي . والقهاوي التي ضمن البلدة يكون رواجها كثيراً في زمن الشتاء ، وفي فصل الصيف يزهد بها لشدة الحر . وغالب الأهالي ينتشرون لجهة القهاوي كثيراً لدمشق التي تروج في زمن الصيف ، كما أنها في فصل الشتاء يزهد بها لشدة البرد ، وهي الموجودة في جهة المرجة ، على شاطئ نهر بردى ، فيقعدون بها ، ويتناولون القهوة والمرطبات ، كالليموناطة وشراب الورد والتوت وغيرها ، ويشربون التنباك والسيكارات ، ويلعبون بتلك الملاهي المشروحة أعلاه . والبعض ممن يتعاطى المسكرات ـ والعياذ بالله تعالى ـ يذهب لجهة الباب الشرقي في حارة النصارى ، حيث يوجد هناك قهاوي متعددة تعرف بالجناين ، في باب توما ، وقاصدوها يتعاطون القهوة مع الأراكيل / والمسكرات. ١٠١

(١) هو البلياردو المعروف .

وبالجملة ، فالقهاوي متفاوتة في مظهرها وموقعها وقيّمها ، والداخل لكلّ يكون على حسبها .

وهي حرفة رائجة جداً ، صيفاً وشتاءً .

والبعض من القهاوي يكون أجرة الدخول اليها ، والمكث بها ؛ بعشرين بارة ، والبعض بعشر بارات ، وبخمس بارات أيضاً .

وعلى كل حال ، فلا يدخل تلك القهاوي من كان ذا شهامة أو عقل أو دين ، حيث أنها مجمع الأسافل والأراذل . والجنائن المذكورة يخبر الكثيرون بأن الداخل اليها يصرف نحواً من عشرين قرشاً ، وهذا اذا تمسك بحبل الاقتصاد ، وإلا اذا كان جواداً خيّراً ، فانه لا يكفيه المئات من القروش . نسأل الله السلامة ، وحسن العاقبة .

ويرحم الله الشيخ العلمي حيث يقول في نصيحة :

واحذر دخولك للقهوات إن بها … جل الفواحش مع كذب وغيبات

كم قهوة أصبحت للهو جامعةً … وكم بلايا بها لأهلِ الديانات

كمحنة شغلتهم عن بيوتهم … وعن صلاة وأوراد وطاعات

٢٩٥ - قوّاص

هو من يخدم القناصل من الأجانب الموجودين ، خدمةً خاصة لذاته ولحرمه . ويكون ذا أمانة وصيانة، وهيأة لطيفة ، بسطة في الجسم ، يصاحب القنصل أو حرمه ، ويمشي في الطريق أمام القنصل ، لابساً أثواباً من الجوخ ، مزخرفة بأنواع الشريط المقصب ، متقلداً سيفاً أينما أراد القنصل الذهاب ، يكون ماشياً أمامه ، أو راكباً ، فيكون راكباً بجانب العربجي ، ويستخدمه بمهماته الخاصة .

والقواص أرقى درجة من الخادم المعروف . ومعاش القواص من ثلاثمئة قرش فأكثر .

٢٩٦- قوّاد

القواد الملعون ، وهو الديوث ، أشهر من أن يعرف . والمصطلح عليه ، على اسمه ، بدمشق تصريحاً بـ « العرصة » ، وكنايةً « أبو نجيب » .

والأشقياء المحترفون بالقيادة نوعان :

فمنهم — عرصة الأكابر ، الذين هم يرتكبون الفواحش — والعياذ بالله تعالى — وهذا يكون لديهم مكرماً مبجلاً عندهم / ذا أمر ونهي ، نافذ القول ، يتيه على الناس ، فيراعى خشيةً ممن ينتمي اليهم ، ويقود لهم .

١٠٢

ومنهم — عرصة العامة الأخباث ، فيأتون لهم بما يرغبون ، مما لا ينبغي التصريح بذكره .

وكان من اللازم عدم ذكر هذه الحرفة الخبيثة الملعونة ، الملعون كل محترف بها . ولكن إتماماً لهذا المشروع ذكرنا هذه الجملة . ولا يشك أحد ممن له أدنى عقل أن صاحب هذه الحرفة خال من الدين والمروءة والعقل والشهامة والعفة والكرامة والصيانة . وقد اتفق العقلاء على أن القيادة أعظم وباء لنسف معالم الكمال ، وانها ما فشت في قوم إلا وأفسدت عمرانهم ، وبلادهم ، وأوطانهم ، وجعلت عاليها سافلها . ولهذا يهتم المسيطرون في بعض البلاد التي فشا فيها وباؤها الى استئصال شأفتها ، وذلك بعقد مجتمعات كبيرة ، لما استيقنوا ما يكون من نتائجها الوخيمة .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

بحيث لا يقف على دكان وينشد شيئاً مما ينشده على الدكان التي قبلها ولا بعدها ، إلا بعد مسافة طويلة ، حتى يردد بعض ما قاله .

وهي حرفة دنيئة يحترف بها من القوالة كل فقير ودنيء . والله أعلم.

٢٩٨- قومسيونجي

هي حرفة حادثة بدمشق . وهي أن القومسيونجي له عمال [١] وشركاء في البلاد الأجنبية وغيرها ، فيأتي اليه التجار ، ويطلبون منه أصنافاً من التجارة ، كل تاجر على حسبه ، ويحررون فيما بينهم أوراقاً بما يتفقون عليه ، ويدفعون له دراهم ليأتي لهم بما يرغبونه ، وله أجرة يأخذها ، وتعرف بـ « العمولة » ، في كل مئة قرش قرشان ونصف . واذا كانت البضاعة ذات قيمة عظيمة فيتفقون على مبلغ يوافق الطرفين ، وبذلك يتوفر على التجار سفرهم الى البلاد لجلب البضائع ، وتتوفر المصروفات والأتعاب الشاقة براً وبحراً ، ويتوفر عليهم زمنهم .

وهي حرفة مهمة ، تنتج ربحاً موافقاً ، لكن ينبغي أن يكون صاحبها متصفاً بصفات الكمال ، من حسن الادارة والسياسة مع التجار ، والأمانة والصيانة التامة ، وعدم استعمال الكذب . ولقد رؤي من أثرى من هذه الحرفة ، ونجحت أحواله ، بعد ما كان لا يملك قطميراً . فسبحان ميسر الأسباب .

٢٩٩- قونطورانجي

هو اسم لمن يتعهد بأرزاق العساكر، كالأرز والسمن واللحم والحنطة والشعير والسكر والبصل وغيرها

(١) يريد عملاء .

من أرزاق العسكر وملبوساتها ، بمبلغ معلوم ، غب اجراء المناقصة في الثمن ، فيما بين القونطوارنجية ، يتقرر مثلاً كل صنف على شخص ، أو جملة أصناف على شخص ، فتحرر عليه أوراق بذلك ، مضمونها أنه مكلف من ابتداء التعهد لنهاية السنة أن يقدم ما تقرر عليه من الأصناف من / عدد أو مكيل أو موزون يومياً ، على حسب الطلب ، لآخر السنة، ١٠٤ والقيمة ما صار القرار عليه حين التعهد . ثم بعد ذلك الأمر ، فالربح والخسارة راجعان لحظ المتعهد ، اذا رخصت الأسعار فيربح ربحاً زائداً، واذا انعكس الموضوع ، تقع حينئذ الخسارة الفادحة . واذا تأخر عن أداء ما تقرر عليه في زمن الغلاء ، فيشترى المطلوب ، ويخصم عليه الفرق من أصل مطلوبه . وقد شاهدنا من أثرى من هذه الحرفة ، ومن أصبح لا يملك درهماً .

وبالجملة فهي حرفة تجارية تتحمل الربح والخسارة .

٣٠٠ - قولجي

هو من يحافظ على بيادر الغلال ، يستأجره العشار بأجرة معلومة . وهذه الحرفة موقتة زمن الصيف فقط ، وذلك عند تكليف الحكومة أخذ أعشار القرايا لمن يرغب ، وكل من أخذ عشر قرية أو أكثر ، يحتاج الى « قولجية » ، لحفظ البيادر من السرقة ، وعدم تمكين أحد من أصحاب الغلال من أن يقيموا شيئاً في غياب العشار ، أو عند فقد من يعتمد عليه .

وهي حرفة تنتج معاشاً قليلاً . تبلغ أجرة القولجي شهرياً مئة وعشرين غرشاً ، يتعيش بها كثير من الناس في فصل الصيف .

٣٠١ـ قــزّاز

هو الزجّاج . وقد مرّ ذكر هــذه الحرفة في باب الزاي ، في حرفــة الزجاج .

٣٠٢ـ قوّاف

هو بائع أصناف النعال، من صرامي وجزمات وبوابيج وغيرها . وذلك غب أن يصنعها صانعها . وقد مر ذكر كل من هذه الصنائع في بابها .

وغالب أصحاب هذهالحرفة ذوو يسار، يشترون من الجلود مايصلح لهذه الصنعة ، ويشغلون أصحاب هذه الصنائع بالأجرة على حسابهم . فما تم عمله يأتون به الى القوافين ، فيضعونه في حوانيتهم ، يبيعونه ممن يرغب ، ويتجرون للبلاد والقرى البعيدة عن دمشق .

وهي حرفة مهمة ، تنتج ربحاً وافراً ، ولها سوق بدمشق مخصوص يعرف بـ « القوافين » ، عند باب الجامع الأموي القبلي .

١٠٥ / ولقد شاهدنا كثيراً ممن احترف بهذه الحرفــة ، فأصبح بنعمة جزيلة .

٣٠٣ـ قاووقجي

هو صانــع « القواويــق » ، التي انقرضت من نحــو نصف القــرن الماضي ، وانقرض صناعهــا ، ولم يبق إلا رسمها ، نذكره لبقاء بعض المنتسبين اليها عن آبائهم .

فالقواويق جمع قاووق : وهو قلنسوة كــانت تلبس على الرأس ، يفصّلها صانعها من جوخ أو غيره ، على قدر الرأس ، ولها بطانة وظهارة، وتحشى بينهمــا بقطن ، وسطح دائرتهــا المماس لأعلا الرأس ــ وهو

الترس ـ عريض مدور ، فيخيطها صانعها ، ويلائم بين الظهارة والبطانة بدروب فيها عديدة ، وأسلاك مخيطة . وفي الترس نقوش من الخياطة، وضروب لطيفة ، تجمع على زرها في الوسط .

وهذا القاووق كان يلبسه ويعتمُّ عليه العلماء والوزراء والأعيان بالشاش الأبيض ، ولا يتقن التعمم عليه إلا أناس تلك حرفتهم ، ومنها مرتزقهم ، لأنها تكون بهندسة خاصة .

واما « القلبق » ـ الآتي بيانه ـ فكان يلبسه العسكر .

واما « العُرْف » بضم العين وسكون الراء ، فكـان يلبسه بعض الأكابر ، وخياطته كالقاووق ، ولكن ليس له سطح مدور ، بل كان شكله مخروطياً ، يشبه الآن التاج والطواقي التي يبيعها فقراء الهنود والأفغان. ولكبر هذه العمة وارتفاعها استعير لها اسم « العرف » ، فانه في اللغة اسم للرمل والمكان المرتفع .

واما « الطبزية » ، ويقال لها « الطبزة » فاسم لكسوة كبرى ، وعمة عظمى ، تلف من الشاش الأخضر الكثير الأذرع على القاووق أو العرف ، كان يلبسها العلماء ومشايخ الطريق في مواعيد خاصة ، وأوقات معينة ، وفي ليالي إقامة الأذكار . وهذه الطبزية تختلف في الكبر ، فمنها المفرطـة في الكبر ، وقد يرى من أشكالهـا على بعض القبور القديمة ، من حجر منحوت . ومنها المتوسطة . ومنها دون ذلك . وهذه لم تزل يحافظ عليها بعض بيوت العلم والطريق في دمشق ، يخبئونها لوفاة عالم ، أو شيخ طريق ، يضعونها على النعش ، ناحية رأس الميت ، إعلاماً بأنه عالم ، أو شيخ طريق ، أو نسيب .

١٠٦ وقد ذكر صاحب / القاموس أن الطَّبَنْزَ ـ بكسر الطاء ـ هو

ركن الجبل ، والجمل ذو السنامين . فكأنهـا سميت بذلك لكبرهـا وشبهها ركن الجبل ، أو الجمل المذكور .

واما « التاج » فكان يلبسه بعض المتصوفة ، ومنهم من يتعمم عليه ، ومنهم من لا .

واما « اللبادة » البيضاء ، فكانت على أشكـال ، لكل شيخ طريق شكل في لبادته خاص .

فمنها — لبادة طويلة بطول لبادة المولوية ، يلف عليها صوف أبيض ، بهندسة خاصة .

ومنها — لبادة كالطربوش .

ومنها — لبادة مضلعة .

وكان من لا يجيد التعمم على القاووق أو اللبادة يرسلها لمن يجيدها ، وهم أشخاص كانوا معروفين ، يرتزقون بالتعميم ، فكانوا يتقنون هيأة العمة وشكلها ، على حسب رغبة صاحبها ومظهره ، من علم أو طريق .

ومن الناس من كانت عمتـه على قاووق مدور كالـدف الكبير ، المعروف بـ « المزهر » .

وكثير من العلماء كان يتعمم على القاووق بالشاش الأبيض .

ومنهم من كان يتعمم بالعمائم من الحرير المطرز المعروف بـ « عزيز خان » و بـ « الأغباني » ، وهي عمة سائر التجار ، وبقية الناس الآن .

وكانت العمة من هذا الصنف غالية الثمن ، تبلغ خمسمئة غرش فأقل ، كبيرة ، كثيرة الأذرع ، ولغلائها كانت كثيراً ماتخطف ليلاً من الرؤوس ، ويتحدث الناس صبيحتها أنّ فلاناً خطفت البارحة عمته .

وكانت « الطرابيش » المعروفة قليلة . وكانت على شكل الطربوش المغربي .

وكان لأكثر الناس عمامتان فأكثر . ويقولون : عمة للرياسة ، وعمة للسياسة . يعنون : عمة لمقابلة الناس ، وعمة للدار وتعاطي الحرفة . فالأولى تمكث مدة للمحافظة على نظافتها من أن تتسخ فتنزع .

ولما كثرت الطرابيش وانتشرت في عهد السلطان محمود ، في القرن الماضي ، أخذت تتناقص القواويق ، وصارت تجلب الطرابيش من البلاد وبدأ أمرها ينتشر حتى عم ، واستعاضت الناس به عن جميع ما تقدم من القاووق والعرف والطبزة واللبادة ، إلا بقية من مشايخ الطرق ، لم تزل محافظة على هيأة أسلافها ، تعيشاً بها ، وصارت الناس تتعمم على الطربوش . ثم وجدوا كبر العمامة فيه غلظة ، فأخـذوا يتلطفون في تصغيرها حتى / آل الأمر الى ماترى . ١٠٧

والسلطان محمود خـان هو أول من لبس الطربوش من الملوك الإسلامية ، وترك التعمم مشياً مع المدنية الأوربية ، وتشجيعاً للعساكر على نظامها المدني الجديد ، الذي اقتضاه مظهر العصر .

ولم يزل يظن بعض الناس أن التعمم من قواعد الدين ، ويشنون الغـارة على من ترك التعمم ، ويسترجعون ، ويستندون الى أحاديث العمامة ، التي كلها موضوعة ومكذوبة على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما بينه علماء الحديث في الاحاديث الموضوعة ، ويجل الدين عن أن يدخل في أصوله . ومِثْلُ ذلك من الأزياء فانها تابعة لحالة كل عصر ، راجعة الى ما يألفه الناس في كل زمان . وماذا يعد المرء من هوس العامة بالدين ، في هذا وأمثاله ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

واما « **العمة البيضاء** » على الطربوش ، فلم تكن زياً لكل العلماء في الشام ، بل كان الشريف يلف الأغباني على الطربوش المتقدم . ولم

يزل بقية العلماء المعمرين ، وكثير ممن أدركناهم لا يتعممون إلا به •
وكانت العمـة البيضاء بزيها المتقن الآن خاصة بقضاة دمشق الأتراك
فقط ، ثم أخذت العلماء تقلدهم ، حتى فشت بين العلماء وبين من يتشبه
بهم من المتعالمين "فشواً" عجيباً •

وحدثني بعض الفقهاء المعمرين أن أدرك سنة ١٢٤٤ عبد الرؤوف
باشا والي دمشق ، لما خرج مسافراً بموكب الحج أميراً عليـه لابساً
بالقاووق على رأسه ، معتماً عليه • قال : ثم إنه ورد اليه أمر بأن ينزع
العمامة ، ويلبس طربوشاً من دون عمامة • قال : فأدركته لما قدم ركب
الحج ، وهو في الموكب بطربوش ، بغير عمامة •

وقد حدثني بعض أصفيائنا الأفاضل ما معناه : أنه أبصر في وسط
القرن الماضي رجلاً فلاحاً من أهالي التل ــ قرية من قرى الشام ــ
كان يتعمم بعمة كبيرة ، وأنـه مرة أراد أن يظهر صكاً في مبيـع أو
مشترى • قال : فأنزل من قمة رأسه عمته التي هي كالبرج الى الأرض ،
وأخذ ينقب من ثنايا عمته على الصك • فأخرج من الثنية الأولى أوراق
الميري ، ومن الثانية أوراق الذمم على أهل البلد ، ومن / الثالثة مشطاً ١٠٨
وخلالا ومقصاً ومرآة له • ومن الرابعة مكاتيب يخبئوها ، ومن الخامسة
الصك المفتش عليه مع صكوك وحجج • قال : فكانت عمامته كانهـا
خزانة أوراق ، أو صندوق الحوائج ، وكان كثير من الناس يتعمم على
الطربوش العباسي ، وتحته لبادة ، وتحتها طاقية مضربة ــ وهكذا مما
يثقل جداً على الرأس ، ويورث النزلات الدماغية ، بل العمى : حتى
كان الطربوش قديمـاً اثقل من الآن واوسع واغلظ ولم يزل يتلطف
حتى الآن •

واما الطرة فكانت اولاً طويلة وعريضة جداً ، تتدلى على الكتفين، وتنتشر على الرقبة ، واطراف الكتف . يقول بعضهم : ان حكمتها كانت لوقاية نقرة القفا من الشمس ، والرياح اللاسعة . ولم تزل تصغر حتى صارت بالهيئة المعروفة مما لا فائدة فيهـا الآن ، إلا أنها زيّ خاص ، وهي الفارقة بالشام بين فرقة الدروز وغيرهم ، لأن الدروز يتعممون على الطرابيش بلا طرة ، وأما غيرهم فبطرة .

واما الربطة ، وما ادراك ما الربطة فهي ربطة كانت للنساء ، يعصبن بها رؤوسهن ، إلا أنها كبيرة هائلة تلف على طاقيـة مخصوصة لفائف وعصابات ، من مناديل عديدة وغيرها ، حتى تصير هيئتها كجرن الحمام الصغير . ومن النساء من كن يضعن على اطرافها بنوداً ، لها طرر يعلقن عليها ذهباً ، أو حلية أخرى . وكان للف الربطة واتقانها نساء معروفات، يربطن بها المناديل بعد طيها طياً خاصاً ، وشكلها بدبابيس ، وصرف وقت كبير في هندستها ، واتقان تكويرها ، وكانت للرباطة المذكورة اجرة معروفة في مقابلتها . وكان يتفق في ذلك العصر ان يكثر عند اللفافة المذكورة الربطات وتزدحم عليها النساء ــ ويتسابقن تعجيلها ، إما لعرس أو لنحوه ــ وهناك تتضاعف اجرتها، وتعطيها التي آثرتها بالتقديم اكراماً زائداً فوق اجرتها .

وقد حدثني بعض الوجهاء أن جدته وهبت للفافة ربطتها طاحونة بتمامها ، وكانت مضطرة اليها ، فأرسلت تقول لها تعجلي / بها وارسليها، ولك الطاحونة الفلانية ، فآثرتها ، وتلك وفت لها بهبة الطاحون . فسألته كم كانت تساوي قيمة الطاحون وقتئذ ؟ فقال : نحواً من ألفي قرش !

١٠٩

فقلت له : والآن ماقيمة تلك الطاحونة ؟ فقال : ألف ليرا . قال : وتلك الطاحونة هي التي في مرج الدحداح .

ثم انتسخت الربطات بطرابيش خاصة للنساء ، يتعممن عليها ، وفي جانبها قزديره كصحن الغليون ، ثم بطلت أيضاً . ولم تزل تتقلب عليهن الازياء التي للرجال والنساء الى هذا الزي الآن . وكانت الربطة في الاغلب للأكابر من النساء والفتيات أو المقلدات ، ولم تكن لهن كلهن ، وذلك لأنها كانت تساوي قيمتها نحواً من مائتي قرش فاكثر ، لكثرة المناديل الحريرية ، وما ماثلها من ذوات القيمة .

فالنساء الفقيرات كن يتعممن بطرابيش مفروش عليها طرة ، وفوقها نحو من ثلاثة مناديل .

هذا ما رويناه عمن أدرك جانباً من تلك الازياء التي للرجال والنساء، أو سمعها عن آبائه ، وهذه المرويات تدخل الآن في انواع العجائب ، ولا يتمالك سامعها أن يستغرق في الضحك وإن كان وقوراً .

٣٠٤- قلبقجي

إسم لصانع القلابق . والقلبق كان قديماً بمثابة لبادة المولوية الآن في طوله ، إلا أنه أسود ، لتغشيته من جلد الجدي الصغير .

قال لي بعض المعمرين : كان في طوله كعلبة اللبن المعروفة بالشام ، وليس فوقه عمامة وكان يلبسه جنود الحكومة .

ثم ان القلبق في عصرنا عاد شيء منه ، ولكن بهيئة لطيفة ، حتى

صار يلبسه كثير من كبار العسكرية • وهيئته كالطربوش ، ولكنه مغشى بجلد خروف أسود ، وفي ترسه اعـلام من سيم أو قصب • وأكثر الرجال الآن يصنعون لهم قلابق يلبسونها في بيوتهم اذا قـدموا من أشغالهم ، أو عند منامهم • وهي أنواع :

فمنها حرير ، ومنها المطرز بحرير، ومنها المجلوب من البلاد الاجنبية، وهي مما تخف على الرأس بالنسبة الى العمة •

حرف الكاف

١١٠

٣٠٥- كاتب

هو من يخدم عند الاغنياء والاكابر ، والبعض من التجار الكبار . ووظيفة هؤلاء الكتبة أنهم يضبطون حساب من عندهم بدفاترهم ، وذلك من مورد ومصرف ، وله اجرة يستوفيها مشاهرة ، وهو مرعي الخاطر عنده .

والكتابة حرفة رائجة بدمشق ، فان غالب الاغنياء والتجار عندهم الكتاب ، واذا كان الكاتب نفسه شريفة صالحاً ، أميناً ، غيوراً على من هو عنده ، فانه يتقلب في نعمة لديه عظيمة ، وقد يشاركه في تجارته ، وكثير ممن كان فقيراً أثرى ونجحت احواله بسبب صدق خدمته وعلو همتـه .

ومما قيل في كاتب :

بروحي كاتباً كالبدر حسنـاً بديعاً ما رأينـا منه أجمل

على ريحان عارضه المفـدى بوجنته غدا دمعي مسلسل

٣٠٦ - كبابة الحرير هذه الحرفة مختصة بالنساء ، تستلم الواحدة منهن من قبل تاجر الألاجا قطع الحرير المجلوبه من البلاد الاجنبية فتحل تلك القطع ، وتفرقها الى أنواع ، منها ما يعرف بالرفايع ، والزغبه ، والبزله ، والمشاقه . كل على حدة . ثم تعمل في كل صنف صنف ، فتلف طاقه على الكوفية وتأخذ بدوران الكوفية ، وهي أثناء الدوران تتعاهد الطاق من القطع ، فتربطه اذا انقطع ، وهلم جرا ... حتى تجعل كل صنف شموطه على حدة . وعند هذا يتم عملها ، فتأخذه للمعلم فيرسله للفتال — وقد تقدم الكلام على حرفة الفتال — وتروج هذه الحرفة بطلب أصناف ملبوسات الحرير للبلاد .

وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً جداً يحترف بها الفقيرات من النساء ، وأهلوها كثيرون .

٣٠٧ - كباريتي وهو بائع الكبريت . والكبريت مشهور يأتي به التجار من البلاد الاجنبية . ومن اليهود فرقة يصنعونه بدمشق ، ولكنه غير متقن ، وينطفىء منه كثير في أثناء قدحه . والبعض من غلمان اليهود / يحملون منه كميات ضمن صندوق من قزدير ، ويدورون في الاسواق والازقة ، يبيعونه لمن يرغب .

١١١

وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً والله أعلم .

٣٠٨ - كبابجي هو شوا اللحم . وقد مرّ بيانه في حرفة الشوا . الا أنه يوجد بعض من العجم في دمشق ، يتعاطون عمل

شواء اللحم المعروف بالكباب العجمي ، في بعض الاسواق ، ويؤتون من مكان بعيد لتناوله وقت الغذاء عندهم . ويطلق عليهم اسم هـذه الحرفة وهو « الكببجي » .

ويستعدون في دكاكينهم بجميع ما يلزم كما هو موضح في حرفة الشوا . ومما امتازوا به : انهم يفرمون اللحم في غاية النعومة ، مع كثرة الدهن ، خالياً من الغش ، ويفرمون معه البصل الناعم ، ويخلطونه مع اللحم ، وينظمونه بقضبان من حديد ، تسمى باسياخ عراض ، يبيعونه لمن يرغب . ويستعملون مع اللحم ، غب شوائه ، الزعتر مع السماق ، وهو لذيذ جداً مع اللحم . وهذه الحالة مما لا يعتني بها بقية الشواية بدمشق وهي حرفة تنتج ربحاً متوسطاً .

والكباب المذكور هو نوع من انواع الكبابات . ومنه نوع مبذول عند كل شواء ، وهو لحم مفروم ، يشوى على النار بالحديد المتقدم . ومنه نوع يشبه الثريد ، يصنع عند الشوا ، يؤتى بخبز الرقاق ، يقطع قطعاً صغيرة ، ويمد على الوعاء ، ثم يؤتى باللبن الممزوج بالطحينة ، وحمض الليمون ، وتصب على هذا الخبز المقطع ، ثم ينشر فوقه اللحم المقلي ، ثم دهنه ، ثم تلك الاسياخ من اللحم المفروم ، مع مفروم البقدونس . وهي أكلة لذيذة جداً .

وللشعراء اطناب في ذكر الكباب في مقاطيعهم .

٣٠٩- كتبي بائع الكتب . وللكتب سوق بدمشق يعرف بـ « المسكية » ، عند باب الجامع الاموي الشهير المعروف بباب البريد . يبيعون به الكتب . وهي حرفة قديمة شريفة ، وقد ازداد رواجها

بواسطة كثرة المطابع الحادثة في هذا العصر • ولباعتها اسلوب في الاتجار بها ، والربح منها •

١١٢

٣١٠- كركوزاتي

هو من يلاعب صوراً مصنوعة من جلد على صفة الانسان ، تعرف بالخيالات • ويقال لها : « خيال الظل » • وهي متعددة ، ولكل منها اسم مخصوص به • وصاحبها يشتغل بالقهاوي ، ينصب ستارة من قماش في زاوية القهوة ، يربط بأسفل الستارة خشبة على عرض الستارة ، ويضع فوقها سراجاً يوقد من زيت الزيتون ، وهو يقف خلف الستارة ، يلاعب الخيالات ، ويأتي لكل واحدة منها بلغة وكلام خاص • فتارة يضحك ، وتارة يبكي ، وتارة يغني ، على حسب حركة الخيالات • وتكون القهوة مملوءة بالمتفرجين • وغالب من يتفرج على الكركوزاتي الاولاد الصغار • وقد يوجد ممن أتقن هذه الحرفة ، مع سرعة حركاتها ، من يكون صوته جميلاً ، فيقصده الشباب والشيوخ يتفرجون على ألعابه ، ويترنمون بجميل صوته • وتروج هذه الحرفة في زمن الشتاء رواجاً زائداً • وما تجمع تلك القهوة بذلك الوقت ينقسم شطرين بين القهوجي والكركوزاتي •

ولبعضهم في خيال الظل :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ... لمن كان في علم الحقيقة راقي
شخوص وأشكال تمرُّ وتنقضي ... ترى الكل يفنى والمحرك باقي

وقد أشار الى وجه العبرة فيه شيخ الصوفية ، العارف ابن عربي في فتوحاته ، في الباب السابع عشر وثلاثمئة ، بقوله عليه الرحمة والرضوان: « ومن أراد ان يعرف حقيقة ما اومأنا اليه في هذه المسألة ، فلينظر في

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

العارض بنفسه . ولكن بهذا الزمان عمّ علاج العيون بالطب الجديد ، وقلت تلك الدجاجلة لكثرة الاطباء ، وامرهم أولاً باستعمال النظافة التي هي من أهم الاسباب في تخفيف آلام العين ، وغسل العيون في أثناء النهار مراراً ، وتنظيفها ، والتبصر في أسباب ذلك العارض ، واعطاء المريض الغسول والقطرة ، على حسب ذلك العارض . واذا كان العارض من زيادة الدم ، حالاً يأمر الطبيب باخراج الدم بواسطة العلق ، المار ذكره في حرفة العلقجي ، مع استعمال العلاجات الملينة للطبيعة ، والمسكنات ، والامساك عن المأكولات المغلظة . فترى ذلك المريض بزمن يسير ، يجد من نفسه راحة تامة ، وتخلصاً من ألم المرض .

وقد أصبح الذين يتعاونون بهذه الحرفة من اولئك الدجاجلة قليلون يذهب اليهم البسطاء وأهل القرى ، والبعض من الفقراء ، لرضائهم بالقليل من الاجرة . ولكن ما يعاني أولئك المساكين من الآلام لا يكاد يوصف .

ومما قيل في أحد الكحالين :

كحالكم كفه مباركة … باتت تقود العمى بأرسان
كم أتلفت في دمشق أنملها … إنسان عين وعين إنسان

وقال آخر في هجو كحال طبيب :

أفنى واعمى ذا الطبيب بطبه … وبكحله الاحياءَ والبُصراءَ
فاذا رأيت رأيت من عميانه … أمماً على أمواته قراءَ

١١٤

٣١٢- كسّار

هو كسار الحطب . وهي حرفة رائجة بدمشق ، فان غالب أهلها ، من غني وفقير ، لايستغني عن استعمال الحطب ، صيفاً وشتاء ، للطبخ والغسل والصوبات بالشتاء .

ويجلب الحطب من القرى والبساتين ، وذلك ان من كان عنــده شجر عديم النفع ، كشجر الزيتون ، وهو أحسن الاشجار حطباً ، أو المشمش ، أو الصفصاف ، أو التفاح ، أو الجوز ، أو التين ، أو غيرها ، أو من كان محتاجاً لقيمة الحطب يبيعه لمن يرغب في مشتراه من الحطابة ، يقلعونه من أرضه ، ويحملونه على دوابهم ، ويأتون به للبلدة ، يدورون في الاسواق ، يبيعونه لمن يرغب فيه ، ويصحبهم خلف تلك الدواب عدة من كساري الحطب ، حاملين على اكتافهم الفؤوس المحددة ، حتى اذا اشترى احد ذلك الحطب يكسرونه له ، فيعطيهم على كل قنطار قدراً معلوماً ، والمعتاد مئة بارة . والبعض من الكسارين يدورون في الازقة والاسواق ، وينادون بـ « كسار الحطب » ، أملاً بأن يكون أحدٌ عنده حطب أو خشب ، يريد تكسيره ، فيــأتي بذلك الكسار ، فيكسر له ما اراد . وهي حرفة لا يحترف بها الا الفلاحون ، وقليل من الفلاحين من يتقن تكسير الحطب ، فانها حرفة دقيقــة ، تحتاج الى نباهــة ، ولا يتقنها غالباً الا الفلاحون من قرية جوبر ، والبعض من أهالي القرى المجاورة لها . والفرق يُعلم بأن الرجل الشديد القوي الجاهل بهــذه الحرفة لا يكسر عشرة أرطال ، مع كمال التعب والملل ، ويكسر الرجل الضئيل الضعيف العالم بهذه الحرفة قنطاراً ، مع كمال النشاط والهمة ، وذلك لنباهتهم في اتقان التكسير ولاحترافهم دائماً بهذه الحرفة . وهم يعلمون أيضاً ما تبلغ زنة الشجرة ، ومواضع مفاصلهــا ، ومفكاتها ، ومقاطعها ، لذلك يهون عليهم التكسير . وقد يوجد مع الحطابة كسارة من الجراكسة الفقراء ، وربما كان لديهم اتقان بالتكسير . والله أعلم .

٣١٣- كشّـاك

هو بائع الكشك، والكشك ماعمل في زمن الصيف من البرغل واللبن: وذلك ان البرغل يغمر في ماء حار

١١٥ حتى يشربه ، ثم يوضع في قدر من فخار، / ويوضع عليه اللبن والحليب المتخمر الى عشرين يوماً ، ثم يترك عشرين يوماً يتخمر مع بعضه ، ثم يخرج من القدر وقد شرب اللبن أيضاً ، فيجففونـه في الشمس . ثم البعض يفركونه في ايديهم ، والبعض يطحنونه في الطاحون . ويأتي به اصحاب هذه الحرفة ، وهم الفلاحون ، الى البلدة ، يبيعونه على من اراد شراءه .

وقليل في دمشق من يعتني بأكل الكشك . أما الاغنياء فيطبخونه باللحم والسمن ، وهو لذيذ ، ويعملون منه شوربة الكشك .

والكشكة المعروفة بالخضراء ، وهي من كشك طري قبل تجفيفه ، وإن كان جافاً فيخمرونه باللبن ، ثم يضعون معه الجوز ، مع مفروم البصل ، والبقدونس ، والزيتون ، والزيت ، وهي أيضاً لذيذة .

والفقراء يطبخونه بالزيت مع مفروم البصل .

وأما الفلاحون فهو من اعظم المؤونة عندهم ، ويدخرون منه كثيراً ؛ وهو غالب طعامهم في زمن الشتاء ، يستطيبونه جداً . وتبلغ قيمة الثمنية منه على قدر اتقان عملـه ، الى سبعة قروش ، أو أقل منهـا إذا كان غير متقن .

لطيفة : لما عمر الأمير تنكز جامعه بدمشق ، وهو الآن مكتب الحربية، وأتمه ، جعل له خطيباً يلقب بالكشك . وكان بين الكشك وبين رجل من الفضلاء عداوة ، فاتفق للفاضل المذكور أنه دخل للجامـع فرأى في

صحنه الأمير تنكز ، فلما رأى الأمير نهض وتلقاه . ثم لما جلس معه قال له : ما يقول شيخنا في هذا الصحن ؟ فقال له : صحن نفيس لغير الكشك ! ففهم الأمير وضحك . ثم نزع الكشك عن الخطابة .

لطيفة : دعا مرةً سيدي الامام الوالد ، صاحب الاصل [1] ، عليه الرحمة ، الوزير الصدر الاعظم جواد باشا ، مشير الشام ، للافطار عنده في رمضان ، فلما جلسوا على المائدة ، ونزل إليها صحن الشوربة ، قال الوزير : هذه شوربة بكشك ، وأنا أحبها ، فأخذ بعض المدعوين الوقحين بذم الكشك ، وأنشد ما قيل فيه ، ومنه :

الكشك داءٌ دفينٌ محرِّكٌ للسواكنْ
الاصل دَرٌّ وبُرٌّ نِعْمَ الجدودُ ولكن!

فانقبض الوزير ، فانشأ سيدي الوالد بيتين في الحال لإصلاح ما افسد ذاك ، وهما قوله :

الكشك أعلى غذاءٍ لا نظير له لصحة الجسم والإخصاب للبدن
وكيف لا نرتضيه وهو مشتمل على الغذائين من بُرٍّ ومن لَبَنِ

١١٦

٣١٤ - كعيكاتي

هو بائع الكعك المعروف بدمشق بـ « الشُرَك » بضم الشين وفتح الراء ، والخلاخيل ، والبقصماط المجفف ، وهو المعمول من طحين الحنطة . فأما طحين الشرك ، فيضعون معه جزءاً من المحلب والمصطكي وماء الزهر . ومن الأغنياء من يصنعه على حسابه عند صانعه ، ويضع له جزءاً من المسك . وهو لذيذ جداً .

والخلاخيل ، غب عجنها ، وتقطيعها يلتونها باليانسون وحبة البركة ،

---

(١) كأنه يريد بكلمة الاصل انه واضع الجزء الاول من هذا الكتاب .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

عسكر الجندرمة لارهابهم ، وتخفيف ويلاتهم ، فيمكثون حول الباب ، ولا ينصرفون آخر الأمر الا بشيء . ومن دخل منهم أو أُذن له ، فانك تراهم عند وضع الطعام يلتهمونه ، ويأكلون أكل من يريد الضرر والإضرار ، بل يتخاطفونه . وقد كثرت أصحاب هذه الحرفة بدمشق ، وكثر أذاهم ، ولهم جواسيس يجلبون لهم الأخبار عمن مات ، ويحسبون لهم مواسم الموتى ، من أربعين ، أو إتمام السنة ، أو أن في اليوم الفلاني في المحل الفلاني ختماً ، أو تهليلة ، أو اسقاط صلاة . ولهم مجتمعات / يجتمعون مع بعضهم ويتذاكرون ، حتى اذا كان أحد منهم ليس عنده خبر بختم أو تهليلة ، يتأمل من ورائها دراهم وغيره ، يعلم ذلك ، لايمكن أن تخبره بالمكان والوقت ، الا بأن يأخذ منه عشرة أو عشرين بارة ، وعند دفعه ذلك المبلغ . يخبر عن الموضع الذي سيكون فيه ختم أو غيره ، وعن اليوم . وتعرف هذه عندهم بـ « التعريفة » و « الاخبارية » . قاتلهم الله أنى يؤفكون .

١١٨

٣١٦- كلاس

هذه الحرفة من متعلقات حرفة الطيان . وقد مرّ في حرفة الطيان كيفية عمل تلك الحرفة .

٣١٧- كميونجي

هو سائق «الكميون» ، والكميون هو عربية طويلة ضيقة ، يستعملها التجار لنقل البضائع والأرزاق من محل الى محل . والبعض من أهالي دمشق يتجرون بها . يكون عند أحدهم ثلاثة أو أربعة كميونات ، يؤجرونها لمن أراد أن ينقل البضائع ، ويكون لكل عربة سائق معروف بـ « الكميوني » . وذلك لسوق تلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

و « الجلد » الأصفر والأحمر ، و « الكلاس » . وهذه كلها تجلب من البلاد ، والبعض من الكندرجية يصنعون من تلك الأنواع المشروحة ، ويعلقونها في حوانيتهم ، لأجل بيعه ، والبعض منهم له حانوت للشغل الخاص بأناس يرغبون في الجيد من تلك الاجناس المتأنى في عمله بلا عجلة ، فيوصيه أحدهم على عمل كندرة مثلاً ، فيأخذ قياس رجله ، ويصنع له ما رغب من تلك الانواع . وهذه تكون أقوى وأمتن من الذي يصنعه لدكانه .

وقد راجت في دمشق هذه الصنعة رواجاً زائداً، وأرباحها تضاعفت، ولها أسواق متعددة ، وذلك لكثرة طلب هذه الانواع بجملتها ، وعدم استغناء الناس عن لبسها ، وظهور المدنية لعالم الوجود . وقد كانت هذه الصنعة في انصاف القرن السابق عديمة الوجود، وما كان الا الخف والبابوج الأصفر ، والصرامي الحمر . وقد كان يحكى لنا أنه لما شاع أمر الكنادر في حدود سنة ١٢٨٠ ، كان يعدها بعض المتنطعين من أزياء الفرنج التي لا يجوز محاكاتهم بها ، وكانوا ينفرون عنها . والسبب في الحقيقة هو غرابة زيها ، وعدم الألف لها ، حتى اذا أنس استعمالها فشا في الورع وغيره . وما التنطع في الازياء وادخال الدين وقواعده بها الا من الجهل . فالدين دين الفطرة .

١٢٠ ٣٢٠- كنيفاتي صانع الكنافة . وهي متعلقة بحرفة القطيفاتي . والكنافة هي ما / عجن من الطحين الخالص بصورة مائعة، أكثر من عجين القطايف . وتخمر أيضاً ، ثم يملأ من ذلك العجين اناء من نحاس يعرف بالجوزة ، وهو كجوزة الهند ، مستطيلة ، اعلاها

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

٣٢٢- كوانيـــني صانع الكوانين • جمـع كانون ، معروف • وأصله من التراب وناعم التبن، يخمر في الماء• وغب عركهما يعمل منها الكوانين لاشتعال النار بها • وهذه الحرفة كانت في الزمن السابق رائجة جداً قبل أن يكثر الحديـد • فكانت النـاس يشعلون بالكوانين نار الفحم في الشتاء لادفاء المحلات ، ويطبخون عليها • وقد يوجد الآن عند الفقراء المدقعين شيء منها • / ولذلك قل من يحترف بها ، وذلك لكثرة كوانين الحديد المعروفة بالطبابيخ والمناقل •

١٢١

وهي حرفة قليل ربحها قليل من يحترف بها •

٣٢٣- كوّاء يطلق على من يحترف بكي الطرابيش، وكي الثيـاب • فكواء الطرابيش يكوي الطرابيش بواسطة قوالب من نحاس متنوعة • منها ما يعرف بـ « البوغلي »• و « العزيزي » ، و « اليارم زحاف » وغيرها ، على حسب طلب من يكوي له • وذلك أنه يضع في حانوته دكة من خشب ، ويصف عليها تلك القوالب النحاسية المجوفة ، ويكون تحت كل قالب ثقب في وسط الدكة ملبس من حديد لوضع النار به ، وذلك لتسخين القوالب ، فيدخل لدكانه من اراد كي طربوشه • فغب أن يقيم الطرة عن الطربوش يرشه بالماء ، ويركبه على القالب الذي يرغبه صاحب الطربوش ، ويركب فوقه قالباً ثانياً ، له يدان من خشب ، يمسكهما الكواء ، ويكبس بقوة فوق ذلك القـالب المركب عليها الطربوش جملة مرار، حتى اذا بلغ حده فيرفعه وقد انكوى، فيركب عليه الطرة ويمسحه ويكويه • وغالب الفقراء والمتوسطين اذا

عتق الطربوش يعطونه الى الكواء يصبغه ويمسحه ويكويه ، فيخرج كأنه جديد .

وهذه الحرفة تنتج ربحاً متوسطاً . فالبعض يعطيه على كي الطربوش عشر بـارات ، والبعض خمس عشرة بارة ، وعشرين بارة ، كلٌ على حسب حاله . أما كواء الثياب ، فهو من يكوي الملبوسات كالقمصان المعروفة بالافرنجية ، وما صنع من بدلات الكتان ، واصناف الجبب والقنابيز الألاجا وغيرها ، بواسطة مكواة من حديد كبيرة ، يدخلها في النار ، حتى اذا بلغت حدّها من الحمو يخرجها ، فيكوي بها القمصان غب أن يغمسها في رائق ماء النشا . وبقية الثياب يرشها بقليل الماء .

وهي أيضاً حرفة رائجة بدمشق ، يبلغ اجرة القطعة من الثياب الى الأربعين بارة .

حرف اللام

٣٢٤- لبّــان هو بائع اللبن، وهو الحليب الرائب الحامض . وصنعته : أن يؤخــذ الحليب من ضروع البقر او الغنم ، ثم يغلى على النار حتى يفور ، ثم يصب في اناء من خشب يعرف في دمشق بعلب اللبن . ويترك حتى يقرب من البرودة ، فيذاب به قليل من اللبن الرائب . واذا لم يوجــد رائب ، يؤخذ قليل من خمير العجين ، ويذوب في قليل من الحليب ، ويصب في تلك العلب ، وتغمر في ثياب مدة ثلاث أو أربع ساعات ، فيرفعون تلك الثيــاب ، ويخرجون تلك العلب ، وقد أخذت في الجمود ، فيضعون على وجهها كعكة على قدر فم العلبة ، مضفورة من قش الحلفاء ، ومن رفيع قضبان الصفصاف ، ملفوفة بقماش من خام ، وذلك صيانة من نزول غبار أو وسخ في العلبة، أو تمخض فتمصل . واكثر أهالي قرى دمشق المجاورة لهــا يعملون اللبن على هذه الكيفية ، فيدور أصحاب هذه الحرفة وهم اللبانة عند الصباح على الدور التي يعمل بها اللبن فيأخذونها . وما يجمعه اللبان في ذلك النهار من العلب يحملها على دابة ، ويأتي بها البلدة ، ويوزع

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وقلّ من يحترف بهذه الحرفة بدمشق ، وغالب اللباد الذي يأتي لدمشق هو من جهة حماه وحلب وما جاورهما من البلاد • والراغبون فيه هم العربان في البادية ، يجعلونه عوضاً عن الفراش • ويعرف لديهم بـ « العجمية » ، يفرشونه اذا نزل بهم ضيف كريم ، وهذا يكون من الجنس الأعلا ، وما كان أدنى منه تستعمله الجليلاتية والسروجية بطانات لجل الدواب للينه ، فلا يضر أظهر الدواب •

وهي حرفة قليل أهلها ، وربحها قليل •

٣٢٦- لحّــام

هو الجزار والقصاب المتقدمان في بابيهما • والأشهر في الاطلاق هو اللحــام • والعــادة في دمشق ان يذهب اللحام في كل يوم عند الصباح الى سوق الغنم ، فيشتري من الغنم الرأس والرأسين ، والبعض ثلاثة أو أربعة ، على قدر الزبونات الموجودين عنده ، حيث لا يخلو كل موقع في دمشق من جملة لحامة • وكل واحد له أشخاص لا يمكن أن يشتروا من عند غيره غالباً ، فيذهب بتلك الغنم اجراء اللحام الى المسلخ ، فيذبحها المسالخي ويسلخها ويسلمها إليهم ، فينظفونها ، ويأتون بها الى دكاكينهم ، يعلقونها على كلاليب من حديد ، حيث يكون اللحام مستعداً في حانوته لانواع السكاكين الحداد للقطع والكسر والجرم والفرم ، فيباشر في بيعها لزبائنه ، ولمن يرغب ، على حسب طلب المشتري • فالبعض يطلب لحمــة للكبــة ، والبعض مفرومة ناعماً ، والبعض مشروحة ، والبعض مفرومة فرماً متوسطاً تسمى « راس العصفور » ، وآخر يطلبها شقفاً بقدر الجوزة ، وآخر / يطلب الموزات ، وآخر بعظمها ، وآخر بسماجكات ، وآخر لحمة صفيحة ، أو

١٢٤

بالصينية ، فيخرج لكل على حسب طلبه • ومعاناة اللحام بنفسه للفرم والتقطيع حسب المطلوب مما انفردت به الشام ، فيما رأينا ، لأنا شاهدنا في بعض البلدان اللحامة يبيعون اللحم بعظمه فقط ، وليس عندهم معرفة بهذا التفريق • ولكل بلد مشرب •

وهذه الحرفة مما لا يستغنى عنها ، وهي رائجة على الدوام • وقد تزداد رواجاً في زمن الربيع ، حيث يكثر في دمشق الخاروف والجدي، ويرخص اللحم ، فيساوي الرطل الشامي الذي هو ثمانمائة درهم عشرة غروش ، وبعظمه ستة غروش ونصف • فلا يخلو كل لحام يومياً من ذبح عشرة رؤوس فاكثر • وأما في زمن الشتاء ، فعلى مقتضى وجود الغنم وجلبها • فتارة يباع الرطل بثلاثة عشر غرشاً ونصف ، وتارة ينيف على العشرين غرشاً ، كما هو الآن ، فقد وقفت أسعار اللحم على هذا الحد في هذه السنين ، مما لم يعهده الفقراء ولا غيرهم في هذه البلدة ، والمستعان بالله •

وهذه الحرفة حرفة مهمة ، كثير أهلها ، تنتج ربحاً متوسطاً •

٣٢٧- لص

اللص : هو السارق والمصطلح عليه بدمشق « الحرامي » • وهي حرفة من لا يخاف الله ولا يراقب أمر دينه وشرفه • لا يحترفها الا الأوباش من الناس ، وقد استحلوا ارزاق العباد ، وغلبت عليهم الشقاوة ، وقست قلوبهم ، فترى أحدهم لا تهمه الأهوال ، ولا يخطر له العقاب على بال ، جسوراً مقداماً على الحرام •

وهذه الحرفة لم تزل في قرى دمشق فاشية ، ولا يمكن لأحد أن

يغفل عن داره أو بستانه، الا وتلعب به ايادي اولئك الأشرار، فلا يجدون متاعاً الا ويأخذونه ، ولا حيواناً الا ويحرزونه ، فينغصون عيش صاحبه المسكين ، ويصبح ولا يجد له معيناً ولا مغيثاً .

وهؤلاء الاشقياء يتألفون من جملة أشخاص ، من كل قرية الشخص او الشخصان ، فاذا أخذت / سرقة من قريـة في غربي دمشق مثلاً بواسطة لصوصها ، يقوم بتخبئتها ونقلها رفقاؤهم المقيمون في القرى الشرقية او الشمالية منها . واما في نفس البلدة ، فكانت هذه الحرفة فاشية جداً في الزمن السابق ، لا يخلو يوم من وقوع جملة سرقات . ولكن في زمننا هذا نظراً لوجود الضبط والربط ، والقاء نظر الحكومة في البلدة ، وايجاد الحراس في الاسواق ، والازقة ، وعلى الاسطحة ، ساهرين الليل كله ، اصبحت السرقات قليلة بالنسبة ؛ وندر أن يسمع بوقوع سرقة مهمة ، الا اذا كان السارق متفقاً مع حارس ، أو لاحت له فرصة بنوم الحراس ، او غفلة عنها .

١٢٥

وقد تقدم لصاحب الاصل [1] عليه الرحمة والرضوان في حرف السين في « سراق » جمل اخرى غير ما اوردناه . ومما تضربه العامة مثلاً ، اذا بالغوا في وصف لص قالوا : هو يسرق الكحل من العين .

ومن ذلك ماقال بعضهم

وشادن في سلمـه لم يزل	يستل من جفنيـه سيفين
ما اكتحلت عين بكحل الكرى	في حالـة القرب أو البـين
الا أتاني طيفـه في الـدجى	يسرق كحـل النوم من عيني

(1) يريد مؤلف الجزء الاول .

٣٢٨- لطّامــة

هي من حرف النساء المتهتكات • وفي الزمن السابق كانت رائجـة جـداً • وأما الآن فقـد اصبحت كاسدة ، قليلاً محترفاتها لانصباغ الزمن بغير الصبغة الماضية تمدناً وعادة وتقليداً • ومـع ذلك ، فـلا يزال طوائف منهن يَندُبْنَ للنـدب فيَنْدُبْنَ ؛ وذلك عندما يموت أحد الاغنياء او التجار الكبـار ، فيأتي أهله باللطامات ، ويوفوهن أجورهن سلفاً ، فعلى قدر مايعطونهن من الأجرة يقمن بنظيره من العمل : ان كـان كثيراً فكثير ، وان كان قليلاً فقليل • وهن مؤلفات من أربع الى عشر نساء ، يلبسن الثياب السود ، ويسخّمن وجوههن وأيـديهن بمسحوق الفحـم ، ويحللن شعورهن على اكتافهن ، ويدرن باطراف الدار ، وهن كالرئيس ، وأهل الميت حولهن كالتلاميذ ،فيأخذون بالولاويل والصراخ والبكاء والنحيب والندب ، ويعددن صفات الميت ومحاسنه ، وما كان عليه في حال حياته، من بره واكرامه وعطائه ، واحسانه للفقراء والارامل والايتام وغيرهم ، ويلطمون على صدورهم وارجلهم ، ويصحيون بالولاويل ، ويساعدهن على ذلك أهل الميت ، الى أن يخرج بالميت من الدار • واذا كان الميت قضى نحبه بغير بلده غريباً وحيداً ، وبلغ أهله ، فيأتون باللطامات أيضاً ، فيقيمون ذلك المأتم ثلاثة أيام متوالية •

١٢٦

وهذا مما نهي عنه في الشرع أشد النهي ، وأوعد فاعلات ذلك بالوعيد الشديد • وقدمنا أن في هذا الزمن قل هذا العمل جداً واصبح نادراً وقوعه الا من اراذل الناس وسفلتهم •

٣٢٩- لفّاف من حرف الفلاحين . وهو من يلف بالقش او الجريـج مازرع بسنته من النصب الصغير ، كـالمروش ، وهو نصب الزيتون . وهذا اللف مما لا يستغني عنه ذلك النصب ، نظراً لشدة تأثير البرد والحر فيه ، فيفسد ان ترك من دون لف .

وأما نصب الجوز والمشمش والدراقن وغيرها من الأشجار ، فالبعض يعتني بلفها ، والبعض يتركه بدون لف . وهذا لا تأثير عليه ، فيتفق صاحب الشجر مع اللفاف على نصبة بمبلغ معلوم ، لا يزيد عن العشرين بارة ، على أن يلف تلك النصب المزروعة عنده ، فيذهب اللفاف الى البرك والمستنقعات في القرى ، فيقطع حاجته من القش والجريج ، وهو نبت يعلو على الذراعين ، ويأتي به لمحل النصب المزروع ، ويباشر في لفه ، حتى اذا تم عمله يأخذ ما حصل عليه الاتفاق من الاجرة ، غب ضبط عدد النصب التي لفها .

وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً ، يحترف بها البعض من الفلاحين .

١٢٧ ٣٣٠- لفافة جيكارات التتن [1]

(١) بياض في الاصل قدره نصف صفحة .

٣٣١- لوكندەجي

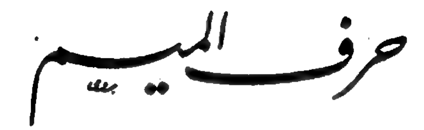
هو من يستأجر اللوكنـده . وهي منزل كبير ذو طباق ، يحتوي على غرف علوية متعـددة ، ضمن كل غرفة جملة سرائر من حديد مهيأة بالفرش واللحف للنوم ، مـع وجود طاولة وعليها مرآة ، ومدقة للماء ، وكاسة ، وشعرية ، وفرشاية للثياب، ومصباح . يتخلل الغرف منتدى واسع للتروح واستقبال الزائرين ، فيه اصناف المفروشات ، من كنابات وقلاطق وكراسي وغيرها . ومع وجود غرفة مخصوصة للطعام حاوية على اصناف ما يحتاج إليه ، من طاولات وكراس وصحون وملاعق وشوكات وسكاكين وبشاكير ومدقات ماء وكاسات وجميع ما يلزم لتناول الطعام بها ، مع وجود مطبخ للطبخ به . ويحتاج اللوكندەجي لوضع صناع : منهم عشي لاصلاح ما يلزم من الطعام اليومي ، وسفرجي كما هو مصرح في حرفته ، لاجراء ما يلزم ، مع وجود خدمة متعددة لكنس ومسح المحلات بأجمعهـا ، مع تغيير ما يلزم من غسل وطي الشراشف والملاحف ووجوه اللحاشات وغيرها ، وترتيب السرائر ، وخدمة المسافرين . واللوكندەجي مدير هذا / المحل، ورئيس هؤلاء الصناع يناظرهم في أثنـاء الليل ، وأطراف النهـار ، ويستقبل المسافرين ويؤانسهم . وجميع ما يلزم من المصارفات اللازمة إلى اللوكندة تكون منه . كما أن جميع ما يتجمع من الواردات تكون بحسابه .

١٢٨

واللوكندة قد يديرها مالكها ، وقد يستأجرها سنوياً من صاحبها من يحترف بذلك . وهي حرفة ذات أهمية عظيمة ، في الغالب تنتج ربحاً وافراً ، وقد يقع قليل خسارة . وقد أصبحت اللوكندات بدمشق

متعددة ، يأوي إليها الغريب . وفي فصل الربيع تروج رواجاً زائداً عن بقية الفصول ، وذلك لكثرة وجود السياح من الافرنج وغيرهم ، حتى تغص بهم اللوكندات . واختراع اللوكندات بهذه الكيفية ، من ترقيات هذا العصر وحسناته ، أين هي من الخانات القديمة ؟ وان الحرية التي يأخذها الغريب في اللوكندة لا يرى جزءاً منها في دار أقرب قريب له إذا ضاف عنده ، إذ تيسر له ما يرغبه من أمر الخدمة ، ووجود الطعام حين طلبه إليه ، والنوم حين الرغبة فيه ، وقضاء الحاجـة ، وما ماثل ذلك .

ويوجد في دمشق من اللوكندات أعلى وأوسط وأدنى ، ولوكندات للنوم فقط . تبلغ أجرة النوم في القسم الأعلى يومياً عشرة غروش ، وفي الأوسط ستة غروش ، وفي الأدنى ثلاثة غروش . وكل من أتى من الغرباء فعلى حسبه ، يقصد ما يليق بمقامه ، حتى إذا انتهى أربـه من إقامته ، إما تجارة ، أو مأمورية موقتة ، أو سياحة ، يحاسب صاحب اللوكندة ، ويعطيه أجرة تلك الأيام التي أقام بها .



٣٣٢- مؤدّب الأطفال

ويقــال له : شيخ كتّاب • هو من يلقن الأطفــال حروف الهجــاء ، مفردها ومركبهــا وأشكالها • ثم يعلمهم قراءة القرآن ، والكتابة ، وطرفاً من الحساب • ويختلف الحال في التعليم بحسب أهمية كتّابه ، ودرجته في طبقة المعلمين •

قال السبكي في مفيــد النعم : ينبغي أن يكون / معلم الكتّاب صحيح العقيدة ، فقد نشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة ، لأن فقيههم كان كذلك •

١٢٩

ثم قال : وله تمكين الصبي المميز من كتابة القرآن في اللوح وحمله، وحمل المصحف وهو محدث • وينبغي أن يكون صالحاً ، ذا وقار ، وأن يكون الصبيان عنده بمنزلة واحدة في التربية والتعليم ، فقيرهم وغنيهم ، وكذلك من يكرمه ، ومن يقصر في حقه ، إذ بهذا يتبين صدق حاله واخلاصه فيما هو بصدده •

والعادة لمشايخ الكتاب في دمشق أن يأخذوا من الأولاد إما خميسية،

يتقاضونها يوم الخميس ، من خمس وعشرين بارة إلى قرش على كل ولد • ومنهم من يأخذ منهم مشاهرة ، من ستة قروش فصاعداً • ولهم مرتبات إذا أتم الصبي السُوَر ، الى سورة « سبح » وعند ختمه جزء « عَمَّ » ، وكذا اذا وصل الى سورة « ياسين » ، وعند النصف ، وفي الختام • وهذه المرتبات تسمى « حلواناً » ، يكرم بها الشيخ ، ومن في معيته ، من عريف كبير ، أو معين • وعند الختام يعطى من الإكرام إما ما شُرط أولاً ، وإما ماتسمح به نفس ولي الصبي •

وشيخ الكتّاب الكثير الأولاد أصبح اليوم مرفهاً ، لوفور المورد ، فقد يوجد في بعض الكتاتيب ما يقرب من مئتي صبي • وهكذا على هذا النمط معلمة الأطفال •

وأما المكاتب الرسمية المعينة من قبل ادارة المعارف ، فتلك معاش معلميها من المعارف ، ولهم ترتيب خاص ، من معلم أول ، وثان ، ومعلم خط ، ومحافظ ، وليس بحثنا الآن فيها •

وقد أصبحت هذه الحرفة رائجة جداً في هذا العصر ، وكان في الزمن السابق لا يوجد في المئة عشرة يقرؤون ويكتبون ، ولا تخلو كل محلة من جملة كتاتيب ، مملوءة بالأولاد ، إلا أن قراها لم تزل في حاجة الى العناية بذلك ، فان معظمها على الأمية الأولى ، ويندر من يكتب ويقرأ بينهم • فما أحرى أكابرهم أن يتنبهوا لأهمية ذلك ، وما يعود عليهم من المنافع بسبب التعليم ، سيما في هذا العصر العجيب •

١٣٠   ٣٣٣- ماشطة

الماشطة : هي الداية والقابلة المتقدمة ، يطلق عليها هذا اللقب / في وقت خاص ، وهو ليلة زفاف الزوجة الى

بعلها ، فان للداية ليلتئذ مركزاً مهمـاً ، وعملاء وخدمة خاصين بهـا ، متوارثاً من الزمن السابق • وذلك أن كل بنت تزوجت ، تأتي ليلـة الزفاف دايتها معها ، لا تفارقها أبداً ، وهي التي تمشطها ، أي : تسرح شعرها ، وبذلك سميت « ماشطة » وتلبسها ثيابها ، وتزينها بأصناف الحلي والحلل والشكول • وما كان في تلك الأيام يقوم بهذا الأمر إلا الماشطة • وسببه عدم تنبه النساء لدقـة التزين بأنفسهن وتغفلهن • أما في زمننا هذا ، فقد أصبح المتكفل بتزيين المرأة أهلها وأقاربهـا ، وذلك لعموم التمدن ، واضمحلال التغفل • بل ربما تعد الآن الماشطة عندهن مغفلة ، إذ ترى تلك المسكينة منهن مالا تعهده في غابر الأزمنة إلا الحضور يوم العرس فقط ، لأجل أن تستأنس بها العروس ، إذبعد أن تزف إلى زوجها ، وينصرف أهلوه عنه ، تكون على باب المحل ، منتظرة لندائها ، لغرض لهما ، من شرب ، أو إحضار أمه أو أخته أو عمته ، أو الذهاب بالعروس إلى قضاء حاجة ، أو فرش الفراش ، وأمثال ذلك • ولا تزال على باب العروسين الى الصباح ، ويكرمها الزوج بمجمع أنواع الحلوى ، مع شمعة عسلية ، ويضيف الى ذلك دراهم ، على قدر ثروة أصحاب العرس •

تنبيه — جرت عادة كثير أن يزوجن بناتهن صغاراً • ففي ليلة العرس قد لا تطيق غشيان زوجها ، فينادي الزوج للماشطة ، فتحضر وتمسكها ، أو تقعد على صدرها ، وترفع له رجليها قسراً ، وتشير عليه أن يفعل ، وهي تصرخ وتستغيث ، ولا من مغيث • وقد وقع من جواء ذلك حوادث مؤلمة ، كثيراً ما أفضت الى موت البنت ، ضحية الجهل المركب ، وما الذنب إلا على أهلها أولاً ، وعلى هذه الجاهلة ثانياً ، إذ حقها أن تعظه وتربصه •

وشيء آخر : وهو أن الماشطة قد تنتظر منديل الفراش وتلوثه ، لتذهب به إلى أهلها ، زعماً أنه دليل عفتها ، وأنه قاطع للقيل والقال ، وكله جهل بحقيقة الحال . وثمة شيء أقبح : وهو توكيل الزوج الماشطة أن تفتض البكر باصبعها ، كما هو مشهور في مصر . وقد رأيت في هذه المساوىء الثلاثة فصلاً يكتب بماء الذهب ، في كتاب « كنوز الصحة » / أحببت ١٣١ إيراده هنا لنفاسته ، وتنبيهه على تلك العادات السيئة التي استحكمت فينا . قال رحمه الله :

وكثيراً ما يظن أن الأنثى إذا حاضت مرة ، صارت صالحة للجماع ، مع أنـه ليس ذلك . بل لا تصلح له إلا إذا كانت تقوى على تحمل عواقبـه ، أعني : أنها تكون قوية ، بأن يتكعب نهـدها ، ويعتـدل قدها ،ويثقل ردفها ، وأن تكون جامعة لأوصاف الأنوثة ، من التحبب للبعل ، ولا يوجد فيها شيء من أوصاف الطفولية ، أو ما يدل عليها . وقد جرت عادة كثير من الناس ، لاسيما في الديار المصريـة ، وأكثر وقوعه من رعاع الناس ، بتزويج البنات وهن صغار ، وهي عادة قبيحة، يأباها العقل والشرع .

أما العقل : فان الفعل الذي لا ثمرة له عبث ، وأفعال العقلاء تصان عن العبث . فان قلت : من أين العبث ، أو ليس أنه ترويح يلتذ منـه الرجل ، ويشاهد صورة حسنة أمامه ويتمتع بها ؟

قلت : هو عبث ولا بد ، لأن اللـذة والتمتـع غير محصورين في الصغيرة ، بل إذا تزوج البالغة كانا أتم منهما في غير البالغة . والبالغة تحصل منها المودة ،والنتاج ، وحفظ البيت ، والخوف على مال الرجل، بخلاف الصغيرة ، لا يحصل منها شيء من ذلك .

وأما الشرع : فلأنها حيث كانت صغيرة ، غير مطيقة ، ولم تبلغ مبلغ النساء ، فانها تتأذى من الجماع ، وربما حصل في رحمها خلل ، والسبب في ذلك هو الجماع ، وكل مؤذ حرام • فينتج من ذلك : وطء غير المطيقة يحرم فعله • وكيف يسوغ للعاقل أن يطأ صغيرة لا شهوة ولا لذة لها ، بل تكره ذلك ، وتصيح لما يؤلمها من الفعل ، بل ربما كان ذلك سبباً لبغضها للزوج ، كما هو كثير الحصول ، ويقولون إنها خرجت حاملاً [1] ، لأن الرجل قوي الشهوة ، وربما أجهدها بما فيه من القوة، ونشأ عن إجهاده لها عوارض خطرة ، كجرح الرحم ، أو شيء آخر من أعضاء التناسل • وعلى فرض اعتيادها على الجماع ، وعدم نفورها ، كما يحصل ذلك في بعض الأحيان ، وحبلت لا توجد / فيها القوة الكافية لتحمل عوارض الحبل ، وآلام الطلق ، فإما أن تموت ، أو تعيش ضعيفة معرضة لآلام خطرة ، وما تنتجه من الولد يكون عرضة لجميع أمراض الطفولية ، والغالب أن يهلك • وقد جرت عادة جميع المشرقيين بالاهتمام بغشاء البكارة ؛ ويرون ذلك وصفاً محققاً لعفة البنات ، وبراءتهن من الزنا، لاسيما أوباش أهل الديار المصرية وفلاحوها، فانهم يأخذون ما تلوث من دم البكارة ، سواء أكان قميصاً أو غيره ، ويخرجونه لأقربائهم وأحبائهم من النساء ، يفتخرون بذلك ، وربما أرسلوه من خط لآخر ؛ أو من قرية لأخرى ، مع أن هذه العادة من أقبح العوائد وأخسها ، لأن فيها من قلة الحياء ، وإساءة الأدب مالا يخفى ، إذ فيها إظهار لما ينبغي إخفاؤه ، من إفشاء سر العروسين ، ولاسيما الأنثى • والذي حملهم على ذلك قوة سوء الظن بالنساء ، مع أن الإناث

١٣٢

(١) في الأصل : حافلا ، وهو خطأ .

لاتوجدكلهاعلىحالة واحدة، فمنهن من يكون غشاء بكارتها جيد التركيب، لم توجد فيه إلا فتحة صغيرة واصلة للمهبل ، ومنهن من تكون فتحته واسعة ، ومنهن من يكون غشاؤه صلباً ثخيناً ، ومنهن من يكون غشاؤها رقيقاً ، سهل التمزق ، ومنهن من يتمدد غشاء بكارتها ولا يتمزق من الجماع ، ومنهن من لا يوجد لها غشاء أصلاً ، أو وجد وزال بسبب من الأسباب ، أو مرض من الأمراض التي تعتري أعضاء التناسل ، كالالتهاب المتسبب عن ظهور أول الحيض ، أو عرض لها ذلك من نطة أو سقطة ، لاسيما إن كان الغشاء رقيقاً سهل التمزق ، فاذا كان كذلك ، وذهب الغشاء المذكور ، بسبب مما ذكر ، ولم ينزل منها دم ، افتضحت، وذل أهلها ، مع أنها مظلومة ، لا ذنب لها . فظهر بذلك أن وجود الغشاء المذكور لا يكون دليلاً على البكارة ، كما أن عدمه لا يكون دليلاً على الثيوبة . هذا وإن كان الأكثر هو الوجود ، وما ذكرناه من الأسباب من النوادر ، يجب علينا أن نبين أن غشاء البكارة / قد يزول بسبب منها ، والبنت لاتشعر بذلك ، فتفتضح لعدمه ، وهي في نفس الأمر بريئة . فيجب على الزوج ، إن لم ير الدم ، أن لا يشنع على زوجته ويتهمها ، بل ينبغي له أن يتأمل فيما ذكرناه ، فيعرف براءتها ، لأن أهل البنت قد يعاقبونها على ذلك ، وهي لا تستحق العقاب . بل بعضهم إن لم يخف من الحكم ، ووجد لقتلها فرصة قتلها ، مع أنها في نفس الأمر قد تكون بريئة .

١٣٣

ومن أقبح العوائد، مايصنع بمصر، من أخذ غشاء البكارة بالإصبع. وأقبح منه أن يوكل الزوج الماشطة المسماة عندهم بـ « البلانة » أن تفضها باصبعها ، بل بعض البلانات تستحضر معها على مفتاح ، وتلف

عليه قطعة شاش ، وتفتض العروس بـه ، وهو فعل لا يجوز شرعاً .
وليت شعري ! إذا كان الرجل لايقدر على افتضاض البكر ، لم لا يأخذ ثيباً ، لأنها أسهل له وأحسن ؟ وأي لذة له في كون المرأة تفتضها له ، وهو أمر ما أنزل الله به من سلطان ؟

وينبغي أن لا تؤتى المرأة وهي حائض ، لأن ذلك قـد يؤذيها ، ويزيد مقدار الدم ، وبتلك الزيادة تضعف المرأة ، ويؤذى الرجل ، لأنه بذلك يصير عرضةً لاكتساب أمراض ثقيلة . ولذلك نهى الله تعالى عنه بقوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذىً . فَاعْتَزِلُوا ٱلنِّسَاءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ[1] »
ويجب على النساء أن لا يطلبن كثرة الجماع ، لأن كثرته تضعف قوتهن، وينشأ عنها أمراض خطرة ، بل قد تكون كثرته من موانع الحبل ، لأن بكثرته تستمر الرحم في حالة تنبه ، فلا يستقر فيها ماء الرجل ، كما أن الرجل إذا أفرط في الجماع ، كان ماؤه غير كامل . فلا يليق لإتمام الوظيفة الخاصة به . اه

٣٣٤- مبيض هو من يبيض الأواني النحـاسية بواسطـة القصدير . وذلك من الضروري ، إذ من المعلوم مضرة تناول الطعام من الأواني النحاسية غير المبيضة ، لمـا يتراكم عليها من الصدأ ، فيأتي من أراد تبييض نحـاسه بالمبيّض ، أو أجيره ويسلمـه الأواني / بالعدد ، فيأخذها لدكانه ، حيث يكون مستعداً لوجود النار به ، فيحمي الإناء ، ويطليه بالقصدير ، وتكون بيده قطعة من قطن ، فيلتّها بمسحوق النشادر ، ويمسح بها القصدير الذي يطلي به الإناء ،

١٣٤

(١) ٢ ـ البقرة ـ ٢٢٢ .

فيذوب كالماء ، بمجرد أن يشم رائحة النشادر ، فيتعمم كافة الإناء بالطلي ، وذلك غب جلي تلك الأواني بالرمل ، وصفوة الفحم ، حتى تنظف من المواد الدهنية ، حيث لا يضبط طلي القصدير عليها إلا بجليها أولاً ، فحينئذ يتم عملها ، فيرجعها لدار صاحبها ، ويسلمه إياها بالعدد، كما استلمها ، وحينئذ ينقده صاحبها الأجرة التي تم الاتفاق عليها ، وفي الغالب على حسب قيمة القصدير ورخصه وغلائه تكون الأجرة ، فتارة تكون أجرة الوعاء خمس وعشرين بارة ، وتكون تارة أكثر لحد الأربعين بارة . وهي حرفة مهمة جداً ، تنتج ربحاً متوسطاً .

٣٣٥- متعيش هو من لا يتقيد بصنعة ولا حرفة مخصوصة ، بل يتبضع من التجار، ويبيع على الفرش أو على دابة .

وذلك يختلف باختلاف الزمن . ففي فصل الصيف يوجد أصناف البطيخ والتين والخيار والقثاء وغيرها من الفاكهة كالتفاح والانجاص والمشمش والدراقن ، فيذهب يومياً إلى أصحاب الرزق ، فيشتري منهم على قدر ما يعلم أنه يبيعه ، فيملؤه في فرش من خشب ، ويحمله على رأسه إذا كان شاباً ، وإن كان عاجزاً يشتري له دابة يحمل عليها . وهؤلاء المتعيشة يحضرون أسواق ومجتمعات الناس ، فيبيعون ما اشتروه في ذلك النهار. فتراهم كل يوم يتجرون بصنف ، حتى اذا دخل فصل الشتاء يتعيشون من أصناف فاكهة الشتاء كالبرتقال والليمون والكستناء والبلح وغيره ، فيتعيشون من قليل هذا الربح . ولا يحترف بهذه الحرفة سوى من كان عاجزاً في جسمه ، أو لا يتقن صنعة ، أو من ليس عنده رأسمال يعمل في دكان . وهذه الحرفة أصحابها / كثيرون بدمشق ، وربحها يقوم بقوتهم الضروري .

١٣٥

٣٣٦- مجـــارفي

هو من يحترف مع الطيان المتقــدم ذكره ، بعمل خاص ، وهو اصلاح الطين أو الكلس والزريقةوالعدسة.

وقد مر بيان كل منها في حرفة الطيان . وهذه الحرفة لا يتقنها غيره من الفعلة ، حتى اذا قام أحد الفعلة غير المجارفي في هذه الحرفة فيكون ما عمل غير موافق ، وفي أقرب وقت يخرب ، إذ من اللازم أن يكون عنده علم تام بوضع الكميات . مثلاً: اذا كان يحضر كلساً الى الكلس[1]، فينبغي أن يضع الى القنطار من الكلس اثني عشر رطلاً من قشر القنب المقطع ، ويمزج بالمجرفة بعضه ببعض ، لدرجة هو يعملها . أو كانت عملية عدسة مثلاً ، فينبغي أن يضع الى القنطار من الكلس خمسة أحمال قصرمل ، ويرشه بالماء على قد كفايته . أو عملية تطيين سطح ، فينبغي أن يضع لحمل التراب قفة من التبن ، ويخمّره أياماً ، ويمزجه في بعضه.

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها الكثير من الفلاحين ، حيث لا يتقنها غيرهم من أهل الحضر . وتزيد اجرة المجارفي عن غيره من الفعلة أربعين بارة . الذين يتقنون هذه الحرفة هم من أهالي قرية دير عطية والنبك ، وما جاورهما من القرى ، فيأتون الى دمشق في آخر فصل الصيف ، حيث يكون قام سوق حرفة الطيان . وعند نهاية فصل الخريف يسافرون لبلادهم ، حيث يتعاطون أمر الفلاحة والزراعــة . وبعضهم متوطنون بدمشق ، يذهبون من الصيف نساءً ورجالاً لبلاد حوران ، يحصدون الغلال بالأجرة يتعيشون منها .

---

(١) اي الى التكليس .

٣٣٧- مجلّخ

هو من يصلح ماتثلم من السكاكين والأمواس والمقاريض ، بواسطة دولاب يعرف بـ « الجلخ » . وهو مركب من ثلاثة عواميد ، طول كل واحد ذراعان ، بتخن ثلاثة قراريط ، مركب بوسطها دولاب كبير ، وبأعلاها قطعتان من خشب ، بينهما فاصل مقدار / نصف ذراع ، مركب عليها سيخ من حديد ، في وسطه قطعة من حجر كالدائرة بعرض قيراطين ، يصل بين الدولاب الكبير والسيخ قشاط من جلد ، ومن الدولاب أيضاً لقطعة من خشب بأسفله ، كقدم الرجل على تلك القدم ، ويحركها فيدور الدولاب ، وبدورانه يدور السيخ وعليه الحجر ، فيسرع بالدوران ، وحينئذ يكون ماسكاً بيده مايقتضي اصلاحه ، فيمرّه على طرف الحجر ، فيتآكل كل ما ثلم منه منه وما فسد ، فحينئذ يكون مستعداً الى قطعة من حجر تعرف بـ « المسنّ » فيشحذ عليها ما أصلحه ، ويسلمه لصاحبه ، فينقده ماحصل الشرط عليه من الأجرة ، وهي طفيفة جداً ، لاتبلغ عشر بارات أو عشرين بارة .

١٣٦

وهي حرفة من لا حرفة له . والذين يتعاطون هذه الحرفة بدمشق هم فقراء الأفغان المتوطنون ، الذين ليس لهم قدرة على العمل ، يتعيشون من قليل ربح هذه الحرفة .

٣٣٨- مجلّد

هو من يجلد أصناف الكتب والدفاتر ، فيجمع منها كراريس ، ويضمها لبعضها ، غب ضبطها ، ويضعها ضمن آلة تعرف بالمكبس فتكبسها ، فان زاد شيء من الورق عن بعضه

يقصه بالمقراض ، حتى يساوي بعضه ، واذا كان الزائد قليلاً ينحته في مبرد من حديد ، حتى يساوي بعضه ، وحينئذ يضع ذلك المصنوع ضمن جلد من ورق سميك ، يعرف بـ « الكرتون » ملصوق عليه من أصناف الورق الملون ، أو يصنع جلداً رقيقاً أو قماشاً ، وذلك بغاية الضبط • ثم يحبكه في بعضه ، أو يخيطه • ومن الناس من يرغب في تذهيب جلد الكتاب اذا كان نفيساً •

وهي حرفة تنتج ربحاً متوسطاً ، وأهلوها قليلون •

٢٣٩- مجـــري

هي حرفــة أنــاس مخصوصين ، يتعيشون منها ، وكانت في الزمن السابق رائجــة جداً ، وفي هــذا الزمن أصبحت قليلة الرواج •

والعادة في دمشق : أن كل من أراد أن يختن طفله ، أو يحتفل بيوم ختمه القرآن الكريم ، يعمل له « نشيدة » : وهي اجتماع أولاد مكتبه، لابسين أحسن الثياب ، غب أن يلبس الطفل / المذكور الأثواب المقصبة والمزركشة ، ويزين بأصناف الحلي ، فتصطف الأولاد مثنى مثنى ، وهو بينهم ، وأمامه المجري ، صاحب الترجمة ، لابساً ثوباً أحمر ، يصيح بصوت جهوري :

١٣٧

سعيد من يصلي على النبي • قلب العامر يصلي على النبي

وبيده مجمرة فيهــا أنواع العود والبخور ، والأولاد ينشــدون بأصوات عالية أناشيد الكتاتيب ، ويدورون بغالب أسواق البلــد ، ويعودون لدار صاحب النشيدة ، حيث يكون هيأ لهم الطعام ، وبعده يفرّق عليهم جميعاً الدراهم ، وقد يكتفي بتوزيع الدراهم من غير طعام أو بتوزيع قراطيس الحلوى •

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

٣٤٠- مجركش

باللغة العامية ، وصوابه «مزركش» بالزاي . هذه الحرفة أصبحت في عصرنا هذا مفقودة بالمرة ، وكانت سابقاً بدمشق رائجة رواجاً زائداً . وذلك أن الأقدمين كانوا يرغبون بوضع عروق وقطع مصنوعة منخالص الفضة على المفروشات ــجهازات العرسان ــ فغب أن يصنع الصانع تلك العروق الفضية وينقشها ، تسلم الى المزركش مع وجوه الفرش ، فيوقع عليهــا تلك العروق الفضية ، ويخيطها بها بصورة مضبوطة . وغب ذلك يسلمها الى المنجد فيتمم عملها . وهذه المفروشات في زماننا هذا لا يعتني بها أحد في البلدة ، سوى البعض من أهالي القرى الــذين لم يزالوا على ماوجدوا عليــه آباءهم ، فيعتنون بهذه المفروشات ، ولم تزل باقية عنــدهم من تلك السنين السالفة ، يتوارثونها أباً عن جد .

وهي حرفة كانت مهمة بدمشق ، وتنتج أرباحاً وافية ، وقد أصبحت مفقودة بالمرة .

حدثني بعض من بقي من صناعها أن الأجرة كانت على كل مئة درهم فضة من تلك القطع الموقعة سبعة عشر قرشاً ونصف قرش . قال : ثم نزلت الأجرة الى خمسة عشر قرشاً ، ثم الى عشرة قروش ، ثم الى سبعة، ثم الى خمسة ، ثم من نحو عشرين سنة الى قرشين ونصف ، ثم تركت رأساً .

وكان كثير من الفقهاء الشافعية يتألمون من وجودها بالمكان الذي يدعون اليه ، وكثير منهم يأمر بنزعها . بل بعضهم كان يغمض عينه اذا دخل حتى تنزع ، جرياً على قاعدتهم : في أن المحرم استعماله ، لا يجوز

١٣٩ النظر اليه ، لئلا يلزم الإقرار على المعصية . / وجوّز الحنفية الجلوس عليها اذا جللت بغطاء ، أو اتقي موضع الفضة .

٢٤١- محـايري

هو من يصنع « المحاير » . وهي من الخشب على صفـــة السرير ، تعمل محامل للحجاج حين سفرهم للحجاز . وتسمى الواحدة « محارة » ، وهي شقتان ، تحمل على ظهر الجمل ، كل شقة بطرف ، يحزمونها بقشط غليظ ، ويغطونها بقطعة من قماش تعرف بـ « الأورتي » وهو مخصوص الى المحاير ، يعملونه من الخام — وقد تقدم الكلام عليه في حرفة « الخيمي » — ويزركشونه بأصناف الشريط . تسع الشقة من المحارة فراش شخص واحد ، مـع مايلزمه من الثياب ، ومطرة للماء وغيره .

والكثير من الحجاج يستأجرون محارة من « المقوم » — الآتي ذكره — . ومنهم من يشتري محارةً ، ويستأجر لحملهـا من الشيال — المار ذكره في حرف الشين — .

وتروج حرفة المحايري في زمن سفر الحاج .

ويصنع أيضـاً نوع آخر يعرف بـ « الشباري » ، إلا أنهـا مثل الصندوق ، راكبها لا يرى زميله ، بخلاف المحارة ، فانها أرفه لراكبها ، وأكثر أنساً ، إذ يأنس برفقته ويتحادث معه ، وما بينهما إلا قتب الجمل .

والشبرية يرغبها الفقراء من الناس ، لرخص أجرتها بالنسبـة الى المحارة .

وهي حرفة مهمة، لها سوق مخصوص بدمشق، يعرف بـ «المحايرية» . وهم يصنعون أيضـاً غير المحاير والشبـاري ، كسحـاحير من خشب

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

هذا العمل مما لا يستغنى عنه في آكثر قرى دمشق . وقد شوهد أن الغصن الذي يذهلون عن دهنه لايثمر في تلك السنة أبداً . ويوجد في بعض قرى نائية عن دمشق ، لايحتـاج كرمها الى هـذا العمل ، فسبحان من أوجد في كل أرض خاصية .

وأجود الحُمَّر ماكان حجراً صلداً براقاً مائلاً الى الحمرة ، وبعده الناعم الخالي من الأحجار والتراب ، يؤتى به من مدينـة صيدا ، من أعمال ولاية بيروت . وله محافر في الأرض كمحافر الملح .

وهي حرفة تروج رواجاً زائداً في وقتها ، ولا يتحمل عملها آكثر من يومين أو ثلاثة ، وتبلغ أجرة المحمرة الى القرشين ونصف فالثلاثة على حسب الوقت . والله أعلم .

٣٤٣ـ مخرّس

هو من يصلح ما انكسر من الأواني المعروفة بالصيني والمالقي والبللور، وكانت هـذه الحرفـة في الزمن السابق رائجة جداً ، لقلة ورود الأواني المالقية والبلورية من البلاد ، وغلاء أثمانها . فاذا انكسرت يأخذونها / الى المخرس فيصلحها . ١٤١

وهذه الصنعة في كل إناء يكون مكسوراً قطعتين أو ثلاث . وأما إذا كان آكثر فلا يصلح أبداً .

وصنعته : هو أن يثقب المخرس الإناء من أحد طرفيه ، بواسطـة مثقب من حديد رفيع ، ويدخل بهما مسماراً من نحاس أصفر ، وذلك غب أن يلحم القطعتين بمذوَّب الجص . وهكذا الصيني أيضاً . وله على كل مسمار أجرة عشر بارات . ولكن في هذا الزمن ، نظراً لتوسع

نطاق التجارة ، وتنازل قيمة الأواني البلورية والمالقية ، أصبحت هذه الحرفة بغاية الكساد ، وقل محترفوها •

وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً • والله أعلم •

٣٤٤- مخللاتي

هو صانع « المخلل » • والمخلل بدمشق أنواع : منه اللفت والخيار والشوندر والفليفلاءواليخناوالفجل والباذنجان • فأما اللفت والفجل والخيار والفليفلاء ، فانه غب غسل كلّ بالماء وتنظيفه ، وكذا الشوندر والباذنجان واليخنا ، غب غسل كلّ وتنظيفه وسلقه ، يضعون كلاً على حدة في وعاء كبير من فخار يعرف بـ « الخابية » ، تسع خمسين أو ستين رطلاً ، بشرط أن تكون عتيقة مستعملة لهذه الغاية ، ويضعون فوقه الماء المملح ، لكل عشرة أرطال من كل صنف رطل من الملح ، مع ماء عصير الليمون الحامض ، بكل خابية رطل ، ويتركونه مدة أربعين يوماً • وهذا للّفت والشوندر والفجل واليخنا • وأما الباذنجان والخيار والفليفلاء ، فانها تصلح في نحو عشرة أيام •

وهذه الحرفة رائجة جداً بدمشق ، لاسيما في الشتاء • ولا تخلو كل محلة من جملة حوانيت للمخللاتية ، عدا عن كثير من الناس الذين يعملون المخلل في بيوتهم ، ويزيدون على تلك الأصناف المشروحة مثل العنب الحلواني ، والباذنجان الافرنجي الصغير ، واللوبياء الخضراء ، وحشيشة البحر ، حيث لايخلو كل إنسان من أهالي دمشق عند تناوله طعامه الغـَداء والمساء من وجود أنواع المخلل على مائدته •

وأهل محلة الصالحية من دمشق يتقنون هذه الصنعة جداً ، حتى

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

وغيره ، ويبقى الحب فقط ، وهلمجرا ، حتى يتم البيدر . واذا لم يوجد هواء يشتغلون بواسطة الغرابيل باخراج الحب ، ولكن هذا يحتاج الى وقت طويل .

وأما الآن ، نظراً لوجود الماكنات المخرجة للحب ، فقد سهل على أصحاب هذه الحرفة الشغل بها ، ويمكن أي شخص كان يشتغل على تلك الماكنات ، وهي تخرج الحب وحده نظيفاً خالصاً ، والتبن والتراب وحده .

وكانت أجرة المدري في الزمان السابق وافية ، وذلك بالنسبة لمشقة العمل ، وكان يأخذ الأشخاص المؤلفون من أربعة أو خمسة أشخاص على غرارة الحب ، وهي ثمانون مداً ، ستة أمداد . وأما الآن فعلى حسب قيمة الغلة ، إذا كانت ثمينة / فمن المدين الى المدين ونصف، وإن كانت رخيصة فالى الثلاثة أمداد .　١٤٣

وهي حرفة مهمة ، أهلوها كثيرون في القرى . والله أعلم .

٣٤٦- مدّاح

المداح : القوال . وقد تقدم الكلام عليه في باب القاف .

٣٤٧- مدرّك

هو من يدرك الشجر . وفي زمن الربيع تروج هذه الحرفة رواجاً زائداً . فيدور أصحابها في أزقة وأسواق البلدة ، حاملين علب التدريك ، وهي علب من خشب ، دائرتها نصف ذراع ، بارتفاع نصف أيضاً ، بدون غطاء ، ولها سفل من خشب مثقوب ، وطرف العلبة غير مسمّر . فمن كان عنده شجر يحتاج الى تدريك ، يأتي بالمدرك لداره ، حيث يكون في داره من أصناف شجر

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولا الكثير ، عدا عن التهكم بأهل الطفل . ولكن الحاجة اليها تدعو لاستجلاب رضائها بكل ما يمكن .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها البعض من النساء .

٣٥٣ - مزارع

هو من يأخذ أرضاً واسعة ذات ماء عند الشدادين أصحاب الحوانيت أو مستأجريها ، فيحرثها ويزرعها ويسقيها ، ويقوم بجميع ما يلزم لخدمتها ومحافظتها ، وعند استواء المزروعات يحصدها ويدرسها ويخرج حبها . فكل ما يلزم المصروف فهو عائد عليه ، عدا عن أجرة الأرض . وما للحكومة فهو عائد على صاحب الأرض أو مستأجرها . وإذا احتاج المزارع في أول السنة أو في أثنائها لدراهم يعطيه صاحب الأرض بوجه القرض ، وعند خروج الأغلال يقسمونها في البيدر ، وذلك غب رفع عشر الميري ، فيأخذ صاحب الأرض الثلث من تلك الحاصلات في مقابلة أجرة أرضه ومائه ، والمزارع الثلثان في مقابلة أتعابه ومصارفاته ، مع كافة التبن . وإذا كان عليه قرض لصاحب الأرض يوفيه إياه من أصل حصته ، وهي الثلثان . وإذا كان فيها أشجار ذات حمل أو كروم ، فحسبما يتفقان عليه من حصة تفرز / للمزارع من ثمن ثمرة تلك الأشجار . والغالب أنه يعطى أربعة قراريط من قيمة الأشجار ، في مقابلة خدمته إياها ، وستة قراريط من ثمن الكروم ، في مقابلة عزقه إياها وخدمتها .

١٤٧

وهي حرفة يتعاطاها كثير من الفلاحين في قرى دمشق . وإذا كان من يتعاطى هذه الحرفة عنده أولاد كثيرون ، يقومون بما يلزم لخدمة تلك الأرض ، من حرث وزرع وسقي ودراس وتعشيب وغيره ،

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

فكل حكماء الارض ، وكل فلاسفتها ، وكل أساطينها ، وكل ملوكها ووزرائها ورؤسائها جزعون وجلون من تيار المهاجرة من المزارع والحقول الى المدن والمصانع ، حتى قال المسيو « اتيين » الفرنسوي في كتابه « تمسكوا بالارض » :

١٤٨ / هاتوا لي فلاحاً واحداً حلّ به العسر فمات جوعاً ، وحل به السقم فمات عليلاً ، قبل أن تهدّه السنوات والايام . فالارض أمنا فكلما زدنا في الطلب منها زادتنا عطاءً ، فكيف نهجرها الى شقاء المدن وبلائها وتعاستها وسقمها وأمراضها وأرزائها ؟

وسئل المسيو فاليير رئيس فرنسا الجديد عن أسعد أيامه فقال : ان اسعدها يوم أصرفه في حقلي ، وفي تشذيب كرمتي ، واقتطاف عنبي ! فقيل له : وهل تفكر أيضاً في كرمك ؟ قال : ان لذتي الوحيدة ستكون بتوجيه فكري الى كرمي .

تلك عظات تلقى علينا من اوربا المتمدنة التي تبذل كل جهدها وقواها في إعادة أبناء الامة الى الارض ، أي الحرث والزرع ، أي الى النعمة الصحيحة ، والى الصحة السليمة ، والى الغنى الحقيقي . ونحن هنا « في مصر » لاندرك ذلك ، بل أكثرنا يغمض عينيه ، تاركاً أرضه وزرعه الى المدن ، حيث ينتابه السقم والفقر والفاقة ، فاذا نجح واحد في عمل، يتخذ المجموع هذا النجاح قياساً ، وهم يجهلون أن نجاح الفرد هو النادر الشاذ . أما نجاح المجموع في الزرع ، والحرث في المزارع فهو القياس الصحيح ، يتدفق منذ خمس سنوات حتى الآن تيار على القاهرة والاسكندرية والمدن الاخرى من جهات الاقاليم ، وبينهم الغني الذي يظن أن الراحة في احتساء الكؤوس ، والطواف بين القهوات والملاعب ،

وهو لايدري أن في كل خطوة يريق من دم حياته قطرة ، وفي كل ليلة يقطع من ألياف صحته خيوطاً ، وفي كل كأس يهدم من ثروته جانباً • وبينهم الفقير الذي يطمع في سعة ووفرة الرزق ، فيلقى الشقاء والعناء والبلاء ، فيركض طالباً الغنى ، ركض الصبي وراء ظله ، حتى بات في هذه المدينة ، وفي المدن الكبيرة آلاف من أهالي الارياف والاقاليم ، في تعاسة وبلاء ، فهَمٌ ناصب ، وجسد شاحب ، وجيب فارغ ، وطمع لا يشبع ، وأمل لا ينال •

فليسمع الذي قذفت بهم يد الغرور والطمع من جنة ونعيمها ، الى شقاء المدن وبلائها ، صوت الملوك والحكماء الخبيرين ، والوزراء ، وليتمسكوا بمزارعهم ، اذا كانوا قد خرجوا منها • فان الجنة في الأرض لا في الشوارع ، / ولا في الأزقة ، حيث الهواء سقم ، والمـاء سم ، والرزق نزر ، والغنى ذاته فقر • وفقر الفلاح في أرضه ثروة وخير وبركة•

١٤٩

٣٥٤- مـزايكي

حرفة من تعلقات حرفة الألاجه • ويقال لصانعها « مزايكي » : وهو غب صبغ شقق الحرير ـ وقد تقدم الكلام عليها بحرفة الصباغ ـ تعطى الى المزايكي يزكيها ، فيذهب بهـا الى أطراف البلدة ، حيث يجد محلاً خالياً من اجتماع الناس ، فيدخل أوتاداً من حديد او خشب في دكوك البساتين ، ويعلق عليها من تلك الشقق • ولا تخلو الشقة طولاً من عشرين ذراعاً فأكثر • ويأخذون في ضبط طيقانها ، حيث في وقت صبغ الشقق ينقطع البعض من الطيقان ، ويتشربك البعض ، فيحمل ما تشربك ، ويوصل ما تقطع • وبعد ذلك تحمل الى الملقي ـ وسيأتي بيانه في بابه ـ •

وهي حرفة يتعيش منها اناس كثيرون ، تبلغ أجرة الرجل في اليوم لحد الستة قروش . والله تعالى أعلم .

٣٥٥- مــزعـبر هو من يأتي بأنواع الخزعبــلات والشعوذة .

فمنها السيمياء : وحاصله إحــداث مثالات خيالية لا وجود لها . ويطلق على إيجاد تلك المثالات وتصويرها في الحس ، وتكون صوراً في جوهر الهواء . وسبب سرعة زوالها سرعة تغير جوهر الهواء ، وكونه لا يحفظ ما يقبله زماناً طويلاً .

ومنها النيرنجيات : و « نيرنج » فارسي معرب ، وأصله « نورنك » أي : لون جديد . والنيرنجيات : هي إظهار الافعال العجيبة المرتبة على سرعة الحركة ، وخفة اليد .

وهي حرفة يحترف بها القليل بدمشق ، يعينون لهم وقتاً في أحد القهاوي ، يأتون بأنواع الحركات ، وخفة اليد ، وإظهار أشياء لا يكاد العقل يقبل بها .

والغالب فيمن يتقن هذه الحرفة يكون من الافرنج ، يأتون الى دمشق ، فيعينون لهم وقتاً بالقهــاوي يشتغلون به ، وتغص القهاوي بالمتفرجين .

١٥٠ وقد أتى رجل مرة يعرف بـ « مالديس » وافتتح وقتاً في قهوة / العصرونية ، وهرعت اليه الناس من كل فج عميق . وكانت الدخولية على الشخص ريالاً مجيدياً ، قريباً من محل الشغل ، ونصف ريال خلفه. فكانت ترى دائماً تلك القهوة مملوءة بالناس ، وبلغ ماتجمعه ليلياً من النقود ماينوف عن مئة وخمسين ريالاً . فقصدته ليلة لكثرة ماسمعت

عنه بما يأتي به ذلك الإنسان ، من أنواع الزعبرة ، فما انتهت الحصة إلا وخرجت مدهوشاً مما ألقاه ذلك المزعبر المتقن لهذه الحرفة أشد الإتقان ، من تناول مجيديات من الهواء ، ونحن نشاهدها عياناً ، ونسمع صداها . ومن وجود ألعاب كذلك لايكاد العقل أن يدركها . وبالجملة طلب منا مناديل ، وكنا تجاه محل الشغل عشرة أشخاص ، فأخرج كل منا منديلاً ، فطلب من كل شخص أن يعقد طرف منديله بطرف جاره ، حتى عقدنا تلك العشرة المناديل في أطراف بعضها عقداً متيناً ، لاتكاد أن تنحل الواحدة بأقل من خمس دقائق ، واحتمل عقدها أكثر من ربع ساعة . وعند إتمام عقدها أخذها بيده ومسكها بأطرافها قائلاً : أنتم عقدتم هذه المناديل في مدة لا تقل عن ربع ساعة ، وهي عشرة مناديل ، فما أحتاج أنا من الوقت لحلها ؟ فأجبناه نصف ساعة . قال : قليل ، حيث لا يقل عن حل كل واحدة خمس دقائق ، بالنظر لما بذلتموه من الجهد في شدة عقدها ، فالعشرة تحتمل خمسين دقيقة ، واني سأحلها في أربعين دقيقة . فقلنا له : نحن يمكننا حلها بهذه البرهة ، فأجاب : إنه لا يمكنني أن أحلها في أقل من ذلك ، وإلا صرفت النظر عن حلها ، وألقاها من يده مظهراً الغضب ، وإذا بها كلهامحلولة . فدهشنا لماشاهدناه من هذه القضية ، وهذه الخفة العجيبة . وقد أتى بجملة حركات على هذا المنوال .

٣٥٦ـ مزين هو الحلاق . والمصطلح عليه الآن بدمشق هو من يختن الأولاد . وهي حرفة لايتقنها خلافه . فكل من أراد ختن ولده يأتي / بالمزين فيختنه له ، ويتعاهده جملة أيام ، ١٥١

بتغيير اللصوق ، حتى يبرأ . وله على ذلك إكرام كل شخص على حسبه . فالأغنياء يعطون المزين لحد الليرة ، والبعض نصف ليرة ، والبعض ريال مجيدي ، والفقير أقل من ذلك .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها من يتعاطاها ، وتروج أيام الربيع بدمشق ، حيث يكون موسم الفول الأخضر .

٣٥٧- مسابجي

هو من يحترف في بيع المسابح . وأصنافها متعددة . فمنهم من يتخذ له دكاناً يبيع بها من تلك المسابح المنوعة الأشكال . ومنهم من يدور بها في الشوارع والأسواق ، فيبيعها لمن يرغب بها . وتروج في شهر رمضان رواجاً تاماً .

وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً .

٣٥٨- مساح

هو من يمسح الأرض بواسطة المقياسات . والمصطلح عليه بغالب قرى دمشق وبساتينها في المساحة بالقصبة ، وهي عبارة عن سبعة أذرع ، يمسح بها المساح لمن يرغب . وهي أضبط من كل مقياس ، فيمسح فيما إذا كان بين أشخاص أرض مشاعة ، ويقسمها بينهم ، كل على قدر ماخصه .

ولكل قرية اصطلاح بمساحة الأرض ، وتنطبق على مساحة القصبة. فالبعض يعتبر الفدان الخطاط ، وهو عبارة عما مساحته مئتان وأربعون قصبة . والبعض يعتبرون « المدى » وهو ستون قصبة . والبعض « القيراط » وهو أربعمئة وأربعون قصبة . والبعض « المد » وهو ثلاثون قصبة .

وبكل قرية اصطلاح يعرفه أصحاب هذه الحرفة .

وصاحبها يحتاج لإتقان فن الحساب ، إذ عند إجراء المساحة مثلاً ، إذا كانت أرض مستوية بالطول ، يأخذ مساحة طولها وعرضها بالقصبة، ويضربه على قاعدة فن الحساب في بعضه ، فيخرج حاصل الضرب مقدار مساحة تلك الأرض. واذا كانت الأرض غير مستوية في الطول والعرض، يأخذ مساحة طرفيها ووسطها ويجمعه ببعضه ، / ويأخـذ منه الثلث . والعرض أيضاً غب أخذ ثلاثة عروض الطرفين والوسط وجمعه وأخذ ثلثه ، فيضربه بما تبقى من الثلث الطول ، فيخرج ماحصل من الضرب مقدار مساحة الأرض .

١٥٢

وهي حرفة مهمة بدمشق ، لم تزل رائجة جداً ، ولأصحابها أجور وافية .

٢٥٩- مسـالخي

حرفة من تعلقات حرفة القصابين . ويقال لصاحبهـا « مسالخي » . يوجد دائماً في المسلخ المعد لذبح الحيوان . فكل من أتى بغنم أو معز للذبح من اللحامة، يأخذه منهم المسالخي ويذبحه ويسلخه ويسلمه لأجراء اللحامة فينظفونـه . وله أجرة في مقابلة ذلك طفيفة جداً ، لاتبلغ في كل حيوان أكثر من عشر بارات ، يتعيش منها .

وبدمشق جملة مسالخ خاصة بدائرة البلدية ، منها مايعرف بمسلخ باب السلام ، ومنها مسلخ باب المصلى ، ومسلخ الصالحيـة . وهي مستحكمة البناء ، يمر داخلها قسم من الماء لتنظيف تلك الحيوانات .

ويذبح يومياً بدمشق ماينوف عن مئـة وخمسين رأساً في هـذه المسالخ .

٣٦٠- مستأجر هو من يستأجر الحوانيت المعدة للحرث والزرع والطواحين أو الحماميم وغيرها من أصحابها ، بأجرة توافق قيمة ذلك المأجور ، يدفعها لصاحبها إما سلفاً ، أو مقسطاً ، ويشغل ما استأجره على حسابه ، يضع له صناعاً يشتغلون به ، وكل من أولئك الصناع ذكر في حرفته ، ويدفع لهم الأجورات مع ما يلزم من جميع المصارفات الى المأجور . وعند خروج الواردات تكون له مطلقاً .

وهي نوع من التجارة ، تحتمل الربح والخسارة . والكثير ممن يحترف بهذه الحرفة بدمشق يثري غالباً ، ويحتاج لكبير رأس مال .

وهي حرفة شريفة ، تنتج ربحاً موافقاً .

٣٦١- مسحّي هذه الحرفة من حرف الفلاحة . ويقال لصاحبها « مسحّي » . وتروج / حرفته في أواخر فصل ١٥٣ الشتاء ، حيث يقوم في القرى سوق الصيفي ، وهو مزروع البطيخ المشكل ، والخيار والقثاء وغيره ، فيأتي المصيف ـ الآتي بيانه في حرفته ـ بالمسحّين ، ومعهم المساحي ، وهي كالجاروف من حديد ، بطول ذراع ، بعرض ثلث ذراع ، ولها بطرفيها حلقات ، تربط بحبل بطول ثلاثة أذرع من طرفيه ، يربط بوسط الحبل عصا صغيرة بقدر نصف ذراع ، وبوسط المسحاة كعب من حديد ، حيث ينزل به عصا بطول ذراع ونصف ، وتسمر بالكعب ، وبرأس العصا عارضة أيضاً ، وتعرف بـ « المساكة » ، فيشتغل بالمسحاة ثلاثة أشخاص : واحد يمسك من تلك المساكة ، وينزل المسحاة في الأرض ، ويتكيء عليها ، حيث

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

وهي حرفة دنيئة ، لا يحترف بها إلا الفقراء .

لطيفة ـ ومما قيل في فن « القوما » أن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر . والصحيح أنه مخترع من قبله . وكان الناصر يطرب له ، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر في نظم « القوما » ، فلما مات أبوه أراد أن يعرّف الخليفة بموت أبيه ، ليجريه على مفروضه ، فتعذر عليه ذلك ، فصبر الى دخول شهر رمضان ، فأخذ أتباع والده من المسحرين ، ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة ، وغنى «القوما» بصوت رقيق ، فأصغى الخليفة إليه ، وطرب له ، فكان أول ماقاله قوله :

يا سيد السادات　　لك بالكرام عادات
أنا بُنَيّ ابن نقطة　　تعيش أَبُويَا مات

فأعجب الخليفة من هذا الاختصار ، فاستحضره ، وخلع عليه ، وفرض له ضعفي ما كان لأبيه .

ومن ذلك مانظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء في رمضان :

لازال سعدك جديد　　دائم وجدك سعيد
ولا برحت مهنا　　بكل صوم وعيد
في الدهر أنت الفريد　　وفي صفاتك وحيد
والخلق شعر منقّح　　وأنت بيت القصيد
يا من جنابه شديد　　ولطف رأيه سديد
ومن يلاقي الشدائد　　بقلب مثل الحديد
لا زلت في تأييد　　في الصوم والتعييد
ولا برحت مهنا　　بكل عام جديد

نحن لذكرك نشيـــد	بقولنـــا والنشيـــد
ونبعث أوصاف مدحك	على خيول البريـــد
ظلك علينـــا مديـــد	مافوق جودك مزيـــد
وكـــم غمرت بفضلـــك	قريبنـــا والبعيـــد
لا زلت في كل عيـــد	تحظى بجد سعيـــد
عمرك طويل وقـــدرك	وافر وظلك مديـــد
لا زال قدرك مجيـــد	وظل جودك مديـــد
ولا بـــرحت مـــوقى	كمـــا يوقى الوليـــد
مـــازال برك يزيـــد	علـــى أقـــل العبيـــد
مـــابرح جـــود كفـــك	منـــا كحبل الوريـــد
لا زال بـــرك مزيـــد	دائم وبأسك شديـــد
ولا عدمنـــا نوالـــك	في صوم فطر وعيـــد

١٥٥

٣٦٣- مسدّي

هذه الحرفة من متعلقـات حرفـة الألاجـة . ويقـال لصاحبهـا «مُسَدّي» : وهو عند إتمام شغل الحرير عند الفتال ــ المار ذكره في حرفته ــ يسلمه الى المسدي . وكيفية ذلك : أن يصفَّ الدست المؤلف من ستة وعشرين جلخاً على الارض بجانب بعضه ، حيث يكون فوقه تخت من خشب يعلو عليه ذراعين بأربعة قوائم ، مركب في ذلك التخت قطعة من نحاس مثقوبة أثقاباً صغيرة تعرف بـ « الوش » ، فيأخذ من كل جلخ طاقاً من الحرير ، فيدخل كل طاق من ثقب من ذلك الوش ، ويجمع تلك الطيقان ، حيث يكون منصوباً بجانب التخت دوارة من خشب ، وهي من أربعة أساطين من خشب طول

كل اسطوانة ثلاثة أذرع أيضاً ، مقيدة تلك الاساطين بعمود من خشب بوسطهن ، ومن أسفله مصفح بحديد ، يركب على لبنة من حديد ، وبأعلاه عارضة من خشب ثابتة مثقوبة من نصفها مما يحاذي لبنة الحديد الذي بأسفل العمود ، يدخل بذلك الثقب رأس العمود المصفح أيضاً بالحديد ، وذلك لاجل دوران تلك / الدوارة ، وبطرفي كل من الاسطواتتين القائمة أثقاب صغيرة على قدر نصف طولها ، يدخل بها أصابع من خشب مخروط بطول اربعة أو خمسة قراريط ، وذلك ليعلق عليها الحرير ، فيقف الصانع بين التخت والدوارة ، ويأخذ بيده طيقان الحرير من أثقاب الوش ، ويلفها على الدوارة ، ويدوّرُ الدوارة بيده الثانية ، ويلف عليها تلك الطيقان من نصف الدوارة لاعلاها ، ومن أعلاها الى المحل الاول . وهكـذا يستأنف العمل ، حتى يتم العدد المطلوب ، حسب رغبة المعلم . وبأثناء الشغل يلاحظ أمر الطيقان ، من طاق مقطوع فيصله ، أو مشتبك فيخلّصه وعند إتمام العدد يوقف الدوارة ، ويقطع الحرير من طرف الدوارة ، ويعقد الطرف الثاني ، ويأخذ في حل مالفه على الدوارة ، يلفه على ذراعه حتى اذا تم ذلك يعقده . ويعرف ذلك الحرير الملفوف بـ « الشقة » . فيخط عليها عدة طيقانها ، ليكون معلوماً عند المعلم .

١٥٦

وهذه الحرفة من مهام حرف شغل الحرير ، وتروج أحياناً رواجاً زائداً . وذلك عند شدة طلب الملبوسات الحريرية الى البلاد المصرية والاجنبية . وكثير بدمشق يتقنون هذه الصنعة ، ولهم أجرة على رطل الحرير لا تقل عن سبعة أو ثمانية غروش ، فاذا كان الصانع شاطراً ذا همة يمكنه يومياً شغل رطلين أو ثلاثة أرطال من الحرير .

وهي حرفة متوسطة ، غير دنيئة ، تنتج ربحاً مباركاً .

٣٦٤- مسكي

هو بائع المسك . ويدخل في متّجر العطارة في دمشق . وقد ينفردبجلبه أناس من البلاد . والمسك : هو دم ينعقد في حيوان دون الظباء ، قصير الرجل بالنسبة الى اليد ، له نابان معقوفان الى الارض ، وقرنان في رأسه ينعوجان الى ذنبه ، شديدالبياض فيهما منافس يستنشق منها الهواء عوض المنخرين ـ حكاهُ في المروج عن مشاهدة ـ .

٣٦٥- مسوتي

هو صانع المست ـ وهو الخف ـ وهو ما عمل من الجلد الاصفر / ١٥٧ أو الاسود ، كصفة البوتين فيزماننا هذا ، بدون كعب . وقد قل من يلبس المست الاصفر في هذا الزمن . وقد تقدم الكلام عليه في حرفة البوابيجي ، في حرف الباء .

٣٦٦- مشبب

هو من ينفخ بالشبابة ، وتعرفأيضاً بـ « الناي » : وهي أنبوبة منقصب، بها أثقاب متعددة ينفخ بها أصحاب هذه الحرفة باتقان ، فيخرج منها صوت لطيف مطرب ، اذا كان صاحبها متقناً لها ، مع إظهار حركات وسكنات الدور الذي يغنيه المغني .

وكان كثيراً من يتقن هذه الصنعة بدمشق ، ويحترف بها . والآن أصبح قليلاً من يحترف بها ، ويتعيش من كسبها .

ومما ألغز في شبابة :

وما صفراء شاجيــة ولكن	تزينها النضارة والشبــاب
مكتّبة وليس لهــا بنان	منقبــة وليس لهــا نقاب

تصيح لها إذا قبّلت فاهـا   أحـاديث تلذ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها   وليست لا السعاد ولا الرباب

٣٦٧- مشيطاتي

هو صانع الأمشاط الخشبية ، وهي ما صنعت من خشب المشمش، يرغب فيها الفلاحـون ، لبخس ثمنهـا ، والبعض من نساء دمشق يستعملنها لتفكيك الشعر أولاً ، حتى اذا تفكك الشعر بها يستعملن الامشاط المعروفة بـ « السن سمك » ، وهي تأتي من البلاد الاجنبية • يبلغ ثمن الدرهم منها من ستين بارة الى القرشين • وفي بعض الاوقات ينكسر من تلك الامشاط المذكورة أسنانها ، فيصلحها المشيطاتي المذكور بأجرة على نسبة عمله •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها البعض ممن يتعاطاها ، وهم قليلون •

٣٦٨- مصارع

اسم لمن يصارع أهل الجَلَد والقوة فيصرعهم • وكان المصارعـون في القرون الاولى أناسـاً ذوي شهرة يتعيشون منها ، وفيهم كثرة • أما الآن فقد قلّ من يتعاطاها ، وذلك لسريان المدنية والتلطف في غالب الانحاء ، واضمحلال القوى البدنية في مقابلة القوى النارية • / نعم ! قد يوجد أناس يعتنون بها أحياناً ، وذلك أنهم يجتمعون في احدى القهاوي في وقت مخصوص ، فيـأتي اليها من يرغب في مشاهدة المصارعة • ففي الوقت المعين يأخذ المتصارعون بالمعاركة والمغالبة ، بتحمس وتوثب ، حتى يقوى أحـدهم على الآخر ويصرعه ، وتنتهي الفرجة •

١٥٨

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

٣٧٠- **مصوبن** هو من جملة الصنــاع . وهو من يدلّك في الحمام الابدان بالكيس والصابون ، لازالة الادران . ومن ضرورياته ان يكون مستعداً لوجود كيس صغير من قماش ، مع طاسة من نحاس كبيرة ، مع ليفة كبيرة أيضاً ، وألواح من الصابون . فيدلك أولاً بالكيس بدن الإنسان ويديه ورجليه ، فيخرج ما تجمع من الوسخ ، وذلك غب أن يجلس ذلك الشخص برهة في الحمام ، ويصب الماء على سائر بدنه ، فيخرج منه العرق ، فيساعد المصوبن على اخراج الوسخ بسرعة . وعادة المصوبن ان يجرّ الوسخ بالكيس أولاً من الكتف والظهر الى رأس اليد ، ويفتله بالكيس ، ثم يُطلع المستحم عليه ليريه مهارته في تدليكه ، وأنه متسخ بدنه ، ويصفف له فتائل الوسخ أمامه لذلك أيضاً . وعند إتمام أمر التدليك يغسل رأسه بالصابون جملة مرار ، وبعده يأتي بالطاسة الكبيرة فيملؤها ماء حاراً جداً ، ويضع بها الليفة مــع الصابون ، ويحركها تحريكاً متوالياً ، فتظهر رغوة الصابون حتى تعلو الطاسة نصف ذراع ، فيأخذ بالليفة من تلك الرغوة ، ويدلك سائر جسم الإنسان مع يديه ورجليه . وعند إتمام ذلك يغسل رأسه بالصابون أيضاً جملة مرار ، فحينئذ يتم عمل المصوبن ، ويتهيأ الإنسان غب صب الماء على جسده للخروج ، فيأتي له التبع بالمناشف ـــ وقد تقدم الكلام على التبع في بابه ـــ وعند خروج ذلك الشخص من الحمام يوفي للحمامي حسابه وأجرة المصوبن .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها كثير . وقد تبلغ أجرة عمله في اليوم أكثر من عشرة قروش . وفي ايام الجمع والاعياد تبلغ أضعاف ذلك .

٣٧١- مصيّف هو من يزرع أنواع البطيخ والقثاء وغيرها . وهذه الحرفة لا يحترف بها إلا كل من كان متقناً لها ، اذ هي تحتاج لاعمال / مهمة ينبغي زيادة علم المصيف بها وهي : كيفية قيام الارض وزرعها وشغلها وسقيها وتربيتها ، بحيث اذا اختل أقل أمر مما ذكرناه ، فانه يفسد ذلك المزروع . ١٦٠

والزمن الذي يباشر به باقامة الصيفي يبتدىء من نصف شهر شباط الى نصف نيسان ، بحسب حرارة الارض وبرودتها ، فيشترك جملة أشخاص يعرفون بـ « المصيفين » ويرئسون عليهم من هو أكثر مهارة بكيفية ما يلزم لشؤون زرع الصيفي وخدمته ، ثم يأخذون أرضاً واسعة لقيام الصيفي عند أصحاب الحوانيث ، أو المستأجرين . وشرط تلك الارض ان تكون مهيأة من قبل صاحبها لقيام الصيفي ، من أمر حرثها جملة مرار في زمن القيظ ، وفي شهري كانون ، فيسلمها الى المصيفين مع ما يكفي تلك الارض من العمارة ، وهي روث الحيوانات ، بشرط أن يكون عتيقاً ، مضرّباً في بعضه البعض ، فينقلها الراجود ـ المار ذكره ـ الى تلك الارض ، ثم ينقلها المصيفون بالقفف ، وينشرونها في تلك الارض . وبعد ذلك يأتون بـ « المسحّين » فيسحون تلك الارض حتى اذ تم أمر التسحية يتركونها أياماً حتى تجف ، ثم يسوقون اليها الماء ، فيملؤون ما فتحه المسحون من الانهار لحد معلوم ، حتى اذا أخذ كل نهر حده يسدونه ، حيث يكون الرئيس عليهم ، ويعرف بـ « شيخ المصيفين » ، والبعض منهم قد هيؤوا البذر ، وذلك غب رشه بالماء الساخن ، وتجفيفه بمنخول العمارة المتقدمة ، ثم يضعونه بمخلاة ، ويعلقونها في رقابهم ،

ويدورون على اكتاف الانهر ، فيحفرون بأصابعهم عند الحد الذي وصله الماء ، حيث يكون التراب رخواً ، ثم يضعون بتلك الحفرة قليلاً من البذر لايزيد عن عشر بذرات ، ثم يرد التراب عليه ، ويتركون فيما بين كل حفرة مقدار ثلثي ذراع وهلمجرا ... يكون عملهم ، حتى ينتهي أمر الزرع . ويترك على هذه الصورة منظوراً خمسة عشر يوماً ، خشية من أن يأكله الطير ، ثم يخرج من ذلك البذر عروق صغار ، كالخيطـان للقنب ، ثم يسقى مرة ثانية ، ويترك ثلاثين يوماً بدون شرب ، ويعرف ذلك عـلى اصطلاحهم بـ « التعطيش » / ، وهو مما لا بد منه ، فتكون العروق تم ١٦١ خروجها ، فيقلعون العرق الضعيف ، ويتركون عرقين أو ثلاثة في كل حفرة فقط ، من أحسن تلك العروق ، ثم يسقونه بعد التعطيش كل خمسة عشر يوماً مرة . ثم يباشر في شغله ، وهو حرث الظهورة ، مع نكش رؤوس الانهر ، وأطراف الشتل ، أي العروق ، حتى اذا تم ذلك يضيقون النهر ، ويخرجون الشتل منه الى الظهر ، ويميلونه الى جهة الارض . ثم بعد ذلك يلاحظونه بأمر اخراج العشب الذي يخرج حوله ، ويسقونه في كل ثمانية أيام أو أقل من ذلك ، فينمو ذلك العرق ويزدهر ويطرح ، فاذا كان المزروع بطيخاً على حسب قوة العرق ، يتركون له مما طرحه — اذا كان قوياً — اثنتين ، واذا كان ضعيفاً واحـدة . ويعرف ذلك بـ « التفكيك » . ويحتاج في كل يومين أو ثلاثة أيام للنظر والتفتيش على كافة ذلك الصيفي ، وتفكيك ما طرحه ، حيث أنه في يومين أو ثلاثة ما يطرحه العرق يصير بقدر جوزة الهند ، فيقطعونها ، وذلك خوفاً على ما تركوه . فاذا بقي خلاف ما ترك ، فان ما ترك لاينمو ، حتى اذا بلغ حد ذلك الصيفي بالاستواء ، فتارة يضمنونه لمن يرغبه ، وتارة يقطعونه

ويبيعونه على حسابهم . وعند جمع قيمة ذلك الصيفي ، ورفع المصارفات ، وعشر الميري ، يقسم ما يبقى الى ثلثين وثلث ، فالثلثان لصاحب الارض ، وذلك في مقابلة تعطيل أرضه ، وما يلزمها من حرث وعمارة وماء وأجرة عمل ، والثلث يقسم على المصيفين في ذلك ، في مقابلة شغلهم وأتعابهم .

وهي حرفة من مهام حرف الفلاحة ، ويتعيش منها كثير من الفلاحين في زمن الصيف .

٣٧٢ـ مضحك هو من يضحك الناس في أقواله وأفعاله ، ويسمى في اصطلاح الشاميين «مُهَرِّج» و «مُسَخِّن» أيضاً . ينفق أمره عند الاكابر وأرباب البطالة المثرين المترفهين ، ممن يضيع أوقاته بالسخف ، مع أن مثل هذا روي النهي عنه :

فعن علي رضي الله عنه : ما مزح أحد مزحة ، إلا مجَّ من عقله مَجَّة .

وعنه : إياك أن تذكر ما يكون من الكلام مضحكاً ، وان حكيت ذلك عن غيرك .

١٦٢ وكتب عمر رضي الله عنه الى عماله ، / امنعوا الناس المزاح ، فانه يذهب بالمروءة ، ويوغر الصدور .

ومن الحكم ما قيل :

فاياك إياك المزاح فانه ... يجري عليك الطفل والرجل النذلا
ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ... ويورث ـ بعد العز ـ صاحبه ذلا

وقال الأحنف : كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب المروءة ، ومن لزم شيئاً عرف به .

وهي حرفة يتعيش بها الأدنياء ، إما بشيء من الإكرام ، أو على ملء بطونهم .

قال بعض الظرفاء في شروط السيران :

يا أيها الجمع على السيران	فأجمعوا دراهم الإخوان
ثم تسيروا بالسرور معنا	وهيئوا أكلاً لنا يشبعنا
وهيئوا هذا الذي ذكرته	ونوع حلو ليس يخفى نعته
واستصحبوا صوتاً جميلاً حسناً	ومن يكون مؤنساً يضحكنا
وباعدوا عمن إلينا يرقب	وقربونا نرتع ونلعب
نلتذ في ثلاثة تجلي الحزن	الماء والخضرة والشكل الحسن

٣٧٣ - مطربازي

هو اسم لمن يبيع السلع المنوعة ، والامتعة الجديدة والمستعملة أيضاً . ولاصحاب هذه الحرفة أسواق مخصوصة بدمشق ، يعرف الآن بـ « سوق الاروام » ، فيه أصحاب الثروة من أهل هذه الحرفة . ويوجد عندهم أصناف السلع الثمينة ، من مفروشات وألبسة وأواني وغيرها . فمن أراد بيع شيء من تلك الاشياء يأتي به لذلك السوق ، ويسلمه الى الدلال ، فيدلل عليه ، ويزيد أصحاب هذه الحرفة في ثمنه ، حتى اذا انتهى المزاد على أحدهم يقبض منه الثمن ويسلم ذلك المبيع لمن اشتراه ، وذلك غب خصم الدلال أجرته — وقد تقدم الكلام على الدلال بحرفته — .

والغالب على أصحاب هذه الحرفة عدم التقوى ، ومراقبة المولى تعالى ، وطالما عجلت لهم مصائب ، وهم لا يرعوون : ففي سنة ١٣١٩ هجرية شبت النار في هذا السوق ، وأخذت جميع جوانيتهم بما فيها ،

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

خروج ورق الأشجار ، فاذا كانت لم تزل خضراء يانعة ، فيكون ذلك الطعم أخذ في الالتحام بالأصل المطعم فيه ، فيقطع المطعم الغصن الذي عليه من أعلا محل الطعم بثلث ذراع ، فحينئذ يخرج ذلك الطعم وينمو، وفي برهة سنتين يثمر • وهذه كيفية التطعيم •

وفي دمشق تروج جداً في زمن الصيف والربيع ، خصوصاً في القرى لتطعيم المشمش الكلابي بأصناف المشمش المعروف بالحموي والبلدي والتدمري والوزري والسندياني والعجمي وغيرها من أنواع الأشجار ، والغالب يكون بصنف المشمش ، حيث يزرع منه في قرى دمشق شيء كثير •

وأجرة المطعم هي على حسب الشرط ، فتارة تكون أجرة الطعم ثلاثين بارة ، وتارة أربعين بارة ، على حسب الاتفاق ، يعطون للمطعم سلفاً النصف ، والنصف الثاني عند خروج الطعم ، حيث أن الطعم الذي لا يخرج لا أجرة عليه سوى النصف الذي استلفه المطعم •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون • والله أعلم •

٣٧٥- معاليقي — هو من يشوي المعاليق ، ويبيعها لمن يرغب في شرائها • والقليل / يرغب في أكل المعاليق عند ١٦٥

المعاليقي • وغالب أهل دمشق الذين يرغبون بأكل المعلاق ، يأخذون منه لبيوتهم ، ويتقنون عمله • والمعاليق لا يشتري منها في الأسواق مشوية سوى الفقراء من أهل دمشق والفلاحين •

٣٧٦- معّــاز هي من حرف الفلاحين ، وتطلق على من كان عنده قطيع من المعز يقــال له معاز ، يستأجر لها راعياً يرعاها، وهو أيضاً يتعاهدها بالمرعى في زمن الصيف والربيع ، وفي الشتاء إن لم يكن عنده حشيش ، وهو المعروف بالبيقية ، يضمن لها ويطعمها أيضاً في زمن الصيف حشيش الفصة ، وعند ولادتها يبيع أولادها الذكور ، ويربي الإناث ، ويبيع مايخرج منها من الحليب على أصحاب المهلبجية — وسيأتي الكلام على حرفة المهلبيهجي في بابـه — • والبعض ممن يعمل الحليب لبناً ، يبيعه على اللبانة ، أو قـيـمـقاً فيبيعه الى القشاطة ، أو جبناً فيبيعه الى السمانة والبقالة •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش بها كثير من الفلاحين ، تنتج ربحاً كثيراً مباركاً ، وبالخصوص لمن كان عنده أرض واسعة ، يزرع لها مايحتاج من أصناف الحشيش ، بدلاً من أن يضمن لها ، ويكون عنده أولاد يتعاهدها معها بالمرعى ، وبكل ما يلزم لها من الخدمة ، فان ربحهــا عظيم جداً •

٣٧٧- معّــاك هي أيضــاً من حرف الفلاحــين • ويطلق على صاحبهــا « معاك » : وهو الذي يمرس المشمش المعروف بالكلابي ، يستخدمه من كان عنده كثير من ذلك المشمش ، أو كــان ضامناً • فعب أن يجمع الشوّار ماتساقط من ذلك المشمش ، يأتي بـه إلى المعاك ، فيضعه في « تيغار » القمردين ، وهو كالحوض ، فيمرسه بيديه ، والبعض ممن لا ذمة له برجليه ، حتى يتخلص البزر من اللب •

ويمرس اللب ، ثم يضعه في مصفاة كبيرة ، حيث يكون تحتها «تيغار» ثاني فارغ ، فينزل الممروس ، ويبقي البزر في المصفاة ، فحينئذ يكون صاحب المشمش مُعِداً لدفوف كثيرة تعرف بـ « دفوف القمردين » ، فعب مسحها بالزيت يصبون / عليها من ذلك الممروس ، على طول الدف ، ويعرضونه للشمس والهواء ، فيجف . ومن أراد تسميك ذلك القمردين ، فيستأنف الصب على ذلك الجاف ، ويعرّضه للشمس والهواء أيضاً ، ثم يقلعه من وجه الدف ويطويه .

١٦٦

وأجرة المعاك يومياً لا تزيد على خمسة غروش .

وهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون في زمن المشمش . والله أعلم .

٢٧٨- معـــزّل هو القنياطي . وقـد تقدم الكلام عليه في حرفة القنياطي .

٢٧٩- معشـــبه هذه الحرفة من حرف الفلاحـة ، تختص بالنساء، وليست هي بدائمة، بل موقتة في زمن الربيع ، عنـد خروج المزروعات ونحوها ، يخرج معها أنواع من العشب ، وترك ذلك العشب مع المزروعات مما يضرها ، فيأتي أصحاب المزروعات بالمعشبات، ويأخذن بتعشيب تلك المزروعات ، حيث يكون مع كل واحدة سكين لقلع العشب ، وهو أنواع : فمنـه الشوك المختلف ، ومنـه مايعرف بالجرجيرة ، والجلبانة الدكر ، والشوفان ، والحميض . ومثل هـذه الأعشاب تضر في مستقبل الزرع ، فيقلعنها من أصلها خوفاً من أن تخلف ، ويشتغلن من الصباح إلى المساء .

ولكل منهن أجرة على عملها يومياً ، من ستين بارة إلى القرشين ، على حسب النّفاق والكساد •

وهي حرفة مهمة ، تروج رواجاً زائداً زمن الربيع ، يتعيش كثير من نساء الفلاحين منها • والله المسبب •

٣٨٠ـ معصراني

هو صاحب المعصرة، أو مستأجرها•

والمعاصر أنواع :

منها ــ **معاصر السمسم** التي يستخرج بها الشيرج ، أو الطحينة • وهذه المعاصر توجد داخل البلدة ، فيدرسون بها السمسم ، ولا يستعمل أكله بدمشق سوى اليهود • ثم الطحينة ، وهي تدخل لنوع من الحلاوة ، وتعرف بالطحينية ــ وقد تقدم الكلام عليها في حرفة الحلواني ــ ويضعونها أيضاً إلى الحمص ــ وتقــدم الكلام عليه أيضاً / في حرفة الحمصاني • ١٦٧

ومنها ــ **معاصر الزيتون** : وهي توجد في القرى المجاورة للبلدة ، يعصر بها حب الزيتون، فيخرج منها الزيت• وفي غالب المعاصر يستعملون لعصر الزيتون بهذا الزمن الآلة المعروفة بـ « المَكنة » ، وهي حادثة ، وكانوا في الزمن الـسابق يعصرون الزيتون بكافة المعاصر ، بواسطة « العود » : وهو شجر عظيم من الجوز ، يقطعون أغصانها وينجّرونها ويستعملونها لعصر الزيت •

ومن اللازم أن تكون معصرة الزيت محفوظة من الهواء والشمس ، على غاية من الضبط ، وبها آبار محكمة البناء من الأحجار والآجر ، مطلي وسطها بتراب الشقف الأحمر مع الكلس وقشر القنب ، مصقولة صقلاً شديداً ، بغاية الضبط ، لو وضع بها كمية من الماء والزيت سنين

وأعواماً ، لا ينقص منها درهم ، فمن أراد عصر زيتونه فيسلمه لصاحب المعصرة ، فيضعه جملة أيام داخل المعصرة ، مستوراً بأثواب معدة لذلك ، حتى يحمى على بعضه ، ويتعفن بظهور قطن العفونة عليه ، فيضعونه في مكبس مخصوص ، محاذياً لعقب العود المار ذكره ، ويرخون عليه العود ، فلثقله يعصر الزيتون الذي تحته ، فينزل ذلك العصير في البئر المنوه عنه .

وأهل هذه الحرفة من أصحاب المعاصر ، بعضهم يشتغل بيده في معصرته ، وعنده صناع يشتغلون معه ، والبعض لا يشتغل ، بل ينظر معصرته ، ويكون عنده صناع بالأجرة ، يقومون للعمل بالمعصرة بكل ما يلزم . فكل من أتى بزيتونه الى المعصرة يعصرونه له ويسلمونه إياه زيتاً خالصاً ، وتكون أجرة عصره البزر الذي استخرج منه ، فانه يجمعه صاحب المعصرة فيدرسه ، ويستخرج منه الزيت ، ثم يبيع ذلك الدرس غب عصره على الاتونية ، فيوقدونه في الأتونات .

وأما **معاصر الدبس** ، فانها بعكس معاصر الزيت ، حيث أنها تحتاج بأن تكون معرضة للهواء ، فيدرس أصحابها زبيب العنب الأحمر في مدرس ، ثم يضعون ذلك الدبس / بأوعية كبيرة من الفخار ، مثقوبة من أسفلها ، وعلى ذلك الثقب قطعة من الليف ، فيضعون تلك الأوعية على سقالة من خشب ، بارتفاع ذراع ونصف ، مثقوبة عند أسفل الوعاء ، ويضعون أيضاً أوعية كباراً تحت تلك الأوعية ، ثم يضعون الماء الصافي على ذلك الدريس ، ويمزجونه معه ، فيرشح من ذلك الثقب الموضوع عليه قطعة من الليف خواص ذلك الدريس بالوعاء الأسفل ، ثم يأخذونه ويطبخونه دبساً — وقد تقدم الكلام عليه في حرفة الدباس — .

١٦٨

وهي حرفة مهمة عظيمة ، تنتج ربحاً عظيماً . والله تعالى أعلم .

٣٨١- معماري

هو البناء . وقد تقدم الكلام عليه. في باب الباء ، في حرفة البناء . وفي دمشق المصطلح على اسم صاحب هذه الصنعة هو « المعماري » .

٣٨٢- معلم

هو اسم يطلق على معلم «الألاجة» — وقد تقدم الكلام عليه في حرفة الألاجاتي — .

وليس من حرفة بدمشق إلا ولها معلم مخصوص ، يقوم بشؤونه وإصلاح أرباب حرفته . وذلك المعلم هو رئيس الصنعة أو الحرفة ومتقنها ، يشتغل تحت يده الصناع والأجراء . وكل من أصحاب الصنائع والحرف قد توضح الكلام عليه في حرفته . وإتماماً لهذا المشروع وضحنا هنا ما يصطلح عليه أهل دمشق على اسم « المعلم » .

٣٨٣- مغربل

هو من جملة صناع الطواحين ، يغربل الحنطة قبل تصويلها، فيخرج منها أنواع الفلث والتراب. ويغربل البرغل ، فيفرق ناعمه وخشنه وقشره بواسطة الغربال والمنخل . وعند إتمام الطحن يفرق أنواعها : فمنه الدقاق ، والمفروق والناعمة . وله على ذلك أجرة معلومة من صاحب الطاحون .

وقد أصبحت هذه الحرفة قليلة الرواج ، نظراً لما استحضرته أصحاب الطواحين الكبار في هذا الزمن من الفبريكات المهمة من البلاد الأجنبية، التي تشتغل على الماء والنار ، وتقوم بوظائف كافة صناع الطاحون ، من غربلة وتصويل / ونخل وغيره .

١٦٩

والمغربلون الآن يشتغلون بالطواحين الصغار ، ويغربلون لأصحاب الحوانيت مايريدون بـذره بأراضيهم من أنواع الحبوب ، فيخرجون منه الغلث .

وهي حرفة تحتاج إلى مشقة وعناء ، تنتج ربحاً قليلاً ، يتعيش منه من يتقنون هذه الحرفة . والله المسبب لا رب غيره .

٣٨٤- مغسّـل

هو من يغسل الموتى . وغسل الميت من أحد الأركان الأربعة التي تجب على الحي في حق الميت المسلـم .

وذلك أن من حق المسلم على أخيه المسلم أربعة : غسله ، وتكفينه ، والصلاة عليه ، ودفنه . والغسل أولها ، وكيفيته ككيفية غسل الجنابة وفرائضها وسننها وفضائلها سواء بسواء . إلا أن غسل الجنابة يتولاه الحيّ بنفسه ، وهذا يغسله غيره .

وهي حرفة مهمة ، مما لا يستغنى عنها ، ولها أناس مخصوصون محصورة هذه الحرفة بهم ، تنتقل إليهم بالوراثة ، لايمكن لأحد من الناس أن يزاحمهم عليها . (ولعمري انه لا تجـدر أن يزاحم عليها ، ولو كان يؤخذ عليها الأجور الوافية) . فيدعو من كان عنده ميت أحد أصحاب هذه الحرفة ، ان كان رجلاً فرجل ، أو امرأة فامرأة ، فيجرون أمر التغسيل والتكفين ، ويحضرون معهم أيضاً بقية ما يلزم من الآلة إلى الميت ، كالمغتسل والنعش ، ثم يستوفون الأجرة من صاحب الميت على قدر حاله ويسره ، وقد يعطون ماكان على الميت من الثياب .

٣٨٥- مغـنّي

هو من يحتـرف بواسطـة حسن صوته ، مع إتقان الغناء ، من ضبط أنواع الأنغام .

وحيث أن هذه الصناعة لذة السمع، وربيع القلب، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد ، وزاد الراكب ، لعظم موقع الصوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع الأنفس ، أصبح كل فرد من العالم تميل نفسه وروحه لسماع الصوت الحسن . فلذلك راج سوقه ، وقصد من يتقن حرفته .

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، لما

١٧٠ أعجبه صوته في تلاوته للقرآن في تهجده / : « لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود » [١] . ومزامير داود أشهر من أن تعلم .

وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق ، فيصفو له الدم ، وتنمو له النفس ، ويرتـاح له القلب ، وتهتز له الجوارح ، وتخف له الحركات . ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء ، حتى يرقص ويطرب .

وقال بعضهم : هل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب ، وأشد اختلاساً للعقول ، من الصوت الحسن . لاسيما إذا كان من وجه حسن ، كما قال الشاعر :

رب سمـــاع حسن ... سمعتـــه مـن حسن
مقـرّب مـن فـرح ... مبعّـد مـن حَزَنْ
لا فارقـاني أبـداً ... في صحـة من بدن

وهذه الحرفة بدمشق رائجة دائماً ، حيث في زمني الربيع والصيف يقصد أكثر الناس المتنزهات والبساتين ، لترويـج النفس ، فلا يخلو جمعهم من وجود من يغني . وكذا في زمن الشتاء أيضاً ، يجتمعون في البيوت ، يقطعون ليله بالسهر ، ويسمى ذلك بدمشق بـ « الدور »

(١) رواه مسلم والنسائي عن ابي موسى الاشعري .

يسهرون كل أسبوع عند شخص منهم ، وفي كل آخر ليلة من الأسبوع، يأتي لهم صاحب الدور بمغني وعواد ، وأناس يحترفون بحرفة المضحك ــ المار ذكرها ــ فيجري كلٌ وظيفته على حسب حرفته ، ويقدم لمن حضر ، في آخر السهرة أنواعاً من المأكولات .

وبالجملة فهي حرفة تنتج ربحاً جيداً ، إلا أنه لا بركة فيه . وما رؤي أحد ممن احترف بهذه الحرفة في دمشق ، إلا وآل أمره للفقر ، والعياذ بالله تعالى .

ومما قيل في مليح مغني :

أضحى يخر لوجهه قمر الدجى ... وغدا يلين لحسنه الجلمود
فاذا بدا فكأنما هو يوسف ... وإذا شدا فكأنه داود

٣٨٦- مقبعة هو اسم لامرأة تطبب رؤوس القراع الذين يتقرح جلد رؤوسهم من الدمامل . وتعرف صاحبة هذه الحرفة بـ « المقبعة » . ولها معرفة تامة بهذه الصنعة ، وبالأدوية التي تصلح لتلك العلة ، من / دهونات ومراهم وزيوت وعقاقير ، فيؤتى لها بالقرع ، والغالب يكونون من الأولاد الصغار ، فتأخذ أولاً باستعمال الدهونات والتغاسيل لتلك العلة ، فاذا لم ينتج ذلك ، ولم يحصل فائدة ، حينئذ تستعمل القبع ، وهو طاقية من جلد ، على قدر رأس ذلك المبتلى ، فعب قص شعره ، تطلى تلك الطاقية من داخلها بالزفت والشمع المذاب ، وتلبسه إياها برأسه ، وتتركه أياماً ، فتلصق برأسه كالمسمار ، فبعد ذلك تقلعها بشدة ، وتشبط الرأس بالموس ، وتدلكه بحمض الليمون ، وتعيد عليه طاقية غيرها . ثم تستأنف العمل كالأول ، ثم

١٧١

تعاوده مراراً حتى يشفى الرأس من تلك العلة ، وينبت شعر جديد .

وهي معالجة صعبة مؤلمة جداً ، يكاد الجماد يتفطر للأقرع من كثرة عويله ونحيبه حينما يعالج بها . والبعض ممن يبتلي بهذه العلة لايستعمل سوى الدهونات ، خشية من القبح ، وما يطرأ منه من الآلام والأوجاع، فيصبح رأسه كاليقطينة المنحسة ، وعليه بعض شعرات ، مما تمج النفس رؤيته ، وتأبى النظر إليه ، ولو كان جميل الوجه ، لطيف الطلعة ، نسأل الله السلامة من كل داء .

وقد كانت هذه الحرفة في الزمن السابق رائجة جداً ، وذلك لكثرة من كان يبتلي بتلك العلة . وذلك لما كانوا يستعملون للأطفال عندالوضع بعد الولادة من اللفائف والعصبات المتعددة على رؤوسهم ، بخلاف هذا الزمن ، فانهم يتركون رأس الطفل معرضاً للهواء ، فلا ينحبس بخار الرأس ، وأصبح من تطرأ عليه هذه العلة نادراً ، وقل من يحترف بهذه الحرفة .

وبالجملة فهي حرفة لم يزل أناس يحترفون بها ، وغالبهم من النساء، مع نهي الأطباء عنها ، وتعريفهم بضررها . فقد جاء في كنوز الصحة : إنها مضرة بسبب زوال السائل دفعة ، فيتسبب عن ذلك عوارض خطرة. ثم ذكر أنه اخترع لعلاجه أدوية كثيرة، كالمرهم والغسولات والسحوقات. وبالجملة فمراجعة الطب الجديد ألطف وأرفق .

١٧٢

٣٨٧ - مقرئ

المقرىء : يطلق على من يعلم الناس القرآن بالتجويد ، أو بأوجه القراآت ، سواء أكان محتسباً أو بأجرة . وهذا ما يوصف به شيوخ القراآت . وأما في عرف الشاميين

الآن فهو من يحترف بتلاوة القرآن العظيم في مواسم المآتم . وأكثر هؤلاء ممن يكف بصرهم ، يتعلمون القرآن مع بعض أناشيد وقصائد . والعادة بدمشق عند موت شخص أن يقرأ على قبره صباحاً ثلاثة أيام فقط ، إن كان فقيراً ، وليلاً أيضاً إن كان غنياً ، مع ذكر الله تعالى بالأناشيد ، ويختمون ذلك بالدعاء ، ويهبونه لروح الميت . والبعض من الأغنياء يفعل ذلك أربعين يوماً على القبر ، ويقرؤون أيضاً في بيت ذلك الميت . والمصطلح على أسماء أصحاب هذه الحرفة بدمشق هو بـ « المشايخ العميان » . فكل من احتاج لهؤلاء المشايخ يأتي بهم ، وكل على قدره : فالمتوسط بنحو شيخين يقرآن على القبر ، وثلاثة في البيت لاتمام الأربعين ، من وفاة الميت ، ولا تقل أجرة الشخص منهم عن عشرة غروش يومياً ، مع إطعامهم أحسن الطعام . وبالنظر لعدم انقطاع الموتى في العالم نرى دائماً حرفتهم رائجة . والبعض يعين من هؤلاء المشايخ رجلاً ينتخبه حسن الصوت ، فيحضر في كل يوم الى داره ، ويقرأ ماتيسر من القرآن ، ويقوم بتعليم عيال ذلك الفتى من أمر القراءة . إلا أن أمر الإذن بخلوتهم وحدهم مع النساء أمر محظور شرعاً ، لما يترتب عليه من المفاسد ، وقد سمع منها شيء كثير لا ينبغي ذكره .

ومما نقل عن المهدي أنه قال له جواريه يوماً : لو أذنت لبشار أن يدخل إلينا ، فيؤنسنا بصوته وقراءته ، وهو محجوب البصر لا غيرة منه ، فاذن له المهدي ، فكان يدخل إليهن ، فاستظرفنه وقلن له يوماً : وددنا والله يا أبا معاذ أنك والدنا حتى لانفارقك ولا تفارقنا ليلاً ولا نهاراً ! قال : إذن ونحن على دين كسرى ! فلما بلغ ذلك المهدي مَنَعَهُ من الدخول عليهن وطرده .

وقيل : تزوج أعمى امرأة قبيحة ، فقالت له يوماً بعد أن تخاصما :
١٧٣ / لو رأيت حسني وبياضي لعجبت ! فقال : لو كنت كما تقولين لما تركك لي البصراء !

ومما قيل في أعمى :

قد تعشقت فاتر اللحظ أعمى	طرفه من حيائه ليس يلمح
لا تعيبن نرجس اللحظ منه	فهو في الحسن نرجس لم يفتح

٣٨٨- مقشاتي

هو صانع المقشات وبائعها . وهي مكانس مصنوعة من القش . وهو نبت يزرع في نيسان ، ويدرك في أغستوس ، يخرج على ساق ويفرع أغصاناً رفيعة ، وعليها البزر ، ونبتها يشبه أصول الذرة ، تعلو ثلاثة أو أربعة أذرع . وعند استوائه يقلع من أرضه ويقطع مما يلي الأغصان ، بعد ترك مقدار ذراع ، وتكشط تلك الأغصان عما يخرج بها من البزر لزرعه في المستقبل ، وبعد كشطه ينقع في الماء مدة ويخرج ، فيجفف ، ويحبك بخيطان من قطن . وتعمل كل كمية مقشة وحدها ، وتستعمل لكنس البيوت ، وهي مما لا يستغنى عنها ، وحرفتها رائجة جداً ، يصنعها البعض من الفلاحين بالقرى ، والبعض من أهالي محلة الصالحية ، فيأتون بها لدمشق ، ويدورون في الأسواق والأزقة ، يبيعونها على من يرغب في شرائها . وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً . تبلغ قيمة المقشة من القرش إلى ثلاثة قروش ، على حسب حجمها وجودتها .

٣٨٩- **مقـــوّم** هو من يتعهد بشال الركب الحجازي حين قصده السفر لجهـة الحرمين الشريفين • وصاحب هذه الحرفـة يكون مستعداً لوجود عدد وافر من الجمال تكون عنـده مع جميع مايلزمها من ُعدد ، وهي : الخيم ومعداتها ، والتخوت ، والمحـاير ، والشباري وغيرها ، للركوب بها ، مع وجود أنواع الخدمة ، من عكّامة ، وغلمان ، وطباخين ، ومهاترة ، وسقاية ، وغير ذلك من أصحاب هـذه الحرفة ، المذكور كل بحرفته ، مما لا يستغنى عن كل منهم •

وعند دخول موسم الحاج يأخذ صاحب هذه الحرفة في الاستعداد وتهيئة كل ما يلزم ، مع تفقد أحوال / جميع ماذكر ، ، وما يلزم إلى السفر • وحينئذ يقصده من يرغب في الحج ، فيستأجر منه ما يلزمه لركوبه ومأكله من دمشق إلى المدينة أو مكة ، كل على قدر سعتـه • فمن كان غنياً يستأجر تختاً ، وتبلغ أجرته على حسب رواج ذلك الموسم ، وذلك من ثمانين ليرة إلى مئة ليرة • والمتوسط يستأجر محارة ، وتبلغ أجرتها من خمس وعشرين ليرة ، إلى الأربعين • والأدنى إما أن يستأجر شبرية أو جملاً للركوب عليه •

١٧٤

وعند دخول وقت السفر يكون المسافر متهيئاً لجميع حوائجه ، فان المقوم يقوم بشالها ، وحينئذ ينقده المستأجر قسماً من الأجرة ، والقسم الثاني عند وصول المحل المقصود • وفي الإياب أيضاً يعقـد المقوم الشرط فيما بينه وبين من يرغب في الاستئجار معه في رجوعه إلى الشام •

وهي حرفة مهمة ، بل تجارة واسعة ، تحتـاج لكبير رأس مال •

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

١٧٦

٣٩٣- ملبنجي هو صانع الملبن : وهو ماعمل من الدبس أو السكر بالنشا • وصنعته / أن يربط حبل من حــائط إلى حائط ، ويربط بذلك الحبل خيطان من القطن ، بطول ثلثي ذراع ، يلف به الجوز إذا كان بالدبس ، وفستق إذا كان بالسكر • وبين كل قلب فستق أو جوز ثلاثة قراريط • وغب طبخ السكر أو الدبس مع النشا لدرجة قريبة للجمود ، يؤخذ من ذلك المطبوخ بكبجاة ، ويصب من أعلى الخيطان ، حيث يكون تحتها طبق ، فيعلق البعض على الخيطان ، والبعض يسقط بالطبق ، فيعيد طبخ ما سقط بالطبق ، ويعيد صبه على الخيطان ، كل خيط بعودة ، وهلمجرا ••• يستأنف الطبخ والصب على الخيطان ، حتى تتم هذه العملية ، فتترك معرضة للهواء والشمس حتى تجف ، وعند ذلك يطيب أكلهــا ، فيبيعه صاحبهــا على من يرغب في مشتراه ، خصوصاً على المتعيشة المار ذكرهم في حرفة « المتعيش » ، وهو يصفّها في أطباق من خشب ، تعرف بـ « الفرش » ، ويدور بهــا في مجتمعات الناس ، فيبيعها على من يرغب به •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها • والله المسبب ، لا رب غيره •

٣٩٤- ملــتزم هو العشار • وقد مر الكلام عليه في باب العين ، في حرفة العشار •

٣٩٥- ملقي هذه الحرفــة من متعلقات حرفــة الألاجاتي• ويقال لصاحبها «ملقي» وذلك ان عند تمــام شغل المزايكي للحرير ــ المتقدم الكلام عليه في حرفته ــ يسلمه إلى الملقي ، لأجل

تهيئته للحائك، فيركب ذلك السدى على البز ـ وهو من قضبان القصب، يتخللها خيطان من قطن ، وله مشط ـ فتدخل طيقان تلك السدي ، كل طاق وحده في سن من المشط ، وبين كل من خيطان البز ، ويضعونها بترتيب ، وعند إتمام خيطها ، وربط ما يقع من خيوطهـا ، تسلم إلى الحائك ، لأجل حياكتها •

وللملقي أجرة على السدى ، ستة أو سبعة غروش • ويبلغ السدى عشرين صاية •

يتعيش من تلك الأجرة / أناس كثيرون بدمشق • والله المسبب • ١٧٧

٢٩٦- ممسّدة

هذه الحرفة ، في الغالب ، يتقنهـا القـوابل ، وهم الـدايات • وأمر التمسيد مصطلح عليه بدمشق من قديم الزمن ، حيث أن أكثر الاوقات يحصل مع الأطفال سوء هضم ، وقيء زائد ، مع عدم رغبة الطفل بتناول الثدي • فيعلم من ذلك أهله أن الباعث لذلك تلبك في معدته ، يدعونه بقلب المعدة ، فيستحضرون له الداية ، ويحضرون لها قليلاً من الزيت الطيب ، فتأخذ قليلاً من ذلك الزيت ، فتطلي به معدة الطفل وقلبه ، وتأخذ في الدلك الخفيف ، ثم المتوسط • ويعرف هذا بـ « التمسيد » • ويستعملونه للطفل ثلاثـة أيام متواليات ، فيشفى ذلك الطفـل مما ألم به • والبعض من النساء بدمشق قد اتخذن هذه الحرفة لهن مهنة ومعاشاً • وقد اشتهرت منهن امرأة أخذت شهرة عظيمة طارت في دمشق وقراها ، فصار يقصدها كل يوم رجال ونساء ، فتجري لهم العمل المنوه به ، وتأخذ من كلٍّ الأجرة على قدر حالهم من عشرين بارة الى ستين بارة • وترى دائماً دارها غاصة بالعامة • ولقد أثرت من ذلك ثروة كبرى •

٣٩٧- ممثل الروايات هــو من يمثــل الروايات المسمــاة بـ «التياترو» • والقائم بذلك شركة مؤلفة من جملة أشخاص ، تستعــد لوجود ما يلزم الى التمثيل ، من أثواب مصنوعة للرجــال والنساء ، وأسلحة ، وغيرها • يعينون وقتاً بمحل مخصوص يمثلون به ، وبصدر ذلك المحل ايوان يعرف بـ « المرسح » وله ستار يزفع وقت التمثيل ، ويسبل حين الاهتمام بما يرتبونه من تغيير الملابس والهيآت ، فيمثلون هيأة من مضى من الاوائل ، كالملوك والامراء ، وما يتعلق بمن بلي بالعشق ، وما جرى معهم • يمثلون في كل ليلة رواية تشتمل على جملة فصول ،وكل فصل يأتون به بما يناسب الحال من اللعب والرقص ، والتشبه بالملوك والوزراء والأمراء والعشاق ، من تغيير الهيأة بالملابس / وغيرها • ١٧٨

ولقد راجت هذه الحرفة بدمشق سنة « ١٢٩٥ » وما بعدها ، نحو ست سنوات رواجاً عجيباً ، واهتم بها بعض مديريها اهتمامــاً زائداً ، وأتقنوا عملها إتقاناً بالغ النهاية • وأصبح المحل المعد لها يغص بالمتفرجين بحيث لو تأخر شخص عن الميعاد المضروب ، لم يجد محلاً للجلوس به • وسميت وقتها بـ « القوميدا » ، ونشأ منها مفاسد جمة : أصبح الصانع الذي يعمل في يومه من الأجرة يصرفه على التفرج عليها ، ويترك أولاده وعياله يتضورون جوعاً • فحينئذ سعى من أوقف أمرها ، بواسطــة الحكومة ، فضربت على أيدي عمالها من ذلك الحين ، وصدر أمر سام من مقام الصدارة بمنع « القوميدا » بالمرة ، فمنعت لوقتنا هذا ، سوى أنه بتلك المدة كان يأتي من البلاد جماعة مؤلفة من نساء ورجال ، والغالب يكونون من الأرمن والروم ، يمثلون الروايات الافرنجية ، مشتملة على

فصول ، منها تمثيل ، ومنها رقص ، وفصول مضحكة ، ولكنها تكون بصورة موقتة ، يقصدهم من يرغب بالفرجة عليهم .

وفي عام ١٣٢٤ هجرية ، حضرت جوقات من مصر ، وسمحت لهم الحكومة باعادة التمثيل القديم ، فأخذوا يمثلون الروايات العربية المهمة، وصار يقصد الفرجة عليهم أهالي دمشق أفواجاً أفواجاً .

وهي حرفة مهمة تنتج ربحاً جسيماً . ولكن لا عاقبة له ، كما شوهد في أربابها . نسأل الله السلامة .

٣٩٨- مناديلي

هو بائع المناديل . والمنديل : هو النقاب . ويجلب غالباً من مدينة استانبول . ومنه أصناف : غال ، ووسط ، ودون . والبعض يصبغونه في دمشق ، ويعرفون بـ «الرسامين» يصبغونه بالألوان اللطيفة ، غب نقشه .

وقد فاقت هذه الصنعة على أصناف المناديل التي تأتي من البلاد .

وهي حرفة رائجة بدمشق ، بالنظر لعدم استغناء النساء عن المنديل. تكسب ربحاً موافقاً .

١٧٩

٣٩٩- منادي

هو اسم لمن يرفع صوته بالنداء ، بما يرغب مستأجره في الأسواق والأزقة فتارة يستأجره من يكون فقد له طفل صغير ، أو حاجة مهمة ، أو دابة . فيدور صاحب الحاجة والمنادي معاً في الاسواق والازقة ، وينادي المنادي بما اصطلح عليه من النداء ، فيما يتعلق بأمر الضائع ، وهو : « يا أولاد الحلال ، يا مردين — يعني رادين — الأمانات واللهفات ، الذي وجد لنا الشيء الفلاني ، يرده يرد

الله أماتته . والحلوان كذا ، والأجر والثواب على الله » . فاذا وجد ذلك الضائع ، حينئذ ينقد صاحب الحاجة المنادي أجرته ، والحلوان الى من وجد حاجته عنده ، ويأخذ حاجته ويذهب . وحينئذ تكون أجرة المنادي تامة ، حسبما اتفقا عليه . واذا لم توجد تلك الحاجة ، فينقد أجرة طفيفة .

وتستأجر الحكومة أحياناً المنادي ، وذلك للنداء على العامة ، لتبليغهم أمراً علنياً ، فيدور بجميع شوارع البلدة ، وينادي بما لُقّن ، وله أجرة وافرة على ذلك .

وتارة تستأجره أصحاب المحلات التي تمثل بها الروايات ، فيدور في شوارع المدينة ، وينادي على مايمثلون به في ذلك اليوم ، ويعلن كمية الاجرة على التفرج .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها من يتعاطاها . والله تعالى المسبب ، لارب غيره .

٤٠٠ـ منافيخي هو صانع المنفاخ الذي ينفخ به النار وهو أشهر من أن يعلم . وصناعه كثيرون بدمشق ، وحرفتهم رائجة وذلك لعدم الاستغناء عن المنفاخ وهي حرفة تنتج ربحاً قليلاً . والله المسبب .

٤٠١ـ منجّم هو من يدعي معرفة السعود والنحوس ومكان الضالات ، وما يرغّب في الزيجة ، ويحبّب في الزوجات ، فيأتيه أصحاب العقول القاصرة من النساء والرجال ، فيلبّس عليهم بالكذب والبهتان .

وقد تقدم الكلام على ذلك في مواضع من هذا الكتاب ، منها في حرفة الرمال ، وحرفة العراف ، ما فيه الكفاية . وإتماماً لهذا المشروع أتينا بحرفة المنجم هنا ، ولا يخلو من وجود أناس يتعيشون من تعاطيهم هذه الحرفة ، / بابداء الحيل والخزعبلات ، لنوال بعض دريهمات . ١٧٠

أطلاب النجوم أحلتمونا ... الى علم أدق من الهباء
كنوز الارض لم تصلوا إليها ... فكيف علمتمُ خبر السماء

٤٠٢- منجّد هو من يخيط أصناف وجوه المفروشات البيتية ، كالفرشات والطراريح والكنابات والمخدات واللحاشات واللحف وغيرها . فيستدعي المنجد من أراد أن ينجد بداره شيئاً ، أو عمل جهاز لعروس، فيشتري معهم ما يلزم من الوجوه والبطائن، ثم يفصلها المنجد على قدر المكان الذي ستفرش بـه . فالبعض يعمل لتلك الوجوه قوالب من جنفيص ، وهو ماحيك من لحاء القنب ، فتحشى بالقش من قبل « الحشا » ــ المار ذكره في حرفته ــ وتخاط . وهذه معروفة بدمشق بـ « الطواطي » و « المخدات » . فيضع على تلك القوالب المحشية بالقش جزءاً من القطن ، غب ندفه بآلة تعرف بـ «قوس المنجد » ، وهي عصا محنية ، باسفلها عارضة ، يربط منها لرأس العصا وتَر" وُيشَدُّ شداً وثيقاً ، فيمسكه المنجد بيده اليسرى ، وبيده اليمنى مدقة من خشب ، فيدخل القطن بين عصا القوس والوتر ، ثم يضرب بالمدقة على الوتر ، فيندف القطن ، ثم بعد ذلك يضع منه على تلك القوالب ، ويستره بقماش من خام تعرف بـ « الظهارة » ، ويخيطها مع القالب ، ثم يلبسه الوجه المخيط أولاً . والبعض ممن لا يرغب

قوالب القش ، يحشي ذلك الوجه قطناً خالصاً ، وينجد الفرش المعدة للنوم بها ، واللحف واللحاشات ، وذلك غب ندف القطن ، كما مر ، أو نفش الصوف ، ويحشيها بقوالبها ، ويخيطها ، ويلبسها الوجه المعد لها.

وله أجرة معلومة يتعيش منها . وهي حرفة رائجة بدمشق يتعيش منها أناس كثيرون .

٤٠٣- مهتار

حرفة هذا من متعلقات حرفة « المقوم » المار ذكره . فالمهتار يستخدم عند المقوم حين موسم سفر الحاج للأراضي الحجازية ، ووظيفته القيام على خيم الحجاج الموجودين عند المقوم ، من أمر نصبها عند نزول الحجاج/ إلى الراحة ، وفكها عند سير الركب ، وهلمجرا ... تكون حركته في كل مرحلة يسبق الركب . وعند نهاية المرحلة ينصب الخيام ويهيؤها الى الحجاج . وهذه وظيفته في الذهاب والاياب .

١٨١

وله أجرة معلومة من المقوم .

وهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون في زمن موسم الحاج .

٤٠٤- مهلبجي

هو من يطبخ في الأسواق أنواع الحليب ، ويصبها في صحون صغار، ويرتبها بأنواع القلوبات ، كالفستق واللوز والجوز والجوز الهند .

فمنها ــ المحلاية ، وكيفية عملها : أنه يغلي الحليب على النار مع السكر ، بعد استوائه يوضع إناؤه على الأرض ليبرد نوعاً ما ، ويكون قد هيأ فناجين يملؤها من ذلك المطبوخ ، وفيها قليل من مذاب إنفحة

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون — على ما يظهر — يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون – على ما يظهر – يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لا يمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

يكسي الداخل إلى الحمام ، غب نزعه ثيابه ، بأنواع المناشف . وعند إتمام غسله وخروجه أيضاً يكسوه بالمناشف ، ويتعاهده بتغييرها ، حتى يجف عرقه . وله على ذلك أجرة من صاحب الحمام أو مستأجره .

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون .

٤٠٧- نائحـــة

هي إللطامة ـــ وقد تقـدم الكلام على ذكرها في باب الطاء ـــ .

لطيفة ـــ قيل : تزوج مغنّ بنائحة ، فسمعها تقول : أللهم أوسع لنا في الرزق . فقال لها : يا هذه ! إنما الدنيا فرح وحزن ، وقد / أخذنا بطرفي ذلك ، فان كان فرح دعوني ، وإن كان حزن دعوك !

١٨٣

٤٠٨- نجّـــار

هو من يعمل في أصناف الخشب ، من رفـع خشب السقوف ، وعمل الطوانات لها ، مع عمل ما يلزم من أبواب وشرشاوات للنوافذ . ومن رغب في عمل طبقة ثانية في داره المسماة بدمشق بـ « الفرنكات » و « الصوفات » ، فيرفع له النجـار جدرانها من أعمدة الخشب متلاصقة لبعضها ، ويطبقها بطبق الخشب ، ثم يطين عليها الطيان ، وتكلس ، وتدهن .

ومنهم من يعمل في دكانه ما يلزم للبيوت من السكملات ، وطاولات إلى الطعام ، وصنـاديق خشب ، ودواليب متنوعـة ، منها ما يعرف بـ « النملية » ، وذلك لوضع الطعام بها . وكيفية عملها : هو أن يصنع جنبيها ، والطرف الذي فيه الباب من الشريط الرفيع ، الذي لا يكاد يدخل منه سوى الهواء ، والطرف الذي من خلفها وسقفها وتحتها يكون من الخشب . وهي لحفظ الطعام من الهوام والحيوانات البيتية .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانسـاني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

وكباراً ووسطاً . فالبعض يرغب في طرقه على يده ، فيشتري مايرغبه من تلك الصفائح ، ويعطيه إلى الصانع ، فيطرقـه له حسبما يرغب . فمنها الطناجر والصحون والأطباق للغَسْل والمصافي والمقالي ، مع جميع ما يلزم للطبخ ، من كفكير وكبجاة وغيرها من الأواني النحاسية ، يطرقها الصانع على حسب ذوق المشتري ، وله على ذلك أجرة معلومة . والغالب من النحاسين يطرقونها على حسابهم ، ويعلقونها في دكاكينهم، يبيعونها على من يرغب في مشتراها .

وهي حرفة مهمة ، وأهلوها مستورون ، تنتج ربحاً موافقاً . ولهم بدمشق سوق مخصوص ، يعرف بـ « سوق النحاسين » يتعيش منها أناس كثيرون [١] .

٤١١ـ نخّاس

هو من يتجر بالرقيق . وهذه الحرفة قديماً كانت رائجة بدمشق وغيرها. وأما الآن فقد بطلت بحمده تعالى ، وأصبح من يختلس الاتجار بالرقيق نادراً جداً ، كبعض من يذهب إلى الحجاز في موسم الحاج ، فربما يأتي بعبد أو أمَة ، بصورة لا يشعر

---

(١) وجدت في هامش المبيضة :

وقلت في نحاس :

ونحـاس بليت بـه اتحس خلق الله طرا
قـد نفى عني رقادي وهـو يلعب بالسرا

ـ كذا ـ والبيتان ليسا من خط الناسخ ، ولا من خط المؤلفين ، وهما مكسوران . والظاهر ان احدا قد استعار الكتاب ، او قراه في المكتبة القاسمية ، ووضع في هامشه هذين البيتين الركيكين .

بها ، يبيعها على من يرغب في شرائها ، ومتى شعر به يجازى ، ويحرّر ذلك الرقيق .

وكان غالب أكابر دمشق يوجد في دورهم من الجواري والعبيد عدة . وكذلك الأغنياء ، كالتجار وغيرهم . وأما في هذا الزمن ، فقليل جداً من يوجد عنده من تلك الجواري . وهذا إذا كانت الجارية صغيرة السن . وأما إذا تأهلت للزواج ، فمن العسير أن تبقى في دار سيدها ، بل تفر منه ، وتقصد من يتزوجها ، ولو في أنكد عيشة ، وقلة من المأكول والملبوس ، وقد يكون في دار سيدها رفاهية فتتركها ، وتزهد في تلك الراحة والنشاط ، والمآكل الفاخرة ، والملابس / المنتظمة . وربما كان ذلك لضغط عليها ، أو ميل للزواج . وهذا لا بأس به . ١٨٥

ومما قيل في معارضة بين غلامين أبيض وأسود :

قد قال ظبيٌ وهو أسودُ للذي	ببيــاضه يعلو علو الخــائن :
مافخر خدك بالبياض وهل ترى	أن قد أفدتَ به فريد محاسن ؟
ولو ان مني فيه خــالاً زانــه	ولو ان منه فيّ خالاً شانني !

٤١٢ - نشّــــار هو من ينشر أنواع الأخشــاب ، كالجوز والصفصاف والحور وغيرها . وذلك غب قطــع أغصان الشجرة ، وتقسيم القاعدة ، حسب طولها ، إلى ثلاثــة أو أربعة أذرع ، وينجر أطرافها ، وتعرف بـ « المقدار » .

ويشتغل أصحاب هذه الصنعة عند « الحواصلية » — وقد تقدم الكلام على حرفة الحواصلي في بابها — .

وكيفية العمل : هو أن ينصب النشار في حاصل الحواصلي سقالة من

أعمدة الخشب ، يضع عليها ما أراد نشره الحواصلي من تلك المقادير .
وذلك غب أن يفصّلها النشار إلى دفوف متعددة ، بواسطة خيط من
قطن ، يجره على قطعة من الجبصين ، ويحده على طول المقدار ، ويشد
من طرفه ، ثم يشد من وسطـه ، ويضربه على المقدار ، فيعلّم عليـه
١٨٦ الجبصين / خيطاً أبيض ، لأجل أن يمر عليه المنشار ، ويكون بغايـة
التناسب . وهكذا يجري الخيط على المقدار خيوطاً خيوطاً ، ويرفـع
ذلك المقدار على السقالة ، ويقف بأعلى السقالة شخص ، وبأسفلهـا
شخص ، ويأخذان بنشر ذلك المقدار ، بواسطة منشار كبير من حديد ،
يبلغ طوله ثلاثة أذرع أو أكثر . فينشران ذلك المقدار ، إذا كان صلباً
ثخيناً ، دفوفاً تستعمل غالبها إلى معاك القمردين — وقد تقدم الكلام
على حرفة المعّاك في بابه — والبعض منها يستعمل إلى النجارة . وإذا
كان المقدار غير صلب ، كالحور الفارسي وغيره ، ينشرونه قطعاً تسمى
« َطبـَقاً » ، لأجل تطبيق السقوف قبل وضع البلّة عليه والطين .

وغالب من يحترف بهـذه الحرفة هم من أهـالي قريتي « التل »
و « منين » . ويدورون أيضاً في القرى ، وينشرون لمن يرغب من أهالي
القرى ، من عنده خشب يحتاج إلى نشره .

وهي حرفة تنتج أجرة متوسطة .

٤١٣ـ نشواتي

هو صانـع النشا . ويعرف محل
شغله بـ « قاعة النشا » .
وكيفية عملـه : هي أنهم ينقعون
الحنطة في الماء ، على حسب الزمن ، في الشتـاء عشرين يوماً ، وفي
الصيف عشرة أيام . وغب ذلك يضعونها في مدرس كالحوض ، وبه

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانسـاني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

وكانت هذه الحرفة في الزمن السابق رائجة جداً ، للرغبة في استعماله ، حتى كان لها سوق مخصوص بدمشق ، في محلة العمارة ، يعرف بـ « سوق النطاعين » • ثم على تعاقب الأعوام والسنين تغيرت هيأة ذلك السوق ، ولم يبق من شهرته شيء سوى الجامع والقهوة الموجودين فيه ، والآن يعرفان بجامع وقهوة « اللطاعين » — باللام — •

وقد نسخت هذه الحرفة الآن ، ولم يبق من يعتني بعمل تلك الأطباق إلا بعض القرى • ويتقنها جداً فلاحو الجراكسة من أعمال قضاء القنيطرة ، فهم يعتنون بعمل هذه الاطباق ، ويستعملونها • وتارة يحضرون منها أطباقاً فيبيعونها في دمشق إلى من يرغب بها •

وبالجملة فهي حرفة يحترف فيها البعض من أولئك الفلاحين ، ويقتاتون من أثمانها •

٤١٦- نطَفجي

هو من يصنع ما يلزم الى الدواب، من أرسان ، وراسيات ، وسماطات، وعكل ، وغيرها من أنواع الصوف والقطن التي تصنع باليد •

وهذه الصنعة تابعة لصنعة السروجي ، ويقال لصانعها « نطفجي » ، ولهم دكاكين مخصوصة في سوق السروجية ، مملوءة من الأنواع المار ذكرها ، يبيعونها على من يرغب في مشتراتها •

وهي حرفة تنتج ربحاً موافقاً ، يتعيش منها أناس كثيرون •

٤١٧- نعّال

هو من يتجر بالنعل ، ويبيعه لصناع الصرامي والجزمات وغيرها من جلود الحيوانات ، ليعمل سفلاً للمذكورات •

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائلاستخدامهما لأغراضالانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

مسحوق القلي والزرنيخ والحناء البيضــاء والفلفل والبهــار ، أجزاء متساوية ، يمزجونها بقليل من الدبس ، يدهن بها محل النقش مقدار ربع ساعة ، ثم يغسل ذلك الطلاء ، فيصبح ذلك اللون الأحمر أسودَ قاتماً .

وهو من العادات القديمة بدمشق . وكانت في الزمن السابق هذه الحرفة رائجة جداً ، لكثرة استعمال النقش ، ورغبة الاكثر فيها ، سواء أكان غنياً أو فقيراً . أما الآن فغالب الكبراء زهدوا في الشغف بهــا ، وأصبحت لا تروق في أعينهم . ومع ذلك لم تزل مرغوبة لدى العوام في أطراف البلدة . ومحترفوها من النساء بكثرة ، يتعيشن من كسبها .

٤٢١- نقانــقي هو من يصنع « النقانق » . ولهــا زمن مخصوص ، وهو زمن الربيع ، حيث يكثر الخــاروف بدمشــق ، فتؤخذ أمعاؤه ، فتغسل وتنظف ، ثم تحشى باللحم المفروم والصنوبر ، ثم تقلى بالشيرج والدوّارة ، وتباع لمن يرغب بها . وكثير من الناس يعملها على حسابه . وهو أنه يقطع اللحم ، ويتبله بالصنوبر ، ويأخــذه الى النقانقي ، فيحشيه ويقليه . فاذا كانت على هذه / الصنعة ، فلا بأس بهاء. ١٩١

وهي أكلة لطيفة لذيذة .

وتروج هذه الحرفة في زمن الربيع ، يتعيش بها جملة أناس .

ولبعضهم في ذمها :

لا آكل النقناق دهري ولو ... تقطفه كفي بروض الجنان
لانه يشبــه فيمــا يرى ... أصابع المصلوب بعد الثمان

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون - على ما يظهر - يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

في « بستان القصر » ، تخرجان الماء من النهر المار في ذلك البستان ، وذلك لسقي ذلك البستان ، بالنظر لارتفاع أرض البستان عن النهر . وناعورة أيضاً داخل البلدة ، تعرف بـ « ناعورة سيدي خليل » ، تخرج الماء من النهر المار بجوارها ، تسقي الدور والجوامع التي تجاورها . وبعض نواعير صغيرة في محلات متفرقة . ولكن النواعير التي تخرج الماء من الآبار هي كثيرة ، توجد في غالب قرى دمشق التي لاماء جارياً بها ، فيخرجون الماء بهذه الواسطة ، وذلك لتدوير الحمامات بها ، وهذه الناعورة صغيرة الحجم ، تركب على فم البئر الكبير ، ولها سطول من خشب مربوطة بأحبال من الليف ، ومركبة فوق ذلك الدولاب ، تديرها دابة على مدار ملتصق بذلك الدولاب ، فيخرج الماء ، ويصب إلى مصنع، ثم يذهب إلى الخزانة .

وهي حرفة يتعيش منها أناس كثيرون .

ومما قيل في النواعير :

وكريمة سقت الرياض بدرهـا ... فغدت تنوب عن الغمام الهامع
بلسان محزون ومدمـع عاشق ... ومسير مشتاق وأنّةِ جازع

وقال آخر :

وناعورة قالت وقد حال لونهـا ... وأضلعها كادت تَعُدُّ من السقم
أدور على قلبي لأني فقدتـــه ... وأما دموعي فهي تجري على جسمي

وقال غيره :

وحنّانة من غير شوق ولا وجد ... يفيض لها دمع كمنتثر العقـد
أحن إذا حنت وأبكي إذا بكت ... فليس لنا من ذلك الفعل من بُدّ
ولكنهـا تبكي بغير صبابـة ... وأبكي بإفراط الصبابة والوجد
وأدمعها من جدول مستعارة ... ودمعيَ من عيني يفيض على خدّ

٤٢٤- نويـلاتي هو من يصنع آلة « النول » : وهي مـن الخشب الصلب كـالجوز / ١٩٣ والتوت . فمنهـا خشبتـان بطول ذراعين ونصف ، تسميان بـ « الغرزين » ، وخشبة لأعلاها ، وتعرف بـ « العارضة » ، ومنها « أكتاف النول » ، وشمعتان ، و « بنجه » و « مدّادة » ـ وهي باعلا الغرزين ـ ومن أسفله دفة تعرف بـ «المطواية» وهذ الأشياء مما لا يتم أمر النول ، وشغل الحائك إلا بها .

وقد تقدم الكلام على الحائك في حرفته .

وهي حرفة يتعيش منها من يتعاطاها . والله المسبب .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما من حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحية المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنية وانتشارها ، ولرغبة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقدم أمة عرف عنها أنها استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العالم ، كما يدل على ذلك

حرف الواو

١٩٤

٤٢٧- وتّار

هو من يصنع الأوتار : وهي ماتعمل من أمعاء الغنم. وذلك بأن / تؤخذ من بطن الخروف سخنة ، وتنظف مما فيها ، وتجرد عن الدهن ، وتغسل في قصعة المـاء ، ثم تربط من أطرافها الدقيقة ، وتوضع على حافة القصعة ، بحيث تكون أطرافهـا الدقيقة خارج الماء ، والباقي منها فيه . ويغير هذا الماء مراراً عديدة على يومين ، ليَلينَ ما يلصق بها من الغِشاء . ثم توضع مائدة فوق القصعة، وتخرج الأمعاء من الماء ، وتبسط عليها ، ويحف ظاهرها بقفا السكين ، حتى يسلخ الغشاء عنه ، ويبدأ بأن يسلخ من طرف المعي الدقيق ، لأن سلخه من طرفه الغليظ لا يصح . ويستعمل هذا الغشاء كالخيطـان لتخاط به الأمعاء . وأما الأمعاء المسلوخة فتنقع في ماء جديد ليلـة كاملة ، ثم ترفع منه وتنظف بقفا السكين ، مستديراً على المائدة المذكورة، وتفصل منها الأطراف الغليظة ، وتنقع ــ أي الأمعاء ــ ليلة أخرى في ماء جديد ، وتنقل منه في اليوم الثاني ، وتصب عليها صفوة مصنوعة من أوقية من البوتاس ، وأوقية من البوتاسات المكلسة ، لكل مئة وستين

أوقية من الماء • وتصب هذه الصفوة عليها دفعات متوالية ، كل ساعتين أو ثلاث ساعات دفعة ، وتصب الصفوة القديمة على الأمعاء ، كل دفعة قبل صب الصفوة الجديدة عليها ، حتى تنظف جيداً ، فتعبر بعد ذلك من قمع كشتبان من النحاس مثقوب الطرفين ، ويضغط عليه بالأظافر لتملّس ، ويستوي سطحها ، فتهيأ بذلك لعمل الأوتار على اختلاف أنواعها •

وفي الغالب ، الأوتار ، خصوصاً المعدّة إلى الآلات ، تأتي من البلاد خالصة •

وبدمشق قليل من يحترف بهذه الحرفة • وتصلح تلك الأوتار إلى أقواس المنجدين ، وإلى أنوال صناع الشال •

وبالجملة فهي حرفة يتعيش منها البعض • والله المسبب •

٤٢٨- ورّاق

كان الوراق يطلق قديماً على المجلد، يلصق الأوراق بعضها ببعض ، بجانبي الكتاب • وذلك قبل أن يحدث هذا المقوّى المجلوب من معامله• وقد يطلق الآن على «الظرّاف»، وهو بائع الظروف والورق بأنواعه ــ كما تقدم في حرف الظاء ــ •

ومما قيل في وراق : /

يا حسن وراق أرى خده	قد راقَ في التقبيل عندي ورقّ
تميل في الدكان أعطافه	ماأحسنَ الأغصانَ بين الورقْ!

وقيل فيه أيضاً :

فديتك أيها الوراق قلبي	لمطلك بالوصال يكاد يبلَى
وقد طلب الوفاء ، وغير بدع	محب يسأل الوراق وصلا !

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

وتناية ـ وقرن ـ وطول ـ وعرض » • ثم يكون الحرث إما «كباس» أو « معس » • وهذه الأمور يوضحها لهم الوقاف ، فيأخذ الحراثون باجراء وظيفتهم، حسبما أفهمهم وهو واقف عليهم ، حتى إذا أخلّ / أحد بعمله ينبهه عليه • وعند انتصاف النهار يحلّون أبقارهم ، ويذهبون لمحل بيتهم ، حيث يكون أيضاً مرافقاً لهم ، فيلاحظهم ، من أمر خدمة تلك الحيوانات ، من أمر سقيها وعلفها ومسحها وكنس محل نومها • وينام أيضاً عندهم • ثم يقوم في أثناء الليل مراراً ، فينبه البعض منهم بالدَّوْر ، لأجل تقديم العلف إلى تلك الحيوانات •

١٩٦

ونظير عمله هذا له أجرة سنوية على سيده ، تقوم بأمر معيشته • والله المسبب ، لارب غيره •

٤٣١- وكيل

هو من يقوم بالعمل بمهام موكله ، بجميع مايلزمه ، سواء أكان الموكل عليه من أنواع العقار ، كالدكاكين والحمامات وغيرها ، فيلاحظ أمر تعميرهـا وترميم ما يلزمهـا ، مع الاستحصال على أجورهـا ، حسب الشرط الجاري عند الإيجـار ، إما مشاهرة ، أو نقداً •

وإما أن تكون من أنواع الفلاحة والزراعة، فيلاحظ أمر المصروفات، وما يلزم لذلك المحل من وضع صناع يقومون بالعمل لما يلزم ، ثم جمع الواردات عند خروجها وتقديمها لموكله ، سواء أكان ساكناً في البلدة أو بغيرها •

وهي حرفة شريفة ، غير دنيئة ، يحترف بها أناس كثيرون في دمشق، يتصفون بالأمانة والديانة ، يتوكلون في الغالب لمن لم يكن عنده رجال ،

كالنساء الغنيات ، اللاتي عندهن عقارات يقتضي الحال المحافظة عليها ، وإجراء مايلزم لها من تعمير وترميم ، والاستحصال على أجورها .

وإما أنهم يتوكلون لمن كان ساكناً بغير البلدة ، أو من كان ساكناً وعنده أملاك عظيمة .

وبالجملة فهي حرفة تكسب معاشاً حسنا . ولقد رؤي كثير ممن أثرى منها . فسبحان المعطي الوهاب .

٤٣٢- وكيل الدعاوي هو الأبوكات ، وقد تقدم الكلام عليه أول الكتاب .

حرف لام ألف

٤٣٣- لالا

هو مــربي أولاد الوزراء والأمراء والكبراء •

قال الشهاب الخفاجي : وهو / غير ١٩٧ عربي • وقد استعمله السراج الوراق في قوله :

عارى نعم حبا بلا سفلة   أطربني فيــه الذي قــالا
تربيــة الخــدام هــذا بلا   شك فــلا يخرج عــن لالا

وقال فيه المزين وأجاد :

ومليح لالاه يحكيــه حسنــا   فهو كالبــدر في الدجى يتلالا
قلت : قصدي من الأنــام مليح   هكــذا هكــذا وإلا فلالا

وصاحب هذه الحرفة يستخدم عند الأغنياء الأكابر ، الذين عندهم أولاد ، فيقوم بأمر تربيتهم وخدمتهم بكل ما يلزم ، حتى إذا بلغ الولد السن الذي يدخل فيه المكتب ، فيأخذه ذلك اللالا في الصباح ، ويأتي به في المساء ، ويتعاهده في النهار ، ويتعاهد طعامه وشرابه • وفي أيام التعطيل أيضاً يتعاهده ولا يتركه وحده أبداً ، فيشب ذلك الولد متخلقاً

بأخلاق مرضية ، بخلاف لو ترك لنفسه ، فانه يختلط في الأزقة والأسواق مع الأولاد السيئي الأخلاق ، فتفسد أخلاقه ، ويقصد المحال المرذولة ، مع أشقياء الأولاد ، فيشب على هذه الحالة التعيسة ، ويرتكب المعاصي والموبقات ، وما الباعث إلا عدم القيام من أول الأمر بتربيته وتهذيبه ، وتركه لأهوائه ، يفعل ماتسول له نفسه القاصرة عن درجة الكمال •

فيجب على كل مقتدر على أداء أجرة رجل يربي أولاده أن لا يتأخر عن هذا الأمر المهم ، ويستخير للقيام بهذا العمل رجلاً يكون متصفاً بأنواع صفات الكمال ، ليكون مربياً مرشداً لأولاده ، ويقدم معاش ذلك المربي على طعامه وشرابه ، فيكون خدم ولده وعائلته ، بل خدم الإنسانية •

وبالجملة فان هذه المهنة يتعيش منها أناس كثيرون بدمشق • والله المسبب ، لا رب غيره •

٤٣٤- لاقـــوط

يشترك في ذلك الرجال والنساء ، ويطلق عليهـم اسم « لواقيط » : وهو عند حصد الغلال في القرى ورجدها إلى البيادر ــ وقد تقدم الكلام على ذلك في كل من حرفتي الحصّاد والرجّاد ــ يدور هؤلاء اللواقيط حول الحصّادة والرجّادة ، فيلقطون ما وقع من سنابل الغلة التي لا يمكن الرجاد الحصول عليها ، فيجمع ما يلقطه الشخص في كل يوم ، ويدق تلك السنابل بمدقة من خشب ، فيخرج الحب منها ، ولا يقل مايجمعه النفر في يومه عما يساوي قيمة غرشين ، أو ثلاثة غروش ، يتعيشون منه •

وهي حرفة لفقراء الفلاحين ، يحترفون بها • والله المسبب ، لا رب غيره •

حرف الياء

٤٣٥- ياسرجي

هو دلال العبيد والإماء ، يطلق عليه اسم « الياسرجي » . وكان قديماً من غضب على عبده أو أمته يرسلها حالاً إلى الياسرجي ليبيعها لمن يرغب .

وهذه الحرفة كانت في الزمن السابق رائجة جداً — كما تقدم الكلام على ذلك في حرفة النخاس — وبهذا الزمن نسخت بالمرة .

والحمد لله رب العالمين .

تم الكتاب . وكان الفراغ من هذا التذييل يوم الثلاثاء سلخ ربيع الثاني سنة ١٣٢٥ وبالله التوفيق .

وجد في آخر المسودة ما يلي :

وتم كتابة على يد الراجي عفو ربه حامد بن محمد اديب التقي في جمادى الثانية ١٣٢٥

وفي آخر المبيضة ما يلي :

وقد فرغ من نسخه يوم الثلاثاء الواقع في ٣ شعبان على يد الفقير محمد المجلوب في ميدان الحصا .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

الفهارس

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، تتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

الآيات الكريمة *

---

* الارقام في جميع الفهارس هي ارقام صفحات الكتاب .

الأحاديث الشريفة *

احل ما اكل الرجل من كسبه، وكل بيع مبرور ١٢

احل ما اكل العبد كسب يد الصانع اذا نصح ١٢

اذا ارسلت كلابك المعلمة ، وذكرت اسم الله عليها ، فكل مما امسكن عليك ٢٧٧

اذا رميت بالمعراض فخرق فكله ، وان اصابه بعرضه فلا تأكله ٢٧٧

اذا رميت سهمك فاذكر اسم الله عليه ، فان وجدته قد قتل فكل ، الا ان تجده قد وقع في ماء، فانك لاتدري الماء قتله ام سهمك ٢٧٧

اذا فتح لاحدكم باب من رزق فليلزمه ٤

ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما بين ايدي الناس يحبك الناس ١٨٠

الاسواق موائد الله فمن اتاها اصاب منها ١٤

ان الرقي والتمائم والتولة شرك ٢٣٤

انزعها فانها لا تزيدك الا دهنا ٢٣٦

ان الله يحب العبد المحترف ، ويبغض العبد الصحيح الفارغ ٢٧٤

ان الله يحب المؤمن المحترف ١٣

انما لك من مالك ما اكلت فافنيت ، او لبست فابليت ، أو تصدقت فامضيت ٧

اني لا اعلم شيئاً يقربكم من الجنة ، ويبعدكم من النار ، الا امرتكم به . واني لا اعلم شيئاً يبعدكم من الجنة ، ويقربكم من النار الا نهيتكم عنه . وان الروح الامين نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها ، وان ابطأ عنها . فاتقوا الله،واجملوا في الطلب ١٣

عمل الابرار من الرجال الخياطة ، ومن النساء المغزل ١٣١

غبن المسترسل حرام ٢٤

لا تقولوا هذا ، فانه ان كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ، ويغنيها عن الناس ، فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى على ابوين ضعيفين ، أو ذرية ضعاف ، ويكفيهم ، فهو في سبيل الله ، وان كان يسعى تفاخراً او تكاثراً ، فهو في سبيل الشيطان ١٢

لان يأخذ احدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتي رجلا اعطاه الله من فضله ، فيسأله ، اعطاه أو منعه ١٤

لا يبقين في رقبة بعير قلادة الا قطعت ٢٣٥

لا يسترقون ولا يكتوون ٢٣٤

لقد اوتيت مزماراً من مزامير آل داود ــ خطاباً لابي موسى الاشعري ــ ٤٦٠

لو توكلتم على الله حق توكلكم ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً ٢٥٠

ما امسك عليك فكل ٢٧٧

---

* راجع تخريج الاحاديث ودرجتها في مواضعها .

الامثال وما جرى مجراها *

* أثبتنا منها الفصيح والعامي .

القوافي

ا

ب

ت

ج

ح

د

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ك

ل

م

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

لا

ي

الكتب

الاعلام

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيهما منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

الصناعات

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

الادوات والآلات

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب . ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب . وكان له ما أراد .

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

اسعار

ثمن قنطار الفحم ١٥٠ قرشا ٢٣٦
قيمة الفروة الالا او السمور ٥٠ ذهبا ٢٣٩
ثمن رطل القشطة ١٠ — ٤٠ قرشا ٢٥٢
ثمن القطعة المطبوعة ٣قروش فصاعداً ٢٥٩
ثمن القطعة المكتوبة قد يصل الى ٥٠ ذهبا٢٥٩
ثمن قنطار القطن ١٠٠٠ — ١٢٠٠ قرش ٢٦٠
ثمن العمة الافباني ٥٠٠ قرش ٢٧٥

ثمن ثمنية الكشك ٧ قروش ٢٨٨
ثمن رطل الشرك ٥ — ٦ قروش ٢٩٠
ثمن رطل الكعك ٤ — ٥ قروش ٢٩٠
ثمن رطل البقصماط ٤ قروش ٢٩٠
ثمن رطل اللحم ١٠ — ٢٠ قرشا ٤٠١
ثمن درهم سن السمك ٦٠ بارة — قرشين٤٤٤
ثمن القشة ١ — ٣ قروش ٤٦٤

الاجور

اللباح — له على كل دابة قطعتان من لحمها قطعة من محل ذبحهاوالثانية تسمى«حلاوة» وثمنها خمس بارات ١٥٠

ساعي — من دمشق الى طرابلس ذهابا وايابا ثلاثة ارباع المجيدي

الاكار — ٥ قروش يوميا ٢١٧

البوابة — ٨ قروش يوميا ٢١٩

تهللجي — نفقات التهليلة ٥٠٠ قرش — عشر ليرات ذهبية ٢٢٢

طحان — اذا كان الماء وفيرا فاجرة طحن المد ٢٠ — ٣٠ بارة ، أما اذا كان شحيحا فأجرته قرشان ٢٩١

الطنبورجي — ٥ — ٦ قروش يوميا ٢٩٤

طواب — أجرة الالف ٢٠ قرشا ٢٩٥

طيان — المعلم : ٢٠ قرشا يوميا ٢٩٨

— الصانع : ١٥ قرشا يوميا ٢٩٨

عتال — ٢٠ باره عن كل طرد ٣٠٢

عجائبك عجائب — ٥ بارات ٣٠٣

عجان — عن كل وزنة ٢٠ بارة ورغيفان وقرش

العربجي — ٨ قروش يوميا ٣٠٧

العرضحالجي — قد يصل مورده الى اكثر من ٤٠ قرشا يوميا ٣٠٨

عزاق — ٥ قروش يوميا ٣١٠

العشي — ٣ ليرات ذهبية شهريا . أما العشية فاجرتها ٤ ريالات مجيدية ٣١١

الغسالة — ٣ — ٦ قروش يوميا ٣٢٩

الفاعل — ٧ قروش يوميا ٣٣٣

الفتال — ٥ قروش يوميا ٣٣٥

الفراء — اجرة التفرية ١٠ قروش يوميا فصاعدا ٣٣٩

الفراط — ٤ قروش يوميا ٣٣٨.

فرام التتن — قرش واحد عن كل رطل ٣٣٧

فلاحة — ٦٠ بارة يوميا وطعامها منها ٣٢٩

قانونجي — اجرة الفرقة بكاملها ١٠٠ قرش فاقل في الليلة ٣٤٦

قابلة — مجيدي واحد حتى الليرة الذهبية٣٤٧

قنواتي — ١٥ قرشا يوميا فاكثر ٣٦٥

قهوجي — اجرة الدخول للقهوة ٥ — ٢٠ بارة ٣٦٨

قواص — راتبه الشهري٢٠٠ قرش فاكثر ٣٦٩

قولجي — ١٢٠ قرشا شهريا ٣٧٢

كسار — ١٠٠ بارة على القنطار ٣٨٧

كناس — ٤ قروش يوميا ٣٩٥

كواء — الطربوش ٥ — ٢٠ بارة ٣٩٧

— قطعة الثياب ٤٠ بارة ٣٩٧

لبان — ١٠ بارات عن كل علبة ٣٩٩

Paris. Septembre 1960

M. N. Devaux
chef de travaux à l'Ecole
Pratique des Hautes Etudes

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية ، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب • ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب • وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى ، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام ، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية ، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

INDEX

A

B

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتـاب لا يرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

son but était plutôt de les conduire dans la voie droite, afin que l'égaré retrouve la vérité, que le déviationniste rentre dans le droit chemin.

« Discuter le plus doucement possible », était sa seule façon de prêcher la vérité. Il n'a jamis eu le désir de convertir, ni d'insister avec un dissident, ni de continuer la discussion avec un homme de partis-pris.

11 — Sa mort :

Il meurt dans la soirée du samedi 23 Jumada al-ûlâ 1333/18 avril 1914. On l'enterre au cimetière al-Bâb al-saghîr, à Damas.

CONCLUSION

Voici une vue générale de la biographie de cet homme qui a vécu pour la culture, la vérité et le bien. Il a exercé une profonde influence parmi ses contemporains, collègues et élèves, aussi bien à son époque, que dans celles qui suivirent, sur la renaissance religieuse, islamique ou arabe. Il a été un chaînon dans ce courant d'orientation et de rénovation religieuse, dont la lumière n'a jamais cessé de rayonner dans le monde au cours des siècles. Il a propagé les vérités de la religion, dissipé les légendes et les préjugés qui s'y attachaient.

Z. Q.

vées et publiques, il rend visites à sa parenté, à ses amis, il voyage, etc...

Cette préface n'a pas pour objet d'énumérer les œuvres d'al-Qâsimî, une centaine avons-nous déjà dit, ni de donner un résumé de leurs sujets. On peut se référer à notre livre, dont ce chapitre est un résumé.

10 — **Sa méthode de prédication :**

Il est connu qu'al-Qâsimî avait une langue et une plume chastes. Jamais il n'a blessé ses adversaires, ni en privé ni en public, ni dans ses leçons. Mais il discutait les opinions, s'appuyant sur le Coran, la Sunna, les dires des jurisconsultes, et des sources sûres.

Jamais on n'a vu une méthode de discussion plus calme, plus sereine, ni plus patiente que la sienne.

Quelques uns de ses adversaires venaient chez lui, non pour tirer un profit, de l'explication ou de la discussion, mais pour l'embarrasser. Al-Qâsimî les recevait avec sa vaste patience, et sa profonde culture. L'intrus sortait de sa maison vaincu, plein d'admiration et de considération.

Ses œuvres, d'un nombre remarquable, et dont quelques unes ont été écrites spécialement pour réfuter les idées de ses adversaires, ne contenaient aucune allusion péjorative; il a toujours utilisé un ton de discussion poli et scientifique.

En jetant un coup d'œil sur l'ensemble de l'œuvre, on constate clairement qu'al-Qâsimî en réfutant les idées de ses adversaires, ne cherchait ni à les vaincre, ni à les abaisser, mais que

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطـاء اللغوية والنحوية والصـرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقـد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هـذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيهـا ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلـع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفـات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتـاب لايرى النور الى عـام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التـاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصـر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثـم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعـات الشاميـة » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

« La paresse est un défaut qui entraîne les bassesses et les maux de toutes sortes.

« Celui qui est réputé pour son avarice, son hypocrisie, son esprit de moquerie, son cynisme ou sa vanité, se verra exclu.

« Les actes des hommes pieux remplissent d'amertume les yeux des envieux. Les fanatiques utilisent leurs doctrines erronnées pour diviser les gens.

« La vérité s'évanouit quand on cherche à la démontrer par des injures ou des insultes.

« La vie est une lutte terrible qui se déroule sur une mer de malheurs. L'homme s'y trouve comme l'intrépide à la guerre : s'il échappe au coup de sabre, il n'échappera ni au coup de lance ni à la flèche.

« L'Islam ne permet pas la guerre pour la guerre. Il prohibe l'agression, mais fait un devoir de propager sa doctrine; il faut combattre celui qui s'y oppose, si faire se peut, jusqu'à ce qu'il y adhère; ou jusqu'à ce que les Musulmans aient le pouvoir, qui leur permettra de répandre l'Islam sans opposition.

« Le vêtement est une chose naturelle, la religion ne le condamne que lorsqu'il y a atteinte à la morale.

« La politique consiste à supporter le mal, à se familiariser avec les dangers et les difficultés, à se résigner pour se montrer souple, et à savoir attendre les occasions et les circonstances favorables.

« La condition de l'homme ne doit pas être inférieure à celle des végétaux : ils grandissent et l'homme se rapetisse.

« Le sage ne doit pas se montrer fanatique dans la défense de son opinion personnelle, car elle peut être fausse ou juste.

« Osman avait raison en exilant Abou Dharr al-Ghifarî, car prêcher la

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة • وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، ألا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما •

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق • وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته • أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم • والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب• ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها •

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون • وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » • فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب• وكان له ما أراد •

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية • وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين • ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

talité de l'homme et sa méthode de raisonnement. En voici quelques unes :

« La religion est une école de morale, [1] *elle invite à l'union et non à la division.* [2] *La raison est la preuve indiscutable de Dieu; la Tradition n'est pas en contradiction avec la raison.* [3] *Les ʿulamâ, (jurisconsultes) sont d'accord pour dire que, s'il y a contradiction entre la raison et la Tradition, il faut interpréter la Tradition à la lumière de la raison... »* [4]

« La porte de la discussion et du dialogue est ouverte sur tous sujets, même sur des textes comme les deux Çah'ihs, malgré leur grande valeur. Enchaîner la raison pour qu'elle cesse d'étudier et de méditer constitue le plus grand coup qui puisse être porté à la recherche, puisque la vérité procède de l'étude ». [5]

« La liberté de la science et de l'opinion exige qu'on publie généreusement une pensée ou une idée, non pas en chuchotant, mais d'une voix forte et efficace dans les réunions et les mosquées, sans crainte, clairement ». [6]

«Pour discerner la vérité, il faut connaître les détails du litige et les analyser, en rejetant toute idée préconçue : imitation, parti-pris, hypocrisie ou ferveur ». [7]

« La vérité n'est pas exclusivement dans telle ou telle parole, dans tel ou tel rite, d'autant plus que Dieu a multiplié les mujtahidîn dans la Umma... ». [8]

« Le but de la réforme scientifique visée par l'« ijtihâd » n'est pas de créer un rite déterminé, ni de prôner exclusivement ce rite, mais plutôt d'é-

---

(1) Dalâ'il al-tawh'îd, p. 134 .
(2) Iqâmat al-hujja, p. 4 .
(3) Dalâ'il.., p. 129 .
(4) Op. cit., p. 3 .
(5) Al-ajwiba al-murd'iyya, p. 6 .
(6) Naqd al-nas'ih' al-kâfiya, p. 24 .
(7) Id., p. 24.
(8) Al-isti'nâs, p. 24.

« la Société de la Renaissance syrienne n'a été fondée que grâce à son encouragement et à celui du chaykh ʿAbd'ul Razzâq al-Bîṭ'âr; qu'ils en sont tous deux les promoteurs; que cette société est similaire à d'autres existant dans d'autres pays, comme le Yémen et le Najd; qu'elle réclame l'indépendance administrative; et qu'elle vise à créer la confusion dans les affaires intérieures en réclamant un Gouvernement arabe; que ces deux chaykhs entretiennent une correspondance et des relations avec les princes du Najd, ainsi qu'avec le prétendant « Mehdi » au Yémen; que le chaykh T'aher al-Jazâ'irî incite ce prétendant au soulèvement, car il est comme lui maghrébin. Qu'est-ce que le rite des Wahhabites, quel est le nombre de ses adhérents à Damas etc... »[1]

Si nos renseignements sur ce grand événement historique sont limités à ces quelques lignes, par suite de la perte du dossier, et parce que les contemporains encore vivants ne s'en souviennent plus, il y a là tout de même une preuve de la gravité des accusations qui auraient pu entraîner la peine de mort, ou le martyr pour Al-Qâsimî.

C'est ainsi que vit Al-Qâsimî, avant et après la Constitution, en butte à l'oppression, à cause de ses idées libres et de ses pensées courageuses.

On pourra apprécier les aspects de sa parfaite liberté d'esprit au cours de notre étude sur ses idées.

8 — Ses idées et ses pensées :

Nous avons réuni, dans ce chapitre, quelques unes des pensées de Al-Qâsimî, prises çà et là dans ses ouvrages. Ces maximes, rédigées par lui-même, ne sauraient dispenser de se référer aux sources, mais nous donnent une idée sur la men-

(1) Journal (manuscrit), 14 ramad'ân 1327 / 28 juiliet 1909 .

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ــ التاريخ الاجتماعي ــ فهلا سعيت بطبع

En 1224/1906, il se passionne pour la philologie. Il cherche l'étymologie de quelques mots arabisés dans leurs langues d'origine : grec, syriaque, hébreu, persan, copte, allemand, italien, français, etc...[1]

Il prend son bien à toutes les sources du savoir; la divergence de religions, sectes, croyances ou rites, ne constitue pas pour lui un obstacle. Sa liberté de pensée lui permet de parcourir les œuvres des grands esprits de maintes nations, malgré la disparité de race ou de religion.

7 — **Ses persécutions pour la liberté :**

Al-Qâsimî met sa foi dans la liberté et la considère comme sacrée; il aime les hommes libres, admire les héros qui ont lutté pour elle et travaillé à son établissement. Toute sa vie, il soutient qu'humanité et liberté sont inséparables.

Dès sa prime jeunesse, ses compagnons voient en lui un homme libre de tous préjugés, ayant foi dans l'autorité de la raison et dans la liberté de pensée. Ceci n'échappe pas aux gouverneurs de l'époque. C'est pourquoi ils lancent contre lui, encore tout jeune, une grave accusation : celle d'*ijtihâd*, de « dépassement », d' « effort catégorique ». Avec un groupe d'ulémas, il est appelé à comparaître devant une cour spéciale. Après les dépositions, tous sont libérés, sauf al-Qâsimî, qui reste détenu une nuit par la Police, et qu'on libère le lendemain matin. Ceci se passe en 1313/1897 : il a trente ans.

Al-Qâsimî décrit les débats dans son autobiographie : il semble bien que c'est là l'événement le plus important en Syrie.

(1) Journal (manuscrit), pour 1324 / 1906 .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة . أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانـساني بطيء كل البطء .

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى . وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها . هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها .

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير .

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها . وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا .

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها . ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانسـاني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ــ على ما يظهر ــ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

s'y trouve comme l'oiseau chantant en dissonance parmi ses congénères, étranger à ses concitoyens. Tous ces facteurs puissants réunis furent peut-être le moteur qui le poussa en avant, le persuada de la sainteté de sa mission, de la nécessité de l'accomplir et de lui donner la plus large des publicités.

6 — Sa culture générale :

Al-Qâsimî acquiert ses permières connaissances suivant la méthode courante à son époque. Ensuite, les horizons s'élargissent devant lui : il se replie sur sa bibliothèque privée, créée par son père et son grand-père, s'abreuvant à la source même de la science. Puis il participe au mouvement culturel sous tous ses aspects, s'efforçant à saisir la connaissance sous tous ses modes. Sa bibliothèque et son œuvre témoignent de l'étendue de ses curiosités.

Aucun des deux mille volumes de cette bibliothèque qui ne porte sa marque : correction ou glose. A côté du Qur'ân et de la Sunna, de livres de *fiqh*, de philologie, de mysticisme, d'histoire, des fondements du droit, etc..., on y trouve des ouvrages sur l'ancienne et la nouvelle philosophie, des traités de sociologie, de droit comparé, des livres de diverses sectes musulmanes... Egalement, une collection de près de cent ouvrages sur d'autres religions, comme le Judaïsme et le Christianisme.

Quant à ses œuvres, outre le Commentaire du Qur'ân, de la Sunna, et des fondements du droit, on y dénombre un livre sur l'histoire de Damas, une étude sur les *djinns*, un ouvrage sur le thé, le café et le tabac, un article sur le cœur, un traité sur les preuves de l'unité de Dieu, un autre sur l'étiquette et la morale, etc..., d'autres encore (cf. la liste de ses œuvres).

d'obscurité et d'inertie qui facilitait aux gouverneurs et aux exploiteurs l'exercice de leur tyrannie.

La vie religieuse était à l'image de la vie culturelle : fossilisation de tout ce qui était ancien; livres à feuillets jaunes : seuls manuels des élèves d'alors, textes souvent récités sans comprendre, notes et commentaires augmentant encore l'incohérence et la confusion dans l'esprit des élèves.

Un conformisme aveugle enchaînait les cerveaux : les livres de la Tradition n'étaient lus que pour en tirer bénédiction, les commentaires du Qur'ân interdits aux initiés, à plus forte raison au public. Les gens ne lisaient que des livres de *fiqh*, rédigés par les Anciens. Les livres de philologie, de grammaire, de réthorique, de littérature, etc..., ne constituaient pas pour les élèves une étude intrinsèque, mais un instrument pour comprendre le Qur'ân et la Sunna.

Les congrégations étaient, à l'époque, à l'apogée de leurs activités. Quelques théologiens y adhéraient. Ils réunissaient les gens du commun autour d'eux et les empêchaient d'œuvrer utilement à l'édification d'une bonne communauté musulmane. La vie sociale était aussi nulle. Ni clubs, ni sociétés de réforme, ni cercles, pas même d'associations de bienfaisance !

La femme, qui constitue la moitié de la société, en était absente. Sa contribution au service commun n'excédait pas le foyer.

C'est dans cette atmosphère étrange et étouffante, arriérée dans toutes les branches de la vie, qu'Al-Qâsimî est élevé. Il

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقــدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مــن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيــة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس، ومعرفةوسائل استخدامهما لأغراض الانسان، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثــم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيــة وانتشارها ، ولرغبــة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقــدم أمة عرف عنها أنهــا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العــالم ، كما يدل على ذلك

justice, enfin les encouragements prodigués par son père, lui feront une bonne et solide jeunesse.

Il commence ses études selon la méthode des anciens. « *Tout d'abord, il lit le Qur'ân auprès du chaykh ᶜAbd el-Rah'mân al-Maçri, ensuite, il apprend à écrire auprès du chaykh Mah'mûd al-Qûçî, pieux Turc résidant à Damas. Il se rend ensuite à l'école Z'âhiriyya, où son maître, le chaykh Rachîd Qazihâ, lui enseigne les principes de la théologie, de la syntaxe, de la grammaire, de la logique et de la rhétorique, ainsi que la versification, etc... Il s'initie ensuite, auprès du chef des récitants coraniques, le chaykh al-H'alawânî, à l'art de la psalmodie* ».

« *Il suit assidûment les leçons du chaykh Salîm al-ᶜAt't'âr, pour assister à des lectures organisées de livres : le Commentaire des exceptions, Ibn ᶜAqil, Charh al-Qat'r, le Mukhtaçar d'al-Saᶜd, Jamᶜ al-jawâmiᶜ, le Tafsîr d'al-Bidâwî...* » .

« *Auprès de al-ᶜAt't'âr, il étudie ainsi quelques parties de Al-Bukhârî, et assiste à ses leçons sur al-Mouwàt'a', al-Chifâ, Maçabîh' al-Sunna, al-Jâmiᶜ al-çaghîr, al-T'arîqa al-Muh'ammadiyya, d'autres encore* ».

On peut aussi citer parmi ses maîtres : le chaykh Bakrî al-ᶜAt't'âr, le chaykh Muh'ammad al-Khânî, et l'oncle maternel de son père, le chaykh H'asan Joubaynah, connu sous le nom d'al-Dusûqî. De tous, il obtient une licence.

4 — <u>Son enseignement et son imâmat</u> :

A 14 ans, al-Qâsimî commence à enseigner les principes élémentaires des sciences. Il assiste son père, au cours de sa prédication à la Mosquée al-Sinâniyya, jusqu'en 1303/1887.

De 1309/1893 à 1312/1896, il est chargé de donner des prédications, au cours du mois de Ramad'ân à Wâdî al-ᶜAjam,

Jamâl al-Dîn al Qâsimî [1]

1 — Naissance. 2 — Généalogie :

« Né dans la matinée du lundi 8 jumâdâ'l-ûlâ 1283/17 septembre 1866 à Damas, Muh'ammad Jamâl al-Dîn Abû'l-Faraj, fils de Muh'ammad Sa'îd, fils de Qâsem ibn Çâlih', fils de Ismâ'il, fils de Abû Bakr, est connu sous le nom de « Al Qâsimî », par référence à son grand père, Imâm de Damas en son temps, le Chaykh Qâsem, dit al-H'allâq, entre tous ses aïeux celui qui a le plus profondément servi la cause de la science. » (2)

3 — Développement; ses maîtres :

Al Qâsimî grandit dans une maison réputée pour sa piété et sa culture. Son père, juriste, lettré goûtait la musique en connaisseur des rythmes, et possesseur d'une voix juste. Une telle atmosphère familiale est saturée de révérence et de solennité religieuse, du sentiment du destin et du magistère selon la foi. Mais elle offre aussi le lustre des lettres, et leur pureté. La musique vient la tempérer, de sa douceur et de son charme. C'est dans un tel milieu qu'al-Qâsimî voit le jour.

Ces facteurs, sa nature formée aux notions de bien et de

---

(1) Résumé du livre « Mon père Jamâl al-Dîn al Qâsimi », en préparation

(2) Tous les passages entre guillemets son extraits de l'autobiographie d'Al-Qâsimî .

J. AL-QASIMI K. AL-AZEM

DICTIONNAIRE
DES
METIERS DAMASCAINS

TOME 2

Edité et précédé d'une introduction

par

ZAFER AL-QASIMI
ANCIEN BATONNIER

PARIS MOUTON & Co. LA HAYE

1960

ECOLE PRATIQUE DES HAUTES ÉTUDES - SORBONNE
SIXIÈME SECTION : SCIENCES ÉCONOMIQUES ET SOCIALES

LE MONDE D'OUTRE-MER PASSÉ ET PRÉSENT

DEUXIÈME SÉRIE

DOCUMENTS

III

PARIS MOUTON & Co. LA HAYE

1960

قاموس الصناعات الشامية / تأليف محمد سعيد القاسمي، جمال الدين القاسمي، خليل العظم؛ تحقيق ظافر القاسمي. ـــ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨. ـــ ٢ ج في ١ مج. (أ ـــ و، ٥٣٥ + 62 ص.)؛ ٢٥ سم.

بآخرة فهارس متنوعة.

١ ـــ ٦٨٠ ق أ س ق ٢ ـــ العنوان ٣ ـــ القاسمي ٤ ـــ القاسمي ٥ ـــ العظم ٦ ـــ القاسمي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـــ ٦٠ /١/ ١٩٨٨

رقم الاصدار ٣١٢